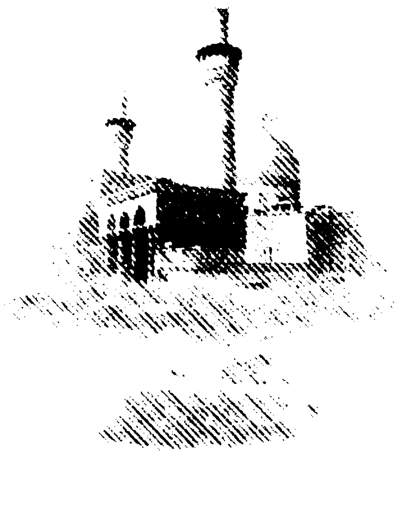
مناهل الأُدباء وحديقة الخطباء

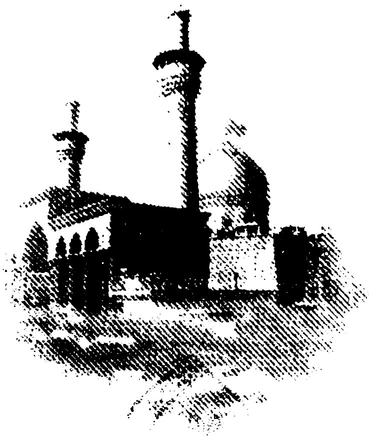


السيد محمد السيد علوي آل ادريس

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين





مناهل الادباء
وحديقة الخطباء

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: مناهل الأدباء وحديقة الخطباء

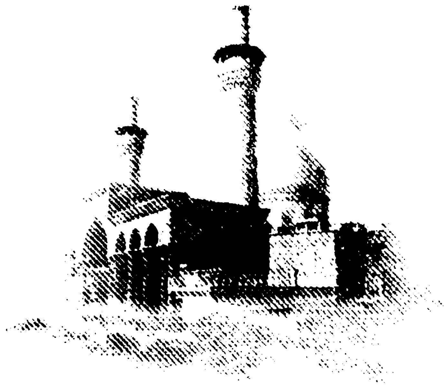
تأليف: السيد محمد السيد علوي آل إدريس

الناشـــــر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

الطبعة الأولى: ذي القعدة/١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

لبنان/بيروت/الغبيري ص ـ ب ٢٥/٢٧٨

info@Omalqora.com



مناهل الادباء وحديقة الخطباء

السيد محمد السيد علوي آل ادريس

أم القرى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم سماحة الشيخ حسن بن موسى الصفار

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين.

نهـض المنـبر الحسيني في مجتمعاتنا ولا يزال بدور هام كبير، على صعيد تركـيز الحالة الإيمانية الدينية، وتكريسها في نفوس أبناء المجتمع، وتوثيق الولاء والارتـباط بـالدين، ومـناراته الهادية مـن أهـل البيـت عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وكـان المنـبر الحسـيني هـو المصـدر الأسـاس للتوجـيه والإرشـاد الديني والأخلاقـي، فمـن عطائـه يـأخذ المؤمنون معالم دينهم، من معتقدات وأحكام وآداب.

كمـا كـان منـبعاً للـثقافة العامـة، حيـث يسمع الناس من على أعواده أحـداث الـتاريخ، وسـير العظمـاء، وطرائف الحكمة، ونوادر الشعر والأدب. وخاصـة بالنسبة لأجيال مجتمعاتنا السابقة، والتي كانت تفتقد قدرات وأدوات التثقيف الذاتي، لانتشار الأمية وغياب وسائل المعرفة.

إلى جانـب ذلـك كـان المنـبر الحسيني محوراً لاجتماع الناس والتفافهم، وتأكـيد ترابطهم وتماسكهم الاجتماعي، حيث يحتشدون في المناسبات الدينية،

كأيام عاشوراء، وذكريات وفيات الأئمة عليهم السلام ومواليدهم، من مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية، حول منبر الحسين عليه السلام، ويصغون إلى ما يلقيه الخطيب.

وحتى في أتراحهم وأفراحهم يكون المنبر الحسيني محوراً لاجتماع الناس وتلاقيهم، حيث تقام مجالس العزاء والفاتحة على المتوفى، ومجالس المواليد والمدائح للمتزوج واحتفالات الأفراح.

من هنا أصبح لخطيب المنبر الحسيني دور اجتماعي مميز، وموقعية دينية محترمة، لارتباطه الواسع بأفراد المجتمع وعوائله وشرائحه، ولتأثيره الفكري والعاطفي على النفوس، ولما يمثله من حالة رمزية على المستوى الديني والاجتماعي. بالطبع تتفاوت موقعية الخطيب وتأثيره تبعاً لتفاوت مستويات الخطباء، في معارفهم واتقانهم لفنون الخطابة، وامتلاك الخصال الشخصية، وأخلاقيات التعامل السلوكي.

ومع تطور أوضاع المجتمع، وتقدم مستوى المعرفة والوعي، والانفتاح على وسائل الإعلام والتثقيف والمعلومات، فإن دور الخطيب والمنبر الحسيني، أصبح أكثر خطورة، وأكثر صعوبة. إنه يواجه الآن تحدٍ كبيراً، في المحافظة على موقعيته وتأثيره، فجمهور المستمعين لم يعد حشداً من الأميين البسطاء، بل أصبحت أكثريته متعلمة، من بينها نخبة مثقفة واعية، وهي تتوقع من خطيب اليوم طرحاً علمياً موضوعياً، وليس مجرد إثارات عاطفية، كما تتطلع إلى الجديد والتجديد، فلا تقبل من الخطيب اجترار موضوعاته وتكرارها.

وجمهور المستمعين اليوم في أذهانهم تساؤلات فكرية وثقافية، حول معارف الدين وأحكامه، بسبب الاحتكاك بالثقافات الأخرى، وتطورات

قضايا الحياة.

وبانفتاحهم على آفاق العلم والمعرفة، عبر وسائل الاتصال المتقدمة، كقنوات البث الفضائي، وشبكة الإنترنت العالمية، فإنهم يقارنون بين مستوى طرح الخطيب وما يطلعون عليه في تلك الآفاق.

وأصبح المجتمع يواجه مشاكل وتحديات عديدة، على مختلف الأصعدة الحياتية والمعرفية والسلوكية، والمتوقع من المنبر والخطيب الإسهام في معالجة هذه المشاكل، ومواجهة التحديات القائمة.

وذلك يتطلب من الخطيب وعياً شاملاً، وثقافة واسعة، ومتابعة للتطورات، والتزاماً بالمسؤولية الدينية والاجتماعية.

لقد نهض الجيل السابق من خطباء المنبر بمسؤولياتهم، وقاموا بأدوارهم، حسب الإمكانات والقدرات المتاحة لهم، ووفق المستوى الفكري والاجتماعي الذي كانوا يعايشونه، فحفظوا للمجتمع هويته الدينية، وحافظوا على أجواء الخير والصلاح، جزاهم الله خير الجزاء على جهودهم ودورهم الولائي الكبير.

والأمانة الآن بيد الجيل الجديد من الخطباء في ظرف صعب، وأوضاع معقدة، وأمام تحديات خطيرة، تجعل مجتمعاتنا على مفترق طرق، بين تمسكها بقيمها الدينية، وأصالتها المبدئية، أو الضياع في متاهات الانحراف ونزعات التوجهات المادية، والسقوط الأخلاقي، وتدهور الأمن الاجتماعي.

* * *

ومن الخطباء الرواد الذين كرسوا حياتهم ووجودهم في خدمة المنبر الحسيني، وتوجيه المجتمع واصلاحه، الخطيب الفاضل السيد محمد بن السيد علي

بن السيد علوي آل إدريس حفظه الله.

فقد ولد سنة ١٣٤٢هـ في مدينة صفوى إحدى مدن القطيف من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية.

وسلك طريق الخطابة في وقت مبكر من حياته، وهو في العاشرة من عمره، حيث تتلمذ على يد خاله الخطيب السيد هاشم بن السيد طاهر آل المير (توفي سنة ١٣٩٧هـ).

درس قواعد اللغة العربية على يد الخطيب السيد هاشم بن شرف آل المير (١٣٢٧ـ١٣٨٧هـ). وهاجر إلى النجف الأشرف لدراسة العلوم الإسلامية سنة ١٣٨٢هـ إلى سنة ١٣٨٩هـ حيث تتلمذ على يد نخبة من الفضلاء كالشيخ علي المرهون والشيخ محمد تقي المعتوق والشيخ حبيب الظالمي والشيخ حبيب الطريفي والشيخ محمد آل عطية الأحسائي.

عرفته مجالس القطيف والأحساء، بمختلف مدنهما وقراهما، خطيباً واعظاً، يمتاز برقة الصوت، وإثارة عواطف الولاء لأهل البيت عليهم السلام، كما تتسم مواضيع خطابته بالحيوية والتنويع، التي تشدّ المستمع وتهيئه للتأثر بالموعظة والإرشاد.

فهو حينما يطرح موضوعاً أخلاقياً ـ مثلاً ـ يثريه بالقصص التاريخية، ويزينه بالنصوص الدينية، ويستشهد له بطرائف الحكم والأمثال، ويستعين بمقتطفات من أقوال العلماء والأدباء، وذلك ناتج عن اهتمامه بالمطالعة الدائمة، والتحضير الجيّد لموضوعاته.

ويضم هذا الكتاب (مناهل الأدباء وحديقة الخطباء) الذي بين يدي القارئ الكريم، مجموعة من الخطابات والمجالس، التي كتبها خطيبنا الفاضل

السيد أبو ياسين، كتحضيرات لإلقاءاته، ضمن سنوات ممارسته الخطابية الطويلة، التي امتدت سبعين عاماً حتى الآن، حيث بدأ الخطابة سنة ١٣٥٢هـ، ولا يزال يعتلي أعواد المنابر رغم تقدم سنه، وابتلائه ببعض الأمراض، لكن جمهور المؤمنين لا يسمح له بالتقاعد عن هذه الخدمة الدينية الجليلة، أطال الله عمره ومتعه بالصحة والعافية.

وإلى جانب دوره الخطابي، يملأ السيد أبو ياسين فراغاً كبيراً في بلدة صفوى، بالتصدي لقضايا الناس الدينية والاجتماعية، فهو إمام جماعة يواظب على إقامتها، وهو مأذون شرعي من قبل محكمة الأوقاف والمواريث في القطيف، لاجراء عقود الزواج، وهو وكيل مجاز من المرجعية الدينية، (سماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني)، لاستلام الحقوق الشرعية، وصرف قسط منها في مواردها المقررة، وهو وجه اجتماعي بارز، يُقصد في إصلاح ذات البين، ومشاكل المجتمع، وقضايا البلاد.

ولديه موهبة أدبية وظفها في مدح أهل البيت عليهم السلام ورثائهم، وفي خدمة المجتمع، والإشادة بأعلام الدين، لكن أكثر شعره باللغة الدارجة، وقد طبع جزءاً من ديوانه تحت عنوان (الذخيرة المحمدية) في النجف الأشرف قبل ثلاثين عاماً.

وإذ أقدم لهذا الكتاب استجابة لطلب مؤلفه الكريم، لأرجو أن يستفيد منه إخواني وزملائي الخطباء والواعظون، في الاهتمام بتحضير موضوعات خطاباتهم، وإثرائها بالمعلومات المختلفة المتنوعة، وإعطائها سمة الحيوية والجاذبية، لتحقق أهدافها في التأثير على النفوس والقلوب.

شكر الله سعي سيدنا المؤلف، وأجزل له الثواب، ومتعه بالعمر المديد، وكمال الصحة والعافية، ووفق الله جيلنا الجديد من الخطباء لتحمل مسؤولياتهم الخطيرة في هذا العصر، وللارتقاء بالمنبر الحسيني إلى مستوى التحديات المعاصرة.

والحمد لله رب العالمين

حسن بن موسى الصفار

١٤٢٣/٥/٩هـ

من مقدمة الكتاب

• الخطيب الفاضل السيد محمد بن السيد علي بن السيد علوي آل إدريس.

• ولد سنة ١٣٤٢هـ في مدينة صفوى إحدى مدن القطيف من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية.

• سلك طريق الخطابة في وقت مبكر من حياته وهو في العاشرة من عمره حيث تتلمذ على يد خاله الخطيب السيد هاشم بن السيد طاهر آل المير (توفي سنة ١٣٩٧هـ). ودرس قواعد اللغة العربية على يد الخطيب السيد هاشم بن شرف آل المير (١٣٢٧ـ١٣٨٧هـ). وهاجر إلى النجف الأشرف لدراسة العلوم الإسلامية سنة ١٣٨٢هـ إلى سنة ١٣٨٩هـ حيث تتلمذ على يد نخبة من الفضلاء.

• عرفته مجالس القطيف والأحساء بمختلف مدنهما وقراهما خطيباً واعظاً يمتاز برقة الصوت وإثارة عواطف الولاء لأهل البيت عليهم السلام كما تتسم مواضيع خطابته بالحيوية والتنويع التي تشدّ المستمع وتهيئه للتأثر بالموعظة والإرشاد.

• يضم هذا الكتاب مجموعة من الخطابات والمجالس التي كتبها خطيبنا الفاضل السيد أبو ياسين كتحضيرات لإلقاءاته ضمن سنوات ممارسته الخطابية الطويلة.

الشيخ حسن الصفار

يـا بـنَ الـنبيِّ وابـنَ الوصيِّ وفاطِمٍ وأبـــا الأئمـــةِ تســـعةٍ مُتَوالـــية
الخـــادمون لهـــم تَقَـــاعُدُ خِدْمَـــةٍ بَـــاقي الحـــياةِ لهـــم رواتـــب كافـــية
وتقـــاعُدي أبقـــى إلـــيكم خادمـــاً طُـــولَ الحـــياةِ مُمَـــتَّعاً بالعافـــية
فَـــامْدُدْ يَدَيْـــكَ إلـــيَّ يـــا بْـــنَ مُحَمَّـــدٍ لأعـــيشَ في خَـــيْرِ حَـــيَاةٍ راضـــية
وأفُـــوزَ بالدُّنـــيا وبالأُخْـــرَى معـــاً في جَـــنَّةٍ ولهـــا قُطُـــوفُ دَانـــية
مـــا خَـــابَ مَـــنْ بِكُـــم تَمَسَّـــكَ سيدي فَـــاعْطِفْ عَلَـــيَّ بِـــنَظْرَةٍ هَـــيَ كافـــية
فـــيها الشّـــفا فـــيها الغِـــنَى فـــيها الهنا والفـــوزُ فـــيها في الجـــنان العالـــية
يـــا ربِّ بَلِّغْـــنِي مُـــنَايَ بِحَقِّهِـــم هُـــم سَـــادَتِي وهُـــمُ الحُصُـــونُ الوَاقية
واخْـــتِمْ إلـــيَّ بِمِيْـــتَةٍ محمـــودةٍ مـــن فـــوقِ أعـــوادِ الحُســـينِ الســـامية
أو في صـــلاتي بعـــدَ آخـــرِ ســـجدةٍ شُـــكراً إلـــيك مودِعـــاً للفانـــية
واغْفِـــرْ ذُنُوبـــي كلَّهـــا يـــا ســـيدي يـــا أكـــرمَ الكُـــرَماءِ أنـــتَ رجائـــية
واسْـــقِنِي لشـــيعَتِهم غـــداً من حَوْضِهم مـــن كَوْثَـــرِ أبـــو الأئمَّـــةِ ســـاقية
ثـــم الخُلُـــودُ مـــعَ الـــنبيِّ وآلِـــهِ في جَـــنَّةِ الفُـــردَوسِ تِلْـــكَ الباقـــية
وخِـــتَامُها أُهـــدي الصـــلاةَ لأحمـــد ولآلِ ســـاداتِ القُـــرُونِ الماضـــية

محمد السيد علي علوي آل إدريس

الخمر(١)

قولــه تعـالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

الظاهـر من السُّكَر هنا كل شراب مسكر خمراً كان أو غيره، ولكن الآية لا تومـئ مـن قريـب أو بعـيد إلى حكم المسكر وأنه كان حين نزول هذه الآية حـلالاً أو حـراماً، وإنمـا حكـت الآيـة عـن عادة الناس من أنهم يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب شراباً مسكراً.

أمـا الرزق الحسن فالمراد به التمر والرطب والزبيب والعنب والخل وما إلى ذلك.

وجـاء في بعـض الـروايات أن المقصـود بالمسكر في الآية ما كان حراماً. وبالـرزق مـا كـان حـلالاً[٢]. وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: السكر ما حرم من ثمرها، والرزق الحسن ما أحل من ثمرها[٣].

وقـد أخطـأ مـن تعلق بهذه الآية في تحليل النبيذ لأنه سبحانه إنما أخبر عـن فعـل كـانوا يتعاطونه فأي رخصة في هذا اللفظ؟! والوجه في أنه سبحانه

---

(١) النحل: ٦٧.

(٢) تفسير الكشاف ٤: ٤٨٠، في تفسير سورة النحل آية: ٦٧.

(٣) مجمع البيان ٦ : ١٧٥ ، في تفسير سورة النحل آية : ٦٧.

أخبر أنه خلق هذا الثمار لينتفعوا بها فاتخذوا منها ما هو محرم عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي دلالة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله تعالى ويتفكرون فيه.

بيّن الله سبحانه أنكم تستخرجون من الثمرات عصيراً يخرج من قشر قد اختلط به، فكذلك الله يستخلص ما تبدد من الميت مما هو مختلط به من التراب.

وتقول آية مائتين وتسع عشر من سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

الخمر لغة منقول من مصدر خمر، خمر الشيء: بمعنى ستره وغطاه، وخمرت الجارية: ألبستها الخمار. والوجه في النقل أن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه. والمراد بها هنا كل مسكر.

والميسر: القمار، مأخوذ من اليسر وهو السهولة لأنه كسب بلا مشقة[2].

---

(١) تفسير الكشاف ١: ٣٢٧ في تفسير سورة البقرة آية: ٢١٩ وسميت خمر لتغطيتها العقل، وفي لسان العرب ٤: ٢٥٥، في تسمية الخمر خمراً: لمخامرتها العقل والخمر: ما خمر العقل، وهو المسكر من الشراب، وتخمرت بالخمار واختمرت: لبسته، وفي مجمع البيان ٢: ٧٩ بلفظ الخمر: أصله الستر.

(٢) مجمع البيان ٢ : ٨١ بلفظ : الميسر : وهو القمار.

حكم الخمر:

سأل بعض المسلمين عن حكم الخمر والقمار ـ وكان السؤال بالمدينة أي بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة من تاريخ الدعوة الإسلامية، ويدل هذا على أن حكمها كان مسكوتاً عنه أمداً طويلاً كما سكت عن حكم بعض المحرمات إلى وقت البيان حسبما تقتضيه المصلحة، وقد تستدعي الحكمة الرفق والتدريج في بيان الحكم. وقيل: إن بيان حكم الخمر من هذا الباب؛ لأن المسلمين كانوا قد ألفوها في الجاهلية فلو منعوا عنها دفعة واحدة لشق ذلك عليهم ـ فأمر اللّه نبيه الأكرم أن يجيبهم بأن ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

وهذا الجواب بمفرده لا يدل على تحريم الخمر صراحة لأنه لم يقل: الخمر حرام، ولكن يدل عليه بالالتزام لقاعدة درء المفسدة أولى من جلب المصلحة، والأهم مقدم على المهم.

غير أنه إذا لاحظنا الآية ٣٣ من سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وعطفنا هذه الآية على الآية التي نحن بصددها وجمعناهما في كلام واحد تكون الدلالة على التحريم صريحة وقطعية أيضاً؛ حيث تأتي النتيجة هكذا: الخمر إثم وكل إثم حرام فالخمر حرام. هذا بالإضافة إلى الآية ٩٠ و ٩١ من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ

وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أمر بالاجتناب والأمر يدل على الوجوب. وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ظاهر في النهي لأن معناه: انتهوا؛ والنهي يدل على التحريم. ولذا قال المسلمون بعد سماع هذه الآية: انتهينا.

أما الآية ٤٣ من النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ فقد نزلت قبل آية المائدة التي هي أشد وأغلظ، وأن الحكمة ربما تستدعي التدريج في بيان التحريم، على أن ﴿لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ لا دلالة فيها على حلية الخمر في غير الصلاة.

هذا إلى أن المسلمين منذ الصدر الأول إلى اليوم قد أجمعوا كلمة واحدة أن الخمر من الكبائر، وأن من استحلها فليس بمسلم، ومن ارتكبها متهاوناً فهو فاسق، ويحد بثمانين جلدة.

وقد تواتر عن الرسول الأعظم ﷺ أنه لعن غارسها وعاصرها وبائعها وشاربها وساقيها(١).

وفي بعض الأخبار أو الآثار: أن ما من شريعة سماوية إلا ونهت عن

---

(١) اشارة الى ما روي عن زيد بن علي، عن آبائه عليهم السلام: لعن رسول الله ﷺ الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وساقيها وآكل ثمنها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه. الكافي ٦: ٤٠٥ ح ١٠، وقول أبي جعفر عليه السلام قال: لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: غارسها وحارسها وبائعها وشاربها والآكل ثمنها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها. الكافي ٦: ٤٣٧، ب (٣٥) النوادر، ح٤، وبحار الأنوار ٧٦: ١٢٦، ح٥ مثله.

الخمر(١).

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ والمراد بالإثم هنا الضرر. ويظهر ضرر الخمر في الجسم، والعقل، والمال، وفي الصد عن ذكر اللّٰه، وفي الخصومات والمشاحنات، وفي ارتكاب المحرمات. فلقد روى أهل السير أن بعض السكارى نزا على ابنته. وكان العباس بن مرداس رئيساً في قومه في الجاهلية وقد حرم الخمر على نفسه بفطرته، ولما قيل له في ذلك قال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم(٢).

وقال طبيب ألماني شهير: أقفلوا نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والمارستانات والسجون (٣).

أما القمار فإنه يورث العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر اللّٰه تعالى كما أشارت الآية الكريمة، ويفسد الأخلاق بالتعويد على الكسل وطلب الرزق من أسباب وهمية، ويهدم البيوت العامرة، وينتقل بالإنسان من الغنى إلى الفقر فجأة في ساعة واحدة.

---

(١) اشارة إلى ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: ما بعث الله عزّ وجلّ نبياً قط إلاّ وفي علم الله عزّ وجلّ أنّه اذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر... الخ) انظر: ب (١٤) أن الخمر لم تزل محرمة. الكافي ٦ : ٤٠٢، ح٢.

(٢) أسد الغابة ٣: ١٦٩، رقم الترجمة [٢٧٩٩].

(٣) التفسير الكاشف ١: ٣٣٠.

ويكفـي لتحريم القمار أنه أخذٌ للمال بلا عوض ومقابل[١]، وأن اللَّه سبحانه بيّن حكمه لنا في الخمر والقمار، وهو عز وجل لا يأمر إلا بما فيه مصلحة وثواب وأجر، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة.

حج المهدي العباسي بيت اللَّه الحرام وبعد أدائه للمناسك قفل إلى زيارة النبي ﷺ وقد بذل أموالاً طائلة للمدنيين واجتمع به الإمام

فلما استقر به الجلوس وجه له المهدي سؤالاً: سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرمة في كتاب اللَّه عزّ وجلّ، فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟ فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرمة في كتاب اللَّه عزّ وجلّ. يا أمير المؤمنين فقال له: في أي موضع هي محرمة في كتاب الله جعل اسمه يا أبا الحسن؟ فقال عليه السلام: قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٢] وأما قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني الزنى المعلن، ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية. وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يعني ما نكح الآباء لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا كان للرجل زوجة ومات عنها تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمّه، فحرم اللَّه ذلك. وأما الإثم فإنها الخمرة بعينها، وقد قال الله تبارك وتعالى في موضع آخر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[٣] فأما الإثم في كتاب اللَّه

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٣٣١.

(٢) الأعراف: ٣٣.

(٣) البقرة: ٢١٩.

فهو الخمر والميسر، وإثمهما أكبر كما قال الله تعالى.

فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه واللّه فتوى هاشمية. قال: قلت له: صدقت واللّه يا أمير المؤمنين، الحمد للّه الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت قال: فوالله ما صبر المهدي أن قال:

صدقت يا رافضي(١).

وقال رجل لإياس بن معاوية في المسكر، قال: حرام. قال: وما حرّمه وإنما هو تمر وماء؟ قال: فرغت؟ قال: نعم. قال إياس: لو أخذت كفاً من ماء وضربتك به أكان يوجعك؟ قال: لا. قال: أفرأيت لو أخذت كفاً من تراب فضربتك به أكان يوجعك؟ قال: لا. قال: أرأيت لو أخذت كفاً من تراب ثم طرحت عليه التبن وصببت عليه الماء ثم خلطته وجعلته في الشمس ثم ضربتك به أكان يوجعك؟ قال: نعم يقتلني. قال: كذلك هذا حين جُمعت أخلاطه وخُمّرَ حرُم(٢).

ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها قول سيدي رسول اللّه ﷺ: ((لا يدخل الجنة مدمن خمر))(٣). وقوله ﷺ: ((إن أول ما نهاني عنه ربي عزّ وجلّ عن عبادة الأوثان وشرب الخمر))(٤).

---

(١) الكافي ٦: ٤١٢، ب (٢٠) تحريم الخمر في الكتاب، ح١ باختلاف يسير.

(٢) المستطرف ٢: ٢٦٠.

(٣) الخصال ٢: ٣٣٦، باب العشرة، ح٢٣، وعنه بحار الأنوار ٥: ١٠، ح١٦.

(٤) أمالي الصدوق: ٢٥٠، المجلس الخامس والستون، في جملة من المناهي والأخلاق الحسنة والآداب والمواعظ والمطالب الشريفة، وعنه بحار الأنوار ٢: ١٢٧، ح٤.

يقول السيد أبو القاسم الخوئي: يحرم شرب الخمر وغيره من المسكرات[١].

وفي بعض الروايات أنه من أعظم المعاصي. وعن هشام بن الحكم قال: سأل الزنديق أبا عبدالله عليه السلام فقال: لم حرّم الله الخمر ولا لذة أفضل منها؟ قال: حرّمها لأنها أم الخبائث، ورأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبّه ولا يعرف ربه، ولا يترك معصية إلا ركبها، ولا حرمة إلا انتهكها، ولا رحماً ماسة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا أتاها[٢]، وإن شرب منها جرعة لعنه اللّه وملائكته ورسله والمؤمنون. وإن شربها حتى سكر منها نزع روح الإيمان من جسده وركبت فيه روح سخيفة خبيثة ملعونة. ولن تقبل صلاته أربعين يوماً))[٣].

يحرم الجلوس على مائدة يشرب عليها شيء من الخمر إذا عد الجالس منهم.

وقد أصبح اليوم الخمر في بعض البلدان يباع كما تباع سائر المباحات ويعد في المطاعم والمقاهي وفي الحفلات، وأصبح بعض الأباء يدربون أبناءهم على شربه. يقول العلامة الشيخ محمد تقي فلسفي: قبل حوالي خمسة عشر عاماً وفي وقت متأخر من الليل كنت واقفاً في موقف الباص منتظراً مجيء

(١) المسائل المنتخبة، الطبعة الرابعة: ٢٩٤، مسألة ١١٤٣.

(٢) الاحتجاج ٢ : ٢٣٨ ، ذكره عليه السلام علّة تحريم بعض الأشياء ، وعنه بحار الأنوار ٦٢ : ١٦٢ ، ب(٢) علل تحريم المحرمات من المأكولات والمشروبات ، ح١.

(٣) الكافي ٦ : ٤٠٧ ، ب(١٦)، ح١ـ ح١٢ بلفظ من شرب خمراً... لم تقبل منه صلاته أربعين صباحاً.

السيارة وكان هناك عدة من الأشخاص واقفين في الموقف أيضاً، كان من بينهم رجل أمسك بيده يد طفل لا يتجاوز السادسة من عمره، وكان الطفل في حالة غير اعتيادية، وأخيراً جلس على جانب الشارع واستفرغ، فسأل أحد الواقفين أباه: ما هو المرض الذي أصيب به ابنك؟ فأجاب: إنه ليس مريضاً، فقط اصطحبته الليلة إلى جلسة عند بعض الأصدقاء هناك وناولته خمراً(١).

أي خيانة أعظم من أن يأخذ أب ابنه الذي لا يتجاوز السادسة من عمره إلى مجلس للشراب ويناوله خمراً فيجري عليه وسائل الشقاء؟. ألا يجب أن يعاقب هذا الأب؟ ألا يحق لهذا الابن أن يلعن أباه المجرم؟.

إن الآباء والأمهات المؤمنين والملتزمين بالتعاليم السماوية قادرون على أن يربوا أطفالهم تربية لائقة وصحيحة، وأن يبذروا فيهم بذر الإيمان والاطمئنان إلى رحمة اللّه الواسعة.

فما حال الأجيال إذا كان الأب هكذا مع ابنه، وإذا كان المدرس هكذا حاله، كما يحكى عن بعض البلدان الخارجية أن مدرساً كان يقول لتلاميذه: من أحب منكم أن ينشأ نشأة صحية فليتناول كل يوم قليلاً من الخمر. لذا تجد الكثير في هذا الزمان يبلغ الشيخوخة وهو خمّار لأنه ألف هذه العادة من صغره.

يقول أحد الأدباء: إن شيخاً كان مدمناً شرب الخمر وله ولد صالح كان ينهاه عن شرب الخمر فلا يمتنع، فجاء الولد الصالح يوماً يتمشى فرأى رجلاً

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية ٢: ٨، في الأب الخائن.

سكران ساقطاً في كنيف يعبث بالأوساخ فقال: الآن أقنع والدي بمضرة الخمرة، فجاء لأبيه وأقامه على عجل وأقبل به إلى السكران وهو في محله يعبث بالغائط، فقال: انظر يا أبي كيف يعمل الخمر بصاحبه فبقي الأب الشيخ واقفاً واجماً، فقال له: أقتنعت؟ هلم نمضي، قال: لا يا بني حتى يفيق وأسأله من أين استفاد هذا الخمر.

هكذا يعمل المسلم في هذا الزمان عملاً لا يعمله الجاهليون.

ولم يرد عند الجاهليين تحريماً لها لذا فإنه قبل تحريمها شرب أناس من المسلمين، يقول شهاب الدين محمد بن محمد أبو الفتح الأبشيهي: شربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر فأخذ بلحي بعير وشج به رأس عبدالرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكائن بالقليب قليب بدر ... من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام
أيعجز أن يرد الموت عني ... وينشرني إذا بليت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني ... بأني تارك شهر الصيام
فقل للّه يمنعني شرابي ... وقل للّه يمنعني طعامي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه، فرفع شيئاً كان في يده فضربه به، فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ

﴿وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(١)، فقال عمر: انتهينا انتهينا(٢).

ترك الجاهليين لشربها:

وقد تركها كثيرون في الجاهلية منهم عبدالله بن جدعان، وكان جواداً من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب، فقال له عبدالله: ما بال عينك؟ فسكت، فألح عليه، فقال: ألست ضاربها بالأمس، فقال: أوبلغ مني الشراب ما أبلغ معه إلى هذا، لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم وقال: الخمر عليَّ حرام لا أذوقها بعد اليوم أبداً(٣).

وممن حرمها في الجاهلية قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لابنته أو لأخته فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها، فقيل له: أما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر بالقصة فحرم الخمر على نفسه(٤).

وممن حرمها في الجاهلية العباس بن مرداس السلمي، وقيل: لم تركتها وهي تزيد في سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم(٥).

---

(١) المائدة: ٩١.

(٢) المستطرف ٢: ٢٦٠، ب (٧٤) في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

وشرب قيس بن عاصم الخمر ذات ليلة فجعل يتناول القمر ويقول: واللّه لا أبرح حتى أنزله، ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ويقع على وجهه فلما أصبح وأفاق قال: ما لي هكذا، فأخبروه بالقصة. فقال: واللّه لا أشربها أبداً(١).

ودخل نصيب على عبدالملك بن مروان فأنشده فأعجبه إنشاده وشعره ووصله، ثم دعا بالطعام فطعم منه فقال له عبدالملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ فقال: يا أمير جلدي أسود وخلقي مشوه ووجهي قبيح وتكفيني مجالستك ومؤاكلتك ولم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي، وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه. فأعجبه كلامه ووصله(٢).

وقيل لأعرابي: لم لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقال الضحاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامي. قال: أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر(٣).

وقال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا يا لقومي ليس في الخمر رفعة
فلا تقربوا منها فلست بفاعل

(١) المستطرف ٢ : ٢١١، ب (٧٤) في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

فــإني رأيــت الخمــر شــيئاً ولم يــزل
أخــو الخمــر دخــالاً لشــر المــنازل[١]

وقال الحسن: لو كان العقل يشترى لتغالى الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده.

وقال ﷺ: ((الخمر داعية إلى كل شر)) [٢].

وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ، فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم إذ زلت بك القدم فجرّوك على شوك السلم، فاحفظ قول القائل فيه:

وكــل أنــاس يحفظــون حــريمهم ... ولــيس لأصــحاب النبــيذ حــريمُ
فإن قلت هـذا لم أقـل عـن جهالة ... ولكــنني بالفاســقين علــيمُ[٣]

اجتمع نصراني ومحدث في سفينة، فصب النصراني خمراً من زق كان معه في شربة، وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جعلت فداك إنما هي خمر، قال المحدث: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من يهودي وحلف أنها خمر، فشربها المحدث عن عجل، وقال للنصراني: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة ويزيد بن هارون، أفنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودي. والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد[٤].

---

(١) المستطرف ٢ : ٢١١ ، ب (٧٤) في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) المستطرف ٢ : ٢١٢.

ويحكى أن سكران استلقى على طريق فجاء كلب فلحس شفتيه فقال خدمك بنوك ولا عدموك، فبال على وجهه، فقال: وماء حار أيضاً بارك اللّٰه فيك[١].

وقيل: حالة السكارى ثلاثة، قرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبح، وحية زويت فنامت[٢].

فالخمر مفتاح الشرور. اللّهم تب علينا وألهمنا رشدنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

تقول إحدى القصص: إن أحد الملوك في بداية حكمه خرج متفقداً أمور شعبه مستطلعاً ما كانوا عليه، ومر في طريقه إلى البيمارستان ـ مستشفى المجانين ـ فرأى شاباً وسيماً ضاحك الوجه تبدو على قسماته الرقة واللطف، نظيف الثياب، حسن الهندام والهيئة، فسأله فكان جوابه جميلاً وظريفاً، وعبارته رقيقة، وأسلوبه في الحديث جذاباً. وعندما ذهب الملك إلى مقر وظيفته أمر بإحضاره لأنه تذكر ما عليه ذلك الشباب من رقة وظرف وفصاحة، فلما مثل بين يديه حيّاه بأفضل ما تكون التحية وجلس من فوره كما أمره قائلاً: إن امتثالي لأمر مولاي خير من الأدب لديه، وكان في محادثته معه خير أديب نظماً ونثراً، فأعجب به الملك فأمر بإحضار آنية الخمر فشرب كأساً وقدّم آخر لذلك الشاب فتغير وجهه وظهرت عليه آثار الانفعال وقال: أيها الملك ما

---

(١) المستطرف ٢ : ٢١٢.

(٢) المستطرف ٢ : ٢١٢.

الـذي جنيـته حـتى تعاقـبني بهـذا العقاب، أنا رجل مجنون وأنت تشرب هذه الخمـر لـتكون مـثلي، أما أنا فمثل من أكون إذا شربته. فكان لهذه الكلمة أثر عظـيم في نفـس الملك هزت أعماقه، فتاب من وقته وأقسم أن لا يشربها بعد ذلك(١).

أضرار الخمر:

هـذا وقـت أثبـت العـلم الحديث أنها تحدث أسوأ التأثيرات في الجهاز العصبي فتضعفه حتى تؤدي في بعض الأحيان إلى الجنون.

ومـن آثـار ذلـك الـرجة العصـبية التي تؤدي إلى الموت والهلاك ليلاقي حسـابه هـناك. يقـول الإمـام الـباقر عليه السلام: ((يؤتـي شـارب الخمر يوم القيامة مسـوداً وجهه مدلعاً لسانه، يسيل لعابه على صدره، وحق على اللّه عزّ وجلّ أن يسقيه من طينة خبال))(٢).

ومـا نـدري كـيف جوابه إذا سأله اللّه وهو بحالته تلك عن نفسه وعن ارتكـاب هذا المحرم الفظيع، وعن أطفاله وعائلته، ولعلهم بقوا بعده مشردين تـائهين بغـير مأوى ولا مال، فقد بدده في ساعات شربه وطربه، ولعله أورثهم سلاً أو مرضاً من الأمراض المتخلفة من ذلك، والتي تنتقل بالوراثة إلى ذريته.

وأما أضرارها المالية فإن هذا السكير والمقامر لا يبقى لديهما مال، فهما

(١) الخمر في الإسلام والعلم الحديث: ١٣.

(٢) الكافي ٦: ٤٠٣ ب (١٥) شارب الخمر، ح٣، وفي ذيل الحديث: وحق على الله عزّ وجلّ أن يسقيه من طينة خبال ـ أو قال: من بئر خبال ـ، قال: قلت: وما بئر خبال؟ قال: بئر يسيل فيها صديد الزناة.

يفتتان أموالهما على موائد الشرب واللعب. فكم بيوت خربت وعوائل ذلت بعد عز، وأطفال تسيبت بسبب انشغال عائلها بذلك، فكم أموال ضخمة ورثتها الآباء سلبتها الخمر من يد شاربها فيقف صفر الكف منها، ولربما بلغ الحال ببعضهم أن بقي مشرداً بدون مأوى ولا استقرار.

فحفظاً وصيانة لأموالكم ورحمة بحالكم ورفقاً بأطفالكم ونسائكم ووطنكم ومجتمعكم أقلعوا أيها السكيرون عن ذلك، وإن لم يكن لكم دين يمنعكم ولا ضمير يردعكم، فاحفظوا أموالكم وممتلكاتكم.

يقول الكاتب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي: كان لي صديق أحبه، إلى أن يقول: فرّق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه ميتاً، سألت عنه فقيل لي إنه مريض فذهبت إليه لأعوده، ولما دخلت عليه لم أجد عنده طبيباً ولا عائداً؛ لأنه فقير، ثم تقدمت إلى سريره وسألته مما تشكو؟ فزفر زفرة مشى قلبه منها في صدره، وأجاب: أشكو الكأس الأولى، فقلت: أي كأس تريد؟ فقال: الكأس التي أودعت فيها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وها أنا اليوم أودع فيها حياتي. إلى أن يقول: كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي، كل كأس شربتها جرتها عليّ الكأس الأولى، أما هي فلم يجرها عليّ غير قصور عقلي عن إدراك خداع الخلطاء وغش قرناء السوء، زينوا لي وحسّنوا وقالوا: إن الشرب يزيد رونق الجسم ويفيد في صحته، وإنه يفتق عقدة اللسان، ويعلم الإنسان المنطق والبيان، وإنه يبعث في النفس الجرأة والإقدام. هذا ما سمعته منهم فصدقته وخدعت به، صدقت أن في الشراب أربع مزايا: السعادة والصحة والفصاحة

والإقدام، فوجدت فيه أربع: رزايا الفقر والمرض والسقوط والجنون. نعم لقد غرهم من الصحة اللون الأحمر الذي يتركه الشراب في الأعضاء وهو يتغلغل في الأحشاء.

أعيذها نظرات منك خاطئة   أن تجعل الشحم فيمن شحمه ورم

ومن الفصاحة الهذر والهذيان وهجر العقول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العربدة التي لا تسكن إلا في غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة مستحسنة، والصفع تحية مباركة، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والمجانين، فأي سرور لمن يودعه أهله صباحاً بالحسرات ويستقبلونه في مسائه بالزفرات واللعنات. كنت أقدر لنفسي الاقتصاد فلما شربت أخطأت الحساب وضاع الحساب وفسد التدبير، غُلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع مثلي بمثل ما خُدعت به، ولولا الكأس الأولى ما هلكت ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء ولا زهد فيّ الأقرباء. يقول الكاتب: ثم تركته في حاله(١).

تصم السميع وتعمي البصير   ويسأل من مثلها العافية

وهذا الرجل الذي كان من المتمولين كما يظهر من الكاتب فقد أصبح بسبب الشراب أيأس اليائسين ومن المعذبين في الأرض قبل يوم القيامة.

---

(١) النظرات ١: ٣٧.

وأمـا أضرارها الخلقية والاجتماعية فشيء واضح، فإن من ذهب عقله لا يبالي ولا يتحرج من ارتكاب الجرائم ولا من اقتراف الموبقات، ولا يبالي إذا سخر الناس منه وكان بينهم مهزلة مضحكة مادام الميزان الذي كان يحكم تصرفه قد فقده، فهو يعتدي ويزني ويقتل ويتبذل في كل فعل ساقط أو قول مرذول.

يقال: إن رجلاً متحرّجاً أجبره الوالي في البلد على أن يرتكب إحدى جرائم أربع وإلا يقتل، فهو إما أن يزني بالمرأة أو اللواط بالغلام أو يقتل الطفل أو يشرب الخمر، وقد أحضر كل ذلك له، ففكر أن جريمة الزنى أو اللواط أو القتل لا تغتفر وأهونها شرب الخمر، هكذا كان يعتقد، فشرب الخمر وبعد السكر قتل الطفل ولاط بالغلام وزنى، فقد ارتكب كل تلكم الجرائم بسبب شرب الخمر. ولذا سميت في الحديث أم الخبائث ومفتاح كل شر. فإن السكران لا يهمه كل ما صدر منه من عربدة أو دعارة أو فسق أو فجور، قد يؤذي المارة وقد يعتدي على عفاف حتى أمه وأخته(١).

ولما ولي الوليد بن يزيد بن عبدالملك قال السيوطي في تاريخه: ((كان فاسقاً شريباً للخمر منتهكاً حرمات اللّه، أراد الحج ليشرب الخمر فوق ظهر الكعبة فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه فقتل))(٢). وكان من كفرياته أنه دخل يوماً فوجد ابنته جالسة مع دايتها فبرك عليها وأزال بكارتها، فقالت له

(١) الدمعة القطيفية: ٩٣.

(٢) تاريخ الخلفاء: ٢٨٥.

الداية: هذا دين المجوس، فقال:

مــن راقــب اللّــه مــات غمــاً وفـــاز بـــاللذة الجســـورُ

ونكـح أمهـات أولاد ابـنه، وأذن للصبح مرة وعنده جارية يشرب معها الخمـر فقـام ووطـئها وحلف أن لا يصلي بالناس غيرها فخرجت وهي جنب سكرانة ولبست ثيابه وتنكرت وصلت بالناس(١). وناهيك عن قبائح أعماله أنـه فـتح يومـاً المصـحف الشـريف فـأول ما طلع ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾(٢) فقال: أتهددني، ثم أغلق المصحف ولا زال يضربه بالنشاب حتى فرقه ومزقه وأنشد:

أتوعـــد كـــل جـــبار عنـــيد فهـــا أنـــا ذاك جـــبار عنـــيد
إذا لاقيــت(٣) ربــك يــوم حشــر فقــل: يــا رب مــزقني الولــيد(٤)

ويقـال إن سـبب مـوت يـزيد بـن معاويـة شـرب الخمر، فأكثر وأصبح متفقـناً(٥). ويقـول إسماعـيل يوسف: كان ليزيد قصر في مكان يدعى حوارين، يقـع بـين دمشـق وحمـص لا يـزال إلى الآن يعرف بقصر يزيد، واعتاد يزيد أن يذهب إلى ذلك القصر ليقضي فيه لبانته من بنات الهوى، وليحيي فيه الليالي

---

(١) حياة الحيوان ١ : ٦٣ في خلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك.

(٢) إبراهيم: ١٥.

(٣) في المصدر : إذا ما جئت.

(٤) مروج الذهب ٣ : ٢٢٩ ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبدالملك، وكذلك حياة الحيوان ١ : ٦٣.

(٥) أنساب الأشراف ٢ : ٢ أمر يزيد بن معاوية.

الحمراء بين رشف الكؤوس والتمتع بمنظر بغيٍّ ترقص أمامه، ولم يكن أحد يعلم بخروجه إلى القصر سوى ولديه خالد ومعاوية، وكان يوهمهما أنه لا يخرج إليه إلا طلباً للراحة والهدوء من المسؤوليات العديدة التي كانت ملقاة على عاتقه، وللتفكير في حالة المسلمين(١).

لقد كذب عدو الله لم يهمه من أمر المسلمين سوى قدح الشراب وفتاة كعوب لعوب يذهب عقله في الأولى ويروي ظماء الحشى في الثانية، ولا يهمه بعدها زلزلت الأرض أو أحرق بنو أمية.

هكذا كان يزيد. ولهذا الغرض اتخذ ذلك القصر في (حوارين) يحتجب فيه عن الناس كلما حنّ إلى الكأس أو إلى السوء ساورته النفس(٢).

وذات يوم بينما كان خارجاً إلى قصره متخفياً حسب عادته لقي في الطريق على مسافة قريبة من القصر أعرابياً يحمل على ظهره كيساً يبدو أنه ثقيل ومعه امرأة على جانب عظيم من الجمال، جمال البادية الطبيعي، فوسوست له نفسه في الاستيلاء على تلك المرأة.

أوقف يزيد الرجل وسأله: ممن الرجل؟ وإلى أين؟ قال: من بني تميم وأنا قاصد الشام لأبتاع ما أنا بحاجة إليه، قال يزيد: وكيف تسير هذا المسافة الطويلة وحمل ثقيل على ظهرك وهذه الحسناء بجانب، ألا تخشى التعب واللصوص؟ قال الرجل: نفقت دابتي الليلة الماضية ولم أستطع شراء غيرها،

---

(١) شهيد كربلاء أبو عبد الله الحسين: ١٣٤.

(٢) أنساب الأشراف ٢ : ٢ وفيه عن ابن عياش قال: خرج يزيد يتصيد بحُوّارين وهو سكران... الخ.

وإن ورائي من الأطفال ما يوجب عليّ الادخار.

قال يزيد: يرحمك اللّٰه يا رجل لا يزال في الدنيا بقية من خير هيا معي إلى ذلك القصر لأزودك براحلة. قال الرجل: إنه واللّٰه قصر يزيد، قال يزيد: لا عليك أنا ويزيد هكذا، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى متلاصقتين.

وسار الأعرابي وزوجته في أثر ذلك الفارس الذي لم يكونا يعلمان أنه يزيد، ويؤملان نفسيهما في الحصول على راحلة لوجه اللّٰه والخير، وحين دخلوا القصر أرتج يزيد الأبواب وطلب من المرأة أن تنتظر، ودخل هو والرجل اصطبلاً كبيراً للخيل وهناك في ركن يكاد أن يكون مظلماً طعنه يزيد عدة طعنات مميتة وظل واقفاً عند رأسه حتى فارق الحياة، ثم ألقى به في جبّ جعل خصيصاً لإخفاء جثث المغدورين، وعاد يزيد إلى المرأة..

وقد بدا عليها الذهول والدهشة لمنظره ولعودته وحيداً ولنبرة صوته الغريبة حين قال لها: هيا معي، ودلها ذكاؤها البدوي الأصيل على ما حدث لزوجها وعلى ما رمى إليه يزيد، فلجأت إلى الصمت وعلمت أن المقاومة والعناد لن يجدياها.

وفي داخل القصر كشف يزيد عن هويته، فكانت دهشة المرأة أشد، وعجبها أعظم أن يقدم حاكم المسلمين على انتهاك حرمات المسلمين واستباحة أعراضهم. وقضى عندها في القصر يوماً وليلة وحين همّ بالعودة إلى دمشق رجته المرأة أن يسمح لها بالعودة إلى أطفالها، فصمّ أذنيه عن توسلها وقال لها: إن في القصر كل ما تحتاجين إليه من شراب وطعام، وسأعود إليك قريباً ومعي أفخر الملابس والحلي، وتظاهرت المسكينة بالرضا والقبول

وابتسامة صفراوية تعلو وجهها.

وحين خرج يزيد أوصد عليها الباب وقبعت هي في ركن إحدى الغرف تندب حظها وتفكر في أطفالها الجياع الذين ينتظرون عودتها وزوجها بفارغ الصبر محملين بالطعام واللباس، وأطلقت العنان لدموعها ما شاء لها البكاء، واستعانت باللّه على يزيد ولجأت إليه تعالى تدعوه أن يفرج عنها وعن المسلمين مادام هذا دأب آل أبي سفيان.

واختلف يزيد إلى تلك المرأة الحبيبة المغصوبة بضع مرات، وكانت في كل مرة ترجوه أن يسمح لها بالذهاب لزيارة أطفالها واعدة إياه بالعودة، ولكنه كان يرفض طلبها متصاماً عن رجائها وتوسلاتها.

وذات يوم دخل عليها يزيد وهو يترنح لكثرة ما عبّ من الشراب ولم يكن يتمالك الوقوف، وترك الباب مفتوحاً على مصراعيه فاغتنمت المرأة تلك الفرصة وأخذت تداعبه وتراوغه حتى تمكنت من ربط يديه ورجليه وكمّ فمه، وأخذت تجره حتى دخلت إصطبل الخيول فوضعته في مذود واستلت سيفه وهوت به على رأسه فشطرته شطرين وقالت: بسيفك اقتلك يا عدو اللّه... من كانت هذه صفاته فليمت هذه الميتة في مثل هذا المكان. وانتزعت المال الذي كان معه وخاتمه واعتلت ظهر جواده وهربت إلى العراق بعد أن تنكرت بزي رجل، وظلت تقطع الطريق وتستريح بعض الوقت حتى وصلت الكوفة فلجأت إلى المختار. ولم يصدق المختار ادعاءها بادئ الأمر واعتقد أنها دسيسة من قبل يزيد، ولكنه ما لبث أن صدقها حين رأى خاتمه وجواده. وظلت المرأة مع نساء المختار حتى زوّجها أحد رجاله بعد أن استتب له أمر

العراق وأذيع خبر موته بالتفصيل على لسانها.

وطال غياب يزيد وذهب ابنه يتفقده فوجده على تلك الحال في الإصطبل فأخرجه وصلّى عليه وحده، ثم أذاع خبر موته، ودفن في قصر حوارين.

وتأكيداً لهذه الرواية فقد ذكر الواقدي في تاريخه يقول: قتل يزيد وهو ثمل على يد امرأة وأرقد في أخس مكان. ولم يزد على ذلك. وقال أبو معشر: كانت ميتة يزيد على يد أعرابية في حالة لا يغبطه عليها أحد، ولم يصلّ عليه سوى ولده خالد (١).

وأول من تظاهر بشربها في الإسلام يزيد، ولما جيء إليه برأس الحسين عليه السلام أمر بوضعه على طبق من ذهب ثم دعا بالشراب فشرب وقال: كيف رأيت يا حسين، أتزعم أن أباك ساقٍ على الحوض فإذا مررت عليه يومئذٍ فلا يسقني. وتقول: إن جدك حرّم آنية الذهب والفضة على الأمة، هذا رأسك في طشت من ذهب ويفخر أبوك بأنه قتل الأقران هذا بذاك، ثم ارتجل:

هلال بدا وهلال أفل كذلك تجري صروف الدول

لإن ساءنا أن جيشاً مضى فقد سرنا أن جيشاً قفل

ثم أخذ قضيب خيزران وجعل ينكت ثناياه وهو يتمثل ويقول:

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أحق وأحلما(٢)

---

(١) شذرات الذهب ١ : ٢٨٦ في أحداث سنة أربع وستين.

(٢) بحار الأنوار ٤٥ : ١٣١ وقد قال لعنه الله.

نفلق هاماً من أناس أعزّة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فخرجت جارية من قصر يزيد فرأته ينكت ثنايا الإمام عليه السلام ، فقالت: قطع اللّٰه يديك ورجليك، أتنكت ثنايا طالما قبلها رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ، فقال لها: قطع اللّٰه رأسك، ما هذا الكلام(١)، وأمر بضرب عنقها.

وفي المناقب أمر يزيد أن يصلب الرأس على باب داره فخرجت هند بنت عبداللّٰه بن عامر بن كريز امرأة يزيد وكانت من قبل تحت الحسين حتى شقّت الستر وهي حاسرة فوثبت إلى يزيد وهو في مجلس عام فقالت: يا يزيد أرأس ابن فاطمة بنت رسول الله مصلوب على بابي، فوثب إليها يزيد فغطاها وقال: نعم يا هند أعولي وابكي عليه... إلخ (٢).

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٢٠٦.

(٢) بحار الأنوار ٤٥ : ١٤٢ ـ ١٤٣، ب (٣٩) والوقائع المتأخرة عن قتله عليه السلام نقلاً عن صاحب المناقب، ونحوه في تاريخ الطبري ٦ : ٢٦٧ في احداث سنة ٦١هـ.

الخمر(٢)

ما هو سبب انتشار الخمور بين المسلمين، وهذا قرآنهم وهذا دينهم يحاربه ويدعو إلى محاربة أهله بكل صريح من التعبير؟

بالإجمال هناك عامل مهم كان هو السبب في ذلك، رأى المجال واضحاً حاضراً فلعب أدواراً في ذلك، ذلك هو الاستعمار الغربي المقيت، فقد كان عدو الإسلام بلا شك وعدو الشعوب المسلمة ككل استعمار في العالم، فقد وجد أن مصالحه وغاياته الاستعمارية لا يمكن أن تتحقق وللإسلام نفوذه، وللكتاب قداسته، وللكعبة روادها، كما هو التقرير لرئيس الوزراء البريطاني القديم (غلادستون). فقد وعى ذلك الاستعمار وعلم بجهل المسلمين في العهد القريب، فأراد أن يستغل طيبتهم وجهلهم فبعث رسله ونشراته المسمومة، وحاول بكل جهده داعياً إلى التحلل والتفسخ الخلقي والخلاعة والفسوق والخمور وما إليها، مما يبعد المسلمين عن إسلامهم ويحقق له مصالحه وأغراضه الأثيمة، وهو يدعو إلى الخلاعة والفجور باسم الدين والعلم.

ليس التمدن شرب الخمر بالكاس
إن التمدن حسن الخلق في الناس
ليس التمدن هجران الصلاة ولا
ترك الصيام ولا ميلاً لخناس

ليس التمدن في شكل الفرنج ولا
في هتك عرض ولا في فعل أرجاس
إن التمدن في سير الكمال على
نهج الشريعة طول الدهر للناس

وهناك اعترافات منهم صريحة على أن الخمر وما إليه من آلات اللّهو والفجور قصدوا بها القضاء على الروح الإسلامية اليقظة وابتزاز أموالهم ومواردهم الضخمة.

أتدري كم هذه الأموال الطائلة التي يحصلون عليها من استيراد الخمور الكثيرة منهم مثلاً؟ أتدري ما يقوله غلادستون في الخمرة، اسمعه يقول: ((إنه يحصل من المسكرات أضرار لا تحصل من الطاعون والحرب والمجاعات، فهي رابع أعداء الإنسان وأشدها هولاً)).

أما أضرارها العقلية فقد أدرك الجاهليون خطورتها قبل أن ينور عقولهم الإسلام، فالتاريخ يحدثنا أن رجالاً كثيرين في العصر الجاهلي لم يشربوا الخمر لأنها تذهب العقل وتؤثر عليه، فحفظاً لعقولهم واتقاءً لعرضهم، وتكريماً لأنفسهم حرموا على أنفسهم شربها، فمن أولئك جعفر بن أبي طالب عليه السلام الذي حرم على نفسه قبل الإسلام الموبقات الأربع وعلل ذلك، فالزنى هتك لأعراض الناس مناف للعزة والشهامة والنبل ومن طرق باب الناس طرقت بابه، والكذب لأنه يسلب بهاء الرجل ومروءته، أي يسقط كرامته ويذهب بماء وجهه، وعبادة الصنم لأنه علم أنها لا تضر ولا تنفع، والخمر لأنها تفسد

العقل.

في أمالي الصدوق ﵀ عن الباقر ﵇ قال: أوحى اللّٰه عز وجل إلى رسوله: إني شكرت لجعفر بن أبي طالب أربع خصال، فدعاه النبي فأخبره، فقال له: لولا أن اللّٰه أخبرك ما أخبرتك، ما شربت خمراً قط لأني علمت لو شربتها زال عقلي، وما كذبت قط لأن الكذب ينقص المروءة، وما زنيت قط لأني خفت إذا عملت عُمِل بي، وما عبدت صنماً قط لأني علمت أنه لا يضر ولا ينفع. قال فضرب النبي ﷺ بيده على عاتقه وقال: حق للّٰه عز وجل أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة(١).

فكان النبي عالماً بشهادته وقطع يديه فأحب ذلك فأعطاه اللّٰه ما أحب رسوله له؛ لأن جعفر كان أميراً على جيش الإسلام يوم مؤتة وهي من أرض الشام وبيده راية الإسلام، فقاتل في اللّٰه حتى قطعت يداه ورجلاه فرأى نبي اللّٰه فيما كشف له أن له جناحين مضرجين بالدم يطير بهما في الجنة مع الملائكة.

وقال الإمام زين العابدين ﵇ في حق عمه أبي الفضل ﵇ لأبي حمزة: يا أبا حمزة وهب اللّٰه لعمي العباس جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة(٢) وهذا أحد جزاء اللّٰه له لأنه وقف عليه الحسين ﵇ وقال: يا أخي

---

(١) أمالي الصدوق: ٤٤، المجلس السابع عشر، في فضيلة النبي ﷺ واولاده والوصية، وعنه بحار الأنوار ٢٢: ١٦، ح١٦، وشجرة طوبى ١: ١٣٥.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٧٧ المجلس الحادي والسبعون، وعنه بحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤، ح٢١.

جزاك اللّه خيراً لقد جاهدت في اللّه حق جهاده. ثم قال الآن انكسر ظهري(١).

وإن اللّه سبحانه قد نهانا عن شرب الخمر(٢)، فمن تجرعها كان عرضة لأمراض وبيلة فتاكة لا شفاء منها تنتهي عادة بالموت والعياذ باللّه. فالحذر الحذر من شربها لأنها مفسدة للصحة، مذهبة للعقل، مضيعة للمال، مخالفة للدين مغضبة لرب العالمين، وإن لها دخل كبير في اختلال المزاج وفقدان الصحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (٣).

أما الخمر فالظاهر فيمن يشربها أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة، إلا أن ذلك في الأغلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل وإذا زال العقل استولت الشهوات والغضب عليه من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٠، وعنه عبرات المصطفى في مقتل الحسين ٢: ٨٣، وبحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤، ح٢١ نحوه.

(٢) جواهر روحية: ٢٧٠.

(٣) المائدة: ٩١.

العـداوة والبغضـاء، فالشـيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد المحبة ثم ينقلب الأمر وتحصل في النهاية العداوة والبغضاء.

ونحـن في زمـان كثرت فيه المعاصي والملاهي وشرب الخمر وينطبق علينا معنى هـذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(١).

قـال رسـول اللّـه ﷺ ((إذا كـان لـيلة القـدر تنزل الملائكة الذين هم سـكان سـدرة المنتهى ومـنهم جبرئيل فينزل جبرئيل عليه السلام ومعه ألوية ينصب لـواء مـنها عـلى قـبري ولواء على بيت المقدس ولواء في المسجد الحرام ولواء عـلى طـور سـيناء ولا يدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلم عليه إلا مدمن الخمر وآكل لحم الخنزير والمتضمخ بالزعفران))(٢) يريد الرجل الذي يتأنث للرجال فيحمر خدوده ومحاسنه.

وعـظ الإمام علي الهادي عليه السلام المتوكل حينما أدخلوه عليه والخمر بيده، وكـان المتوكل قد أمر أن يهجم على الإمام في بيته فهجم الأتراك عليه فوجدوه جالسـاً عـلى حصـير من خوص مستقبلاً للقبلة ودموعه تذرف على خدوده، فأخـبروه وقالوا له: ما وجدنا في بيته شيئاً قال: عليٍّ به على حالته، فجاؤوا به ليلاً فأدخلوه على المتوكل فقام له إجلالاً وأجلسه إلى جنبه وبيده كأس الخمر،

---

(١) مريم: ٥٩.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٤٠٨ في تفسير سورة القدر آية ١ ـ ٥، وتفسير نور الثقلين ٥ : ٦١٤، وتفسير الميزان ٢٠ : ٣٣٥، وتفسير القرطبي ٢٠ : ١٣٧، وتأويل الآيات ٢ : ٨١٦، ح١.

فقال للإمام: اشرب، فقال: لا، واللّه ما خالط لحمي ودمي. قال: غني لنا، قال الإمام عليه السلام: أنا لم أعرف الغناء، قال: أنشد لي شعراً، قال الإمام عليه السلام: إني لقليل الرواية للشعر، قال: أما هذا فلن أعفيك منه، فظن أن الإمام ينشده في الخمرة وصفاتها والراقصات وحسنهن، فصب عليه الإمام عليه السلام مواعظ قرآنية صاغها جده أمير المؤمنين في أبيات حكمية فقال:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم
غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

... إلخ (١).

فأخبره الإمام بمصيرهم، وكأنه يقول: هذه نهايتكم أيها الظلمة.

ووفد ابن هرمة على المنصور، وقال له المنصور: اطلب حوائجك، قال حاجتي أن تكتب لعاملك إذا رآني ثملاً فلا يحدني، قال: هذا لا يكون، قال: إذن ليس لي حاجة عندك، فكتب المنصور لعامله بالكوفة: إذا أتاك أحد بابن هرمة ثملاً فأقم عليه الحد وأضرب الذي يأتي به مائة سوط، فكانت الناس تراه ثملاً فتتركه (٢).

فلو طبقت الحدود كما أمر اللّه ولم يداهن فيها لتأدب الخمارون.

في أيام حكومة علي عليه السلام العادلة كان له شاعر يسمى النجاشي،

---

(١) مروج الذهب ٤ : ٩٣، في ذكر جمل من أخباره وسيره، وعنه بحار الأنوار ٥٠ : ٢١١ باب ما جرى بينه عليه السلام وبين خلفاء زمانه باختلاف يسير.

(٢) نهاية الأدب ٤ : ٩١.

حدث ابن الكلبي عن عوانة قال خرج النجاشي في أول يوم من شهر رمضان فمر بأبي السمال الأسدي وهو قاعد بفناء داره فقال له: أين تريد؟ قال: أردت الكناسة فقال هل لك في رؤوس وإليات قد وضعت في التنور من أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرات قال ويحك في أول يوم من رمضان قال: دعنا مما لا نعرف، قال: ثم مه؟ قال: أسقيك من شراب كالورس يطيب النفس ويجرى في العرق ويزيد في الطرق يهضم الطعام ويسهل للفم الكلام فنزل فتغديا ثم أتاه بنبيذ فشرباه فلما كان آخر النهار علت أصواتهما ولهما جار من شيعه علي عليه السلام فأتاه فأخبره بقصتهما فأرسل إليهما قوماً فأحاطوا بالدار فأما أبو سمال فوثب إلى دور بني أسد فأفلت وأخذ النجاشي فأتي عليه السلام به فلما أصبح أقامه في سراويل فضربه ثمانين ثم زاده عشرين سوطا فقال: يا أمير المؤمنين أما الحد فقد عرفته فما هذه العلاوة قال لجرءتك على الله وإفطارك في شهر رمضان ثم أقامه في سراويله للناس فجعل الصبيان يصيحون به خرى النجاشي خرى النجاشي [1].

دعا أحد السفراء الغربيين الشيخ محمد عبده دعاه أحد السفراء الغربيين فقدم له مائدة عظيمة من جملتها خمر من عنب وعنب طازج، فأكل الشيخ العنب وترك الخمر، فقال له السفير: ما بالكم معاشر المسلمين

---

(١) الاصابة ٢ : ١١٦ ، في ترجمة سمعان بن هبيرة الأسدي، رقم الترجمة [٣٧٠] رواه مختصراً نقلاً عن المرزباني في معجمه، ومختصراً أيضاً في تهذيب الأحكام ١٠ : ٨٦، ح٣٦٢، وعنه مناقب ابن شهر آشوب ١ : ٤٠٨ في المسابقة بالحزم وترك المداهنة.

تحللـون الأصـل وتحـرمون الفرع؟ قال: نعم، وكانت زوجة السفير وابنته على المـائدة فقـال الشـيخ: هـذه زوجتك وابنتك، وزوجتك أصل وابنتك فرع هل يصح أن تنكح ابنتك؟! فسكت.

الوعظ والإرشاد

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

معناه: واذكر يا محمد إذ قال لقمان لابنه. ويجوز أن يتعلق ((إذ)) بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (٢).

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي يؤدّبه ويذكره في حالة ما يعظه ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي لا تعدل باللّه شيئاً في العبادة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أصل الظلم النقصان ومنع الواجب، فمن أشرك باللّه فقد منع ما وجب اللّه عليه من معرفة التوحيد فكان ظالماً. وقيل إنه ظلم نفسه ظلماً عظيماً بأن أوبقها(٣).

بعد أن ذكر سبحانه أنه قد مَنَّ على لقمان بالحكمة ذكر طرفاً من مواعظه لابنه رفقاً به وشفقة عليه ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) لقمان: ١٣.

(٢) لقمان: ١٢.

(٣) مجمع البيان ٨: ٨١ في تفسير سورة لقمان آية: ١٣.

يـرى بعـض المفسرين أن هذا القول من لقمان لابنه يشعر بأن ابنه كان مشـركاً. والحـق أن الـنهي عن الشيء لا يدل على صدوره من المخاطب؛ فقد خاطـب سـبحانه خلـيله إبراهـيم بقولـــه: ﴿أن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾(١)، وقال لحبيـبه محمـد ﷺ : ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾(٢)، وقـال الإمـام علي عليه السلام للإمـام الحسـن عليه السلام: ((اعتصـم بـالذي خلقـك ورزقك وسوّاك وليكن لـه تعبدك... وليكن له تعبدك،......، ولو كان لربك شريك لأتتك رسله))(٣).

أهمية الموعظة:

فوصـية لقمـان لابنه رفقاً به وشفقة عليه، وقد أوصى الإمام علي عليه السلام ولـده الحسـن عليه السلام بوصـية طويلـة جـاء في مقدمـتها: ((وجدتـك بعضي بل وجدتـك كلـي حـتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعـناني مـن أمـرك مـا يعنـيني مـن أمـر نفسـي))، وقـال فـيها: ((أحـيِ قلبك بالموعظة))(٤).

أمـره عليه السلام بإحـياء قلـبه بالموعظـة لما فيها من تنشيط العامل إن كان بما

(١) الحج: ٢٦.

(٢) الفرقان: ٥٢.

(٣) نهج البلاغة ٤٦١، من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام، رقم [٣١]، وعنه بحار الأنوار ٧٤: ٢١٧ ب(٨) وصية أمير المؤمنين إلى الحسن عليه السلام، ح٢.

(٤) نهج البلاغة: ٤٥٧، من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليه السلام، رقم ٣١، وعلي والأسس التربوية: ١٤١.

تقتضيه الموعظة، وليس شيء أنفع للمرء من الموعظة فإنها تحيي القلب، وتفتح البصيرة، وتوقظ الفكرة، وتشد الهمة، وتبعث العزيمة. وما أُتي الناس إذ تسقط أخلاقهم وتذهب آدابهم وينتشر الفساد فيهم إلا من قبل عدم الموعظة والواعظين لهم. وإنك لتجد الفرق ظاهراً بين رجل يحضر مجالس الوعظ والتذكير وبين رجل أهمل ذلك وتباعد عنه، فإنك ترى من لين الأول وآدابه ورقته وعطفه وانصياعه للقول وإقباله على النصيحة ما لا ترى من الثاني، بل هو على العكس من الأول في خشونته وجفائه وقطيعته وعدم التزامه بشيء من الآداب والدين؛ يمثل الوحوش الضواري في بطشها وسطوتها. وهب أنه متعلم فإن كثيراً من المتعلمين يؤتون من قبل علمهم إذا فسدت أخلاقهم فيتخذون ما بأيديهم من العلم سلاحاً يتوصلون به إلى مقاصدهم الفاسدة وأغراضهم الخبيثة..

انظر هذه الأمم المتناحرة التي يصول بعضها على بعض ويحاول بعضها ابتلاع بعض؛ أليس على رأسها أكثر الناس علماً وأوفرهم معرفة كما يزعمون، أين ذهب عنهم علمهم؟ وأين ولت عنهم معارفهم؟ لو كانت المعارف والعلوم وحدها هي الرادع عن الشر، والوازع عن الأذى والظلم.

لا جرم أن الأمم بأخلاقها، وأن الأخلاق تأتي من قبل العلم الصحيح، والعلم الصحيح يأتي من قبل القائمين عليه الحافظين لحدوده، وهو والدين الصحيح سواء. كذب من قال: العلم في جنب والدين في جنب، بل هما أخوان متلازمان وعضدان متآزران لا ينفك أحدهما عن الآخر، والعقل سراجهما المنير، ومستشارهما الناصح، والوعظ جلاؤه وبه حياته.

يقول عليه السلام: ((أحيي قلبك بالموعظة))(١)، ويقول في موضع آخر: ((إن اللّه سبحانه جعل الذكر ـ التذكير والموعظة ـ جلاء للقلوب تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة))(٢).

ولشرف الوعظ وفضله تولاه اللّه سبحانه ثم أمر أنبياءه ورسله أن يتولوه ويقوموا به. ومواعظ اللّه في خلقه كثيرة، ونصائحه لهم عظيمة، يكتبها الدهر وتقر بها عليك الليالي والأيام، وأفصحها كتبه المنزلة وشريعته المفصلة وأفضل كتبه القرآن ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾(٣)، وأكمل شرائعه خاتمتها وأفصح أنبيائه وأنصحهم محمد ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

ومن السابقين لقمان إذ يقص اللّه علينا من مواعظه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٥)، وروي أن داود كان ينصب له منبراً فيجلسه عليه ثم يجلس هو تحت منبره يستمع لحكمته.

ولقد أهمل الوعظ والتذكير في هذه العصور، تركه العالمون فأنف من

---

(١) نهج البلاغة: ٤٥٧، من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليه السلام، رقم (٣١)، وبحار الأنوار ٧٤: ٢١٩.

(٢) نهج البلاغة: ٣٩٧ من كلام له عليه السلام رقم (٢٢٢)، وبحار الأنوار ٦٦: ٣٢٥، ح٣٩.

(٣) البقرة: ٢٣١.

(٤) التوبة: ١٢٨.

(٥) لقمان: ١٣.

الاستماع الجاهلون، ومتى لم يستعمل العالم علمه أنف الجاهل أن يتعلم.

شرائط الواعظ:

إن للواعظ شرائط إذا أهملت كلاً أو بعضاً قل التأثير ففات الغرض.

الأول: أن يكون عالماً عاملاً به.

الثاني: أن يكون ناصحاً.

الثالث: أن يكون ذا بيان.

الرابع: أن يكون حكيماً

وذلك أن الجاهل لا يعرف ما يعظ به، وغير الناصح ربما يتخير من الكلام ويستخدم من البيان ما له فيه غرض وغاية ومنفعة صلح به الناس أم فسدوا، والذي لا بيان له لا يقدر على التصرف في إيراد الكلام وإصداره حسبما تقتضيه المصلحة. أما تسمع موسى بن عمران عليه السلام حيث يقول وقد كلف أمر الرسالة: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾(١)، وغير الحكيم ربما كان ضرره أكبر من نفعه؛ لوضع وعظه في غير محله وإيراده في غير موقعه، إذ الوعظ حكمة إذا أعطيتها لغير أهلها فقد ضيعتها وظلمتها، والواجب أن يعطى لكلٍّ ما يناسبه وما ينتفع به ويفهمه.

يقال: كان عالم يعظ الناس فلا يتأثرون بموعظته، فقال الناس: إن له

---

(١) القصص: ٣٤.

لسر، فجاء رجل لزوجته فسألها عن حاله، فقالت إنه يشرب الخمر منتصف الليل فإذا فاق قال: إن اللّٰه غفور رحيم، فقال لها: قولي له: إن اللّٰه شديد العقاب. فقالت له: فتاب. ولما وعظ تأثروا بموعظته فكان العلماء يعظون الناس على قدر عقولهم كالعالم الذي علم أحد الأعراب الحمد في غنمه، قسم له سبع شياه كل شاة باسم آية فحفظها وبعد سنة جاء إليه وقال له اقرأ الحمد فقرأها بسم اللّٰه الرحمن الرحيم الحمد للّٰه رب العالمين الرحمن الرحيم إياك نعبد ... فقال له أين مالك يوم الدين؟ قال وهبتها إلى ابن عي ولا أرجع فيما وهبته.

لقد ألقيت هذه الوظيفة الشريفة اليوم إلى غير أهلها، وحملها من لا قدرة له على القيام بعبئها، كالواعظ المرتزق الذي يعظ على حساب المادة. جاء لجماعة من الأعراب فأخذ يعظهم: صلاة، صيام .... كذا. إلى أن وصل إلى الخمر بموعظته فجعل يصف لهم الخمر فلم يعرفوها بكل وصفه فأرج القارورة من جيبه وقال: مثل هذا لعن اللّٰه والديكم.

ولكن الذي يخفف المصيبة أنه لا تخلو الأرض من عامل عليها بخير وأنه ((ما برح للّٰه ـ عزت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكّرون بأيام اللّٰه ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق وحذروه من الهلكة))(١).

---

(١) نهج البلاغة: ٣٩٧ من كلام له عليه السلام، رقم (٢٢٢)، وعنه بحار الأنوار ٦٦: ٣٢٥، ح٣٩.

وإن للواعـظ آداباً ينبغي أن يتحلى بها ويحرص عليها لتعينه على مراده وتوصله إلى غرضه وقصده.

١ ـ منها أن لا يواجـه المستمعين بالشـدة ولا يسـتقبلهم بالعنف، ولا يلومهـم، ولا يعيرهم لما في اللوم والتعيير من شدة التحمل لـه ومشقة الصبر علـيه، فـيكون الوعـظ حينـئذٍ سـبباً للـنفرة وداعياً إلى عدم الإصغاء، وموجباً للتـباعد عـن القبول والإقبال، وكثيراً ما يوقِع في عكس المقصود. بل الواجب اسـتعمال الرفق واللين، فإنه أوصل للقصد وأجلب للقلب وأقرب إلى مرضاة الـرب، ألا تـرى وتسـمع كـيف يأمـر اللّـه سـبحانه موسى وهارون أن يقولا لفـرعون الطاغـية المـتمرد: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(١) وإذا كـان يـرجى اسـتجلاب فـرعون وخشيته وتذكره على كبريائه وجبروتيته فكـيف غيره، وكم يكون من عداه قريباً من الحق حرياً بالخشية جديراً بالتذكر إذا وعظ باللين وخوطب بالرفق ودعى إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

روى الشـيخ المفـيد ﷺ في إرشـاده أن رسـول اللّه ﷺ لما قسَّم غنائم حـنين في قريش خاصة وأجزل القسمة للمؤلفة قلوبهم كأبي سفيان صخر بن حـرب وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمـرو وزهـير بـن أبـي أمـية وعـبد اللّه بن أبي أمية ومعاوية بن أبي سفيان وهشـام بن المغيرة والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن في أمثالهم، وقيل: أنه جعـل للأنصـار مـن ذلك شيئاً يسيراً. وأعطى الجمهور لمن سميناه فغضب قوم

---

(١) طه: ٤٤.

من الأنصار لذلك، وبلغ رسول الله ﷺ عنهم مقالا سخطه، فنادى فيهم فاجتمعوا ثم قال لهم: ((اجلسوا ولا يقعد معكم أحد من غيركم))، فلما قعدوا وجاء النبي ﷺ يتبعه أمير المؤمنين عليه السلام حتى جلسا في وسطهم فقال لهم: إني سائلكم عن أمر فأجيبوني عنه، فقالوا: قل يا رسول الله، قال: ألستم كنت ضالين فهداكم الله بي؟ قالوا: بلى، فلله المنة ولرسوله، قال: ألم تكونوا على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله بي؟ قالوا: بلى، فلله المنة ولرسوله، قال: ألم تكونوا قليلاً فكثركم الله بي؟ قالوا: بلى، فلله المنة ولرسوله، ألم تكونوا أعداءً فألّف الله بين قلوبكم بي؟ قالوا: بلى فلله المنة ولرسوله، ثم سكت النبي ﷺ هنية، ثم قال: ألا تجيبوني بما عندكم؟ قالوا: بم نجيبك فداك آباؤنا وأمهاتنا، قد أجبناك بأن لك الفضل والمن والطول علينا.

قال: أمَ لو شئتم لقلتم: وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمناك، وجئتنا مكذَّباً فصدقناك. فارتفعت أصواتهم بالبكاء وقام شيوخهم وساداتهم إليه فقبلوا يديه ورجليه، ثم قالوا: رضينا بالله وعنه وبرسوله الله وعنه، وهذه أموالنا بين يديك فإن شئت فاقسمها على قومك وإنما قال من قال منا على غير وَغْر صدر[1] وغلٍّ في قلب، ولكنهم ظنوا سخطاً عليهم وتقصيراً بهم، وقد استغفروا الله من ذنوبهم فاستغفر لهم يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: اللّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار. يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاة والنعم

---

(١) وغر الصدر: الضغن والعداوة. الصحاح ٢: ٨٤٦، مادة (وغر).

وترجعون أنتم وفي سهمكم رسول اللّٰه؟ قالوا: بلى، رضينا (١).

روى أبو فرج الأصبهاني في كتابه ((مقاتل الطالبيين)) ما مضمونه: إن أبا جعفر المنصور لما قتل إبراهيم بن عبداللّٰه بن الحسن بباخمرى بعث على العلويين الذين في المدينة فأتى بهم إلى الكوفة حيث مقر ملكه وسلطانه يومئذٍ، قال: فمكثوا شهراً يتوقعون القتل، ثم دخل عليهم الربيع بن يونس حاجب المنصور فقال: أين هؤلاء العلوية، ليدخل اثنان من ذوي الحجى منكم على أمير المؤمنين. وكان في العلويين الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام والحسن بن زيد، وكان زيد أسن من الصادق عليه السلام، ومن هنا قال له الصادق: اجعل لي الكلام اليوم. فلما دخلا قال المنصور للصادق: أنت الذي يعلم الغيب؟

إن المنصور لم يفهم الفرق بين علم الغيب والإخبار بالغيب، فظن لقلة علمه أن ما كان أخبر به الإمام الصادق هو علم غيب، وما هو علم غيب، إن الغيب لا يعلمه إلا اللّٰه، وإنما هو إخبار بالغيب أتاه من قبل آبائه عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم عن اللّٰه تعالى، ومن هنا جاء الاشتباه وظن كثير من الناس علم الغيب في الأئمة.

فقال الصادق: لا يعلم الغيب إلا اللّٰه تعالى. قال: أنت الذي يُجبى إليك هذا الخراج؟ قال: إليك يُجبى الخراج يا أمير. قال: أتدري لم أتيت بكم؟ قال: لا. قال: أريد أن أهدم رباعكم، وأعقر نخيلكم، أترككم بالشراة لا يقرب

(١) إرشاد المفيد ١ : ١٤٥ـ١٤٦ في غزوة حنين وتقسيم الغنائم.

إليكم أحد من أهل الحجاز ولا من أهل العراق فإنهم لكم مفسدة. قال الصادق عليه السلام: إن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وإن سليمان أعطي فشكر، وأنت من ذلك النسل، وكان المنصور متعصباً فتبسم ضاحكاً وقال: أعد عليَّ هذا القول، فأعاده، فقال: مثلك من يكون خطيب القوم ولأصلن رحمكم اليوم (١).

فانظر كيف كفَّ سورة غضبه وأعاده إلى رشده وحمله على صلة رحمه بلين كلمته. وهكذا ينبغي أن يكون الواعظ، وهل يقدر على أن يكون هكذا إلا عالم.

فهل انتفع المنصور بهذا الوعظ؟ لم ينتفع فقد أوقف الإمام مرة أخرى بين يديه حاسر العمامة.......إلخ.

آداب سامع الموعظة:

ولمن يستمع الموعظة آداب فما فني الناس بمرض أفتك في عقولهم وأردى لنفوسهم من عدم الاتعاظ، ومن الإعراض عن قبول النصيحة والموعظة. وإن من سد على نفسه هذا الباب فقد سد عليها كل باب من أبواب الخير، وكل سبيل من سبل الهداية والرشد. فأول واجبات المرء أن يأخذ نفسه به أخذاً شديداً ويحملها عليه حملاً مرغماً لا هوادة فيه، وليفضل الحضور في مجالس الوعظ والتذكير على كل أمر وإن عزَّ وعظم، وليقبل على الإصغاء والاستماع للواعظ بكل ما أوتي من فهم، وليحرص على أن يستمعه ويفهمه منه بكل

---

(١) مقاتل الطالبيين ١ : ٢٣٣ بتصرف.

ما عنده من قابلية واستعداد. وليعلم أن الانتفاع به يحتاج إلى أمرين:

الأول: إصلاح العقيدة، فإن فسدت عقيدته قلت عظته وعميت بصيرته وقسا قلبه ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ من الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ﴾(١).

الثاني: اجتناب كل محرم؛ فإنه يورث القسوة، ويحجب البصيرة، ويمنع من استماع الموعظة والتأثر بالنصيحة. وإن للقمة الحرام تأثيراً وضعياً حتى على النسل.

قال رسول الله ﷺ: ((لا يبغضك يا علي إلا ابن زنى أو ابن حيضة))(٢) وفي آخر ((أو مطعون في عجابته أو من تولد من لقمة حرام))(٣).

قال الحسين عليه السلام يوم الطف لمن أقدم على قتاله واستباح الفتك بعياله

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) اكسير العبادات واسرار الشهادات ٢ : ٤٥٥ ، وورد في كمال الدين ١ : ٢٦١ ب (٢٤)، ح٢ قوله ﷺ : يا علي لا يحبك إلاّ من طابت ولادته ، ولا يبغضك إلاّ من خبثت ولادته ولا يواليك إلاّ مؤمن ولا يعاديك إلاّ كافر... الخ، وكذلك ورد مثله في إحقاق الحق ٧ : ٢٢٢ ، ب(٢١٥) في ان من لم يعرف حق علي عليه السلام كانت أمه زانية او حملته من غير طهر أو منافق نقلاً عن المناقب المرتضوية : ٢٠٣ ، وينابيع المودة ١ : ١٤٩ ، ح١ ـ ١٥ بطرق مختلفة بلفظ : لا يبغضك يا علي إلاّ ابن زنا او ابن حيضة او منافق وبحار الانوار ٣٩ : ٢٤٦ ـ ٣١٠ حبه وبغضه صلوات الله عليه ، وأن حبه إيمان وبغضه كفر ونفاق.

(٣) مقتل الحسين ٢ : ٦ في خطبة له عليه السلام لما عبّأ أصحابه للقتال.

وأطفاله بعدما تقدم إليهم بمواعظه البالغة ونصائحه المنجية فلم يسمعوا، قال عليه السلام: وكيف تسمعون لي وقد ملئت بطونكم من الحرام.

مرّ بعض العلماء ببعض الشوارع ببغداد وإذا بطفلين أحدهما يشتم علي بن أبي طالب والثاني يدافع عنه، فقال: صدق رسول اللّه عليه السلام فسمعته أمهما فقالت: كيف؟ قال: صدق رسول اللّه. قال: كلمة. قالت: لا، ما قلتها إلا لشيء. فأخبرها بالحديث عن النبي: لا يبغضك ...إلخ.

فقالت: صدق رسول اللّه عليه السلام، وأخبرك أنهما ولداي وأني لست زانية لأن الحرة لا تزني، ولكن أخبرك أن الولد الذي يحامي عن علي قد دنا مني أبوه في طهر لم نباشر الحرام، وأما الثاني فقد شهد زوجي شهادة زور وأعطي عليها ديناراً فاشترى طعاماً وكنت تلك الليلة قد اغتسلت فدنا مني فحملت بالولد الثاني.

ويقال أن عالماً بالنجف أبى أن يتزوج إلا بامرأة تنزل على حكمه قالوا: ما حكمك؟ قال: إذا دخلت بيتي لا تأكل من بيت أحد حتى من بيت أبيها، فسمعت شابة عاقلة فقالت: نعم الزوج، فتزوجت به فلما حملت مرّ على البيت بائع رمان فأرادت أن تختبر الرمان حلو أم حامض فجعلت تثقبه بإبرة فوجدته كله حامض فلم تشتري، فلما ولدت غلاماً وكان له خمس سنين كان عند الشيخ سقاء مؤمن فكان الغلام يثقب القرب بإبرة فامتنع السقاء فسأله الشيخ لماذا فأخبره بما يصنع ولده. فقال الشيخ لزوجته: أأكلت طعاماً من بيت أحد؟ قالت: لا، ثم ذكرت صاحب الرمان. فسأل عنه فقالوا: لقد كان تاجراً، فأقبل إليه وقال له: أكنت قبل خمس سنين تبيع الرمان، قال: بلى

قال: إن زوجتي عملت معك هكذا، قال: أذكر ولقد بعت الرمان بخسارة، قال: كم قيمته؟ فأعلمه فأعطاه الثمن مضاعفاً خمس مرات، ثم قال للساقي تعال إلى البيت فأقبل فلم يرى منه إلا الحسن.

ولقد كان بعض السلف الصالحين من أهل العلم يقتاتون ببطن الاضطرار احتياطاً لأنفسهم من أكل الحرام، ويرون أن ما يأكلونه على هذا الوضع وإن كان حلالاً في الظاهر فإنه يحتمل أن يكون حراماً في الواقع فيقتصرون منه على ما يضطرون إليه، فإن كان حلالاً فقد انتفعوا بكبح جماح أنفسهم وقمعها عن شهواتها، وإن كان حراماً لا يضرهم؛ لأن لهم عند الاضطرار أن يتناولوا من الحرام بقدر ما يقيم صلبهم ويدفع الموت عن أنفسهم.

وقد كان حجة الإسلام الشيخ محمد طه نجف رضوان اللّه عليه يفتي بلزوم التقيؤ على من أكل حراماً ثم عرف حرمته بعد ازدراده.

والظاهر أن ذلك نظراً منه إلى أن الحرام يوجب ظلمة في النفس يبتعد بها المرء عن اللّه سبحانه.

وكان الأنبياء يبالغون في الاجتناب عن ذلك حتى أنهم اقتصروا على أن يأكلوا من كسب أيديهم، والذي لم يتهيأ له ذلك يأكل من حشائش الأرض ونباتاتها المباحة لسائر الحيوانات. فكان موسى يقتات من حشائش الأرض حتى كانت خضرة الحشيش تبان من صفاق بطنه وما سأل ربه حيث

قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[١] إلا الخبز يأكله. وكان عيسى يقول: زادي تقواي وراحلتي رجلاي وأكلي مما تنبت الأرض. وكان سليمان يسف الخوص ويأكل من ثمنها. وكذلك كان أبوه داود يصنع الدرع ويبيعها ويأكل ثمنها.. حدث السيد المرتضى رحمه الله في كتابه ((تنزيه الأنبياء)) أن داود عليه السلام كان في بدء أمره يأكل من بيت المال فسأل عن سيرة نفسه وكان المسؤول جبرئيل عليه السلام فقال: نعمة السيرة إلا أنه يأكل من بيت المال. وما كان ذلك حراماً عليه ولكن الله أراد أن ينزهه عن ذلك. فقال داود: لقد آلى داود على نفسه أن لا يأكل من بيت المال فلما علم الله منه صدق النية ألان له الحديد فكان يصنع منه الدروع فيبيعها ويأكل من ثمنها.

رووا أن محمداً صلى الله عليه وآله كان أكله من خبز الشعير، وما شبع من خبز بر قط[٢]، وكان أحب شيء إليه أن يكون خائفاً جائعاً. وكان أمير المؤمنين عليه السلام يضع خبز الشعير في جراب ثم يختم عليه خوفاً من الحسن والحسين عليهما السلام أن يلتانه بسمن أو زيت[٣]. وهو القائل: ((وكأني بقائلكم يقول: إذا كان قوت ابن أبي طالب هذا قعد به الضعف عن مبارزة الأقران ومنازعة

(١) القصص: ٢٤.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢٨ الفصل الثالث، في صفة أخلاقه صلى الله عليه وآله في مطعمه، وبحار الأنوار ١٦: ٢١٧، ح٤ و١٦: ٢٤٣.

(٣) بحار الأنوار ٤١: ١٣٧ وفيه: أنه كان ليأخذ السويق فيجعله في جراب ويختم عليه مخافة أن يزاد عليه من غيره.

الشجعان))(١).

وأنت ترى هؤلاء الأنبياء وأتباعهم ما كانوا يمنعون أنفسهم مما أحل الله لهم إلا لمثل هذه الملاحظات القيمة والله خبير بما يعملون.

وقلَّ مَنْ ينتفع بالموعظة!

لأنه من الصعب حتى على الجهبذ المعرفة بنفسيات الناس، والنفوذ إلى العلم بمنطوياتهم وإلى الاطلاع على سرائرهم، وفهم قابلياتهم واستعداداتهم. نعم ربما تطفح على وجه المرء أمارات وتظهر منه أفعال وأعمال تكشف عن منوياته ومخفياته إلا أن العالم بذلك قليل نادر، ولقد وضع الناس لذلك علماً خاصاً سموه علم الفراسة وهو نوع يعلم بالدلائل والتجارب. فمن ذلك قولهم: ((إن سعة الجبهة في الإنسان تدل على سعة خلقه، وعرض الصدر يدل على شجاعته)). ومن الفراسة ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بعض أحوال الناس بنوع من الكرامات وإصابة الحدس والظن. وهو المشار إليه في الحديث: ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله))(٢).

ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس في وقعة الجمل: ((لا تلقينّ طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨٩، من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وعنه بحار الأنوار ٣٣: ٤٧٥.

(٢) المعجم الكبير ٨: ١٠٢، ح٧٤٩٧، وكنز العمال ١١: ٨٨، ح٣٠٧٣٠، واتحاف السادة بشرح إحياء علوم الدين ٦: ٥٤٤، ٧: ٢٥٩، وبحار الأنوار ٢٤: ١٢٣ ب (٤٢) انهم عليهم السلام المتوسمون.

الذلول، و[لكن] الق الزبير فإنه ألين عريكة. وقل لـه: يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا مما بدا))[(١)].

لقد كان علي عليه السلام يعرف نفسيات الناس وينفذ بفكره النير إلى منوياتهم ومطوياتهم، عرف مصير همام وما ينتهي إليه حين سأله أن يصف له المتقين، فتثاقل عن جوابه حتى عزم عليه، فما انتهى أمير المؤمنين من كلامه حتى صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال عليه السلام: أما والله لقد كنت أخافها عليه. ثم قال عليه السلام: هكذا تصنع المواعظة البالغة بأهلها[(٢)].

ولاشك أن بعض النفوس لها قابلية واستعداد لتقلي الموعظة وقبولها والتأثر بها أكثر من بعض فإذا خرجت الموعظة من أهلها وصادفت محلها أثرت أثرها وفعلت فعلها.

ومن أولئك الأفذاذ الذين وعظوا بقليل الموعظة بشر الحافي، كان هذا الرجل في بدء أمره من أهل المعازف والملاهي. ذكر العلامة في منهاج الكرامة سبب اتعاظه وتوبته هو أنه اجتاز مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على داره ببغداد فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصف فخرجت من تلك الدار جارية وبيدها قمامة فرمت بها في الدرب فقال لها عليه السلام: يا جارية؛ صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ فقالت: بل حر، قال: صدقتِ، لو كان عبداً لخاف من

---

(١) نهج البلاغة: ٦٢ من كلام له عليه السلام لما أنفذ عبدالله بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل، رقم[٣١]، وعنه بحار الأنوار ٣٢: ٧٥، ح٤٩.

(٢) نهج البلاغة: ٣٥٤ من خطبة له عليه السلام يصف فيها المتقين، رقم الخطبة [١٩٣].

مـولاه. فـلما دخلـت قـال مولاهـا وهو على مائدة السكر: ما أبطاك؟ فقالت: حدثـني رجـل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتى لقي الإمام موسى الكاظم عليه السلام فتاب على يديه واعتذر وبكى لديه استحياءً من عمله (١).

ويظهر أنه قد أخلص للّه التوبة حتى كان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد وتفرد بوفور العقل وأنواع الفضل.

ولا جـرم أنـه أخلـص للّـه كذلـك واستفاضـت الحكمـة من قلبه على لسانه.

ومن حكميات قوله: ((عقوبة العالم في الدنيا أن يعمى بصر قلبه))(٢).

وقوله: ((من طلب الدنيا فليتهيأ للذل))(٣).

وقوله: ((اجعل الآخرة رأس مالك فما أتاك من الدنيا فهو ربح))(٤).

وسئل عـن القـناعة فقـال: لـو لم يكن في القناعة شيء إلا التمتع بعز الغنى لكان ذلك يجزي. ثم أنشأ يقول:

أفـــادتني القـــناعة أيَّ عـــز ... ولا عـــز أعـــز مـــن القـــناعةْ

فخـــذ مـــنها لنفســـك رأس مـــال ... وصـــير بعدهـــا الـــتقوى بضـــاعةْ

---

(١) الكنى والألقاب ٢ : ١٦٨ في بشر الحافي وتوبته على يد الإمام موسى الكاظم عليه السلام نقلاً عن منهاج الكرامة: ٥٩ الفصل الثاني.

(٢) الكنى والألقاب ٢ : ١٦٨ في بشر الحافي وتوبته على يد الإمام موسى الكاظم عليه السلام.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

تحـز حـالين، تغـنى عـن بخـيل وتسـعد في الجـنان بصـبر ساعة(١)

وهل نال أحد الجنان بصبر ساعة؟

نالها من عظمت الأخرة عنده وصغرت الدنيا بين عينيه، كأصحاب أبي عبدالله الحسين عليه السلام.

لقـد صـبروا لا ضـيع اللّـه صـبرهم

إلى أن فـنوا مـن حولـه وأبـيدوا

يقـول الفقـيه المعـتمد عـز الديـن الحسـين بن عبد الصمد [بن الشيخ شمـس الديـن محمـد الجـباعي الحراثي العاملي] والد البهائي في كتابه المسمى بـ((العقـد الطهماسـبي)): إن بعض الملوك والأكابر من أهل الدنيا إذا علت همـتهم وكـثر عـلمهم باللّـه ولحظـتهم العـناية الربانية تركوا الدنيا بالكلية وتعلقوا باللّه وحده كإبراهيم بن أدهم(٢) وبشر الحافي(٣) وأصحاب الكهف والملـك الذي رد على العابد سحابته... إلخ؛ فإنهم لكمال رشدهم لا يرضون أن يشغلوا قلوبهم بغير اللّه تعالى لحظة عين (٤).

فـإن الموعظـة الـتي أثرت في إبراهيم بن أدهم ذلك الأثر ونقلته مما كان

---

(١) الكنى والألقاب ٢: ١٦٩ في بعض أشعاره في الزهد والقناعة.

(٢) إبراهـيم بـن أدهـم بـن منصور بن يزيد بن جابر، القدوة الإمام العارف، سيد الزهاد، أبو إسحاق العجلي. سير أعلام النبلاء ٧: ٣٨٧، رقم الترجمة [١٤٢].

(٣) أبـو نصـر بشـر بـن الحارث بن عبدالرحمن المروزي الأصل بغدادي المسكن العارف الزاهد المشتهر أحد أركان رجال الطريقة. الكنى والألقاب ٢: ١٦٧.

(٤) أعيان الشيعة ٦: ٦٠ في ترجمة الشيخ حسين بن عبدالصمد الأول.

عليه من عز الملك والسلطان إلى اختيار الفقر والهوان والسياحة في الممالك والبلدان أمر عظيم. قال صاحب ((روضات الجنات)): نقل في سبب توبته أنه نظر يوماً إلى رجل ساكن في ظل قصره قد أخرج من جراب خلق كان عنده رغيف كعك فأكله وشرب عليه من ماء كان معه ثم استلقى على قفاه ونام فقام إبراهيم من رقدته وأخذ يتفكر في النفس إذا كانت تقنع بمثل هذا فما نصنع بالدنيا وزخارفها التي لا تبقى إلا حسرة في صدورنا حين وداعنا إياها؟ ثم خرج في ساعته من زي الملوك وأخذ طريقة الفقراء في السير والسلوك[١].

ونقل أنه كان في الصيد ومعه حاشيته وخدمه وقد أعدوا له مائدة وضعوا بها جدياً مشوياً، فلما رجع هو ومن معه من أصحابه رأى طائراً انقض على ذلك الجدي فاحتمله وطار به، فلحقه الفرسان الذين كانوا معه على خيولهم يتوقعون إدراكه لكونه مثقلاً فرأوه قد انحط إلى جهة هناك فتبادروا إليه وإذ يرون هناك رجلاً مكتوفاً والطير يأخذ اللحم بمنقاره ويضعه في فمه، فلما رآهم طار، وسألوا الرجل، فقال: إني تاجر وصلت لهذا المكان على هذه الحال، وإني منذ سبعة أيام وهذا الطائر يأتيني برزقي، فحلوا كتافه وأتوا به إلى إبراهيم، فاتعظ به.

وكيف كان فإنه ممن وعظ بقليل الموعظة فاتعظ وتاب ونصح في توبته وأخلص في عمله، وإن له أفعالاً حميدة وأقوالاً عالية جميلة.

فمن أفعاله اعتزاله عن الناس وانقطاعه للعبادة وطلبه الحلال من المال

---

(١) روضات الجنات ١ : ١٣٩ ـ ١٤٠ باب ما أوله الهمزة.

وأكله من كسب يده والتحاقه بالأئمة من آل محمد ﷺ.

ومن أخباره أنه قال: قدمت بغداد فعملت بها أياماً فلم يصف لي بها شيء من الحلال، فشاورت في ذلك بعض العلماء فقالوا: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام. فصرت إلى مدينة يقال لها المنصورة، فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد، فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ، فقال لي: إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرسوس، فإن فيها المباحات والعمل الكثير، فتوجهت إلى مدينة طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد(١).

ومن أقواله وقد نزل من جبل فقيل له: من أين أقبلت؟ قال: من الأنس بالله.

وأنه كان لا يصحب الناس فقيل له في ذلك؟ قال: إن صحبت من هو دوني آذاني بجهله، وإن صحبت من هو فوقي تكبر عليّ، وإن صحبت من هو مثلي حسدني، فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملال، ولا في وصله انقطاع، ولا في الأنس به وحشة (٢).

وقال لشقيق البلخي وقد قدم مكة وإبراهيم بن أدهم فيها فقال إبراهيم بن أدهم: يا شقيق على ما أصّلتم أصولكم؟ فقال شقيق: أصّلنا أصولنا على أنا إذا رزقنا أكلنا وإذا منعنا صبرنا. فقال إبراهيم: هكذا كلاب

---

(١) روضات الجنات ١ : ١٤٥ باب ما أوله الهمزة.

(٢) نفس المصدر.

بلخ، إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت. فقال شقيق: فعلى ماذا أصّلتم أصولكم يا أبا إسحاق؟ قال: أصلنا أصولنا على أنا إذا رزقنا آثرنا وإذا منعنا حمدنا وشكرنا. فقام شقيق وجلس بين يديه وقال: يا أبا إسحاق أنت أستاذنا(١).

وكتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري: ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال السفه، ومن طال أمله أساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه(٢).

ومنهم النعمان بن المنذر صاحب الخورنق. قال البستاني في كتابه ((دائرة المعارف)) ما مضمونه: إن النعمان صعد ذات يوم إلى غرفة من غرف قصره الخورنق فنظر إلى نهر العاقول يجري من تحته فأعجبه ذلك ودخل عليه في تلك الحال وزيره، وكان رجلاً عاقلاً، فقال له النعمان: أرأيت أجمل من هذا؟ يشير إلى تلك المناظر، فقال له: لا أيها الملك، لو كان يدوم، فقال النعمان: وهل هناك شيء يدوم؟ قال الوزير: نعم، الجنة نعيمها دائم، ثم وصفها له. فقال النعمان: بماذا تنال؟ قال الوزير: بطاعة اللّه والانقطاع إلى عبادته. فقام النعمان من فوره وخرج من القصر فلم يعد إليه ولا عُلم أين ذهب إلى الآن.

وهذا حديث غريب جداً ووجه غرابته أن الملوك بعيدون عن قول

---

(١) روضات الجنات ١ : ١٤٦ باب ما أوله الهمزة.

(٢) روضات الجنات ١ : ١٤٧ باب ما أوله الهمزة.

الموعظة وعن الاتعاظ بها مهما بلغت من البلاغة وتعالت في أساليب الإقناع. إن زهو الملك وكبرياءه والإعجاب بالنفس والغرور بما في أيديهم ووقوعه موقع الرضا والقبول في أفئدتهم وانكفائهم عليه وحبهم إليه غشي على بصائرهم وأبعدهم عن النظر والالتفات إلى مصائرهم فكيف يقبلون على واعظ أو يلتفتون إلى لفظ لافظ. ولكن لا استبعاد في ذلك فإنه لخواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص، وإن النعمان كان من الفهم ودقة الإحساس وحدة الخاطر وغلبة العقل وكماله في نفوذه وسلطانه بمنزلة لا توصف، وهذا قليل في الناس وحق لأولئك القليل أن يرفع ذكرهم وينشر خبرهم ويعلن أمرهم ليقتدى بها ويهتدى إلى طريقهم وليجري من كان له قلب على سبيلهم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

نعم هؤلاء قليلون كسعيد بن مرة التميمي من أهالي البصرة، كان كثير المال في سعة من العيش ووصل كتاب الحسين إلى أهل البصرة ليلة تزويجه بابنة عمه فترك زوجه وماله من المال والتحق بالحسين وقتل شهيداً بين يدي الحسين وهو آخر الشهداء.

المرأة في الإسلام

قال علي عليه السلام:

((ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. ولا تعد بكرامتها نفسها، ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها. وإياك والتغاير في غير موضع غيرة فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم والبريئة إلى الريب))(١).

ليس بوسع أي أحد أن يفسر كلامه عليه السلام تفسيراً يؤدي إلى المقصود؛ فقد اختلف الشراح في إيضاح هذا الكلام الوارد عنه عليه السلام فقال البعض منهم: إن الإمام يقصد بذلك أن لا تكلف المرأة مشاقاً وأتعاباً طالما خرجت عن طاقتها ولا كان في مقدورها الإتيان بها؛ لأن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة.

وقال آخر: إن معنى ذلك أن لا تكلف المرأة بشيء أصلاً، ولا يحق لزوج أن يأمر زوجه أياً كان ذلك الأمر؛ لأن الشارع المقدس احترمها ورفع من مقامها وجعل الغاية من اتخاذ الرجل إياها غاية شريفة وهي إنجاب النسل والعملية التناسلية، حق مشترك بينهما، فهي حق من حقوق الزوجة وهي حق من حقوق الزوج؛ إذ يجب على الزوجة مطاوعة الزوج متى طلب منها حقه،

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧٢، من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليه السلام، رقم ٣١، وعنه بحار الأنوار ٧٤: ٢١٦، وعلي والأسس التربوية: ٧٧٩.

وعلى الزوج أداء حق الزوجة بإشباع رغبتها الجنسية ما أمكنه ذلك. وإذا لم يجد الرجل في قلبه ذرة من حب وكمية من ود فما عليه إلا تأدية حقها في كل أربعة أشهر ما لم يمنعه مانع أو يصده صاد.

وقال بعض آخر: إن المراد أن لا يجعل الرجل من المرأة رجلاً آخر تعمل معه وتنزل معه إلى السوق لتواجه جميع الطبقات من الناس وتشاركهم في مهام الأمور وتتسنم المناصب الراقية لأنها رقيقة القلب حساسة المشاعر تتألم وتنفعل بسرعة وتتحول وتتغير من طبيعة إلى أخرى كالطفل، فلذلك لا يصح لها أن ترتقي مناصب الحكم والقضاء، ولا أن تخدم المجتمع خدمة فيها شيء كثير من عناء الفكر والجسد؛ لأنها ريحانة وليست بقهرمانة.

كانت الخيزران كثيراً ما تكلم موسى الهادي، ابنها ـ لما استخلف ـ في الحوائج، وكان يجيبها إلى كل ما تسأل حتى مضت أربعة أشهر من خلافته، وقد انثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو على بابها، فكلمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً، واحتج عليها بحجة، فقالت: لابد من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إني ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك، فغضب الهادي وقال: ويلي علي لابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها لك قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذن والله لا أبالي، فقامت مغضبة، فقال: مكانك فاستوعبي كلامي، والله وإلاّ نفيت من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو من خدمي وكتّابي على بابك لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل

يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك. إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي. فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها حتى هلك(١).

ويذكر المسعودي في أواخر ((مروج الذهب)) أحوال محمد الأمين أنه لما قتل محمد الأمين دخل على زبيدة بعض خدمها فقال لها: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد؟ فقالت: ويلك، وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان. فقالت إخسأ لا أمٍّ لك ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال(٢).

أجل لا تكلف المرأة فوق طاقتها لأنها متعة ولذة وليست خادمة تستخدم لأشق الأمور وأصعبها. نحن نريد أن نراها أمام أبصارنا تتحرك وتمشي بحسن واعتدال؛ لكي نتمتع بإطالة النظر إليها، وتبتهج نفوسنا بها كلما اجتمعنا على المائدة تحدثنا عن أمر أولادها وصغارها وما كانوا يصنعون في البيت حينما نغادر إلى أعمالنا وما يحدثونه من لغط وضوضاء، فكانوا بذلك يؤدون حق الطفولة وواجبها.

والإسلام لا يريد للمرأة الخمول والجمود والجهل والغباوة بل يريد لها الحشمة والوقار والعفة والرزانة وليس هذا بمنغص لحياتها الدراسية ولا مكدر لحياتها العملية، فإنها تستطيع أن تجعل من عفافها وحجابها مدرسة علوم

---

(١) مروج الذهب ٣: ٣٣٧ ـ ٣٣٨ في ذكر جمل من أخباره وسيره.

(٢) مروج الذهب ٣: ٤٢٤ في ذكر جمل من أخباره وسيره.

ومعارف، ومن وراء ذلك تنفع المجتمع الإسلامي بما تسديه من خدمة صحيحة غير مشوبة بجهل ولا دعارة ولا ممزوجة بتبذل وخلاعة. فإذا كانت هذه بنتاً وهي كما نريد صارت في بيت أبيها كالسراج الذي ينير في جنباته فيسعد أهلها بعفتها ومعرفتها ويرتاح أبوها من الخوف عليها، وإن صارت في بيت زوجها كانت تاج رأسه وملكة قلبه، وإذا أعقبت أنجالاً صارت الأم الرؤوم الحنون والمدرسة السيارة لهم تغرس في نفوسهم بذور الخير للإنسانية.

هذه بعض الجوانب البارزة في النظام الإسلامي بالنسبة إلى المرأة.

وفي الشرق (هيجة) تسمى حقوق المرأة والمطالبة بالمساواة الكاملة مع الرجل. وفي وسط هذه الهيجة التي تشبه الحمّى يهذي بعض المحمومين والمحمومات باسم الإسلام، بعضهم للتوريط يقول: إن الإسلام قد ساوى بين الجنسين في كل شيء. وبعضهم جهلاً منه أو غفلة يقول: إن الإسلام عدوّ المرأة ينتقص كرامتها ويهين كبرياءها ويحطم شعورها بذاتها ويدعها في مرتبة أقرب للحيوانية، متاعاً حسياً للرجل، وأداة للنسل ليس غير، وهي في هذا كله في موضع التابعة للرجل يسيطر عليها في كل شيء ويفضُلُها في كل شيء.

وهؤلاء وأولئك لا يعرفون حقيقة الإسلام أو يعرفونها ثم يلبسون الحق بالباطل ابتغاء الفتنة ونشراً للفساد في المجتمع ليسهل الصيد لمن يريد الصيد في الأقذار.

المرأة بين الغرب والإسلام:

وإذا أردت أن تدرس حقيقة وضع المرأة في الإسلام اعرف قضية المرأة في أوربا وفي العالم كله. كانت هملاً لا يحسب له حساب، وكان العلماء

والفلاسفة يتجادلون في أمرها، هل لها روح أم ليس لها روح؟! وإذا كانت لها روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية؟! وعلى فرض أنها ذات روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعي والإنساني بالنسبة للرجل هو وضع الرقيق أم هو شيء أرفع قليلاً من الرقيق؟!.

أما المرأة في عرف الإسلام فهي كائن إنساني له روح إنسانية من نفس النوع الذي منه روح الرجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(١) فهي إذن الوحدة الكاملة في الأصل والمنشأ والمصير، والمساواة الكاملة في الكيان البشري، تترتب عليها كل الحقوق المتصلة مباشرة بهذ الكيان، فحرمة الدم والعرض والمال والكرامة، التي لا تجوز أن تلمز مواجهة أو تغتاب، ولا يجوز أن يتجسس عليها أو تقتحم الدور، كلها حقوق مشتركة لا تمييز فيها بين جنس وجنس. والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾(٢)، ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾(٣)، والجزاء في الآخرة واحد للجنسين ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١١.

(٣) الحجرات: ١٢.

بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾(١).

وتحقيق الكيان البشري في الأرض متاح للجنسين، الأهلية للملك والتصرف فيه بجميع أنواع التصرف من رهن وإجارة ووقف وبيع وشراء... إلخ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾(٢).

ولم يكتف الإسلام بتحقيق كيان المرأة في مسألة الملكية بل حققه في أخطر المسائل المتعلقة بحياتها وهي مسألة الزواج فلا يجوز أن تزوج بغير إذنها ولا يتم العقد حتى تعطي هي الإذن، ((لا تزوج الثيب حتى تستأمر ولا تزوج البكر حتى تستأذن وإذنها صمتها))(٣) ويصبح العقد باطلاً إذا أعلنت أنها لم تبدي موافقتها عليه.

وقد كانت المرأة في غير الإسلام تحتاج إلى سلوك طرق ملتوية لتتهرب من زواج من لا تريده لأنها لا تملك شرعاً ولا عرفاً أن ترفض، ولكن الإسلام أعطاها هذا الحق الصريح تستخدمه متى أرادت، بل أعطاها الحق في أن تخطب لنفسها، وهو آخر ما وصلت إليه أوربا في القرن العشرين وحسبته

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) النساء: ٣٢.

(٣) قرب الاسناد: ١٥٩ وذكر الحديث عن الرضا عليه السلام قال: في البكر إذنها صمتها والثيب أمرها إليها، وعنه بحار الأنوار ١٠٠: ٢٧٣، ب (٦٣)، الدعاء عند إرادة التزويج، ح٢٤، وفي النهاية: ٤٦٧ بلفظ والمرأة إذا كانت ثيباً، مالكه لأمرها... إلخ.، وتهذيب الأحكام ٧: ٣٤٥-٣٤٦ في عقد المرأة على نفسها النكاح.

انتصاراً هائلاً على التقاليد البالية العتيقة.

ويبلغ تقرير الإسلام لمقومات الكيان البشري في عصور كان يغشاها الجهل والظلام أن اعتبر العلم والتعلم ضرورة بشرية، ضرورة لازمة لكل فرد لا لطائفة محدودة من الناس فقرر للملايين حق التعلم، بل جعله فريضة وركناً من الإيمان باللّه على طريقة الإسلام، ((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة))(١).

إلى هذا الحد وصل تكريم الإسلام للمرأة.

ولكن الإسلام بعد هذه يعد تقرير المساواة الكاملة في الإنسانية والمساواة في جميع الحقوق التي تتصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع، يفرّق بين الرجل والمرأة في بعض الواجبات. وهنا الضجة الكبرى التي تثيرها نساء المؤتمرات ويثيرها معهن كتّاب ومصلحون وشباب يعلم اللّه أنهم لم يريدوا بدعوتهم وجه الإصلاح، بل يريدون بها أن يجدوا المرأة سهلة التناول في المجتمع وفي الطريق. وللّه در الصافي النجفي إذ يقول:

الناس سموا عصر نور عصرهم   جهلاً كمن سمى الظلام النورا

فإذا هم بعلومهم يوماً مشوا   فبخلقهم يتقهقرون دهورا

ويقول آخر:

هذه نساء المسلمين حواسر   بين الرجال ولا من ينكر

---

(١) مجمع البيان ١: ٣٢، وبحار الأنوار ١: ١٧٧. عن عوالي اللآلئ، وعن الطبراني في المعجم الكبير ١٠: ٢٤٠ وغيره بلفظ: طلب العلم فريضة على كل مسلم.

الغيرة بين السلب والإيجاب:

ويمضي عليه السلام في تحذير ولده ووعظه فينهاه عن التغاير في غير موضع الغيرة؛ لأن ذلك يؤدي إلى ما يحذر منه.

فيجب عليك أيها الزوج أن لا تتوسع في الغيرة فإن ذلك مما يسبب لك عاقبة وخيمة، وقد ينهيك إلى العار والشنار؛ فإن الرجل إذا احتاط وتحذر كثيراً على امرأته قد يبصرها بما لم تكن تبصره من قبل فيوقعها فيما كان يحذر عليها، ويقع هو فيما كان يخشاه ويتجنبه. وهذا معنى قوله: ((فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم، والبريئة إلى الريب))(١).

ما أحسن الغيرة ولكن في محلها وما أقبح الغيرة لو وقعت في غير موقعها.

دخل خالد بن معمر السدوسي على معاوية وهو من جملة الداخلين على معاوية، فقال له: يا خالد أعلمت ما نذرت في قومك؟ نذرت أن أقتل مقاتلهم وأسبي نساءهم وأفرق بين الأمهات والأولاد يباعون بالمجلب (السوق) فقال خالد: أعد علي ما قلت فأعاد عليه الكلام فانتفخت أوداجه وقال:

تمنى ابن حرب نذرة في نسائنا ودون الذي ينوي سيوف قواضب(٢)

قال من روى وحضر: خلناه يموت غيظاً عندما ذكرت نساءه في مجلس

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧٢، في وصيته لولده الحسن. الرأي في المرأة رقم [٣١]، وعنه بحار الأنوار ١٠٠: ٢٥٢، ح٥٤.

(٢) وقعة صفين: ٤٢٩ ذكر القصة مختصرة، وعنه الغدير ١٠: ٢٨٨.

معاوية... للّه صبرك يا زين العابدين تطلب أخته خادمة في مجلس يزيد[١].

الغيرة هي الأنفة والحمية، وهي السعي في محافظة ما يلزم حفظه من الدين والعرض، وهي من نتائج الشجاعة وكبر النفس. وقوتها من شرائف الملكات وبها تتحقق الرجولية والفحلية، والفاقد لها غير معدود من الرجال. وفقدانها من نتائج صغر النفس وضعفها وهو من المهلكات العظيمة، وربما يؤدي ذلك إلى الدياثة والقيادة.

قال علي عليه السلام: ((من لا يغار فهو منكوس القلب))[٢].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: ((إذا أُغير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكه فلم يغر ولم يغير بعث اللّه إليه طائراً يقال له القفندر حتى يسقط على عارضة بابه ثم يمهله أربعين يوماً ثم يهتف به: إن اللّه غيور يحب كل غيور، فإن هو غار وغير وأنكر ذلك فأكبره وإلا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه ثم يطير عنه فينزع اللّه منه بعد ذلك روح الإيمان وتسميه الملائكة الديوث))[٣].

والغيرة من صفات اللّه وصفات أنبيائه. في ((عيون الأخبار)) عن الرضا عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((كان إبراهيم أبي غيوراً وأنا أغير منه

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٦٩.

(٢) المحاسن: ٨٧، ح١١٦، وعنه بحار الأنوار ٧٦: ١١٥، وميزان الحكمة ٧: ٣٥٧، ح١٥٢٦٦.

(٣) وسائل الشيعة ٢٠: ١٥٣ ب (٧٧) وجوب الغيرة على الرجال، ح٢٥٢٨٥، ح٢٥٢٨٥ وج١٤ : ١٠٨، ح٤، وميزان الحكمة ٧: ٣٥٨، ح١٥٢٦٩، والرسالة العاصمة: ٣٢.

وأرغم اللّه أنف من لا يغار من المؤمنين))(١).

وفي النبوي: إن سعداً غيور وأنا أغير منه واللّه أغير منا (٢)، وإذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب وأذاقه اللّهً غايتها ـ أي غضبها ـ فغضب اللّهً في الدنيا هو سلب التمكن أو تعجيل عقوبة الظالم عند إرادة التجاسر إلى حرم أنبيائه وأوليائه كما غضب لأجل سارة بنت لاحج حرم إبراهيم الخليل والعشار القبطي وغرارة سلطان القبط حيث شلت ويبست يداه بمجرد إرادة التطلع إلى حرم إبراهيم عليه السلام عندما كرر ذلك ثلاث مرات، وتمام القصة كما هو مذكور في الكافي(٣) وتفسير البرهان والمجلد الخامس من البحار ص١٢٤.

لما أخرج النماردة ـ أتباع نمرود ـ نبي اللّهً إبراهيم من بلادهم إلى الشام قال عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(٤) يعني بيت المقدس فتحمل إبراهيم عليه السلام بماشيته وماله وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة وشد عليها الأغلاق غيرة منه ومضى حتى خرج من سلطان نمرود وسار إلى سلطان رجل من القبط

---

(١) مكارم الأخلاق: ٢٣٩، في نوادر النكاح، وعنه بحار الأنوار ١٠٠: ٢٤٨، ح٢٣، والمحاسن: ٨٨ ب (٥٤) عقاب من لا يغار، ح١١٧.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٣٩ في تفسير سورة النور آية ٥٦، والكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ٤: ٥٤، ح ١٧٧٠٢ مثله.

(٣) الكافي ٨: ٢٥٠، ح٥٦٠، وعنه بحار الأنوار ١٢: ٤٤، ح٣٨، وتفسير البرهان ٦: ٤٣٣ في تفسير سورة الصافات آية ٩٩.

(٤) الصافات: ٩٩.

يقال له ((عرارة)) فمر بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشر ما معه فلما انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم افتح هذا التابوت حتى نعشر ما فيه، فقال له إبراهيم: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتى نعطى عشرة ولا نفتحه، قال: فأبى العاشر إلا فتحه.

قال: فغضب إبراهيم على فتحه، فلما بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال، قال له العاشر: ما هذه المرأة منك، قال إبراهيم عليه السلام: حرمتي وابنة خالتي، فقال العاشر: فماذا دعاك إلى أن خبأتها في هذا التابوت؟ قال إبراهيم عليه السلام: الغيرة عليها أن يراها أحد، فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أعلم الملك حالها وحالك.

قال: فبعث رسولاً إلى الملك فأعلمه، فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتونه بالتابوت، فأتوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم عليه السلام: إني لست أفارق التابوت حتى تفارق روحي جسدي، فأخبروا الملك بذلك فأرسل الملك أن احملوا التابوت معه، فحملوا إبراهيم والتابوت وجميع ما كان معه حتى أدخل على الملك فقال له الملك: افتح التابوت، فقال إبراهيم عليه السلام: أيها الملك إن فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتدٍ فتحه بجميع ما معي، قال: فغضب الملك إبراهيم على فتحه، فلما رأى سارة لم يملك حلمه سفهه دون أن مد يده إليها، فأعرض إبراهيم وجهه عنها وعنه غيرة منه وقال: اللّهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي. فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه.

فقال [له] الملك: إن إلهك هو الذي فعل بي هذا، فقال له: نعم، إلهي غيور ويكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردت [من الحرام] فقال له

الملك: فادع إلهك يرد عليّ يدي فإن أجابك لم أعرض لها، فقال إبراهيم عليه السلام : اللّهم رد إليه يده ليكف عن حرمتي، فرد اللّه عزّ وجلّ إليه يده. فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم بوجهه عنه غيرة منه، وقال: اللّهم احبس يده عنها، قال فيبست يده ولم تصل إليها، فقال الملك لإبراهيم: إن إلهك لغيور وإنك لغيور فاسأل إلهك يرد عليّ يدي ولا أعود، فقال إبراهيم أسأله ذلك على أنك إن عدت لم تسألني أن أسأله، فقال الملك: نعم، قال إبراهيم: اللّهم إن كان صادقاً فرد يده، فرجعت إليه يده، فلما رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى ورأى الآية في يده عَظَّم إبراهيم وهابه وأكرمه واتقاه وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها أو لشيء مما معك فانطلق حيث شئت، ثم وهب هاجر لسارة (١).

فاللّه غيور مع حرم أنبيائه وأوليائه. أوما قرع سمعك حديث يوم الحرة ونهب المدينة بجيش يزيد بن معاوية وعليها مسلم بن عقبة المري؟!(٢).

سأل ليث الخزاعي سعيد بن المسيب عن أنهاب المدينة، قال نعم: شدوا الخيل إلى أساطين مسجد النبي صلى الله عليه وآله فرأيت الخيل حول القبر، وانتهب المدينة ثلاثة أيام فكنت أنا وعلي بن الحسين نأتي قبر رسول اللّه صلى الله عليه وآله فيتكلم علي بن الحسين بكلام لم أقف عليه فيحال ما بيننا وبين القوم ونصلي ونرى القوم وهم لا يروننا.

---

(١) الكافي ٨: ٢٥٠، ٥٦٠، وعنه بحار الأنوار ١٢: ٤٤، ح٣٨.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ١٦، ما ذكر أيضاً من أمر وقعة الحرة.

وقـام رجـل عليـه حلل خضر على فرس محذوف أشهب بيده حربة مع علـي بـن الحسـين عليه السلام فكان إذا أومى الرجل إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وآله يشير ذلـك الفـارس بالحربة نحوه فيموت قبل أن يصيبه، (وذلك لما يرضي اللّه جل جلالـه مـن الـتعرض لحـرم أبـناء رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله) فـلما أن كفـوا عـن والنهب[1]...

أومـا بلغـك حديـث الإمام أبي الحسن علي الرضا عليه السلام والجلودي يوم هجومه في المدينة على دار موسى بن جعفر وحرمه.... إلخ كيف عجل اللّه فيه بالانتقام لجرأته على بنات رسول اللّه صلى الله عليه وآله[2].

وغـير خافٍ عليك سرعة انتقام اللّه من الشامي لما أشار بيده إلى فاطمة بنت الحسين في مجلس يزيد فقطعت يده[3].

فهـذا قلـيل من كثير من غيرة اللّه على حرم أهل البيت، وأما صونهن عـن الـنظر فقـد صـح أن الحسـين عليه السلام أمرهن في ساعة التوديع بالتأهب لما سـيكون بإلقاء ما عليهن من الحلي والزينة بما لا يرغب فيه أحد مع أنهن كن مغشيات بالهيبة الإلهية، محجبات بالكسوة النورية كما قال القائل رحمه الله:

وتلـك الرهـيفات الحجـاب عواثـر   بأذيالهـــا لكـــنما الدهـــر عاثـــر

---

(١) قال سعيد بن المسيب: سألت الإمام عن هذا الفارس فقال ملك من الملائكة استأذن اللّه في نصرتنا أهل البيت. انظر: مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٨٥ في معجزاته عليه السلام.

(٢) عيون أخبار الرضا ٢ : ١٥٩ ، ح٢٤ ، وعنه بحار الأنوار ٤٩ : ١٦٧ ، ح٥.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ١ : ١٦٠.

تجـلى لها نـور الجـلال إلى الـورى   عـلى هيـئة لا أنهـن حواسـر

ويقـول المـرحوم السـيد حـيدر الحلـي في قصـيدته ((اللّـه يـا حـامي الشريعة)):

سـلبت ومـا سـلبت محـامد   عـزها الغـر الـبديعة

وبعدما قالها مباشرة رأى الإمام الحجة فأنشده إياها. فأهاجه هذا البيت:

حملـت ودائعكـم إلى   مـن لـيس يعـرف مـا الوديعـة [1]

فقال الإمام: حسبك يا سيد.

(١) أعيان الشيعة ٦ : ٢٦٨ في ترجمة السيد حيدر الحلي.

أنواع الحمية

الغيرة هي الحمية، وهي أنواع ثلاثة: حمية النسب، وحمية العرض، وحمية الدين.

١. حمية النسب:

أما حمية النسب فأظهر ما تكون في العرب، وإليك طرفاً من مظاهرها فيهم.

كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً، ودخل على سليمان بن عبدالملك فأنشد شعراً فخر فيه بآبائه وقال من جملته:

تاللّه ما حملت من ناقة رجلا (١)   مثلي إذ الريح لفتني على الكور

فقال سليمان: هذا المدح لي أم لك؟ قال: لي ولك، فغضب سليمان وقال: قم - فاتمم ولا تنشد بعده إلا قائماً، فقال الفرزدق: لا واللّه أو يسقط إلى الأرض أكثري شعراً، فقال سليمان: ويلي على الأحمق [ابن الفاعلة إلا يكنى] وارتفع صوته، فسمع الضوضاء بالباب فقال سليمان: ما هذه؟ قيل له: بنو تميم على الباب يقولون: الفرزدق لا ينشد قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا، قال: فلينشد قاعداً (٢).

---

(١) في المصدر: ما حمّلت ناقة من معشر رجلاً. الأغاني ٢١ : ٢٤٤ نسب الفرزدق.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦ : ١٢٩ ، في اعتزاز الفرزدق بقومه.

ومن لم يكن له عشيرة سحب في مجلس عبيدالله بن زياد (١).

ووفد الوليد بن جابر بن ظالم الطائي على معاوية أيام استقامة الوفود له، فدخل عليه في جملة الناس، فلما انتهى إليه استنسبه فانتسب له فقال: أنت صاحب ليلة الهرير؟ قال: نعم، قال: والله ما تخلو مسامعي من رجزك تلك الليلة وقد علا صوتك أصوات الناس وأنت تقول:

شدوا فداء لكم أمي وأب فإنما الأمر غداً لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتجب تنمه للعلياء سادات العرب

ليس بموصوم إذا نص النسب أول من صلى وصام واقترب

قال: نعم، أنا قائلها. قال: فلماذا قلتها؟ قال: لأنا كنا مع رجل لا نعلم خصلة توجب الخلافة ولا فضيلة تصير إلى التقدمة إلاّ وهي فيه مجموعة، أول الناس سلماً وأكثرهم علماً وأرجحهم حلماً فات الجياد فلا يشق غباره ويستولي على الأمد فلا يخاف غشاره، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره وسلك القصد فلا تدرس آثاره، فلما ابتلانا الله بافتقاده حوّل الأمر إلى من يشاء من عباده دخلنا في جملة المسلمين فلم ننزع يداً عن طاعة ولم نصدع صفات جماعة، ولك منا ما ظهر وقلوبنا بيد الله وهو أملك بها منك. فاقبل صفونا وأعرض عن كدرنا ولا تثر كوامن الأحقاد فإن النار تقدح بالزناد.

(١) إشارة إلى مسلم بن عقيل عليه السلام حيث قال فيه عبدالله بن الزبير الأسدي في مقتل الحسين للخوارزمي ١ : ٢١٤.

إذا كنت لا تدرين ما الموت فانظري إلى هانئ بالسوق وابن عقيل

فقـال معاويـة وإنك لتهددني يا أخا طيء بأوباش العراق، أهل النفاق ومعدن الشـقاق، فقـال: يـا معاويـة هـم الذيـن أشرقوك بالريق، وحبسوك في المضيق وذادوك عـن سـنن الطـريق، حـتى لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صـدق بهـا وكذبـت، وآمـن بمـنزلها وكفـرت، وعـرف من تأويلها ما أنكرت. فغضـب معاويـة وأدار طـرفه فـيمن حوله فإذا جلهم من مضر ونفر قليل من اليمن فقال: أيها الشقي الخائن إني لأخال، إن هذا آخر كلام تفوه به.

وكـان عفـير بـن سـيف بـن ذي يزن بباب معاوية حينئذٍ فعرف موقف الطـائي ومراد معاوية فخافه عليه فهجم عليه الدار وأقبل على اليمانية فقال: شـاهت الوجـوه ذلاً وقلا وجدعاً وفلاً [كشم] اللّه هذه الأنوف كشماً مرعباً. ثـم التفـت إلى معاويـة فقال: إني واللّه يا معاوية ما أقول قولي هذا حباً لأهل العـراق ولا جنوحاً إليهم ولكن الحفيظة تذهب الغضب، لقد رأيتك بالأمس خاطبـت أخـا ربيعة (يعني صعصعة بن صوحان) وهو أعظم إجراماً عندك من هـذا وأنكـا لقلـبك وأقـدح في صـفاتك وأجـد في عدواتك وأشد انتصاراً في حـربك، ثـم أثبـته وسـرحته وأنـت الآن مجمـع عـلى قـتل صـاحبنا، زعمت استصـغاراً لجماعتـنا فإنا لا نمر ولا نحلي، ولعمري لو وكلتك أبناء قحطان إلى قومـك لكـان جـدك العاثـر، وذكـرك الداثر، وحدك المفلول، وعرشك المثلول فـاربع عـلى ضـلعك، واطونـا عـلى بلالتنا ليسهل لك حزننا، ويتطامن لك شـاردنا، فإنـا لا نـرأم بوقـع الضيم ولا نتلمظ جرع الخسف ولا نغمز بعمار الفتن ولا نذر على الغضب.

فقـال معاويـة: الغضـب شيطان فاربع نفسك أيها الإنسان، فإنا لم نأت

إلى صاحبك مكروهاً، ولم نرتكب منه مغضباً ولم ننتهك منه محرماً فدونكه فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره.

فأخذ عفير بيد الوليد وخرج به إلى منزله، وقال له: واللّه لتؤوبنّ بأكثر من مما آب به معديّ من معاوية هذا. ثم جمع مَنْ بدمشق من اليمانية وفرض على كل رجل دينارين في عطائه فبلغت أربعون ألفاً فتعجلها من بيت المال ودفعها إلى الوليد ورده إلى العراق مسروراً (١).

٢ـ حمية العرض:

وأما حمية العرض فهي عامة في الناس شاملة، وهي فيهم على ثلاث مراتب: إفراط، وتفريط، واعتدال.

أما الإفراط فهو أن تغلب على الإنسان حتى تكدر عليه عيشه وقد يقضي به هذا الإفراط إلى أن يرمي بالسوء عرضه.

قال رسول اللّه ﷺ : ((إن من الغيرة غيرة يبغضها اللّه عزّ وجلّ وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة))(٢) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك))(٣) .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ١٢٩ ـ ١٣١ ، وفود الوليد بن جابر على معاوية.

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار ٤ : ٥٤ ، ح١٧٧٠٣ ، وكنز العمال ٣ : ٣٨٥ ، ح٧٠٦٦ ، ومثله ح٧٠٦٩ وميزان الحكمة ٧ : ٣٥٩ ، ح١٥٢٧٤ مثله.

(٣) فقه السنة ١٢ : ١٨٨ ، والتحفة السنية : ٢٨١.

وأمـا الـتفريط فهو أن تُفقد هذه القوة أو تضعف في بعض الناس حتى لا يبالي بعرضه وما يُصنع به.

وأمـا الاعتدال فهو الوقوف بها عند القصد واستعمالها في حدود المروءة والحكمـة. فمـن ذلـك أن المعتصـم[١] العباسـي بلغـه أن امـرأة علويـة في عموريـة[٢] ضـربها جلـواز بالسـوط على معصمها فصاحت: وامعصماه[٣] فتخـيل الجلواز أنها هتفت بالمعتصم العباسي، فقال لها مستهزئاً بها: سيأتيك المعتصم على الخيول البلق.

فحملـت هـذه الكلمة إلى المعتصم وهو إذ ذاك في مجلس الشرب، فغار لذلـك وحركـته الحمية، فقال لساقيه: ويحك اختم الكأس إن الخمر محرم عليّ حـتى آخـذ بثار ابنة عمي. ثم قال لغلمانه: فتشوا الاصطبلات أين ما وجدتم فرسـاً أبلـق علـيّ بـه. فأحصوا فيها سبعين ألف فرس أبلق على شكل واحد فتجهز وأراد المسير، ولم يحب بعض وزرائه ذلك، وأقبل إلى مُنَجِّم ورشاه بالمال وقـال: إذا أراد المعتصـم هذه الوجه فقبحه لـه، ولا تحسن لـه المسير، فعرض المـنجم ذلـك عـلى المعتصـم عـند عـزمه على المسير وقال: أيها الملك طوالع الـنجوم قـد انتحسـت ولا أراك ظافراً في هذا الوجه. فالتفت أحد وزرائه ممن

---

(١) المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد. الدمعة القطيفية ٢: ١٣٥.

(٢) من مدن الروم. حاكمها توقيلبوس.

(٣) في المصادر: وامعتصماه، والمعصم: هو موضع السوار من اليد. (لسان العرب ١٢: ٤٠٨ ـ عصم).

رغبوا في مسيره في هذا الوجه وقال: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول ثم أنشأ:

دع النجوم لطراق تعيش بها وانهض بقوة عزم أيها الملكُ
إن النبي وأبناء النبي نهوا عن النجوم وقد عاينت ما ملكوا[(١)]

فاستحسن قوله واستصوب رأيه ثم سار، وكان قد أوصى أصحابه قبل أن يفتح تلك المدينة قال لهم: إذا فتحنا بعون اللّٰه تعالى فادخلوا على تلبية واحدة: لبيك أيتها العلوية.

ثم إنه حاصرها أياماً وفتحها. فدخل أصحابه على تلبية واحدة يلبون العلوية، ودخل هو وقد أرخى عمامته على عينيه وهو ينادي: لبيك يا بنت العم، ثم أقبل على ملكهم فقتله وجلس على سريره وأسلم من أسلم من الناس وقتل من قتل. ثم قال لغلمانه: أحضروا لي كل علوية ضمتها هذه البلدة فأحضرت العلويات فقال: ادعو لي كل حلواز، فأحضروا الجلاوزة فقام بين العلويات فقال: أيكن العلوية التي ضربت وهتفت بي، فقالت: أنا يا بن العم، فقال: انظري أي جلواز ضربك، فجعلت تنظر في وجوههم إلى أن أشارت إلى واحد منهم وقالت: هذا، فأمر العقابين أن يبطحوه ثم أمرهم فضربوه بالسياط حتى تناثر لحمه، ثم قال لسياف: اضرب عنقه، فقال

---

(١) دع النجوم لطرفي يعيش بها وبالعزائم فانهض ايها الملك
ان النبي وأصحاب النبي نهوا عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

أنظر: فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٣: ٣٩٣.

استخرج لي قحف رأسه فاستخرجه له، فالتفت عند ذاك لساقيه وقال: أين الكأس؟ قال هو حاضر، فقال: اسكبه في هذا القحف ثم جعل يشرب ويقول:

السيف والخنجر ريحانتا ... ن على النرجس والآسي

شرابنا من دم أعدائنا ... وكأسنا جمجمة الراس[1]

هذا هاشمي من فساق بني هاشم هكذا غيرته، فما ظنك بصالحهم وسيدهم ضربت أخته كيف تكون غيرته، فليت رجلاً من الهاشميين ولو كان من فساقهم فك أسر الهاشميات حين هتفت بهم:

فقل لسرايا شيبة الحمد ما لكم

قعدتم وقد ساروا بنسوتكم حسرى[2]

ولما عارض الحر الحسين ومنعه من المسير اضطربت النساء وارتطمت المحامل بعضها ببعض فثارت غيرة الحسين، وقال للحر: ثكلتك أمك يا حر ماذا تريد مني. وجاء الهاشميون وسلوا سيوفهم وأحاطوا بالحسين، فقال الحر: يا أبا عبدالله....إلخ [3].

٣ـ حمية الدين:

وأما حمية الدين فهي أيضاً شاملة، وقد يعبر عنها بالعصبية، ولكن

---

(١) المستطرف ١ : ٢٩٨ ب(٢٩) في الشرف والسؤدد وعلو الهمة مختصراً، والانسان للسمعاني ٣: ١٣٣ وتاريخ ابن خلدون ٣: ٢٦٢، وقصص العرب ٣: ٤٤٩.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي: ٣٣٢، في خروج الحسين من مكة إلى العراق.

(٣) وفيات الأئمة: ١٦٦.

الفرق بينهما ظاهر، وكل منهما من ثمرات الغضب للدين إلا إنه اختص بالمدافعة أو الإشادة بالدين وآثاره، وتجرد عن الطعن والتنقيص في غير الإنسان فهو حمية وإلاّ فهو عصبية.

والحمية في الدين محمودة ولا يخلو منها طبع وإن اختلفت مراتبها في النفوس.

قال بعضهم: رأيت ببغداد رجلاً مكفوف البصر يسأل الناس ويقول: من أعطاني فلساً سقاه اللّه تعالى على يد معاوية. قال فتبعته حتى خلوت به فلطمته لطمة أوجعته، وقلت: عزلت علياً أمير المؤمنين عن الحوض يا فاسق، فقال: أتريد أن أسقيهم على يد أمير المؤمنين من حوض الكوثر بفلس واحد، لا واللّه لا كان ذلك أبداً، وأنا لم أذكر لمعاوية حوضاً فليسقهم حيث شاء.

ونقل الشيخ محمد طه نجف ـ أعلى اللّه مقامه ـ عن الشيخ جواد نجف أن بعض من كان مشهوراً بالسرقة في طهران سرق ليلة دار رجل يهودي ولم يعلم بأن صاحب الدار يهودي، فلما أصبح الصباح واشتهر أمر السرقة علم السارق أن المسروق كان يهودياً، فجاء إليه كالمستخبر وقال: كم كانت سرقتك؟ قال: كذا مقدار، قال: اكتبها بورقة حتى أتجسس عليها لعلي أطلع على من سرقها، فلما كتبها ولم ير دعوى زيادة على ما أخذ منه، قال له: امضِ معي إلى الحاكم فأخذه إلى الحاكم وأحضر له السرقة وسلمها إليه، فقال له الحاكم: ويلك تأخذ مال المسلمين وترد مال اليهود، قال السارق: نعم، إن المسلمين أخوة، وإذا كان يوم القيامة أصلح بينهم رسول اللّه ﷺ بالالتماس من هذا والتوسل إلى هذا، ولكن شق عليّ إن يطأطئ رسول اللّه ﷺ رأسه

بـين يـدي موسـى بن عمران حين يقول لـه: إن رجلاً من أصحابك سرق دار رجـل مـن أصـحابي ويكـيدني حـين يـأخذ رسول الله بيدي إليه ويخضع لـه ويقول: قل لصاحبك يعفو عن هذا القرنان.

وأمـا العصـبية فـلا يخلو منها طبع بشر فكل دين يغضب لدينه، إذ كل يرى أنه على حق ويعتقد أن غيره على ضلال فيغضب له.

قـيل لبهلول إنه ورد في الحديث الصحيح: أن يوم القيامة توضع أعمال الشـيخين في كفـة المـيزان وأعمـال سائر الخلائق في كفة أخرى فترجح أعمال الشيخين. فقال البهلول إن كان هذا الحديث صحيحاً فالعيب في الميزان [١].

ومـن هـذا الـباب قصـة الحجاج بن علاط السلمي[٢] في حسن تلطفه واحتياله في توصله إلى إخراج ماله من قريش، وتلخيصها أن رسول الله ﷺ لـما فتح خيبر وتزوج بصفية وفرح المسلمون جاء الحجاج بن عِلاط السلمي إلى الرسول وقد أسلم وشهد خيبر فقال: يا رسول الله إن لي مال عند صاحبتي في مكـة أم شـيبة فـإذا بلغهـم إسـلامي منعوني وقتلوني فأذن لي أمضي إلى جمع مالي، فقال أحتاج إلى أن أكذب....

---

(١) الكشكول ٢ : ٣٣٧، قصص البهلول وحكاياته.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ١ : ٣١٣، رقم الترجمة [١٦٢٢]، وتاريخ الإسلام: ـ كتاب المغازي ـ: ٤٣٨ حديث الحجاج بن علاط السلمي، والسيرة النبوية ١ : ٣٤٥ في أمر الحجاج بن علاط السلمي، ونهاية الأرب ١٧ : ٢٦٢ في الحجاج بن علاط السلمي.

الأولاد

قوله تعالى:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١)

حكى سبحانه تمام قصة نوح فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ نداء تعظيم ودعاء، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ معناه: يا مالكي وخالقي ورازقي وعدتني بتنجية أهلي، وإن ابني من أهلي، وان وعدك الحق لا خُلف فيه فنجه إن كان ممن وعدتني بنجاته ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ في قولك وفعلك ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وقد قيل في معناه أقوال:

١ـ أحدها: أنه كان ابنه لصلبه، والمعنى أنه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك؛ لأن الله سبحانه قد استثنى من أهله الذين وعده أن ينجيهم ممن أراد إهلاكهم بالغرق، فقال: ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.

٢ـ وثانيهما فيها أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أنه ليس على

---

(١) هود: ٤٥ ـ ٤٦.

دينك؛ فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله، وهذا كما قال النبي ﷺ: ((سلمان منا أهل البيت[١]))، وإنما أراد على ديننا.

عن الرضا عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إن اللّه تعالى قال لنوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنه كان مخالفاً له وجعل من اتبعه من أهله.

ويؤيد هذا التأويل أن اللّه سبحانه قال على طريق التعليل: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فبين أنه إنما خرج عن أحكام أهله لكفره وسوء عمله، وروي عن عكرمة أنه قال: كان ابنه ولكن كان مخالفاً له في العمل والنية فمن ثم قيل ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والتقدير: إن ابنك ذو عمل غير صالح [٢].

وإنما سأل نوح نجاة ابنه بشرط المصلحة لا على سبيل القطع فبين تعالى المصلحة في غير نجاته لأنه ليس من أهله بسبب عمله غير الصالح، فإن أهل الأنبياء المتقون الصالحون وإن بَعُد النسب، وإن أعداءهم العاصون وإن قرب النسب.

ويؤكد إرادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] أي أحق الناس بالانتساب إلى دين إبراهيم الذي يجله الجميع هم الذين استجابوا لدعوته من أمته أو يلتقون معه ويلتقي معهم في العقيدة والإيمان كمحمد ﷺ ومن معه.

---

(١) بحار الأنوار ١١: ٣١٣.

(٢) مجمع البيان ٥: ٢٨٥ في ترجمة سورة هود آية: ٤٥.

(٣) آل عمران: ٦٨.

قال الإمام علي عليه السلام: ((إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به ثم تلا الآية وقال: إن وَلِيَّ محمد صلى الله عليه وآله من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد صلى الله عليه وآله من عصى الله وإن قربت قرابته))(١).

ولا شيء أدل على عظمة الإمام وإخلاصه للّه وللحق، وتجرده عن الغايات والأهداف الدنيوية من قوله هذا، وعدم تشبثه بالقرابة مع العلم بأنه أقرب الناس لحمة للرسول صلى الله عليه وآله وما ذاك إلا لأنه يستمد عظمته من نفسه وأعماله لا من الأرومات والقرابات، ولا من التمويه والتغطيات.

كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحم، فكان كنعان بن نوح كافراً ولم ينتفع بتربية أبيه بل تأثر بمحيطه وبأهل زمنه.

وفي هذا الزمان ترى في الكثير أبناء العلماء والسادات والمؤمنين كابن نوح تأثروا بمحيطهم وبمجالسة السفهاء والفساق.

وهذا جعفر الكذاب ابن الإمام علي الهادي عليه السلام، وقال بعض الشعراء:

شتان بين الجعفرين فصادق(٢) يهدي الأنام وجعفر كذاب
لا يدخلن الريب قلبك في الذي ولد الكذاب فإنه لصواب

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: تكلم الكثير عن أولاد العلماء ورجال

---

(١) مجمع البيان ٢: ٣١٨ في تفسير سورة آل عمران آية ٦٨، وبحار الأنوار ٦٥: ٨٣ ب (١٦) ان الشيعة هم أهل دين الله.

(٢) يعني الإمام جعفر عليه السلام.

الدين، وشنعوا عليهم لأنهم لم يسلكوا سبيلاً يشبه سبيل آبائهم من قريب أو بعيد، بل شنعوا على العلماء أنفسهم لا لشيء إلا لأن الأبناء لم يهتدوا بهدي الآبـاء، وأخـذوا الكـبار بجريرة الصغار، وعكسوا المثل: الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون.

يقول: ومضى زمن غير قليل وأنا أشارك أولئك الناس في الرأي والقول قبل أن أرزق غلاماً طيعاً وبقي ما كان من رأيي على ما كان لم يتبدل ولم يتعدل حـتى جـاء الولـد، وبقـول أدق حتى بلغ سن التكليف والرشد فانكشف لي الغطـاء، وأدركـت أن السر لم يكن في البيت فقط ولم يكن في الآباء والأجداد إنـه في المحـيط: في الصـحف، في المدرسة، في الشارع، في السينما، في الراديو. يـتعرض الولـد من صغره إلى هذه التيارات والمغريات وكل واحد منها يندس إلى قلـبه وعقلـه ويـتأثر بـه أكـثر ممـا يـتأثر بمواعـظ أمه وأبيه، فكيف بها إذا اجتمعـت وتحالفـت؟! إن هـذه العوامل تسيطر على الولد الناشئ وتنزعه من بـين يدي أبيه وتتجه به إلى حيث تريد.. وعبثاً يحاول الأب أن يرجع فلذة كبده ويـرده إلى حضـرته فـيقف حائـراً ساخطاً يندب حظه ويلعن الساعة التي رأى فـيها الأولاد، بـل يلعـن السـاعة التي جاء فيها إلى هذه الدار. وبالتالي تكون النتيجة بُعد الشقة والهوة العميقة السحيقة بين الأب والابن(١).

سـئل الشـاعر الألمـاني ((جيـته)): مـا هو الكتاب الذي أثر في حياتك؟ فأجـاب: لا أعـرف كـتاباً معيناً أثر في حياتي، بل لا أعرف طعاماً ما أو شراباً

---

(١) كفاية الإسلام مع الحياة: ٢٧٢.

معيناً أثـر في جسـمي، فكل ما قرأت كان لـه تأثير في تفكيري كما أن كل ما أكلت كان له تأثير في جسمي.

وهـل بعـد هذا يقال: العلماء وأبناء العلماء، وهل ابن العالم إلا كغيره مـن أبـناء الشـعب تـتلقفه الدعايـات والمغـريات. لقد أثبتت الحوادث فساد الـنظرية التقلـيدية الـتي تقـول بـأن البيت هو كل شيء وأنه يستقل عن كافة الحـوادث. والحقـيقة أن الإنسـان ليس ابن أبيه بل ابن المجتمع، ابن الظروف الـتي يعـيش فـيها، والزمان الذي يحيى فيه، والقرن الذي ولد فيه، والأحداث التي تدور حوله.

قـال الإمـام علـي عليه السلام: ((إذا اسـتولى الصـلاح على الزمان وأهله ثم أسـاء رجـل الظن برجل لم تظهر منه حوبة [1] فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرّر[2]))[3] .

يقـول مغنـية: في ذات يـوم قال لي ولدي: لا أراك تكتب إلا في الدين، فهـذه مؤلفـاتك كـلها دينـية: الفصـول الشرعية، ومع الشيعة الإمامية، وأهل البيـت؟ فقلـت: إنـي أكتب في الدين لا كما هو في خيالك وخيال من تعاشر إني أكتب عنه كما هو في واقعه وكما يكتب الأخصائيون في البنسلين ومنافعه والكهـرباء وفوائدهـا، ولا شـيء أحـب لقلـبي مـن أن يسـلك ولـدي سـبيل

---

(١) الحوبة: هي الاثم.

(٢) غرر: أي أوقع بنفسه في الغرر وهو الخطر.

(٣) نهج البلاغة: ٥٧٢، قصار الحكم، رقم[١١٤]، وعنه بحار الأنوار ٧٢: ١٩٧، ح١٨.

الصـالحين مـن أجداده ولكن ما الحيلة وكل وجل ما يقرأ أو يسمع أو يرى لا يمـت إلى الديـن بسـبب أو نسـب، ولـو اتجهـت الإذاعة والمدرسة والصحافة والسينما والمسرح إلى الدين ومكارم الأخلاق، لكان أبناء العلماء ومعهم أبناء الملحدين من أتقى الأتقياء.

عوداً على بدء:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ... إلخ.

تعلمـنا(١) هـذه الآيـة الكريمة أن نأخذ أنفسنا بالحق دون أن يحول بيننا وبين الأخذ به، صداقة أو قربى وتعلمنا هذه الآية الكريمة أن نضحي في سبيل العدالة الإنسانية دون أن يحول بيننا وبين هذه التضحية صداقة أو قربى.

تعلمـنا هـذه الآيـة الكـريمة أن لا نؤثـر العاطفـة على العقل فلا نتأثر بصداقة أو قربى.

إن نوحـاً وقـد رأى ابنه الذي هو فلذة كبده يغرق ويستغيث، إن أباه إذ رآه كذلـك لم يجـد في نفســه إلا الـرحمة، ولكـنه ضـحى بفلـذة كبده بين يدي رسالته ولم يهتم به فأخذ نفسه بالحق.

ولنضـرب لـك الأمـثال عـلى ذلك في قدسية من أخذ نفسه بالحق من الأنبـياء والمخلصـين لرسـالتهم في العالم، ثم لنضرب بعد ذلك الأمثال فيمن آثـر الـباطل عـلى الحـق في عصبيته لقومه وأهله وأنانيته في نفسه ممن ساسوا الأمم فكانوا عبيداً لشهواتهم.

---

(١) دين وتمدين ٢: ٨٣.

فممن أخذوا على أنفسهم بالحق رأس أولئك رسول اللّه ﷺ إذ يقول لابنته الزهراء:

((يا فاطمة بنت محمد اعملي فلن أغني عنك من اللّه شيئاً))[(١)] .

قال الحوماني: ركبت حافلة في بغداد وفيها سكران قد أفاق من السكر فرأيت الناس يبتعدون عنه فقال تبتعدون عني لأني فقير لا لأني سكران فهل عملت عملاً لم يعمله غيري هؤلاء زعماؤكم يسكرون وصدق على قوله وقلت صدق.

ويقول ﷺ: ((إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد، وايم الله عنه. لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها))[(٢)] .

ويقول لأخيه ووصيه علي بن أبي طالب: ((يا علي لا عصبية في الإسلام، ذهبت الجاهلية بعصبيتها)).

ومن أولئك السيد محمد الصدر رئيس مجلس أعيان العراق، بلغ به الغضب على إنسانيته والحرص على دينه وكرامته أن يطرد أحد أبنائه عندما خرج على رسالة جده. طرد ابنه هذا إذ علم بفسقه، ثم لم يقف عند حد

---

(١) اتحاف السادة المتقين ٧ : ٧٧، وكنز العمال ١٦ : ١٩، ح٤٣٧٥٣ بلفظ: يا فاطمة بنت رسول الله: اعملي لله خيراً، فإني لا أغني من الله شيئاً يوم القيامة، وصحيح مسلم ١ : ١٩٣، ذيل ح٣٥١ بلفظ: يا فاطمة بنت رسول الله! سليني بما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً، وفي ح٣٤٨... لا أملك لكم من الله شيئاً، وفي تفسير الطبري ١٩ : ٧٢ مثله.

(٢) صحيح مسلم ٣ : ١٣١٥، ح١٦٨٨، وصحيح البخاري ٨ : ١٦ باب الحدود مثله.

الطـرد، ولكـنه عمد إلى البراءة منه في الصحف ثم البراءة من كل من يؤوونه أو مـن يغيـثه من أصدقائه حتى ضاقت الأرض على رحبها بالطريد، فالتمس وسـيطاً مـن أعيان بغداد يؤوب إلى أبيه على يديه ويعاهده أن يقلع عن كل ما يسـيء إلى ربـه وأن يكـون عـند رضـا أبيه في كل ما يقول أو يفعل. فتاب أبوه علـيه وصـدق هو في عهده وأصبح أقرب أخوته من أبيه حتى وصل إلى مجلس الأمة بفضل هذه الطاعة ممثلاً أحد ألوية العراق.

ولـو أنـنا جريـنا هـذا المجرى، لـو جرى رؤساؤنا وأعياننا هذه الطريق عـندما يـنحرف أبـناءهم لأصـلحوا مـا فسد منهم، ولكن يا للأسف تجد ابن الرئـيس وابـن الشـريف يفسـق بشـرب الخمر، يعبث وأبوه ساكت عنه، بل يستر قبائحه. فأصبحنا من أهل الأنانية والعصبية الجاهلية.

ومـن أهل الأنانية والعصبية الجاهلية معاوية بن أبي سفيان حين ضحى بعشـرات الألـوف مـن المسـلمين في حـرب صفين مع علي عليه السلام على مذبح أنانيـته وقـد حمّلـه المسـلمون تـبعة ذلك وأجمعوا على تخطئته. وحين ولّي يزيد خلـيفة مـن بعـده دون إجمـاع المسـلمين عـلى مبايعـته ثم جعل الخلافة ملكاً عضوضاً لأهله من بعده.

وقـد ذكـر محققـو تـاريخ الإسلام بما يشبه الإجماع أن معاوية أخذ البيعة لابـنه يـزيد والسـيوف عـلى رؤوس مبايعيه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجرؤ أحد أن يقول له إنه عمل غير صالح.

نعـم وقـف الحسـين عليه السلام موقفـه المشـرف وآلى الدخـول في بيعة يزيد وأعلـن ثورتـه علـيه قـائلاً: إن مـثلي لا يبايع ليزيد، رجل فاسق قال ذلك في

مجلس الوليد[١].

ولا جديد عند يزيد وهو فرع أصل والإنسان لا يحب أن يغلبه أحد إلا ولده.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية[٢]: حدثني أيام دراستي في النجف الأشرف طالب تركي من أذربيجان قال: أبي عالم دين في مدينة أردبيل، وإمام لأعظم مساجدها، وله أتباع كثيرون يثقون به ويرجعون إليه في أمورهم.

وفي ذات يوم والناس جلوس بين يديه في أدب وخشوع وأنا معهم إذ استفتاه أحدهم في مسألة دينيه فأجابه بجواب اعتقده صواباً، وكنت أدرس عند أبي في كتاب ((القوانين)) واغتنمت الفرصة لإظهار قدرتي، وقلت لأبي أمام الناس: إن الحق عكس ما قلت، والجواب الصحيح هو كذا. فاغتاظ أبي من هذه المفاجأة ورآها سوء أدب حيث أعلنت خطأه أمام أتباعه الذين يرونه فوق الجميع، فانتهرني بشدة وقال: اسكت حمار، فتركته وأسرعت إلى المكتبة واستخرجت الجواب من الكتاب وأتيته به وهو مازال في مكانه مع جماعته وأتباعه، وقلت بمشهدهم: قول الظافر المنتصر: الكتاب هو الجواب لا قولك حمار، وكانت هذه أشد من الأولى ولكن أبي تماسك وأخذ الكتاب بهدوء ونظر فيه وما لبث أن التفت إلى الحاضرين وقال: فيما لو انتصر عليّ غير

---

(١) إرشاد المفيد ٢ : ٣٣ ما جرى بين الحسين عليه السلام ومروان في مجلس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وبحار الأنوار ٤٤ : ٣٦٠، وذكر في الإمامة والسياسة ١ : ١٧٤ ـ ١٧٥ كتاب يزيد بالبيعة لأهل المدينة.

(٢) الشيعة والحاكمون: ٨٧.

ونظر فيه وما لبث أن التفت إلى الحاضرين وقال: فيما لو انتصر عليّ غير ولدي لفضلت الانتحار أما وإني مغلوب إلى ولدي فأنا أشعر بالغبطة والسرور لأن الإنسان لا يحب أن ينتصر عليه أحد أياً كان إلا ولده.

ولو كان معاوية حياً في السنوات الثلاث التي حكم فيها ولده يزيد ورأى ما فعله في السنة الأولى من قتله الحسين عليه السلام وسبي نسائه، وفي الثانية من إباحة المدينة وانتهاك حرمتها وقتل أحد عشر ألفاً أهلها، منهم سبعمائة من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي[١]، وفي الثالثة رمي الكعبة بالمنجنيق[٢].. لو رأى معاوية هذه المخزيات من ولده لقبل ما بين عينيه وقال: أنت مني وأنا منك وكلانا من هند آكلة الأكباد.

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٨٥، في عدة من قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وغيرهم.

(٢) الإمامة والسياسة ٢: ١٠، في حرب ابن الزبير ورمي الكعبة بالمنجنيق.

أخلاق الداعية

قوله تعالى:

﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١).

قيل معناه: لا تستوي الملة الحسنة التي هي الإسلام، والملة السيئة التي هي الكفر. وقيل: لا تستوي الأعمال الحسنة ولا الأعمال القبيحة. وقيل: لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة فلا يستوي الصبر والغضب، والحلم والجهل، والمدارات والغلظة، والعفو والإساءة.

ثم بيّن سبحانه ما يلزم على الداعي من الرفق بالمدعو فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ خاطب النبي ﷺ فقال للنبي ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ خاطب النبي ﷺ فقال: ادفع بحقك باطلهم، وبحلمك جهلهم، وبعفوك إساءتهم ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ معناه فإنك إذا دفعت خصومك بلين ورفق ومداراة صار عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك القريب فكأنه وليك في الدين وحميمك في النسب.

---

(١) فصلت: ٣٤ ـ ٣٥.

وروي عن الصادق عليه السلام: أن الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة(١).

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي وما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة التي هي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على كظم الغيظ واحتمال المكروه. وقيل: إلاّ الذين صبروا في الدنيا على الأذى، عن أبي عبدالله عليه السلام. ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: وما يلقى هذه الخصلة المذكورة ولا يؤتاها ﴿إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الرأي والعقل. وقيل: إلا ذو نصيب عظيم من الثواب والخير. وقيل: الحظ العظيم: الجنة عن قتادة وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة(٢).

فالخطاب في ﴿ادْفَعْ﴾ وفي ﴿بَيْنَكَ﴾ لمحمد صلى الله عليه وآله. ويدل السياق على أن المراد بالحسنة هي حسنة الرسول صلى الله عليه وآله الداعي إلى اللّه، وهي جهاده وصبره على الأذى في سبيل هذه الدعوة.

والمراد بالسيئة سيئة السفيه الجاهل من الذين دعاهم الرسول صلى الله عليه وآله إلى اللّه.

والمعنى: فرق بعيد بين عملك يا محمد وأنت تدعو إلى اللّه وتتحمل الأذى في سبيله صابراً محتسباً، وبين عمل الذين أجابوا دعوتك إلى اللّه بالإعراض والأذى والافتراء. إن عملك صلوات وحسنات، وعملهم سيئات ولعنات.

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٢٦٥ ب (١٤) علامات المؤمن وصفاته.

(٢) مجمع البيان ٩: ٢٣ ـ ٢٤، في تفسير سورة فصلت آية ٣٤.

وعلى الرغم من ذلك فعليك أن ترفق بهم وتتسامح معهم وتصبر على سفاهتهم فإن منهم من لو قابلته بهذه السماحة لعاد إلى ربه وعقله وانقلبت عداوته لك إلى محبة وبغضه إلى مودة.

والإنسان أي إنسان يستطيع أن يكسب أصدقاء يقاتلون معه بكلمة طيبة، وأن يخلق له أعداء يقاتلون ضده بكلمة خبيثة. وقد استطاعت كلمات الأبرار أن تهدي الكثير من الفجار وتنهي العديد من المشاكل بين البشر، ولولاها لجرت الدماء أنهاراً.

وإن دفع السيئة بالحسنة منقبة عظمى لا يتحلى بها إلا من صبر عند الشدائد وكان وجيهاً عند الله[1].

وفي نهج البلاغة: ((فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه))[2].

وفيه أيضاً: ((احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك))[3]، فكم استطاعت كلمات الأبرار أن تهدي الكثير من الفجار.

في مجموعة ورام: خرج ثمامة بن أثال الحنفي معتمراً فظفرت به خيل لرسول الله ﷺ بنجد، فجاؤوا به فأصبح مربوطاً باسطوانة عند باب رسول الله ﷺ فرآه النبي ﷺ فعرفه فقال ﷺ : ما تقول يا ثمامة؟ فقال: يا محمد

---

(١) التفسير الكاشف ٦: ٤٩١ ـ ٤٩٢ في تفسير سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٢) نهج البلاغة: ٥٦٤ قصار الحكم، رقم [٨٢].

(٣) نهج البلاغة: ٥٨٤ قصار الحكم، رقم [١٧٨].

إن تسأل مالاً تعطه، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر. فمضى عنه ﷺ وهو يقول: اللّهم إن أكلة من لحم جزور أحب إليّ من دم ثمامة. ثم أمر به فأطلق. فذهب ثمامة إلى المصنع فغسل ثيابه واغتسل ثم جاء إلى رسول اللّه ﷺ وشهد شهادة الحق، وقال: يا رسول اللّه إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فمر من يسيرني إلى الطريق فأمر من يسيره فخرج حتى أتى مكة، فلما سمع المشركون جاؤوه وقالوا: يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك، فقال: لا أدري ما تقولون غير أني أقسمت برب هذه البنية لا يصل إليكم من اليمامة ما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً عن آخركم.

وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم، فلما أضرّ بهم كتبوا إلى رسول اللّه ﷺ إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليه، وإن ثمامة قد قطع ميرتنا وأضرّ بنا فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل، فكتب إليه رسول اللّه ﷺ: أن خلي بين قومي وبين ميرتهم، وكان ثمامة حين أسلم قال: يا رسول اللّه لقد قدمت عليك وما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، ولا دين أبغض عليّ من دينك، ولا بلد أبغض عليّ من بلدك، والآن ما أصبح على وجه الأرض وجه أحب إليّ من وجهك، ولا دين أحب إليّ من دينك، ولا بلد أحب إليّ من بلدك، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة. وقد ورد ادفع بالحسنة السيئة يمحها بهذه الخصال(١).

---

(١) مجموعة ورام: ٥٠٤، والاصابة ١: ٢٠٣ في ترجمة ثمامة بن أثال، رقم الترجمة [٩٦١]، ورواه

دعـا رسول اللّه ﷺ الناس إلى الإسلام حتى أقبل الناس عليه فكانوا له ذادة وحماة. ولما فتح مكة قابل المسيء بالإحسان والعفو.

مـنهم عكـرمة بـن أبـي جهل فرّ هارباً إلى اليمن، وكان يؤذي الرسول بكل ما استطاع(١)، فجاءت زوجته أم حكيم ابنة الحارث بن هشام إلى رسول اللّـه ﷺ مع بعض نساء قريش فأسلمن، فقالت أم حكيم: يا رسول اللّه إن زوجـي عكرمة قد هرب منك خوفاً أن تقتله فأمنه يا رسول اللّه، قال هو آمن. فخرجـت أم حكـيم في طلـبه ومعهـا غـلام رومـي فراودها الغلام عن نفسها فجعلت تمنيه حتى قدمت به على حي فاستغاثت بهم فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر فهاج بهم البحر فجعـل نوتـي السـفينة يقول لـه: يا عكرمة أخلص، قال: أي شيء أقول؟ قال قـل: لا إلـه إلا اللّـه محمـد رسـول اللّـه، قـال عكـرمة: ما هربت إلا من هذا فجـاءت أم حكـيم وهمـا في الكـلام فجعلـت تـلح عليه وتقول: يا بن العم جئـتك مـن عـند خـير الـناس وأوحـد الـناس وأبر الناس، لا تهلك نفسك فوقـف لهـا حتى أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك رسول اللّه ﷺ فأمنك قال: أنت فعلتِ؟ قالت: نعم، كلمته فيك فأمنك، فرجع معها فأخبرته بما فعله غلامـه الـرومي فقـتله عكـرمة، فـلما دنـا عكـرمة مـن مكة قال رسول اللّه ﷺ:

ابـن مندة من طريق علباء بن احرم عن عكرمة عن ابن عباس قصة إسلام ثمامة ورجوعه إلى اليمامة ومنعه عن قريش الميرة.

(١) تاريخ الطبري ٣: ١٢٠، في احداث السنة الثامنة.

يأتيكم عكرمة مسلماً فلا تسبوا(١) أباه فإن سب الميت يؤذي الحي(٢).

فلما وصل عكرمة ودخل على رسول الله ﷺ وثب له ﷺ من غير رداء فرحاً به، ثم جلس فوقف عكرمة بين يديه ومعه زوجته منقبة. قال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني على نفسي؟ قال ﷺ : صدقت، إنك آمن. قال عكرمة: فإلام تدعو؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وعد عليه خصال الإسلام.

قال عكرمة: ما دعوتَ إلا إلى حق، وإلى حسن جميل، ولقد كنت فينا من قبل إن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأعظمنا براً.

ثم قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال الرسول ﷺ: لا تسألني اليوم شيئاً أعطه أحداً إلا أعطيتك إياه. قال عكرمة: أسألك أن تغفر لي كل عداوة عاديتكها أو مسير أوضعت فيه أو مقام لقيتك فيه أو كلام قلته في وجهك أو أنت غائب عنه، فقال الرسول ﷺ: اللّهم اغفر له كل عداوة عادانيها وكل مسير سار فيه إليّ يريد بذلك إطفاء نورك، واغفر له ما نال مني ومن عرضي وأنا غائب عنه.

---

(١) لطيفة: قال رجل لرجل مجنون: من يقيم لأبويه فاتحة وقرآن ما الفائدة، وقد ماتا، فقال له: لعن الله أبويك، قال: لماذا؟ فقال له: إن أبويك ماتا فأنت مجنون تتأثر من لعنهما، فإن كانت اللعنة تضر أبويك فالقرآن ينفع موتانا، فسكت.

(٢) الإصابة ٢: ٤٩٦ في ترجمة عكرمة بن أبي جهل، رقم الترجمة [٥٦٣٨] ذكر ذلك مختصراً، وكذلك في الإصابة ٤: ٤٤٣ في ترجمة أم حكيم بنت الحارث، رقم الترجمة [١٢٢٨]، وروى الحديث في مستدرك الحاكم ٣: ٢٤١، في كتاب معرفة الصحابة.

فقال عكرمة رضيت بذلك يا رسول اللّه، ثم قال: واللّه لا أدع نفقة أنفقتها في الصد عن سبيل اللّه إلا أنفقت ضعفها في سبيل اللّه، ولأجتهدن في القتال بين يديك حتى أقتل شهيداً. فرد عليه رسول اللّه ﷺ امرأته بالنكاح الأول وقال ﷺ: لأصحابه لا تؤذوه بسب أبيه فإنه يؤذيه (١).

للّه أشكو بني أمية أما علموا أن سب علي والحسين يؤذي زين العابدين وتلك الهاشميات.

أيسوقها زجر بضرب متونها والشمر يحدوها بسب أبيها

ولقد أمر يزيد الخطيب أن يصعد المنبر... إلخ.

هكذا كانت صفات الرسول ﷺ يدفع بالحسنة السيئة وهكذا أهل بيته.

روى المبرد وغيره أن شامياً رأى الحسن عليه السلام راكباً فجعل يلعنه والحسن لا يرده، فلما فرغ أقبل الحسن عليه فسلم عليه وضحك وقال: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت فلو استعتبتنا اعتبناك ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك [كان أعود عليك] لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كبيراً.

فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة اللّه في أرضه،

---

(١) مستدرك الحاكم ٣: ٢٤٢، كتاب معرفة الصحابة، في عكرمة بن أبي جهل.

اللّـه أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق اللّه إليّ والآن أحب خلق اللّه إليّ، وحوّل رحله إليه وكان ضيفه إلى أن ارتحل(١).

ويقـول: عصام بن المصطلق دخلت المدينة فرأيت الحسن بن علي عليه السلام فأعجـبني سمـته ورواؤه(٢) وأثـار مـني الحسد ما كان يخفيه(٣) صدري لأبيه من الـبغض، فقلـت لـه: أنـت ابن أبي تراب؟(٤) فقال: نعم، فبالغت في شتمه وشـتم أبـيه، فـنظر إلـيّ نظـر عاطف رؤوف ثم قال: أعوذ باللّه من الشيطان الرجـيم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(٥) ثم قال لي: خفف(٦) علـيك، أسـتغفر اللّـه لـي ولـك، إنـك لـو اسـتعنتنا لأعناك، ولو استرفدتنا لرفدناك، ولو استرشدتنا لأرشدناك.

قـال عصـام: فتوسـم مـني الـندم عـلى ما فرط مني، فقال: ﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٧)، أمن أهل الشام

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٨٤ فصل في مكارم أخلاقه عليه السلام.

(٢) في المصدر: حسن روائه.

(٣) في المصدر: يجنه.

(٤) في المصدر: يا ابن أبي طالب.

(٥) الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١.

(٦) في المصدر: حفض.

(٧) يوسف: ٩٢.

أنت؟ قلت: نعم، فقال: شنشنة أعرفها من أخزم.

وهذا الشعر لأبي أخزم الطائي وهو جد أبي حاتم أو جد جده، وكان له ابن يقال له أخزم، وقيل كان عاقاً فمات وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال:

إن بني ضرجوني بالدم   شنشنة أعرفها من أخزم [1]

يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق. والشنشنة الطبيعة والعادة، وهو مثل قولهم: العصا من العصية.

فتمثل الحسن عليه‌السلام بهذا البيت ثم قال: حيانا الله وبيّاك وعافاك وآواك، انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك تجدني عند أفضل ظنك إن شاء الله. قال عصام وددت لو ساخت بي الأرض ثم ملت عنه لواذاً وما على [وجه] الأرض أحب إليّ منه ومن أبيه.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وهكذا أهل البيت وكلهم مضرب المثل في الحلم وكظم الغيظ.

وكان الإمام موسى بن جعفر قد اشتهر بحلمه وكظمه الغيظ، وكان يعفو عمن أساء إليه ويصفح عمن أذنب إليه، ولم يكتف بذلك بل كان يحسن لهم ليقلع روح الشر والأنانية من نفوسهم.

وآية ذلك أن شخصاً كان يقطن يثرب وكان يسيء إلى الإمام ويكيل السب والشتم لجده أمير المؤمنين عليه‌السلام فأراد بعض شيعته اغتياله فنهاهم عن

---

(١) مجمع الأمثال ١: ٥٤١ في قولهم: شنشنة أعرفها من أخزم.

ذلك ورأى أن يعالجه بغير ذلك، فسأل عن مكانه فقيل له: إنه يزرع في بعض نواحي المدينة، فركب عليه السلام بغلته ومضى إليه متنكراً فوجده في مزرعته فأقبل نحوه، فصاح به: لا تطأ زرعنا، فلم يعتنِ الإمام إذ لم يجد طريقاً يسلكه غير ذلك، ولما انتهى إليه جلس إلى جنبه وأخذ يلاطفه ويحدثه بأطيب الحديث، وقال له بلطف ولين: كم غرست في زرعك هذا؟ قال مائة دينار، قال: كم ترجو أن تصيب منه؟ قال: أنا لا أعلم الغيب، قال الإمام: إنما قلت لك: كم ترجو أن يجيئك منه؟ قال: أرجو أن يجيئني منه مائتا دينار، فأعطاه ثلاثمائة دينار وقال: هذا لك وزرعك على حاله، فتغير الرجل وخجل من نفسه على ما فرط من قبل في حق الإمام.

وتركه عليه السلام ومضى إلى الجامع النبوي فوجد الرجل قد سبقه، فلما رأى الإمام مقبلاً قام إليه تكريماً وانطلق يهتف اللّه أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء.

فبادر إليه أصحابه منكرين هذا الانقلاب، فأخذ يخاصمهم ويتلو عليهم مناقب الإمام ومآثره ويدعو له. فالتفت عليه السلام إلى أصحابه قائلاً: أيما كان خير ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار(١).

لقد كان موقف الإمام مع جميع مناوئيه ومبغضيه موقف الخير والإحسان

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٤٣٤ في معالي أموره عليه السلام باختلاف، وكشف الغمة ٣: ١٨، وحياة الإمام موسى بن جعفر ١: ٩٧، ونحوه في بحار الأنوار ٤٨: ١٠٣ ب (٣٩) عبادته وسيره ومكارم أخلاقه عليه السلام.

فقد وضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(١) وبذلك أعطى الإمام لأصحابه درساً رائعاً لكيفية النصح والإرشاد، فقد بيّن لهم أن الدعوة والتبشير ينشآن على الخلق الرفيع ويرتكزان على سعة الصدر والحلم، ولولا ذلك لما انتشر دين من الأديان.

ومن آيات حلمه عليه السلام أنه اجتاز على جماعة من حساده وأعدائه وكان فيهم ابن هياج فأمر بعض أتباعه أن يتعلق بلجام بغلة الإمام ويدّعيها له فمضى الرجل إلى الإمام عليه السلام وتعلق بزمام بغلته فادعاها له، فعرف الإمام غايته فنزل عن بغلته وأعطاها له.

لقد أقام عليه السلام بذلك أسمى مثل للإنسانية الفذة والحلم الرفيع.

وكان يوصي أبناءه بهذه الصفة الرفيعة ويأمرهم بالتحلي بها، فقد جمعهم وأوصاهم بذلك فقال: ((يا بني إني موصيكم بوصية فمن حفظها لم يضع معها، إن أتاكم آتٍ فأسمعكم في الأذن اليمنى مكروهاً ثم تحول إلى الأذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقل شيئاً فاقبلوا عذره))(٢).

وبهذه الوصية نقف على مدى حلمه وسعة صدره، بالإضافة إلى قبول عذر المسيء وعدم مقابلته بالإساءة وتناسي أقواله من أهم الوسائل الداعية

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) كشف الغمة ٣: ٨ في مناقب الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، وعنه بحار الأنوار ٦٨: ٤٢٥، ح٦٧.

للتآلف والتكاتف وجمع الكلمة وإزالة البغضاء بين الناس. هذه أخلاق آل محمد يزدادون على المسيء إحساناً وعطفاً.

جاء الحر مع ألف فارس للتضييق على الحسين عليه السلام، وكان الحر وأصحابه في حالة من العطش فعطف عليهم الحسين عليه السلام وقال: أصحابي اسقوا القوم... إلخ[1].

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ٣٣١ في خروج الحسين عليه السلام من مكة المدينة.

الذنوب وفساد المجتمع

قوله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١).

قال جماعة من المفسرين: المراد بالبحر هنا البلاد القريبة من البحر وبالبر البلاد البعيدة عنه. وقال آخرون: المراد بالبحر المدينة لكثرة سكانها وبالبر القرية لقلتهم.

والذي نفهمه أن البر والبحر كناية عن كثرة الفساد وانتشاره، وكل ما حرمه اللّه ونهى عنه فارتكابه جريمة وفساد في الأرض كالحرب والبغي والإسراف والخلاعة والفجور والخمر والميسر والاستخفاف بفرائض اللّه وعبادته وما إلى ذلك.

وإذا وصف سبحانه عصر الجاهلية بظهور الفساد براً وبحراً حيث لا أسلحة كيماوية ولا قنابل نووية ولا شركات للاستغلال والاحتكار ولا كازينوهات وخلاعات فبأي شيء نصف عالم اليوم الذي يهدده الفناء والدمار الشامل، في كل لحظة يهدده الفناء والهلاك، لا بفعل اللّه ولا بكوارث الطبيعة، بل بفعل الذين يملكون أبشع أسلحة الإفناء والإهلاك. ولا سبيل

---

(١) الروم: ٤١.

لأمـن البشـرية وصـيانتها مـن هـذا الخطـر إلا أن تدمـر هذه الأسلحة تدميراً كاملاً.

أمـا هيـئة الأمم ومعاهدة التجارب الذرية الجزئية فإنها لم تحقق للبشرية ما تثق به وتطمئن إليه ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الفسـاد في الأرض نتـيجة طبيعـية للإعـراض عـن اللّه، وعدم الالتزام بأمره ونهيه.

وكـلمة ((بعض)) في الآية تشير إلى عذاب الدنيا. ولعذاب الآخرة أشق وأخزى.

وفي الدعـاء المـأثور: ((اللّهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم وتنزل النقم)).

وقـال سيد المرسلين ﷺ: ((اتقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات))[١].

وكفـى شـاهداً قولــه تعـالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (٢) (٣).

والمـراد بالقـرى قـرى عـادٍ وثمـود وغيرهما من الأمم الخالية. والمهلك: الهلاك.

والمعـنى أن اللّـه جعـل لهـلاك الظـالمين وقتاً معيناً ﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٣٧٧، ح١٥، نقلاً عن عدة الداعي: ١٥١.

(٢) الكهف: ٥٩.

(٣) التفسير الكاشف ٦: ١٤٧ في تفسير سورة الكهف آية: ٥٩.

يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١).

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي جزاءً بما عمله الناس من الكفر والفسوق. وقيل معناه: سوء أعمالهم وسوء معاصيهم(٢). ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي ليصيبهم اللّه بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها من المعاصي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي ليرجعوا عنها في المستقبل. وقيل معناه: ليرجع من يأتي بعدهم عن المعاصي(٣). وسأل أحد العلماء: متى فسد الناس؟ قال: متى صلح الناس؟! كان الناس أربعة فقتل رابعهم: آدم وحوى وقابيل وهابيل، وقُتِل هابيل.

وإن صلاح الأمة في كل زمان منوط بصلاح الخاصة.

سئل أمير المؤمنين عن فساد العامة فقال: من فساد الخاصة.

وإن الخاصة لينقسمون على خمس:

العلماء وهم الأدلاء على اللّه.

والزهاد وهم الطريق إلى اللّه.

والتجار وهم أمناء اللّه.

والغزاة وهم أنصار دين اللّه.

والحكام وهم رعاة خلق اللّه.

---

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) في المصدر: بسوء أفعالهم، وشؤم معاصيهم.

(٣) مجمع البيان ٨: ٦٥ ـ ٦٦ في تفسير سورة الروم آية: ٤١.

فإذا كان العالم طماعاً وللمال جماعاً فبمن يستدل؟، وإذا كان الزاهد راغباً ولما في أيدي الناس طالباً فبمن يتقدي، وإذا كان التاجر خائناً وللزكاة مانعاً فبمن يستوثق، وإذا كان الغازي مرائياً وللكسب ناظراً فبمن يذب عن المسلمين، وإذا كان الحاكم ظالماً وفي الأحكام جائراً فبمن ينصر المظلوم على الظالم. فواللّه ما أتلف الناس إلا العلماء الطماعون، والزهاد الراغبون، والتجار الخائنون، والغزاة المراؤون والحكام الجائرون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[١].

قسم على رجال المجتمع البشري الذين هم مدار صلاح الملأ وفساده، وبينهم في هذه الدرة النفيسة.

وقال: إن الصلاح والفساد نسبيان يأتي على الناس زمان فيه الصلاح أكثر، ويأتي زمان فيه الفساد أكثر، فإذا كان الفساد أكثر من الصلاح كان الصلحاء فيه كالغرباء، وبالعكس إذا كان الصلاح أكثر، فالفُسّاد فيه محتقرون مهانون.

ولعل الرسول ﷺ أشار إلى زماننا هذا بقوله: ((بدئ الدين غريباً وسيعود كما بدئ، فطوبى للغرباء. قيل: ومن هم الغرباء يا رسول اللّه؟ قال: هم الذين يصلحون عند فساد الناس))[٢].

---

(١) غرر الحكم: ٥٤٢، رقم الحكمة [١٠٦]، وعنه ميزان الحكمة.

(٢) مستدرك الوسائل ١١: ٣٢٣، ب (٣٩) وجوب اصلاح النفس عند ميلها إلى الشر، ح ١٣١٥٦، وكمال الدين ١: ٢٠١ ب (٢٠)، ح٤٥، والمجالس السعيدة: ٨.

بـــلاد بهـــا كـــنا وكـــنا نحـــبها إذا   الـــناس نـــاس والـــزمان زمـــان[١]

قـال رسـول اللّـه ﷺ: ((سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقـتل والتجـبر، ولا الغـنى إلا بالغصـب والـبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الديـن واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغـنى وصـبر عـلى البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز آتاه اللّه ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي))[٢].

ومـن يصـبر ويعتـنق دينه هذا الزمان إلا القليل أصبح متبعوا الدين في مجـتمع تـنكر لهـم في عاداتهم وآرائهم ومعتقداتهم فيصفونهم بالرجعية حيناً وبـالجمود والـركود حيـناً آخـر لاسيما هذا الزمان الصلحاء غريبون لأنك لا تـرى إلا أنـاس مـرقوا مـن الدين ومردوا على النفاق، لا ترى في أعمالهم إلا الغـش، ولا تعـي من أقوالهم غير الكذب والزور والبهتان، فالأوضاع نكست رأساً على عقب[٣].

يحدث الماضون عن سنين مضت أن المرأة إذا مشت بالطريق ورأت رجلاً إما أن تجلس بحيث لا يرى الرجل قدميها أو تنضم في بيت.

فمـــا الـــناس بالـــناس الذيـــن عهدتهـــم

ومـــا الـــدار بـــالدار الـــتي كنـــت أعـــرف[٤]

---

(١) مغني اللبيب ٢: ٦٥٧، ح٨٩٧. وفيه: بلاد بها كنّا وكنا من أهلها.

(٢) الكافي ٢: ٩٦ ب (٤٧) الصبر، ح١٢.

(٣) رجل من أهل البحرين باع عبده لأنه يصلي صلاة الليل.

(٤) بحار الأنوار ٧: ٧١.

يقول الأديب الحوماني[١]:

تحدث إليّ أبي أن الصلاح عاماً شاملاً في البقعة التي نحن فيها وهي المسماة بجبال عاملة نسبة إلى عاملة بن سبأ الذي هاجر قبل الإسلام من اليمن جنوب الجزيرة العربية إلى الشام فراراً من القحط على أثر انهيار سد مأرب [٢].

يقول: كان في النبطية وهي حاضرة جبل عامل وتكاد تكون عاصمة الجنوب من جبل عامل، وتفصل بينه وبين فلسطين، فقيه مطاع يدعى السيد حسن مكي، وقد بلغ من طاعته في مجتمعه ذاك أن رجلاً سب الدين في سوق المدينة وعلى مسمع من النظارة فأحدق به الناس وتزعزعت أركان المدينة من شيوع هذا الحديث وأثره السيئ في سمعتها لدى القرى المجاورة.

ولما خشي الرجل على نفسه لجأ إلى الحكومة بدعوى أن الخبر مكذوب عليه، ثم شكاه سامعوه إلى الفقيه وشهد منهم من هو ثقة في القول، فأصدر السيد الفقيه فتوى بتحريم معاملته ومخالطته والسلام عليه، ونهى أن يتعمد أحد إنزال السوء به.

وشاع ذلك بين الناس فاجتنبوه حتى لا ينظر إليه أحد ولا يكلمه أحد فكان يفتح متجره من الصباح إلى المساء لا يدخل عليه أحد ولا يكلمه أحد ولا يبيعه أحد ثم لا يشتري منه أحد، حتى ضاق به العيش ووجد أن لا حياة

---

(١) دين وتمدين ١: ٥٦.

(٢) البداية والنهاية ٢: ١٥٨ قصة سبأ، وفي لسان العرب ١١: ٤٧٧ وفيه وعاملة حي من اليمن، وهو عاملة بن سبأ.

لـه إلا أن يهاجر أو يلوذ بفقيه البلدة، وكان الرأي الثاني أقرب إليه، فجاء إلى الفقـيه وقـبل يديـه ثـم خضـع أمامـه منيـباً يسـتغفر فاستتابه ثم أحل للناس معاملته.

ويقـول الحوماني: أدركت قبل أربعين عاماً أن امرأة في قريتي ثبت عليها الـزنى شرعاً ولم تقم الحكومة عليها الحد، فاجتمع أهل البلدة وأقروا تعزيرها فخمـر وجههـا بالسـواد ثـم حملوهـا عـلى ظهر حمار وأداروا وجهها إلى دبره وطافوا البلدة والصبيان وراءها يهتفون بما تقشعر لـه الأبدان من بذيء اللفظ الـذي يسـبغونه علـيها. وبقيت بعد ذلك طيلة حياتها منبوذة، واستمر ذكرها حتى ماتت مضرب المثل السوء في البلدة.

وهـذا الـزمان نرى الفواحش علناً، وتعرف بيوت الدعارة، والفسق في كل بلدة ولا ينكر ولا يغير، فينطبق علينا وعلى الزمان الماضي هذه القصة:

يحكـى أن زوجـة أحـد الأثـرياء بعـد موتـه سألت غلامه أن يتزوج بها فأنكـر ذلـك وقـال: إن الـناس سـوف يـتلقونك بألسـنتهم، قالت: لا عليك ودفعـت لـــه دراهـم وأمـرته فاشترى بعيراً فلطخت ظهره بالطين وبذرت به شـعيراً وتعهدتـه بالمـاء حتى نبت وطال وأعشب، قالت: اخرج به إلى السوق فخـرج ولمـا عـاد قالت: كيف وجدت الناس؟ قال: إنهم يلاحقون البعير أين سـار متعجـبين من أمره، قالت: فاخرج به لهم غداً، فخرج وعاد، قالت: كيف حـالهم؟ قـال: ينظرونه ولا يلحقونه وهكذا خمسة أيام، قالت: كيف هم اليوم؟ قال: لم يلتفت أحد منهم إليه، قالت: هذا شأنهم، لو تزوجتني فبعد خمسة أيام لا ترى من يذكرنا بشيء مما كان أول الأمر.

وجاءت امرأة لأحد السادات من أهل الفضل وسألته لو أن رجلاً تزوج بأمِّهِ، قال: يكون حراماً عليه، قالت: ليس بحرام، سيتكلم الناس أياماً ثم يسكتون. إشارة إلى أن العمل الحرام إذا صدر لا يقاوم.

وفي هذه السنين تأتيك أنباء في الصحف والمجلات وعلى الألسن أن أناساً عملوا الزنى بمحارمهم كل ذلك نتيجة الخمر، ونتيجة ترك الأوامر الإلهية.

في هذا الزمان في الخارج ترى السوقي على سمع الناس وبصرهم، يجلس إلى مائدة الخمر في مقهى الشارع وفي رمضان فلا ينكر عليه أحد ما يصنع.

وإذا بالشاب المتعلم يكتب ويخطب ساخراً من الدين وهازئاً بتعاليمه فلا يزجره أحد، وإذا بالمصلح الملهم يؤلف ويكتب أو يخطب آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر فلا يصغي إليه أحد، ويرمى بالسفه والرجعية والجمود ويصبح المأبون رئيساً، وهذا الطراز يكاد يكون الطليعة في زماننا. بينما نرى المخلص المتحرر من هواه ونفسه، العامل لدينه وقوميته، المضحي في سبيل مثله العليا، تراه منزوياً في غيابة بيته إن كان له بيت، أو مشرداً في مجاهيل الأرض بائساً مضطهداً لا ينظر إليه أحد إلا ازدراه، فلا رادع ولا مانع.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(١).

ولو أن أهل الفساد قوطعوا لكفوا.

مرت على الناس ظروف ثمر بلا ورق، ثم مرت ظروف ورق وشوك

---

(١) الروم: ٤١.

وفي زماننا شوك.

كان عامل المنكر يقاطعه أهله وعشيرته.

لما خرج الرسول إلى غزوة تبوك آخى بين المسلمين وبين عبدالرحمن بن سعيد وأخيه ثعلبة إلخ.

وقضية الثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع(١).. إلخ.

وترى الكثير من ضحى بنفسه في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسيد من ضحى بنفسه هو الحسين عليه السلام وهو القائل: وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، فمن قبلني بقبول الحق الله أولى بالحق، ومن رد عليَّ هذا أصبر حتى يحكم الله بالحق وهو خير الحاكمين(٢).

وبالفعل حكم بينه وبينهم بالحق. هذا الحسين عليه السلام وفي تاريخه عِبر منذ كم سنة قتل، وكأنه في كل يوم قتيل على الرمضاء بلا دفن تراه الناس منذ كم سنة قتل وهذه مأتمه ضجة كبيرة في وجه المفسدين والظالمين، منذ كم سنة قتل وهذا قبره كعبة للزائرين تسمع الواعية صباحاً ومساء تحت تلك القبة كل ينادي واحسيناه، السلام عليك يا أبا عبد الله.

---

(١) السيرة النبوية: ٥٣١ في أمر الثلاثة الذين خلفوا وأمر المعذرين في غزوة تبوك.

(٢) مقتل الحسين: ٣٣١ في خروج الحسين من مكة إلى العراق.

العقل يهدي إلى اللّٰه

قوله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١).

يعني كم دليل على وجود اللّٰه وعظمته ووحدانيته في السماوات والأرض من كواكب زاهرات، وأفلاك دائرات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمة، وقفار شاسعة، يمر عليها المشركون وهم عن التفكير فيها وفي وجودها معرضون، فلا يتخذون منها دليلاً على وجود اللّٰه وتوحيده.

وقد فرض اللّٰه سبحانه وتعالى على الإنسان الاعتقاد به وبوحدانيته، لكن لا عن طريق التقليد والاتباع بل عن طريق الدليل والبرهان، وكذا الشأن في كل الأصول الخمسة الاعتقادية.

أهداف اشتراط الدليل في الإيمان بأصول الدين:

١. استخدام الإنسان لعقله:

والهدف من اشتراط الدليل في الأصول أن اللّٰه تعالى يريد من هذا

---

(١) يوسف: ١٠٥.

الإنسان أن يستخدم عقله وتفكيره فلا يعتمد على الغير في أموره ويترك عقله بـلا اسـتعمال واسـتثمار، فاللّه تعالى إنما فضل الإنسان على غيره من المخلوقات بهـذه الـنعمة العظيمة والطاقة الهائلة وهي العقل لينتفع بها لا ليبقيها مجمدة مـتعطلة. والإسـلام لا يجيز للإنسـان أن يقلـد الغـير بدون تفكير إلا فيما لا يسـتطيع عقله التوصل إليه كاستنباط الأحكام الشرعية، فعلى من لم يبلغ رتبة الاجتهاد أن يقلد مجتهداً جامعاً لشرائط التقليد.

٢ـ صناعة المسلم الواعي:

ومـن الأهـداف التي يرمز إليها اشتراط الدليل في أصول الدين الخمسة مقاومـة الآراء المعـاندة للإسـلام، فإن من يسلم بالأصول عن غير دليل عقلي فلـن يستطيع أن يقاوم أبسط ريح تمر عليه، بل تعصف به وتجرفه، ما من كان مسـلحاً بالدلـيل والبرهان فإنه ستكون لـه قوة يقاوم بها من أراد انحرافه عن عقيدته.

التقليد مذموم

فالإسلام يحارب التقليد الأعمى وهو منبوذ في نظر الشريعة الإسلامية.

وإذا اسـتنطق الإنسـان عقله فإنه يحكم بذم التقليد الأعمى وبنبذه، فإن العقـل لا يسـوغ لصاحبه أن يعتنق أمراً اعتماداً على الغير بدون تروٍّ وتفكير لأن ذلك غير مأمون من العقبات.

يحكـى أن حمـارين يحمـل أحدهمـا مـلحاً والآخـر إسفنجاً وكانا يمشيان فاعترضـهما في الطـريق مسـتنقع مياه فنزل الحمار الذي يحمل الملح فيه فذاب

الملح الذي يحمله وخرج خفيفاً، فلما رأى الحمار الثاني صاحبه أعجب بفكرته وصمم على تقليده فنزل في الماء فامتلأ الإسفنج الذي يحمله ماءً فبهضه ثقله وخرج من الماء بعد تعب شديد نتيجة لتقليده الأعمى.

هذا مثال بسيط للتقليد الأعمى وثمراته الخائبة.

أما شبابنا اليوم فقد قلد الغرب في أعماله حذو القذة بالقذة، وليتهم قلدوهم في المخترعات والمكتشفات العلمية، كلا بل قلدوهم في الأشياء السخيفة كتربية الشعر الطويل المسمى بالخنافس، وقلدوهم بتقصير الثياب بالنسبة إلى الفتيات، وحلق اللحى والغناء واللّهو والسفور وغير ذلك من الأمور التي إن دلت على شيء بغض النظر عن رأي الشريعة الإسلامية فإنما تدل على ميوعة زائدة وعدم اتزان ورجحان.

دلائل وجود الله:

فالدين الإسلامي يدعونا إلى استخدام العقل حتى في الأمور الثابتة كوجوده تعالى. ولما كان إدراك الخالق بالحواس الخمسة - وهي الذائقة والسامعة والشامة والباصرة واللامسة - ممتنعاً انحصر الدليل على وجود الله تعالى في آياته وآثاره.

وقد اتخذ المشككون ذلك موضع إشكال فقالوا: كيف نؤمن بوجود شيء لا نحسه بحواسنا الخمسة.

والواقع أن الحواس الخمسة عاجزة عن إدراك أشياء كثيرة في حياتنا الحاضرة كالروح مثلاً، فلقد عجز الناس عن إدراك كيفيتها وأين تكون من الجسم رغم أنها مصدر الحياة في جسم الإنسان. وكذلك العقل وهو السراج

الـذي ينير للإنسان دروب الحياة ومع ذلك فإن الإنسان لا يستطيع إدراكه بأي حاسـة مـن حواسـه. وغير ذلك من الأشياء التي نؤمن بها مع عدم إدراكنا لها بـأي حاسـة من الحواس الخمسة، وما ذلك إلا لأننا نشاهد آثارها فنرى الحياة وهي أثر الروح فنؤمن بوجودها. ونلمس الفرق بين تصرفات العاقل والمجنون فنحكم بوجود العقل.

وإذا كـنا نؤمن بهذه الأشياء وأمثالها لدلالة آثارها عليها فإن من صميم الواقـع أن نؤمـن بوجـود اللّه لما دلت عليه آثاره وآياته الكثيرة التي نشاهدها ونمـر علـيها. وآيـات اللّـه ميسـرة في السماء والأرض، فإن هذا الكون الرائع العظـيم لابد لـه من موجد، بل لو تأمل الإنسان وتفكر في خلق نفسه فضلاً عـن سـائر أنـواع الحـيوانات، كيف أودع اللّه في الأصلاب بعد أن خلق من تراب، ثم قرّ في الأرحام نطفة، ثم صارت علقة، ثم صارت العلقة مضغة، ثم صـارت المضـغة عظامـاً، ثم كسيت العظام لحماً، ثم صار خلقاً آخر(١) أخرج مـن بطـن أمـه في خلـق حسـن وصـنع محكم متقن، وأسلوب عجيب ووضع غريـب، وجعـل لــه عينين ولساناً وشفتين، وصماخاً وأذنين، ويدين ورجلين علم علماً قاطعاً وتيقن يقيناً ساطعاً أن له موجداً صانعاً.

---

(١) اشـارة إلى قولـه تعـالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قـرار مكـين، ثـم خلقـنا الـنطفة علقـة فخلقـنا العلقـة مضـغة فخلقـنا المضـغة عظامـاً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. المؤمنون: ١٢ ـ ١٤

أصحاب الكهف وآيات الكون:

وبهـذا الـتفكير اهتدى أصحاب الكهف إلى معرفة اللّٰه تعالى. وقد ذكر اللّـه سـبحانه وتعـالى قصـتهم في القـرآن الكـريم بقولـه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾(١). وكـانوا ستة من أمثل أهل زمانهم عقلاً وعلماً وأدبـاً ومعـرفة، وكـانوا جمـيعاً وزراء للملكهـم المدعـي الربوبـية والمعـروف بـ((دقـيوس))، وكـانوا يجـتمعون كل يوم عند واحد منهم. وأسماؤهم (تمليخا مكلمينا، فشلينا، مرنوس، ديرنوس، سادربوس) (٢) فاجتمعوا ذات يوم عند تمليخا [فاتخذ لهم من طيب الطعام] فقال لهم: يا إخوتاه لقد وقع في قلبي شيء منعني من الطعام والشراب والمنام.

ومـا ذاك يـا تملـيخا قـال: أطلت فكري في هذه السماء فقلت: من رفع سقفها محفوظة بلا عمد ولا علاقة من فوقها ومن أجرى فيها شمساً وقمراً آيتان مبصـرتان؟ ومـن زيـنها بالـنجوم؟ ثـم أطلـت الفكـر في الأرض فقلـت: من سـطحها عـلى صـميم المـاء الـزخار؟ ومـن حبسـها بالجبال أن تميد [على كل شـيء]؟ وأطلـت فكـري في نفسي فقلت: من أخرجني [جنيناً] من بطن أمي؟ ومـن غذاني؟ ومن رباني؟ إن لها صانعاً ومدبراً غير دقيوس الملك، وما هو إلا ملك الملكوك وجبار السماوات والأرض.

---

(١) الكهف: ١٣.

(٢) في المصدر: (تمليخا ومكسلمينا وميشيلينا ومرنوس وديرنوس وشاذريوس).

فقالوا جميعاً: ونحن نرى ذلك، فانكبت الفتية على رجليه يقبلونها وقالوا بك هدانا الله من الضلالة إلى الهدى فأشر علينا.

قال: اعتزلوا دقيوس وقومه ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾(١). فاتفقوا على ذلك وقام تمليخا وأخذ شيئاً من الدراهم في كمه وركب وأصحابه خيولهم وخرجوا من المدينة، فلما ساروا ثلاثة أميال قال لهم تمليخا: يا إخوتاه قد جاءت سكنة الآخرة وذهب ملك الدنيا، انزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم لعل اللَّه أن يجعل لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً، فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبعة فراسخ في ذلك اليوم فجعلت أرجلهم تقطر دماً فاستقبلهم راعٍ فقالوا له: أيها الراعي هل من شربة من ماء أو لبن؟ قال الراعي: عندي ما تحبون لكن أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هراباً من دقيوس الملك، قالوا: يا أيها الراعي لا يحل لنا الكذب أفينجينا منك الصدق؟ قال: نعم، فأخبروه بقصتهم فانكب على أرجلهم يقبلها وقال: لقد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم ولكن أمهلوني حتى أرد الأغنام على أربابها وألحق بكم فقالوا: لا بأس فتوقفوا له فرد الأغنام وأقبل راجعاً إلى أصحابه يتبعه كلبه واسمه قطمير، وهو ينبح فخافوا الفضيحة بنباحه فطردوه ورموه بالحجارة فأنطقه اللَّه تعالى وقال: يا قوم ذروني حتى أحرسكم من عدوكم فتركوه يمشي معهم.

---

(١) الكهف: ١٦.

وما زال الراعي يسير بهم حتى علا بهم جبلاً فانحط بهم على كهف يقال له الوصيد، وإذا بفناء الكهف عيون وأشجار مثمرة فأكلوا من الثمر وشربوا من الماء فلما جنهم الليل آووا إلى الكهف فأوحى اللّٰه تعالى إلى ملك الموت بقبض أرواحهم، ووكل اللّٰه تعالى بكل رجل ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال وأوحى اللّٰه تعالى إلى خُزان الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وتقرضهم ذات الشمال.

أبى اللّٰه أن تصهرهم الشمس لأنهم فتية مؤمنون وأبو عبداللّٰه بقي مطروحاً في الشمس.

فلما رجع دقيوس من عيده سأل عن الفتية فأخبره أصحابه أنهم خرجوا هراباً فركب الملك في ثمانين ألف حصان فلم يزل يقفوا أثرهم حتى علا الجبل فانحط إلى كهفهم فنظر إليهم [إذا هم] نياماً فقال الملك: لو أردت أن أعاقبهم بشيء لما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم، ولكن آتوني بالبنائين فسد باب الكهف بالكلس والحجارة، وقال لأصحابه: قولوا لهم: يقولوا لإلههم الذي في السماء أن لينجيهم وأن يخرجهم من هذا الموضع.

ومكث أهل الكهف ثلاثمائة سنة وتسع سنين فلما أراد اللّٰه تعالى أن يحييهم أمر إسرافيل [الملك] أن ينفخ فيهم الروح فنفخ فقاموا من رقدتهم فلما أن بزغت الشمس قال بعضهم: قد غفلنا في هذه الليلة عن عبادة إله السماء، فقاموا فإذا العين قد غارت، وإذا الأشجار قد يبست، فقال بعضهم: إن أمورنا لعجب مثل تلك العين الغزيرة قد غارت والأشجار قد يبست في ليلة واحدة ومسهم الجوع، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى

الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾(١) قال تمليخا: لا يذهب في حوائجكم غيري ولكن ادفع أيها الراعي ثيابك إليّ، قال فدفع الراعي ثيابه ومضى يؤم المدينة فجعل يرى مواضع لا يعرفها وطريقاً هو ينكرها حتى إذا أتى باب المدينة وإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه: لا إله إلا اللّه عيسى رسول اللّه، قال فجعل ينظر إلى العلم وجعل يمسح عينيه ويقول: أراني نائماً.

ثم دخل [المدينة حتى أتى] السوق فأتى رجلاً خبازاً فقال: أيها الخباز ما اسم مدينتكم هذه؟ قال: أقسوس، قال: ما اسم ملككم؟ قال: عبدالرحمن قال: ادفع إليّ بهذه الورق طعاماً، فجعل الخباز يتعجب من ثقل الدراهم ومن كبرها...، فقال الخباز: يا هذا أنت أصبت كنزاً؟ فقال تمليخا: ما هذا إلا ثمن تمر بعتها منذ ثلاث، وخرجت من هذه المدينة وتركت الناس يعبدون دقيوس الملك.

قال: فأخذ الخباز بيد تمليخا وأدخله على الملك فقال: ما شأن هذا الفتى؟ فقال الخباز: هذا رجل أصاب كنزاً، فقال الملك: يا فتى لا تخف فإن نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لا نأخذ من الكنز إلا خمسها، فادفع خمسها وامضِ سالماً، فقال تمليخا: انظر أيها الملك في أمري ما أصبت كنزاً، أنا رجل من أهل هذه المدينة، فقال الملك: أنت من أهلها؟

قال: نعم، قال: فهل تعرف بها أحداً؟ قال: نعم، قال: ما اسمك؟ قال:

---

(١) الكهف: ١٩.

اسمي تمليخا، قال: وما هذه الأسماء أسماء أهل زماننا فقال الملك: فهل لك في هذه المدينة دار؟ قال: نعم، اركب أيها الملك معي، قال فركب الملك والناس معه فأتى بهم أرفع دار في المدينة فقال تمليخا: هذه الدار لي، فقرع الباب فخرج إليهم شيخ وقد وقع حاجباه على عينه من الكبر فقال: ما شأنكم؟ فقال الملك: أتانا هذا الغلام بالعجائب، يزعم أن هذه الدار داره، فقال له الشيخ: من أنت؟ قال: أنا تمليخا ابن قسطيكين، قال: فانكب الشيخ على قدميه يقبلهما ويقول: هو جدي ورب الكعبة، فقال: أيها الملك هؤلاء الستة الذين خرجوا هراباً من دقيوس الملك، قال: فنزل الملك عن فرسه وحمله على عاتقه وجعل الناس يقبلون يديه ورجليه، فقال: يا تمليخا ما فعل أصحابك؟ فأخبر: إنهم في الكهف.

وكان يومئذٍ في المدينة ملك مسلم(١) وملك يهودي فركبوا في أصحابهم فلما صاروا من الكهف قال لهم تمليخا: قفوا في هذا المحل فإني أخاف أن يسمع أصحابي أصوات حوافر الخيل فيظنون أن دقيوس الملك قد جاء في طلبهم، ولكن أمهلوني حتى أتقدم إليهم فأخبرهم فوقف الناس فأقبل تمليخا حتى دخل الكهف فلما نظروا إليه اعتنقوه وقالوا: الحمد لله الذي نجانا من دقيوس، فقال تمليخا: دعوني عنكم وعن دقيوسكم، قال: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، قال تمليخا: بل لبثتم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، لقد مات دقيوس وانقرض قرن بعد قرن وبعث الله نبياً يقال له المسيح عيسى بن

(١) أي مسلم بعيسى عليه السلام.

مريم ورفعه اللّٰه إليه.

وقد أقبل إلينا الملك والناس معه، قالوا: يا تمليخا أتريد أن تجعلنا فتنة للعالمين؟ قال تمليخا: فما تريدون؟ قالوا: ادع اللّٰه وندعوه معك حتى يقبض أرواحنا، فرفعوا أيديهم فأمر الله تعالى بقبض أرواحهم وطمس اللّٰه باب الكهف على الناس، فأقبل الملكان يطوفان على باب الكهف سبعة أيام لا يجدان للكهف باباً(١).

وقيل بل دخلوا عليهم وجعلوا يسألونهم فبينما هم معهم إذ سقطوا ميتين فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾(٢).

وقد أنزل اللّٰه في القرآن سورة سماها سورة الكهف إعلاءً لشأنهم وهذه السورة التي لازم الحسين عليه السلام قراءتها بعد قطع رأسه وهو على رأس الرمح حتى يصل لهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾(٣) فقفّ ـ والله ـ شعري وناديت: رأسك والله ـ يا ابن رسول الله ـ أعجب وأعجب (٤).

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٤١٤ ـ ٤١٩ ب(٢٧) قصة أصحاب الكهف والرقيم، نقلاً عن قصص الأنبياء: ٢٥٧ ـ ٢٦٢، وأورده الثعلبي في العرائس: ٢٣٢ ـ ٢٣٦، ومثله في تفسير البرهان ٥: ١٩ في تفسير سورة الكهف، آية: ٩ ـ ٢١.

(٢) الكهف: ٢١.

(٣) الكهف: ٩.

(٤) مقتل الحسين للمقرم: ٣٣٢، والارشاد ٢: ١١٧ ما جرى في الكوفة بعد قتل ⇦

قـرأ الحسـين عليه السلام هذه السورة ليعطي الناس عبرة ويعرفهم أنه الإمام المظلوم، فمعناه لا تعجبوا من أهل الكهف أن أماتهم اللّٰه ثم أحياهم ونطقوا ورؤوسهم علـى أجسـادهم، واعجـبوا مـن رأسي على رأس الرمح أكلمكم وأعظكم فعدل من هداه اللّٰه إلى دين الحق.

أما بني أمية فعلموا أن فعلهم لا يطابق ديناً ولا مذهب وكان خولي يؤلم الرأس بالضرب وهذا الرأس الكريم صدرت عليه مصائب عظام.

الحسـين عليه السلام ومناقـب أمـير المؤمـنين ٢: ٢٦٧، ح٧٣٢ وفـيهما: فقـال رجـل من عرض النـاس: رأسك يا ابن رسول الله أعجب، وعنه بحار الأنوار ٤٥: ١٢١، والثاقب في المناقب: ٣٣٣ والخرائج والجرائح ٢: ٥٧٧، ح١.

الــــزنى

قوله تعالى:

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾(١).

في هـذه الآيـة الشـريفة نهـى اللّه سبحانه وتعالى عباده عن الزنى. وفي الـزنى قـتل لـلجماعة وقتل للفرد. أما كونه قتل للجماعة التي ينشأ فيها فإنه يضـيع الأنسـاب، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتتفكك روابط الجماعة فتنتهي إلى ما تشبه الموت بين الجماعات.

وأما كونه قتلاً للفرد فإن الجنين إذا ترك للحياة عاش ضائعاً في المجتمع، وفي نفـس الوقـت يحمـل في فطرته صفات شريرة، فيكون محباً لسفك الدماء، وانـتهاك الأعـراض، وسـلب أمـوال الـناس؛ لأن انحـراف الأم يؤثـر في نفس طفـلها، لأن جمـيع الحـالات الجسـدية والنفسية للأم تؤثر على الطفل، كذلك أخـلاق الأم فإنهـا تؤثـر في روح الطفـل وجسـده. وإذا حـدث للمرأة في أيام الحمـل حـادث مخـيف فإنـه يتغير لونها ويقشعر بدنها فتظهر على الجنين آثار امـتقاع اللـون تسـمى الخسـوف، وهكذا جميع الصفات الرذيلة والحميدة من غضـب الأم واضطرابها، وتشاؤم الأم وحقدها، وحسد الأم وأنانيتها، وخيانة

---

(١) الإسراء: ٣٢.

الأم وجنايتها، وإيمان الأم وتقواها، وطهارة قلب الأم وحنانها، ومروءة الأم وإنسانيتها، واطمئنان الأم وراحة بالها، وشجاعة الأم وشهامتها، جميع هذه الصفات تترك آثارها في الطفل وتبني أساس سعادة الجنين وشقائه، ومن هنا يتحقق قول النبي ﷺ : ((الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه))(١).

إن الفتاة التي تقدم على الزنى مختفية عن أبويها بمجرد شعورها بالحمل تضطرب أشد الاضطراب وتنتابها رعشة تسري إلى فرائصها؛ لأن انتفاخ بطنها في أقرب وقت سيفضح سرها، ولذلك فإنها تقضي لياليها بالأرق وتعيش أيامها غارقة في التفكير، وبعد انقضاء أيام الحمل تلد بالطفل ولكن هل يكون الطفل سالماً وطبيعياً؟ كلا، إن الغصص والهموم والآلام والاضطراب والقلق الذي كان مسيطراً على المرأة طيلة تسعة أشهر كان طفلها شريكاً معها في تلك المحن والآلام.

وتوجد من بين النساء الملوثات بالانحرافات الجنسية طبقة لا تملك الإيمان كي يخفن من اللّه، ولا تملك سمعة حسنة في المجتمع كي يخفن من انفضاح أمرهن، ولذلك يرتكبن الزنى من دون اكتراث، فإذا حملت هذه المرأة من الزنى فبالرغم أنها لم يصبها اضطراب وقلق طيلة أيام الحمل ولكن في ضميرها نقص مهم وفي تفكيرها انحراف أهم وهو الخروج على القانون

(١) تفسير القمي ١: ٢٢٧، تفسير سورة الأعراف، آية: ٢٩، وعنه بحار الأنوار ٥: ٩ كتاب العدل والمعاد، ح١٣.

وهذه الصفة نفسها كسائر الصفات الرذيلة تخلق تربة مساعدة في الطفل للخروج على القانون وفي كل مرة تحمل هذه المرأة من الزنى تؤثر حالتها النفسية في نفسية الطفل وتجر على المجتمع آثار سيئة.

إن بعض النساء يتزوجن ولكن نفوسهن القذرة الدنيئة تميل إلى الرجال الأجانب، ومن الممكن أن ترتكب امرأة الزنى بالرغم من أنها ذات زوج وتستفيد من ذلك أنها تجعل الزوج حصناً منيعاً أمام التهم الاجتماعية.

إن مما لا شك فيه أن هذه المرأة مصابة بالانحراف النفسي وحتى إذا حملت من زوجها القانوني فإن الطفل بالرغم من كونه ولداً قانونياً حسب المقررات الشرعية ولكنه من جهة الانحراف الروحي والفساد النفسي لا يقل عن ولد الزنى؛ إذ أن الطفل يرث الصفات الرذيلة من أمه فهو يميل إلى الفساد وإلى كل جريمة.

كان الحجاج بن يوسف الثقفي فرداً غير طبيعي وخطير في نفس الوقت، والتاريخ أحصى له جرائم وجنايات عظيمة سودت وجه البشرية. إن الأسباب في انحراف سلوك هذا الإنسان هي انحراف أمه، وكان اسمها ((فارعة))(١) وكانت زوجة للمغيرة بن شعبة قبل أن تتزوج بيوسف الثقفي، وكانت تهوى نصر بن حجاج، وكانت بينه وبينها علاقة غير مشروعة، وكانت دائماً تغني باسمه (٢).

---

(١) الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي. (الأغاني ٦: ٤١٨).

(٢) وفيات الأعيان ٢: ٣٠، رقم الترجمة [١٤٩] الحجاج بن يوسف الثقفي.

كان عمر بن الخطاب يسير في بعض الليالي في أزقة المدينة فسمعها تغني في أحد البيوت وتنشد هذا البيت:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فتأثر عمر من هذا البيت وساءه أن تكون في عاصمة حكومته امرأة تغني بغرام شاب أجنبي بالرغم من أنها متزوجة، فأحضر نصر بن الحجاج وكان شاباً جميلاً فحلق رأسه وسفره إلى البصرة(١).

إن المرأة المحصنة التي تفكر في رجل أجنبي وتتمنى شرب الخمر والوصل بالنصر بن حجاج لا يستغرب منها أن تلد طفلاً مثل الحجاج في فساده وانتهاكه حريم الناس.

وقد ولدته أمه مشوهاً لا دبر له. وأصر ألا يقبل ثدي أمه وغيرها من النساء، فأعياهم أمره فتصور لهم الشيطان في صورة الحارث بن كلدة فقال لهم: اذبحوا له تيساً أسود والعقوه بدمه واطلوا به وجهه ثلاثة أيام فإنه يقبل الثدي، ففعلوا ما أمرهم به فقبل ثدي أمه(٢)، فكان لا يصبر عن سفك الدماء. يقول اللعين: أكبر اللذات عندي سفك الدماء. وقد قتل ألوفاً كثيرة

---

(١) وفيات الأعيان ٢: ٣١ في ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٢) وفيات الأعيان ٢: ٣٢ في ترجمة الحجاج في يوسف الثقفي بلفظ: اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه... إلى أن قال وفي اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً... الخ.

من الصلحاء كسعيد بن جبير(١) وقضاياه كثيرة.

---

(١) تهذيب الكمال ١٠: ٣٦٨، رقم الترجمة [٢٢٤٥]، ذكر قصة قتل الحجاج لعنه الله لسعيد بن جبير الأسدي.

ولاية علي عليه السلام

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

اللغـــة:

الولـي: هـو الـذي يلـي النصـرة والمعونة، والولي هو الذي يلي تدبير الأمـر، يقال: فلان ولي المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها، وولي الدم من كان إلـيه المطالـبة بـالقود، والسـلطان ولـي أمر الرعية، ويقال لمن يرشحه لخلافته عليهم بعده: ولي عهد المسلمين. قال الكميت يمدح علياً عليه السلام:

ونعـــم ولـــي الأمـــر بعـــد ولـــيه ومنـــتجع الـــتقوى ونعـــم المـــؤدبُ

ويروي الفتوى: وإنما أراد ولي الأمر والقائم بتدبيره.

قـال المـبرد في كتاب ((العبارة عن صفات اللّه)): أصل الولي الذي هو أولى أي: أحق، ومثله المولى.

والـركوع: هو التطأطؤ المخصوص. قال الخليل: كل شيء ينكب لوجهه فتمس ركبته الأرض أو لا يمس بعد أن يطأطئ رأسه، فهو راكع، وأنشد لبيد:

---

(١) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

أخبِّر أخبار القرون التي مضت   أدبُ كأني كلما قمت راكع

وقال ابن دريد: الراكع الذي يكبو على وجهه، ومنه الركوع في الصلاة. قال الشاعر:

وأفلِتَ حاجبُ فوق العوالي   على شَقًّا تركَّعُ في الظراب

وقد يوصف الخاضع بأنه راكع على سبيل التشبيه والمجاز لما يستعمله من التطامن والتطأطؤ، وعلى ذلك قول الشاعر:

لا تهين الفقير علك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

والحزب: الطائفة والجماعة، وأصله من أقوالهم: حزبه الأمر يحزبه: إذا نابه، وكل قوم تشابهت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب، وتحزّب القوم: إذا اجتمعوا (١).

النزول:

حدث الأعمش عن عبادة بن الربعي(٢) قال: بينا عبدالله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله ﷺ ؛ إذ أقبل رجل متعمم بعمامة فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ إلا قال الرجل: قال رسول الله ﷺ ، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟، فكشف العمامة عن وجهه وقال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) مجمع البيان ٣: ٣٥٩ في تفسير سورة المائدة، آية: ٥٦.

(٢) في تفسير البرهان: عباية بن ربعي.

بهاتين وإلا صمتا ورأيته بهاتين وإلا عميتا، يقول: علي قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله، أما إني صليت مع رسول اللّه ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللّهم اشهد اني سألت في مسجد رسول اللّه ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين رسول اللّه ﷺ .

فلما فرغ النبي ﷺ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهم إن أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾(١) فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾(٢) اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللّهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري، قال أبو ذر: فواللّه ما استتم رسول اللّه ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبرئيل من عند اللّه فقال: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣) (٤) الآية.

---

(١) طه: ٢٥ ـ ٣٢.

(٢) القصص: ٣٥.

(٣) المائدة: ٥٥.

(٤) مجمع البيان ٣: ٣٦١، في تفسير سورة المائدة، آية: ٥٥.

وروى ذا الخبر أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره[١]، وقال الكلبي: إن عبد اللّه بن سلام وأصحابه لما أسلموا قطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية[٢].

وفي المناقب نزلت هذه الآية في علي عليه السلام لما تصدق بخاتمه وهو راكع. وهو أن رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبداللّه بن سلام وأسيد وثعلبة وابن يامين وسلام وابن صوريا، فقالوا: يا رسول اللّه إن موسى أوصى إلى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول اللّه؟ ومن وليت بعدك؟ فنزلت هذه الآية، ثم قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: قوموا فقاموا وأتوا إلى المسجد فإذا سائل خارج من المسجد فقال: يا سائل ما أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، هذا الخاتم. قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي. فنظروا فإذا هو علي بن أبي طالب. قال: على أي حال أعطاكه؟ قال: كان راكعاً. فكبر النبي صلى الله عليه وآله وكبر أهل المسجد فقال صلى الله عليه وآله: علي بن أبي طالب وليكم من بعدي، فقالوا رضينا باللّه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبعلي ولياً، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣] [٤].

---

(١) تفسير الثعلبي ٤: ٨٠ ـ ٨١ في تفسير سورة المائدة، آية ٥٥، وذكر ذلك أيضاً بطرق مختلفة، منها الفصول المهمة: ١٢٣ في حديث الثعلبي، والتذكرة: ٧ عن تفسير الثعلبي، ومناقب الخوارزمي: ٧٨ بطريقين، والبداية والنهاية ٧: ٣٥٧ في تصدق أمير المؤمنين بخاتمه.

(٢) مجمع البيان ٣: ٣٦٢ في تفسير سورة المائدة، آية: ٥٥.

(٣) المائدة: ٥٦.

(٤) مناقب بن شهر آشوب ٢: ٢٠٩ باب النصوص على إمامته عليه السلام، فصل في قوله تعالى: ﴿إنما وليكم اللّه ورسوله والذين آمنوا...﴾، وأمالي الصدوق: ١٠٩، المجلس السادس والعشرون.

وكان يوم التصدق يوم الرابع والعشرين من ذي الحجة (١).

وجاء فيه أيضاً صور منها عن جابر بن عبدالله الأنصاري رحمه الله كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ ورد علينا أعرابي أشعث الحال، عليه أثواب رثة والفقر ظاهر بين عينيه ومعه عياله، فلما دخل المسجد سلم على النبي ﷺ ووقف بين يديه وأنشد يقول:

أتيتك والعذراء تبكي برنة وقد ذهلت أم الصبي عن الطفل
وأخت وبنتان وأم كبيرة وقد كدت من فقري أخالط في عقلي
وقد مسني فقر وذل وفاقة وليس لنا شيء يمر ولا يحلي
ولسنا نرى إلا إليك فرارنا وأين مفر الخلق إلا إلى الرسل؟

قال: فلما سمع النبي ﷺ ذلك بكى بكاء شديداً ثم قال لأصحابه: معاشر المسلمين إن اللّه تعالى قد ساق إليكم ثواباً وقاد إليكم أجراً والجزاء من اللّه غرف في الجنة تضاهي غرف إبراهيم الخليل عليه السلام، فمن منكم يواسي هذا الفقير؟ فلم يجبه أحد، وكان في ناحية من المسجد علي بن أبي طالب يصلي ركعات تطوعاً كانت له دائماً فأومأ إلى الأعرابي بيده فدنا منه فدفع إليه الخاتم من يده وهو في صلاته، فأخذه الأعرابي وانصرف...

ثم إن النبي ﷺ أتاه جبرئيل ونادى: السلام عليك يا رسول اللّه [ربك يقرؤك السلام ويقول لك]: اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فعند ذلك قام النبي ﷺ قائماً على قدميه وقال: معاشر المسلمين أيكم اليوم عمل

(١) مصباح المتهجد: ٧٥٨، في اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجة.

خيراً حتى جعله اللّه وليّ كل من آمن؟ قالوا: يا رسول اللّه ما فينا من عمل خير سوى ابن عمك علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه تصدق بخاتمة على الأعرابي وهو يصلي، فقال صلى الله عليه وآله : وجبت الغرف لابن عمي علي بن أبي طالب، فقرأ عليهم الآية (١)، وتقدم حسان بن ثابت فأنشأ يقول:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارع
أيذهب مدحي والمحبر ضائع ... وما المدح في جنب الإله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً ... فدتك نفوس القوم يا خير راكع
فأنزل فيك اللّه خير ولاية ... وبينها في محكمات الشرائع (٢)

وقال أيضاً:

علي أمير المؤمنين أخو الهدى ... وأفضل ذي نعل ومن كان حافيا
وأول من أدى الزكاة بكفه ... وأول من صلى ومن صام طاويا
فلما أتاه سائل مد كفه ... إليه ولم يبخل ولم يك جافيا
فدس إليه خاتماً وهو راكع ... وما زال أواها إلى الخير داعيا (٣)

وهذه الآية تصرح لعلي عليه السلام الولاية العامة على المسلمين تلك الولاية الثابتة للّه ولرسوله. قال بعض الصحابة: تصدقت بأربعين خاتماً وأنا

---

(١) الفضائل: ١٥٦، وعنه بحار الأنوار ٣٥: ١٩٢، ح١٤، وأيضاً في كشف الغمة ١: ١٦٦ ـ ١٦٧ في زهده عليه السلام.

(٢) بحار الأنوار ٣٥: ١٩٧ ب (٤) في نزول آية: ﴿إنما وليكم الله﴾ في شأنه عليه السلام، ذيل ح١٦.

(٣) نفس المصدر: ١٩١.

راكع فلم ينزل فيّ ما نزل في علي بن أبي طالب(١).

ما كل متصدق متصدق، وما كل خاتم خاتم، وما كل جلد جلد.

تقول بعض القصص كان بأصبهان رجل حسن النعمة، واسع النفس كامل المروءة، يقال له سماك بن النعمان، وكان يهوى مغنية من أهل أصبهان تعرف بأم عمرو، فلإفراط حبه إياها وصبابته بها وهبها عدة من ضياعه وكتب عليه بذلك كتاباً وحمل الكتب إليها على بغل فشاع الخبر بذلك فتحدث الناس واستعظموه، وكان بأصبهان رجل متجلف بين الركاكة يهوى مغنية أخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن سماكاً إنما أهدى إلى أم عمرو جلوداً لا كتابة عليها، وأن هذه من الهدايا التي تستحسن عند من تهدى إليه فابتاع جلوداً كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك وأنفذها إلى التي يحب، فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر تغيضت عليه وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أن لا تكلمه أبداً، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتاً في هذا المعنى ففعل وكانت الأبيات:

لا عاد طوعك من عصاكا   وحرمت من وصلي مناكا

فلقد فضحت العاشقين   بقبح ما فعلت يداكا

أرأيت من يهدي الجلود   إلى عشيقته سواكا

---

(١) أمالي الصدوق: ١١٠ المجلس السادس والعشرون. روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: والله لقد تصدقت بأربعين خاتماً وأنا راكع لينزل فيّ ما نزل في علي بن أبي طالب فما نزل، ومناقب ابن شهر آشوب ٢: ٢٠٩ مثله.

وأظن أنك رمت أن تحكي ... بفعلك ذا سماكا

ذاك الذي أهدى الضياع ... لأم عمرو والصكاكا

فبعثت منتنة كأنك ... قد مسحت بهن فاكا

من لي بوصلك يا رقيع ... ولست أهوى أن أراكا

لكن لعلي أن أقطع ... ما بعثت على قفاكا

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ أولاً: لا يختلف اثنان في المراد بولاية الله والرسول، وأنها التصرف في شؤون المسلمين وليس مجرد المحبة والنصرة، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (١) والولاية في هذه الآية تفسير وبيان للولاية التي نحن بصددها، والمعنى أن الولاية التي لله والرسول ثابتة أيضاً لمن جمع بين الزكاة والركوع (٢).

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٣) هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل بحال على أن المعنى المراد من ولاية الله والرسول والمؤمنين واحد، وأن من حافظ على هذه الولاية ولم يفرق بين الله ورسوله ومن جمع بين الزكاة والركوع فهو من حزب الله الغالب بمنطق الحق وحجته.

وأعظم نص ورد في حق علي عليه السلام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ

---

(١) الأحزاب: ٦.

(٢) التفسير الكاشف ٣: ٨١ ـ ٨٢ في تفسير سورة المائدة، آية: ٥٥.

(٣) المائدة: ٥٦.

مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ﴾(١) وذلك يوم الغدير اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتم فيه النعمة، يوم تتويج الإمام المرتضى بتاج الخلافة العظمى الإمامة الكبرى.

الآراء في ولاية علي عليه السلام:

وهذا البحث من أهم البحوث الإسلامية، وهنا تفترق الطرق بين المذاهب الإسلامية، ويمكن لنا أن نقول: إن الكتب والمؤلفات التي كتبت حول هذا الموضوع بالذات وحول الخلافة والإمامة بصورة عامة قد جاوزت العد والضبط والإحصاء.

١ـ آية إكمال الدين:

ولما انتهت البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام هبط جبرئيل بهذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(٢).

واختلف الشيعة وأكثر السنة في تفسير هذه الآية، ونحن نعرض أقوال الطرفين كناقلين لا مؤيدين ولا مفندين، ونترك القارئ وعقله يستفتيه وحده.

قال السنة أو أكثرهم: المراد بالآية أن الله سبحانه أكمل للمسلمين دينهم بتغلبه وإظهاره على الأديان كلها رغم محاربة أهلها ومقاومتهم له وللمسلمين، وأتم نعمته عليهم بالنص على عقيدته وشريعته أصولاً وفروعاً،

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) المائدة: ٣.

وأبـان جمـيع ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (١).

وقـال الشـيعة يصـح تفسـير هـذه الآيـة بهذا المعنى إذا لم تقترن بحادثة تفسـرها وتـبين المـراد منها؛ فإن كثيراً من الآيات تفسرها الحادثة التي اقترنت زمـن نـزولها. مـن ذلـك عـلى سـبيل المثال قولـه تعالى مخاطباً لنبيه الأكرم: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (٢)، فلو جردنا هذه الآية عن قصة زيـد بـن حارثـة وأخذنـا بظاهـرها لكان معنى الآية أن رسول اللّه ﷺ يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق، حاشا من اصطفاه اللّه لوحي رسالته.

ثـم قـال الشـيعة وهـذه الآية اقترنت بحادثة خاصة تفسرها وتبين المراد منها. واستدلوا على ذلك بما يلي:

أولاً: اتفـق عـلماء السـنة والشيعة والمفسرون منهم والمؤرخون على أن سـورة المـائدة بجمـيع آياتهـا مدنـية ما عدا هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنهـا نزلت في مكة وفي السنة العاشرة من الهجرة وهي السنة التي حـج فيها رسول اللّه ﷺ حجة الوداع لأنه انتقل إلى جنان ربه في شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة (٣).

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) الأحزاب: ٣٧.

(٣) حـياة الإمـام الحسين ١: ٢٠٠، والصوارم المهرقة: ١٧٦، ١٧٩، ونحوه في بحار الأنوار ٣٣: ١٤٧ ب(١٦) كتبه عليه السلام لمعاوية.

حديث الغدير:

ثانياً: أن النبي ﷺ بعد أن قضى مناسكه في هذه السنة توجه إلى المدينة، ولما بلغ غدير خم ـ وهو مكان في الجحفة تتشعب منه طرق كثيرة ـ أمر مناديه ينادي للصلاة فاجتمع الناس قبل أن يتفرقوا ويذهب كل في طريقه، فخطبهم ﷺ وقال فيما قال:

((أيها الناس إن اللّه مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، من كنت مولاه فعلي مولاه)) يقولها ثلاثاً وفي رواية أربعاً. ثم قال ((اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب))(١).

والسنة لا ينكرون هذا الحديث بعد أن تجاوز حد التواتر. نقل الشيعة هذا الحديث عن العديد من مصادر السنة ووضع علماؤهم فيه كتباً خاصة وآخرهم الشيخ الأميني من علماء النجف الأشرف في هذا العصر، فقد ألف كتاباً أسماه ((الغدير)) في اثني عشر مجلداً تبلغ صفحاتها حوالي خمسة آلاف صفحة، ذكر فيه رواة الحديث وهم مائة وعشرون صحابياً، وأربعة وثمانون تابعياً، وثلاثمائة وستون إماماً وحافظاً للحديث، وفيهم الحنفي والشافعي وغيرهما، كل ذلك نقله عن كتب السنة. والكتاب معروض للبيع في مكتبات العراق وإيران ولبنان.

---

(١) التفسير الكاشف ٣: ١٣ في تفسير سورة المائدة، آية: ٣.

وسجل الحديث الكثير من أئمة السنة[١] وعلمائهم منهم الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والنسائي في خصائصه والحاكم في مستدركه والخوارزمي في مناقبه وابن عبد ربه في استيعابه والعسقلاني في إصابته، كما ذكره الترمذي والذهبي وابن حجر وغيرهم. ولكن الكثير منهم فسروا الولاية بالحب والمودة، وقالوا: إن المراد من قول الرسول ﷺ: ((من كنت مولاه)) من أحبني فليحب علياً.

وردّ الشيعة هذا التفسير بأن قول النبي ﷺ: ((أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه)) يدل بصراحة ووضوح على أن نفس الولاية التي تثبت لمحمد ﷺ على المؤمنين هي ثابتة لعلي دون زيادة أو نقصان، وهذه الولاية هي السلطة الدينية والزمنية حتى لو كان للفظ الولاية ألف معنى ومعنى.

وعلى هذا يكون معنى الآية: إن اللّٰه سبحانه أكمل الدين في هذا اليوم بالنص على علي بالخلافة.

وتسأل: إن إكمال الدين بإظهاره على الأديان وبيان أحكامه كاملة وافية كما يقول السنة واضح لا يحتاج إلى تفسير، أما إكمال الدين بالنص على خلافة علي عليه السلام فلا بد له من التفسير والإيضاح؛ فبأي شيء يفسره الشيعة؟

---

(١) مسند أحمد ١: ٤٨، ١١٨، ١١٩. وسنن ابن ماجة ١: ٤٥، وسنن الترمذي ٥: ٢٩٧، والمستدرك ٣: ١٠٩، وتذكرة الحفاظ ١: ١٠، وفتح الباري ٧: ٦١، والسنن الكبرى ٥: ٤٥، والمناقب للخوارزمي: ٧، والاصابة ٢: ١٤.

قال الشيعة في تفسير ذلك: إن الإكمال حقاً لا يتم إلا بوجود السلطة التشريعية والتنفيذية بيد الرسول ﷺ فظن أعداء الإسلام أن السلطة التنفيذية ستذهب بذهاب الرسول، وبذهابها يذهب الإسلام، فأقام النبي علياً ليحفظ الشريعة من بعده ويقيم الدين كما أقامه الرسول ﷺ ، وبهذا لم يبق للكفار أي أمل في ذهاب الإسلام أو ضعفه [١].

معنى المولى:

ذكر اللغويون لكلمة ((المولى)) عشرين معنىً [٢] وهذا هو سبب المناقشة في مفهوم الحديث، فيقول أصحاب القلوب المريضة: لم يظهر لنا المقصود من كلمة ((مولاه))؟

ونجيب عن هذه المناقشة أو التشكيك بهذه الرواية المفسرة لمعنى المولى، فقد روي أن عماراً سأل رسول الله ﷺ عن معنى قوله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه))، فقال ﷺ: الله مولاي أولى بي من نفسي لا أمر لي معه، وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي، ومن كنت مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معي [٣])).

سبحان الله ما يصنع رسول الله ﷺ بعد هذا التفصيل والتشريح والبيان الكافي الموضح لكلامه المبين لمقصوده، وهل أبقى لأحد شكاً؟. وهل

---

(١) التفسير الكاشف ٣: ١٤ ـ ١٥ في تفسير سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٠٠ ـ ولي.

(٣) بحار الأنوار ٣٧: ٢٢١ ب (٥٢) في أخبار الغدير، ح٩٠ عن بشارة المصطفى: ٦١.

بقيت لأحد حجة على الله؟ بل أتم الحجة على الجميع وأدى رسالة ربه على أحسن ما يرام وأفضل ما يمكن.

لسيدنا الحجة السيد عبدالحسين شرف الدين عليه الرحمة بحث لطيف وتحقيق ظريف حول كلمة المولى نذكره تتميماً للفائدة.

فلو سألكم فلاسفة الأغيار عما كان منه يوم غدير خم فقال: لماذا منع تلك الألوف المؤلفة يومئذٍ عن المسير؟ وعلامَ حبسهم في تلك الرمضاء بهجير؟ وفيم اهتم بإرجاع من تقدم منهم وإلحاق من تأخر؟ ولِمَ أنزلهم جميعاً في ذلك العراء على غير كلأ ولا ماء؟. ثم خطبهم عن الله عز وجل في ذلك المكان الذي منه يتفرقون ليبلغ الشاهد منهم الغائب؟ وما المقتضي في نعي نفسه إليهم في مستهل خطابه إذ قال: يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وإني مسؤول وإنكم مسؤولون؟ وأي أمر يسأل عنه النبي ﷺ عن تبليغه وتسأل الأمة عن طاعتها فيه؟.

ولماذا سألهم: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن جنته حق، وأن ناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور قالوا: بلى نشهد بذلك؟ ولماذا أخذ حينئذٍ على سبيل الفور بيد علي عليه السلام فرفعها إليه حتى بان بياض إبطيه؟ فقال: يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين؟ ولماذا فسر كلمته وأنا مولى المؤمنين ـ بقوله ((وأنا أولى بهم من أنفسهم)) ـ؟ ولماذا قال بعد هذا التفسير: فمن كنت مولاه فهذا مولاه أو من كنت وليه فهذا وليه اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله؟ ولِمَ

خصه بهذه الدعوات التي لا يليق بها إلا أئمة الحق وخلفاء الصدق؟ ولماذا أشهدهم من قبل: ألستُ أولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، أو من كنت وليه فعلي وليه؟.

ولماذا قرن العترة بالكتاب وجعلها قدوة لأولي الألباب إلى يوم الحساب؟.

فيمَ هذا الاهتمام العظيم من هذا النبي الحكيم؟ وما المهمة التي احتاجت إلى هذه المقدمات كلها؟ وما الغاية التي توخاها في هذا المقام المشهور؟ وما الشيء الذي أمره الله بتبليغه إذا قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١) وأي مهمة استوجبت من الله هذا التأكيد واقتضت الحض على تبليغها بما يشبه التهديد؟ وأي شيء يخشى النبي ﷺ الفتنة بتبليغه ويحتاج إلى عصمة الله من أذى المنافقين؟.

أكنتم ـ بجدك لو سألكم عن هذا كله ـ تجيبونه بأن الله عز وجل ورسوله إنما أرادا بيان نصرة علي للمسلمين وصداقته لهم؟

ليس إلاّ، ما أراكم ترضون بهذا الجواب ولا أتوهم أنكم ترون مضمونه جائزاً على رب الأرباب ولا على سيد الحكماء وخاتم الرسل والأنبياء، وأنتم أجل من أن تجوزوا عليه أن يصرف هممه كلها وعزائمه بأسرها إلى تبيين شيء لا يحتاج إلى بيان، وتوضيح أمر واضح بحكم الوجدان

---

(١) المائدة: ٦٧.

والعيان، ولا شك أنكم تنزهون أفعاله وأقواله عن أن يزدري بها العقلاء، أو ينتقدها الفلاسفة والحكماء.

بل لا ريب أنكم تعرفون مكانة قوله وفعله من الحكمة والعصمة، وقد قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(١) فيهتم بتوضيح الواضحات وتبيين ما هو بحكم البديهيات ويُقدّم لتوضيح هذا الواضح مقدمات أجنبية ولا ربط له بها ولا دخل لها فيه، تعالى اللّه عن ذلك ورسوله علواً كبيراً.

وأنت نصر اللّه بك الحق تعلم أن الذي يناسب مقامه في ذلك الهجير ويليق بأفعاله وأقواله يوم الغدير، إنما هو تبليغ عهده وتعيين القائم مقامه من بعده. والقرائن اللفظية والأدلة العقلية توجب القطع الثابت الجازم بأنه عليه السلام ما أراد يومئذٍ إلا تعيين علي ولياً لعهده وقائماً مقامه من بعده. والحديث مع ما قد حفّ به من القرائن نص جلي في خلافة علي لا يقبل التأويل وليس إلى صرفه في هذا المعنى من سبيل. وهذا واضح ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢) (٣).

وأما ذكر أهل البيت في حديث الغدير فإنه من مؤيدات المعنى الذي

(١) التكوير: ١٩ ـ ٢٢.

(٢) ق: ٣٧.

(٣) المراجعات: ٢٧٦ ـ ٢٧٨، المراجعة ٥٨.

قلناه حيث قرنهم بمحكم الكتاب وجعلهم قدوة لأولي الألباب فقال: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي)) وإنما فعل ذلك لتعلم الأمة أن لا مرجع لها بعد نبيها إلا إليهما ولا معول لها من بعده إلا عليهما.

وحسبك من وجوب اتباع الأئمة من العترة الطاهرة اقترانهم بكتاب اللّه عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكما لا يجوز الرجوع إلى كتاب يخالف في حكمه كتاب اللّه سبحانه وتعالى لا يجوز الرجوع إلى إمام يخالف في حكمه أئمة العترة.

وقوله عليه السلام: ((إنهما لن ينقضيا أو لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)) دليل على أن الأرض لن تخلو بعده من إمام منهم هو عدل الكتاب.

ومن تدبر الحديث وجده يرمي إلى حصر الخلافة في أئمة العترة الطاهرة. ويؤيد ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن ثابت قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم خليفتين: كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)) إلخ.

وهذا نص في خلافة أئمة العترة عليهم السلام. وأنت تعلم أن النص على وجوب اتباع العترة نص على وجوب اتباع علي إذ هو سيد العترة لا يدافع وإمامها لا ينازع. فحديث الغدير وأمثاله يشتمل على النص على علي تارة من حيث أنه إمام العترة المنزلة من اللّه ورسوله منزلة الكتاب، وأخرى من

حيث شخصه العظيم وإنه ولي كل من كان رسول اللّٰه وليه(١).

وقد نظم الشعراء من المسلمين وغيرهم على اختلاف لغاتهم قصائد متينة فاخرة اشتهرت على مر القرون.

ومرت على الناس ظروف لا يستطيع أن يتظاهر أحد بذكره يقول المفتي الأروسي: كنت أنا وجماعة من علماء المسلمين في طريق يكثر فيه عبور المسافرين فمر بنا رجل من الأعاجم وضيع فقلنا نهزأ به فقلنا له: ما بالكم أيها الأعاجم الحمقى في كل سنة من المحرم تضربون رؤسكم وصدوركم وتقولون واحسيناه وهذا فعل المجانين، فقال لنا: هذا شيء يجب علينا فعله لأنا لو تركناه وبقينا على تركه مدة مديدة أنكرتم قضية يوم الطف من أصلها وقلتم إن يزيد ما قتل الحسين وما سبى بنات رسول اللّٰه. قالوا: لا نقول. قال جربناكم بما هو أكبر: إن النبي ﷺ نصب علياً يوم غدير خم بمحضر مئة ألف أو يزيدون فقال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) ولما رأيتمونا لا نستعمل هذا العيد خوفاً منكم وتقية أنكرتم قضية يوم الغدير من أصلها فنحن نقيم هذه المآتم لئلا تنكر قتلة الحسين عليه السلام. قال فارتعدت فرائصنا ومضى عنا.

---

(١) المراجعات: ٢٧٨ ـ ٢٨٠، والنص والاجتهاد: ٥٨٩ ـ ٥٩١.

علي والمرأة

((المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لابد منها))(١).

قـال قـائل: إن عائشـة حاربـت علـياً لأنـه أشار على رسول اللّه ﷺ بتجاهلها واختيار غيرها في الإفك.

وأيضـاً قـال هذا القائل: إن رأي علي في المرأة من خلال بغضه لعائشة لأنها حاربته.

وذهـل هـذا القـائل عن موقف الإمام مع معاوية حين سقاه الماء بعد أن مـنعه منه(٢)، ومع ابن العاص الذي كشف عن سوأته(٣)، وعن سائر مواقفه التي تنطق بعصمة آرائه عن الأهواء والرغبات.

وفي بعـض خطـبه شـبه اعـتذار عـن عائشـة في خـروجها حيـث ألقى

---

(١) نهج البلاغة: ٥٩٢ في القصار من كلماته عليه السلام، رقم الحكمة [٢٣٨].

(٢) وقعـة صـفين: ١٦٢ في اسـتيلاء أهـل العراق على الماء ثم سماحهم به لأهل الشام، حيث قال الإمـام علـي عليه السلام: خـذوا مـن المـاء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا بينهم وبين الماء فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم.

(٣) وقعـة صـفين: ٤٠٧ في طعـنة علـي عليه السلام لعمـرو بـن العـاص ـ حيث بدت عورته فصرف علـي عليه السلام وجهـه عـنه وارتـث وقال علي عليه السلام: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا، قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه.

المسؤولية على طلحة وقال: ((فخرجوا يجرون حرمة رسول الله ﷺ كما تُجرُّ الأمة عند شرائها، ....، وأبرزا حبيس رسول الله ﷺ))(١).

إن ما قاله الإمام عن المرأة أخذه عن النبي ﷺ بشهادة ما جاء في صحيح البخاري الجزء الأول كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم (٢).

ونعطف على ما تقدم أن ما قاله النبي وعلي عن المرأة قاله كثيرون من الأدباء والفلاسفة من قبل ومن بعد، فقد جاء في كتاب ((كيف يحيى الإنسان)) للفيلسوف الصيني لين يونالج أن الأديب الإنكليزي أوسكار وايلد ظل يقول: ((لا يستطيع الرجل أن يعيش مع المرأة، كما لا يستطيع أن يعيش بدونها)). أليس هذا تعبيراً ثانياً عن قول الإمام: ((المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها)).

وأيضاً نقل صاحب كتاب ((كيف يحيى الإنسان)) قصة هندوكية يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف عام، تعكس رأي الإمام عن المرأة بكل وضوح، وهي أن الله عندما خلق المرأة أخذ من الأزاهير جمالها، ومن الأمواج ضحكتها، ومن قوس قزح ألوانه، ومن الطير أغاريدها، ومن النسيم قبلاته، ومن الحمل

---

(١) نهج البلاغة: ٢٨٥ من خطبة له عليه السلام في ذكر أصحاب الجمل.

(٢) صحيح البخاري ١: ٧٨ باب ترك الحائض الصوم حيث قال رسول الله ﷺ: يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار فقلن: وبم يا رسول الله قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل واين اذهب للب الرجل الحازم من احداكن قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله قال: أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى قال: فذلك من نقصان عقلها... الخ.

وداعته، ومن الثعلب مكره، ومن زخام المطر تعاليه، ونسجها كلها في مخلوقة أنثى وقدمها إلى آدم لتكون زوجة له، وسر آدم بها، وما عاشرها أياماً حتى جاء إلى ربه وقال له: أبعد عني هذه المرأة فإني لا أستطيع العيش معها، فأخذها منه، ولكن آدم أحس بعدها بالوحشة والغربة فعاد إلى ربه وقال أعطني حوائي فأنا لا أستطيع الحياة بدونها، فأعادها عليه ولم تمضِ أيام حتى عاد بها آدم إلى ربه وقال: عجزت عن حملها ولا حاجة لي بها خذها عني فأخذها عنه، ولكنه عاد وطلبها بعد أيام فقال له اللّٰه: أقسم بأن لا تغير فكرك من جديد، فأقسم ورضي نصيبه معها.

ومعنى هذه القصة بطولها: أن المرأة شيء لابد منه من آدم إلى يوم يبعثون، وأيضاً معنى هذا أن رأي الإمام في المرأة واحد من مئات.

ضعف الطالب والمطلوب

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(١).

بعد أن ذكر سبحانه أن المشركين أثبتوا لأصنامهم صفة الألوهية من غير دليل، ذكر في هذه الآية دليلاً حسياً على نفي هذه الصفة يدركه الجهال والأطفال، وهو أن الذباب أحقر وأضعف مخلوق، ومع هذا لو اخذت ذبابة واحدة شيئاً من الأصنام ثم اجتمعت الأصنام بكاملها وأعلنت الحرب على الذبابة لتسترد ما أخذته منها؛ لو حصل ذلك لكانت الذبابة هي الغالبة والأصنام كلها مغلوبة، وبالأولى أن لا تخلق ذبابة أو جناحها (٢).

قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجف فيأتي الذباب فيختلسه (٣).

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ وهو الأصنام ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ وهو الذبابة.

---

(١) الحج: ٧٣.

(٢) التفسير الكاشف ٥: ٣٤٩ في تفسير سورة الحج، آية: ٧٣.

(٣) مجمع البيان ٧: ١٧١ في تفسير سورة الحج، آية: ٧٣.

فعلى هذا يكون معناه: ضعف السالب والمسلوب.

وقيل معناه: راجع إلى العابد والمعبود، أي جهل العابد والمعبود، وقهر العابد والمعبود، فكيف يكون الأصنام آلهة.

وتسأل: إن الأصنام تحمل معها الدليل على أنها ليست بآلهة، فلماذا اهتم القرآن بإيراد الأدلة على ذلك؟.

الجواب: إن نفي الألوهية عن الأصنام من البديهيات في منطق العقل والذين عبدوها واتخذوها آلهة لم يعبدوها بدافع من العقل بل بدوافع أخرى كالتقليد والتربية والمصلحة وما إلى ذلك من الدوافع التي لا تبالي بالنقد مهما يكن صائباً.فلو أن طفلاً مسلماً نشأ في بيت يهودي يكون يهودياً ولو أن طفلاً يهودياً نشأ في بيت مسلم يكون مسلماً.

من فوائد التوحيد:

إن الهدف الرئيسي للإسلام[1] هو أن يربط الإنسان بخالقه ليستلهم منه الهداية فيما يعتقد ويفكر وفيما يقول ويفعل، ويتجه إليه في ذلك كله. ومن أجل هذا حارب الإسلام الشرك واعتبره كبيرة الكبائر وجريمة لا تغفر كما اعتبر الرياء والعمل لغير وجه الله في حكم الشرك، وأخذ المشركين بأقسى العقوبات وأشدها. وليس من شك أن إيمان الناس كل الناس بإله واحد وأنهم يتحركون بإرادة واحدة يقتضي بطبيعة الحال أن يكونوا جميعاً على دين واحد وشريعة واحدة، لا أحقاد دينية، ولا نعرات طائفية، ولا اتجار

---

(١) من هنا وهناك، الشيخ محمد جواد مغنية: ١٨٨.

باسم الدين والمذهب.

وغدت تصنفنا يد مسمومة متسنن هذا وذا متشيع

وغرس الإخاء نبينا وكتابنا فامتد واشتبكت عليه الأذرع

مما حكاه فيلسوف الإسلام ومصلح المسلمين السيد جمال الدين الأفغاني في كتاب ((تتمة البيان في تاريخ الأفغان)) قال: يوجد في بلاد الأفغان قبيلة تدعى التركمان يعيشون من السلب والنهب، فيغيرون على بلاد إيران يأسرون الرجال والنساء ويبيعونهم باسم العبيد والنساء، مستدلين بأن أسراءهم من الشيعة، وكثيراً ما يأسرون أشخاصاً من السنيين ويجبرونهم بالضرب والكي على أن يعترفوا أمام الناس بالتشيع كي لا يمتنع أتقياء بخارى من شرائهم.

واتفق أن بعضهم أسر عالماً من أهل السنة فكبله بالسلاسل خوف الهرب، ومع ذلك كان إذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤم الجماعة، وكان بعد تمام الصلاة يقيده ثانية، ولما رأى العالم منه ذلك قال له: أنت تعلم أني رجل سني فبأي وجه تجوز أسري وتحلل بيعي؟ فأجابه أنك لست أشرف من القرآن فكما يجوز لي هبته كذلك يجوز لي هبتك أما البيع فحاشا.

ظفر جماعة من اللصوص بسيارة وفي أهل السيارة سيد فأخذ اللصوص كل ما وجدوا وترك السيد آخرهم، فأقبل إليه رئيس اللصوص وقال له: سيدنا أخرج ما عندك من مال، قال: لا يوجد شيء، فرفع اللص عمامة السيد، وقال له: بعد عيني جدك هذه سيادتك وأبعدناها، فأخرج ما عندك وشهر عليه المسدس وأخذ ما عنده.

أما الإيمان بتعدد الآلهة وأن البشرية تتحرك بإرادات كثيرة فإن هذا يستدعي بطبيعته الشقاق والتناحر بين بني الإنسان. فالإسلام إذن بدعوته إلى عقيدة التوحيد يهدي الإنسانية إلى الأساس الذي يبتني عليه الحب والإخاء والأمن والهناء. هذا إلى أن الإله الواحد الذي يدعو الإسلام إلى عبادته والعمل بشريعته هو الإله العالم الحكيم والعادل الرحيم، يحب الخير لجميع الناس على السواء، ويكره الشر بشتى صوره ومظاهره، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، والذين أساؤوا بما كانوا يعملون.

لقد حارب الإسلام الشرك واعتبره كبيرة الكبائر وجريمة لا تغفر فكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً لكنها لا فائدة فيها ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ فابن آدم لا يستطيع مقاومة أقل شيء حتى الذباب.

يقول الجاحظ في كتاب الحيوان: كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبدالله ابن سوار[١]، وكان حليماً وقوراً مهيباً في أصحابه، لم يطعن عليه أحد، وقد ضبط نفسه وملك حركته، كان يصلي الغداة ويجلس في مجلسه بالجامع فلا يتكئ، ولا يتحرك له عضو، ولا يلتفت، ولا يحل حبوته، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني ولا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يصلي العصر ثم يرجع إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يصلي المغرب ثم يصلي العشاء

(١) عبدالله بن سوار بن عبدالله القاضي توفي بالبصرة سنة ثمان وعشرين ومئتين. (الطبقات الكبرى ٧: ٣٠٧).

وينصـرف إلى مـنزلـه، ويمكث على هذه الحال من الغداة إلى العشاء. فلم يقم إلى الوضـوء ولم يحـتج إلى شرب ماء، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وقصارها لا شيء إلا أن يتكلم من غير أن يحرك يده ولا يشير برأسه.

فيـنما هـو كذلـك ذات يـوم إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ثم تحـول إلى جفـن عينـيه فرام القاضي الصبر على عض الذباب ونفاذ خرطومة ولكـنه أوجعه وأحرقه، فأطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فتنحى الذباب ريثما سكن الجفن، ثم عاد وغمس خرطومه في مكان أدماه وأوهاه فألح في فتح العـين وتـتابع الإطباق فتنحى الذباب بقدر ما سكن الجفن، ثم عاد فاستفرغ القاضي صبره وبلغ مجهوده فلم يجد بداً من أن يدب عن عينيه بيده ثم بطرف كمـه وقـال: أسـتغفر اللّـه فمـا أكثر من أعجبته نفسه فأراد اللّه أن يعرفه من ضـعفه مـا كـان مسـتوراً، وقد علمت أني عند نفسي من أضعف الناس فقد غلـبني أضـعف خلقـه، ثـم تـلا قولـه تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(١).

فابن آدم لا يستطيع أن يقاوم حتى البعوض. يقول الشاعر:

لا تحقـــرن صـــغيراً في مخاصـــمة ... إن الـبعوض تدمي هامة الأسدِ (٢)

ذهبـت بعوضـة إلى الأسـد وسـلمت علـيه فازدراهـا واحتقرها ولم يرد علـيها السـلام، فقالـت لــه: مـا جنيـته حـتى تعـاملني بهذه المعاملة؟ فسبها

---

(١) الحج: ٧٣.

(٢) حياة الحيوان ١: ١١١.

وزجرها لأنها اجترأت عليه وقابلته في عرينه، وزاد جرمها بكلامها في حضرته فتوعدها بالقتل، فقالت له: ما هذا الذي تسول لك نفسك، لا تغتر بجسمك ولا تعتمد على قوتك وسيحكم اللّٰه بيني وبينك وهو خير الحاكمين، فغضب الأسد وقام ليبطش بها فطارت أمامه وقالت: سأشرب من دمك وآكل من لحمك فازداد غيظاً وغضباً. ثم كرت عليه ولدغته في عينه فضرب عينه بيده ثم إبطه فجعل يثب في الهوى، وما زالت به تلدغه وهو يضرب نفسه ويرتفع وينخفض حتى خارت قواه وسالت دماه ووقع على الأرض ميتاً جراء غطرسته.

فإذا كان الأسد هكذا فابن آدم لا يستطيع أن يقاوم الذباب والبعوض يقع على أنفه على رغم أنفه.

وذكر أبو نعيم في الحلية أن المنصور استدعى الإمام الصادق عليه السلام يوماً فأجلسه إلى جانبه فوقع الذباب على وجه المنصور ولم يزل يقع على المنصور حتى ضجر المنصور منه فقال: يا أبا عبد اللّٰه وكانت كنية الإمام الصادق عليه السلام: لِمَ خلق اللّٰه الذباب؟ فقال الصادق: ليذل به أنف الجبابرة، فوجم المنصور وأصابه انقباض(١).

الملك القاهر المعز كان يخطب على المنبر فجاءه شاعر مرتزق فقال فيه قصيدة قال فيها:

ما شئت إلا ما شاءت الأقدار فاحكم أنت الواحد القهار (٢)

---

(١) حلية الأولياء ٣: ٢٣٠، ح٣٧٩٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦: ١٣٢ في ترجمة الشاعر ابن هاني الازدي المهلبي الأندلسي له ديوان كبير فيه مدائح تفضي به إلى الكفر، كذلك انظر: حسن المحاضرة ١: ٥٩٩.

فأنس به، فجاءت ذبابة فوقعت على أنفه فطردها فعادت حتى الخامسة سقط من على المنبر، وإذا بقارئ يقرأ القرآن يتلو الآية الكريمة ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ فكان للآية أثرها.

فابن آدم مسكين تؤلمه البقة وتقتله الشرقة، لو تألم عِرْقٌ واحد في يده لكان أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل.

كان تبع اليماني ملكاً معظماً، وكان يجتاز البلدان فيختار من كل بلدة عشرة أنفس من حكمائهم وعلمائهم، فلما وصل إلى مكة كان معه أربعة آلاف فلم يعظمه أهل مكة فغضب عليهم، فقال: لوزيره عمياسار في ذلك فقال: إنهم جاهلون ومعجبون بهذا البيت، فعزم الملك في نفسه أن يهدم البيت ويقتل أهل مكة، فأخذه الله بالصدام وفتح من عينه وأذنه وأنفه ماء منتن عجزت الأطباء عنه، فقالوا: هذا أمر سماوي، وتفرقوا.

فلما أمسى جاء عالم إلى وزيره وقال: إن صدقني الملك بنيته عالجته فاستأذن الوزير له، فلما خلا به قال: أيها الملك هل أنت نويت في هذا البيت أمراً؟ قال: نعم، قال العالم تب من ذلك ولك خير الدنيا والآخرة فقال: تبت فعوفي في الحال، فآمن بالله وبإبراهيم الخليل وخلع على الكعبة سبعة أثواب وهو أول من كسا الكعبة.

وخرج إلى يثرب وإذا هي أرض بيضاء يفوح منها رائحة الطيب وكان معه أربعة آلاف عالم فاعتزلت من العلماء أربعمائة رجل عالم وعزموا على النزول فيها وقالوا: أيها الملك إنا ما خرجنا من بلداننا وطفنا معك البلدان

وجئنا معك إلى هذا المقام إلا عازمين على النزول فيه.

قال: ولِمَ؟ وما الحكمة في ذلك؟

قالوا: اعلم أيها الملك أن شرف الكعبة شرف محمد ﷺ صاحب القرآن والقبلة، مولده بمكة وهجرته إلى هاهنا، وإنا على رجاء أن ندركه أو تدركه أولادنا، فلما سمع بذلك ثبت حب النبي ﷺ في قلبه وأمر أن يبنى أربعمائة دار لكل واحد دار، وزوج كل واحد بجارية معتقة وأعطى كل واحد مال جزيل وقال: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي ﷺ، وأما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه، ثم كتب كتاباً فيه إسلامه، وفيه:

شهدت على أحمد أنه رسول من اللّه باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

وختم الكتاب بالذهب ودفعه إلى كبيرهم يثرب وسأله أن يدفعه للنبي إن أدركه وإلا فمن أدركه من ولده إذا قدم(١). فتداول الدار المذكورة واحد بعد واحد إلى أن صارت إلى أبي أيوب الأنصاري وهو من نسل ذلك العالم الذي اسمه يثرب فدفعه للنبي ﷺ حين نزل عليه فهو ﷺ لما هاجر من مكة وأراد أن يدخل المدينة دعا براحلته يوم الجمعة فركبها فحف بها المسلمون وسار الناس عن يمينه وشماله، وخلفه الماشي والراكب، فلما دخل المدينة

---

(١) عمدة القارئ ٤: ١٧٦ باختلاف يسير، ونهاية الارب ١٥: ٢٩٦ ـ ٢٩٧ قريب منه، وذكره مختصراً في مروج الذهب ٢: ٧٦ في ملوك اليمن، وذكره ابن هشام في سيرته ١: ٢٠ ـ ٢٨ مع اختلاف يسير.

أضاءت بنور وجهه فاستقبله الأنصار، ما يمر بدار إلا قالوا له: هلم إلينا؛ فيدعو لهم بالخير ويقول: إنها مأمورة خلوا سبيلها، حتى أتى إلى باب المسجد الواقع تجاه باب أبي أيوب الأنصاري فبركت فأخذ في النزول عليهم فقال: ربي أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين، وجاء أبو أيوب الناس يكلموه في النزول وأخذ الرحل وأدخله فنظر ﷺ إلى الرحل وقد حط فقال رسول الله ﷺ ((المرء مع رحله))(١) وقد خرجت نساء بني النجار وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار وا حبذا محمداً من جار(٢)

فقال: أتحبوني؟ قالوا: نعم. قال: والله أنا أحبكم، حتى قالها ثلاثاً، وصعدت المخدرات على السطوح يولولن ويقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع(٣)

والأولاد يقولون: جاءنا محمد فأضاءت المدينة بنور وجهه وبقدومه فما أصابهم فرح كقدومه، وما أصابهم حزن مثل يوم موته ويوم قدم ولده زين العابدين.

---

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٣: ٦٧ في ذكر فرح أهل المدينة بقدومه.

(٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٣: ٦٤، في ذكر تلقي أهل المدينة رسول الله ﷺ ودخوله إياها، ودلائل النبوة ٢: ٥٠٨.

(٣) السيرة الحلبية ١: ٤٤٥ باب الهجرة إلى المدينة.

حب الدنيا

قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١).

المعنى:

زين مبني للمجهول، وقد اختلف المفسرون في فاعل التزيين من هو؟ فمنهم من قال: إنه الله، وقال آخرون: بل هو الشيطان. والصحيح أن الله سبحانه أنشأ الإنسان على طبيعة تميل إلى اللذات والرغبات، والشيطان يوسوس ويحسن للإنسان الأعمال القبيحة ويقبح له الأعمال الحسنة.

وحب النساء والبنين والمال ليس قبيحاً في ذاته والله سبحانه لم يحرم شيئاً من هذه الأنواع الستة ولم يرد بهذه الآية التنفير منها. كيف وهو القائل: ﴿قل أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (٢)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (٣)، وقال الرسول الأعظم: ((أحب من دنياكم ثلاث:

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) المائدة: ٤.

(٣) الأعراف: ٣٢.

الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة))(١).

والمراد بالشهوات هنا الأشياء المرغوب فيها التي يشتهيها الإنسان ويشعر بالغبطة والسعادة إذا حصل عليها كما يريد.

وتسأل: إن الشهوة تتضمن معنى الحب، كما أن الحب يتضمن معنى الشهوة، وعليه يكون معنى الآية: أن الناس يحبون الحب ويشتهون الشهوة ومثل هذا ليس بمستقيم، وكلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل.

والجواب: أن حب الإنسان للشيء على نوعين:

الأول: أن يحبه ولا أن يحبه، أي أنه يود من أعماق نفسه لو انقلب حبه لهذا الشيء كرهاً وبغضاً، كمن اعتاد على مشروب ضار، وهذا يوشك أن يرجع عن حبه يوماً ما.

الثاني: أن يحب الشيء وهو راضٍ ومغتبط بهذا الحب، كمن اعتاد على فعل الخير. قال تعالى حكاية عن سليمان: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾(٢) وهذا أقصى درجات الحب، وصاحبه لا يكاد يرجع عنه.

والقناطير المقنطرة: كناية عن الكثرة، وفي الحديث: ((لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالث، ولا يملأ جوفه إلا التراب))(٣) .

دخل أبو دلامة على المنصور فقال له: اطلب حاجتك، فقال: يا أمير

---

(١) الخصال ١: ١٦٥ باب الثلاثة، ح٢١٧، وح٢١٨، وعنه بحار الأنوار ٧٣: ١٤١، ح٨، ح٩.

(٢) ص: ٣٢.

(٣) التفسير الكاشف ٢: ١٩ ـ ٢٠ في تفسير سورة آل عمران، آية: ١٤.

كلب صيد، فغضب المنصور وقال لـه: أقول لك: اطلب حاجتك وتقول كلب صـيد؟! قال: الحاجة لي أم لك؟ قال: بل لك، قال: لا أريد إلا كلب صيد، قال أعطـوه كلـب صـيد، قال: فغلام يقوده، قال: أعطوه غلام، قال: فجارية تطبخ لـنا، قـال: أعطـوه جاريـة، قـال: فبيـت تسكنه، قال: أعطوه دار، قال: يا أمير صـاروا عـيالاً فمـن أيـن يعيشـون؟ قـال: أمرنا لك بعشر ضياع عامرة وعشر ضـياع غامـرة قـال: يـا أمـير وما العامرة؟ قال: هي التي لا نبات بها، قال: أنا وهبتك مئة ضيعه من فيافي بني أسد قال اجعلوها كلها عامرة [١].

فالإنسان لا يقف على حد حتى الموت.

أمـا الخـيل المسومة فقيل هي الراعية من السوم، وقيل المعلمة بالزينات والأرجـح أنهـا المطهمـة الحسـان. وبديهـي أن زمـن الخـيل قد ولى وجاء زمن السيارة والطيارة.

والمـراد بالأنعـام الإبـل والـبقر والغـنم. وهـذه أيضاً قد ذهب التكاثر والتفاخر بها، وجاء زمن المصانع وناطحات السحاب.

والحرث: الزرع على اختلاف أنواعه.

وحب الثلاثة: النساء والبنين والأموال؛ لا يختص بعصر دون عصر، بل هـي شـهوة كـل الـنفوس في كـل عصر. أما حب الخيل والأنعام والحرث فقد خصـها اللّـه بالذكـر لأنهـا كانـت مثلاً أعلى للرغائب في ذلك العصر. وقد أطال الكثير من المفسرين ومنهم الرازي وصاحب المنار أطالوا في ذكر ما لكل

---

(١) نهاية الارب ٤: ٣٧ ذكر شيء من نوادر أبي دلامة.

واحد من الأنواع الستة من اللذة والمتعة ولكنهم أتوا بالبديهيات التي يعرفها ويحسها الجميع.

ويرى بعض المؤلفين أن السعادة تتم للإنسان إذا توفرت له هذه الأركان الأربعة: الصحة، والزوجة الملائمة[١]، والمال الذي يسد الحاجة والجاه الذي يحفظ الكرامة.

وطبيعي هذه الأشياء لها أهميتها، أما الصحة فهي تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى، وإذا أردت أن تعرف نعمة الصحة فادخل المستشفيات ترى المرضى على أنواعهم.

والزوجة الملائمة نادرة، وإن بعض الزوجات يقضي على الزوج ببطء وكل إنسان مخير ما لم يتزوج فإذا تزوج عاد مسيراً. والمال الذي يسد الحاجة والجاه الذي يحفظ الكرامة.

اطلب أربعة أشياء من أربعة: اطلب من الوطن السلامة، فإن لم تنل منه السلامة فالسجن خير منه، واطلب من الصديق الكرامة، فإن لم تنل منه الكرامة فالكلب خير منه، واطلب من العلم المنفعة، فإن لم تنل منه المنفعة فالموت خير منه، واطلب من المال الفراغ فإن لم تنل منه الفراغ فالحجر خير منه.

---

(١) سافر زوجان في القطار وكانت الزوجة خرساء فحدث تصادم ذعرت له الزوجة ذعراً شديداً فانحلت عقدة لسانها وشفت من الخرس وفي اليوم التالي رفع الزوج قضية على هيئة السكك الحديدية يطالبها بتعويض. يظهر أنه يريد الراحة من لسانها.

وأحسب أن صاحب هذا الرأي قد نظر إلى السعادة من خلال نفسه وحاجته لا من خلال الواقع وإلا فأين الشعور بمشاكل العالم وآلام الناس وأين الخوف من الوقوع في الأخطاء، ومن سوء العاقبة والمصير، وأين حملات الكذب والتشهير إلى ما لا نهاية من الهموم التي تتكدس وتتراكم على القلب.

والحق أن السعادة المطلقة في كل شيء وسائر الأحوال لم تحقق لإنسان، وأحسب أنها لن تتحقق إلا في غير هذه الحياة. أما السعادة نسبياً وآنياً فقد مرت بكل إنسان ولو في عهد طفولته.

ومن المفيد أن نوضح السعادة النسبية.

إن للاستمتاع بالحياة مظاهر شتى منها التمتع بالربيع والأشجار والشلالات والأنهار، ومنها تذوق الشعر والفن، ومنها الاطمئنان والخلود إلى الزوجة والصديق، ومنها التلذذ بالحديث والمطالعة إلى غير ذلك من المتع واللذائذ الروحية.

ومن مظاهر المتع المادية النساء والمال والبنون، أما الخيل والأنعام والحرث فتدخل في المال لأنها من جملة أقسامه وأفراده تماماً كالذهب والفضة ولكن هذه اللذائذ والرغائب لا تحقق السعادة المطلقة للإنسان؛ لأن الدنيا لا تصفو لأحد من جميع الجهات، فإن كان في يسر من العيش شكا الأمراض والأسقام، وإن جمع بين الصحة والثراء شكا من بيته وأرحامه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((وإنْ جانب منها اعذوذب واحلولى، أمر منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها

تعباً))(١)، ونهايتها الموت، وكل نعيم لا يدوم حقير.

وقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على ميت يوضع في قبره فقال: ((إن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله، وإن شيئاً هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره))(٢).

أما السعادة النسبية أي في حال دون حال فلا يخلو منها إنسان، وخير مثال يوضح هذه السعادة كما في بعض الكتب: خرجت عائلة إلى النزهة فيها نساء وأطفال وعم وخال وأب وجد، ولما بلغوا جميعاً المتنزه تقلب طفل على العشب، ونضد آخر عقوداً من الأقحوان، وضعت الأم شطيرة (وسندويش) ونهش العم تفاحة ذات ماء، وأدار الخال أسطوانة على الحاكي وتمدد الأب على الثرى يتطلع إلى قطيع من غنم، واستغرق الجد في تدخين غليونه.

إن كل واحد من هؤلاء استشعر الغبطة من نفسه ولكن في هذا الحال لا في سائر الأحوال؛ لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا توجد هذه السعادة إلا في الحياة الآخرة، ولأجل هذا قال عز من قائل بعد ذكر البنات والبنين والأموال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾(٣).

وفي رواية عن الإمام جعفر عليه السلام تعتبر التوفيق الإلهي ركناً من الأركان

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٩ من خطبة له عليه السلام في ذم الدنيا، رقم الخطبة (١١١).

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٣٢٠ ب (٢٥) مواعظ أبي الحسن موسى عليه السلام، ح٩.

(٣) آل عمران: ١٥.

الأساسية للسعادة. وهذه الحقيقة تدرك بالحس والتجربة، إذا جاء التوفيق الإلهي جاءت السعادة (١).

لما خرج الحر للتضييق على الحسين عليه السلام سمع هاتفاً يقول: أبشر يا حر بالجنة، فتعجب وقال في نفسه: أخرج لحرب ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فمن أين أنال الجنة. حتى صار يوم العاشر وتضيق الأمر فجاءه التوفيق الإلهي أخذ يفكر فرأى نفسه بين الجنة والنار، إن لم ينصر الحسين عليه السلام ينال الدنيا فحسب، وإن نصر الحسين عليه السلام له الجنة والسعادة الأبدية، فاختار نصرة الحسين عليه السلام(٢) إلخ.

وكذا حال سفير ملك الروم الذي دخل مجلس يزيد ورأى رأس الحسين عليه السلام(٣).

وروي عن زين العابدين عليه السلام قال: لما أُتي برأس الحسين عليه السلام إلى يزيد كان يتخذ مجالس الشراب ويأتي برأس الحسين عليه السلام ويضعه بين يديه، فحضر في مجلسه ذات يوم رسول ملك الروم وكان من أشراف الروم وعظمائهم، فقال: يا ملك العرب، هذا رأس من؟ فقال له يزيد: ما لك ولهذا الرأس؟ فقال: إني إذا رجعت إلى ملكنا يسألني عن كل شيء رأيته، فأحببت أن أخبره بقضية هذا الرأس وصاحبه حتى يشاركك الفرح، فقال له يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، قال الرومي: ومن أمه؟ قال: فاطمة

---

(١) التفسير الكاشف ٢: ١٩ ـ ٢٢ في تفسير سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١١.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام لخوارزمي ٢: ٧٢.

بنت رسول اللّه ﷺ، فقال الرومي: أف لك ولأبيك، لي دين أحسن من دينك، إني من أحفاد داود وبيني وبينه آباء كثيرة والنصارى يعظموني ويأخذون التراب من تحت قدماي، وأنتم تقتلون ابن بنت رسول اللّه، وما بينه وبين نبيكم إلا أم واحدة، فأي دين دينكم؟

ثم قال ليزيد: هل سمعت حديث كنيسة الحافر فقال له: قل حتى أسمع، فقال: بين عمان والصين بحراً مسيرة سنة ليس فيه عمران إلا بلدة واحدة في وسط الماء طولها ثمانون فرسخاً في ثمانين، وما على وجه الأرض بلدة أكبر منها، ومنها يحمل الكافور والياقوت وأشجارها العود والعنبر، وهي بلد في أيدي النصارى لا ملك لأحد عليها من الملوك فيها سواهم وفيها كنائس كثيرة وأعظمها كنيسة الحافر يقولون هذا حافر حمار كان يركبه عيسى، وقد زينوا الموضع حول الاحقة بالذهب والديباج ويقصدها عالم من النصارى ويطوفون بها ويطلبون من اللّه حوائجهم وأنتم تقتلون ابن بنت نبيكم لا بارك اللّه فيكم ولا في دينكم قال يزيد: اقتلوا هذا النصراني لئلا يفضحنا في بلاده فلما أمر بقتله، قال أتريد أن تقتلني؟ قال: نعم. قال: إعلم أني رأيت البارحة نبيكم في المنام وقال لي: يا نصراني أنت من أهل الجنة. فتعجبت. وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه ثم وثب إلى رأس الحسين وضمه إلى صدره وجعل يبكي حتى قتل(١).

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٧٢ ـ ٧٣ في مقتل الحسين عليه السلام.

مكر الشيطان

قوله تعالى:

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا﴾(١).

نحن لم نر الشيطان وجهاً لوجه، ولكن أخبر الوحي عنه فوجب التصديق، ولسنا مكلفين بالبحث والسؤال عن هويته وشكله وعرضه وطوله. أجل لقد وصفه اللّه سبحانه في كتابه العزيز بالتصدي لغواية الناس وصرفهم عن طاعة اللّه وعمل الخير، وعلى هذا فكل خاطر أو إنسان يحول بينك وبين الطاعة والخير ويغريك بالمعصية والشر ويموه الأباطيل والأضاليل ويلبسها ثوب الهداية والحقيقة فهو شيطان حسي أو معنوي.

ومن الطريف أن شياطين الإنس يتعوذون من الشيطان وهم بذلك يتعوذون من أنفسهم من حيث لا يشعرون، كمن يقرأ القرآن والقرآن يلعنه، كما جاء في الحديث الشريف(٢). إن القرآن يلعن الكاذب والخائن فإذا قرأ هذا فقد نطق بلعنه على نفسه بنفسه. وقال تعالى: ﴿أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٣).

---

(١) النساء: ٣٨.

(٢) بحار الأنوار ٨٩: ١٨٥، ب (٢٠) ثواب تعلم القرآن وتعليمه، ح٢٤ نقلاً عن أسرار الصلاة، بلفظ: كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه.

(٣) البقرة: ١٦١.

فكل ما يزين فعل الغواية ويغري بالضلال والفساد فلك أن تسميه شيطاناً خاطراً كان أو إنساناً أو أي شيء. فلفظ الشيطان رمز لكل غوي مضل يخفي حقيقته في أثواب الصالحين.

ومن أجل هذا نرى الكثير من الناس يقولون ويفعلون بوحي من الشيطان وغوايته وهم يحسبون أنه وحي من اللّه وهدايته.

وأقرب المقربين لدى الشيطان من وثق الناس بقداسته ولم يعرفوا شيئاً عن حقيقته. وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا﴾، وبقوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(١) حيث يصبح ضحية الهواء والشهوات وأسير الأوهام والخرافات.

وكما أن الشيطان قرين له في الدنيا فهو قرين له في الآخرة. فقد جاء في الحديث: ((المرء مع من أحب))(٢). وقال الإمام علي عليه السلام: ((فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر، وقرين شيطان؟!))(٣).

والشيطان يقسم أتباعه إلى أقسام يوكل إلى كلٍّ مهمة تناسبه تماماً كقائد الجيش، فمنهم من يغريه بإراقة الدماء والتعدي على الشعوب الآمنة كالدول التي أوجدت إسرائيل وأمدتها بالمال والسلاح للاعتداء على العرب وبلاد

---

(١) سورة النساء: ١١٩.

(٢) علل الشرائع ١: ١٦٨ ب (١١٧)، وعنه بحار الأنوار ١٧: ١٣، ح٢٦.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٣.

العرب لا لشيء إلا لتخضعهم للاستعمار سياسياً واقتصادياً. وقسم يغريهم بالفسق والفجور والتهتك والتبرج، وقسم يأمرهم بالصلاة والصيام وارتداء ثوب الصالحين والزاهدين ليصطاد بهم البسطاء والأبرياء.

يد تسبح بالرياء وأختها   تبتز ما في جيبة المسكين

وإذا استعصى عليه المتقون وأعيته فيهم الحيل رضي منهم ولو بكلمة حق يقولونها تلبية لطلبه.

روي أن إبليس قال لعيسى بن مريم: قل: لا إله إلا اللّه، قال له عيسى: أقولها لا لقولك، بل إنها حق. فرجع اللعين خاسئاً (١).

وترى من هذه الحكاية أن الإيمان لا يكون بالتهليل والتكبير، ولا بالصيام والصلاة، فإن هذه قد تكون من مصائد الشيطان التي تفسد على المؤمن إخلاصه وأعماله.

ويعزى إلى إبليس أساطير، وهي في الواقع صورة واضحة للكثير من أهل هذا العصر خاصة الانتهازيين من كل مهنة في مغالطتهم وتلاعبهم بالألفاظ بقصد التمويه وإخفاء الحقائق.

قيل: إن إبليس قال للّه عزّ وجل: لا يجوز أن تعاقبني على ترك السجود لآدم، قال سبحانه: ولِمَ؟ قال: لو أردت السجود مني حقاً لأجبرتني عليه قهراً. قال: نعم، ومتى علمت أني لم أرد منك السجود لآدم؟، هل علمت ذلك بعد أن أمرتك وعصيت أمري أو قبل أن آمرك بالسجود؟ قال: بعد أن أمرتني، قال

---

(١) التفسير الكاشف ٢: ٣٢٥ في تفسير سورة النساء، آية: ٣٨.

عظمت كلمته: إذن لزمتك الحجة، لأنك خالفت وامتنعت قبل أن تعلم بأني أردت غير ما أظهرت. هذا ولو ألجأتك إلى السجود قهراً لم يبق من داع للأمر به إطلاقاً.

وتجد في منطق إبليس هذا صورة واضحة لمن يلقي جميع التبعات والمسؤوليات على العناية الإلهية.

إن اللّه سبحانه لا يعامل المكلفين بإرادة الخلق والتكوين وعلى طريقة كن فيكون؛ وإنما يعاملهم بالإرشاد وإرادة الطلب والتشريع التي يعبر عنها بالأمر والنهي(١).

وقيل: إن إبليس لقي ذات يوم محمداً ﷺ فقال له: إن اللّه تعالى نعتك بالمرشد الهادي، ووصفني بالمضلل الغاوي،.. وكل من الهداية والغواية في يده، وليس في يدك ويدي شيء. فقال الرسول الأعظم ﷺ: كلا، إن في يدي بيان الباطل والزجر عنه والوعيد عليه، وفي يدك الخداع والنفاق والإغراء بالباطل، وفي يد الإنسان القدرة والتمييز والاختيار، فمن أحسن الاختيار فلنفسه ومن أساء فعليها(٢).

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٢٠ ـ ٢١ في منطق ابليس.

(٢) وقيل: إنه قصد نوحاً بعد أن غرق الناس وجف الماء وقال له: يا نبي اللّه إن لك عندي يداً وأريد مكافأتك عليها، قال نوح: أستغفر اللّه أن يكون لي على مثلك يد.

قيل لعالم صالح: إن فلاناً يثني عليك، وكان فلان هذا معروفاً بالفسق، فقال العبد الصالح: لابد أني اقترفت سيئة وإلا فإن مثله لا يثني على مثلي.

قال إبليس: هو ما أقول لك، قال نوح: ما هي يدي عليك؟ قال إبليس دعوت على قومك بالهلاك فهلكوا، وقد كنت من قبل مشغولاً ليل نهار في إغوائهم وتضليلهم وأنا الآن بعد هلاكهم في إجازة لا أجد من أغويه. قال نوح: بماذا تكافئني؟ قال: أنصحك أن لا تغضب فما غضب إنسان إلا وهان عليّ انقياده، ولا تحكم بين اثنين فإذا فعلت كنت ثالثاً لكما، ولا تخلُ بامرأة إلا أغريتك بها وأغريتها بك.

ويثير هذا المنطق الشيطاني أن إبليس من أنصار الحرب وإنه يبارك الأسلحة الجهنمية.

وقيل مرّ رسول اللّه ﷺ وأصحابه برجل يركع ويسجد، فقالوا: يا رسول اللّه ما أحسن صلاة هذا العابد! قال: هذا الذي أخرج أباكم من الجنة.

وتهدف هذه النادرة أو الأسطورة إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يغتر وينخدع بمظاهر الزهد والتعبد.

وقيل: إن موسى كان ذاهباً يناجي ربه فالتقى صدفة بإبليس فقال له إلى أين يا كليم اللّه؟ قال: ذاهب إلى ربي أتلقى كلمات منه، وأنا على استعداد أن أتوسط لك لديه سبحانه كي يعفو عنك إذا وعدتني بالإقلاع عن غيك وضلالك.

قال إبليس: أنا لا أستشفع بك ولا بسواك إليه، بل هو عليه ـ أستغفر اللّه ـ أن يطلب مرضاتي.

قال موسى: قبحت من كافر لعين، قال إبليس: ولِمَ يا كليم اللّه؟ وأي ذنب لي؟ لقد طلب مني السجود لآدم وأنا من شدة إخلاصي له لا اسجد

لسواه، ومتى كان الإخلاص ذنباً؟

قال موسى: إن هذه مغالطات وتلاعب بالألفاظ لا تغني عنك فتيلاً وسترى ماذا يحل بك غداً، قال إبليس: وأنت أيضاً سترى ماذا سأفعل غداً قال موسى: وما أنت فاعل؟ قال إبليس: أطالب الله بوعده وأحتج بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١) وأنا شيء فوجب أن تتسع لي رحمته، وإذا كنت أنا لا شيء فاللاشي لا يحاسب ولا يعاقب، قال موسى: إن رحمة الله تتسع لمن فيه الأهلية والقابلية لها وأنت بعيد عنها كل البعد.

قال إبليس: إذن أسلك سبيلاً آخر، قال موسى: وأي سبيل تسلك؟ قال إبليس: أدعو من اتبعني من الغاوين وأطلب منه تعالى أن يدعو من اتبعه من المؤمنين ونجري الانتخاب والاقتراع وعندها يعرف من الفائز على أكثرية الأصوات وإذا ألغي الانتخاب قمت مع جمعي بمظاهرة صاخبة حتى أبلغ ما أريد.

وهذه الأسطورة تهدف إلى أن أهل الباطل أكثر من أهل الحق عدداً لأن الحق ثقيل والباطل خفيف كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

وإن على العاقل أن لا يتخذ من منطق الأكثرية مقياساً للحق، ولا من منطق الأقلية ميزاناً للباطل كقاعدة كلية ومبدأ عام، فلقد جاء في نهج البلاغة (أن الفرقة أهل الباطل وإن كثروا والجماعة أهل الحق وإن قلوا)(٢).

---

(١) الأعراف: ١٥٦.

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٤٩ ب (١٦) ما جمع من جوامع كلمه عليه السلام، ح٨، وفي نهج البلاغة: ٢٩٥، رقم الخطبة [١٧٦] قريب منه.

وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(١)، وفي آية ثانية: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢)، وفي ثالثة: ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾(٣)، وفي رابعة: ﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾(٤)، وفي خامسة: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٥).

وفي رواية: ((إذا اجتمع أعوان إبليس ملؤوا الخافقين)).

ولهذه النصوص وغيرها كثير وكثير قال الشيعة: إن خليفة الرسول تماماً كالنبي ﷺ يختاره اللّه ويستخلفه على عباده لا من اختاره الناس وبايعوه وقدموه لأنفسهم وعلى أنفسهم؛ إن هذا ملك على الناس وليس بخليفة لرسول اللّه ﷺ(٦).

أما المرجع الأول عند الشيعة فهو الذي يتحلى بالصفات التي نص عليها صاحب الشريعة الأصيل لا من ينتخبه الناس للدين ولا من يعينه الحاكم الدنيوي بمرسوم. كيف وهل لأرباب الشهوات والأهواء أن يؤتمنوا على دين اللّه؟! إذن فليختاروا وينتخبوا الرسل والأنبياء ويفرضوهم على اللّه فرضاً ويلجئوه إلى الاعتراف بهم إلجاءً تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً

---

(١) المؤمنون: ٧٠.

(٢) الروم: ٦.

(٣) غافر: ٦١.

(٤) الحجرات: ٤.

(٥) البقرة: ١٠٠.

(٦) انظر: كشف المراد: ٣٦١ ـ ٣٦٤ في الإمام لطف فيجب نصبه على الله تعالى تحصيلاً للغرض.

كبيراً.

والنتيجة المنطقية أن خليفة الرسول لا يكون ولن يكون إلا مَنْ نص عليه من الرسول بالذات، وإن المرجع الأكبر في الدين من نص عليه بالصفات. فمن تصدى لمنصب الخلافة بلا نص على اسمه أو تصدى لمنصب المرجعية بلا نص على صفاته فهو مفترٍ على اللّه وعلى رسوله وقد خاب من افترى.

وبعد فإن القضية أي قضية سواء أكانت في الخلافة أو المرجعية أو غيرها لا تصدق إلا إذا كانت انعكاساً عن الواقع، وإن التلاعب بالألفاظ لا يجعل المبطل محقاً ولا المحق مبطلاً ولا غير المعقول معقولاً، وإن دلت المقدرة على التبرير بالأقوال لا بالحق والواقع على شيء فإنما تدل على أن صاحبها تلميذ ناجح لإبليس في تمويه الحقائق وتغطيتها بالطلاء المغشوش المزيف[1].

وقد قال الشيطان كما حكى القرآن عنه: ﴿لأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾[2] إضلال الشيطان أن يزين له الحق باطلاً والخير شراً، أو يوهمه أنه لا حق ولا خير في الوجود، ولا جنة ولا نار، وأن الدنيا لمن يحوزها[3].

وقد أضل كثيراً واعتقدوا ما قاله فلم يعتقد لا جنة ولا نار وأقوالهم شاهدة على معتقدهم. يقول ابن سعد:

يقولون: إن اللّه خالق جنةٍ ونار وتعذيب وغلٍّ يدينِ

---

(1) التفسير الكاشف 1: 22 - 24، في منطق إبليس.

(2) النساء: 119.

(3) التفسير الكاشف 2: 442 في تفسير سورة النساء، آية 119.

الهجرة

قوله عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ (١).

اللغـــــة:

تَوَفّى الشـيء أخـذه وافـياً تامـاً (٢)، والمـراد به هنا قبض الأرواح عند الموت.

المـعـنى:

كـان للمسـلمين في عهد الرسول ﷺ هجرتان من مكة: إحداهما إلى الحبشـة، وكانت لخمس سنين من مبعثه ﷺ. والثانية إلى المدينة، وكانت بعد ثمـان سـنين مـن الأولى. ومـن الصـحابة مـن هاجر الهجرتين كجعفر بن أبي طالـب الـذي خـتم حـياته بالشـهادة بعـد أن قطعت يداه فأكرمه اللّه عنهما

---

(١) النساء: ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) لسان العرب ١٥: ٣٥٨، مادة وفى، والمحيط في اللغة ١٠: ٤٣٦ باب ما أوله الواو.

بجناحين يطير بهما في الجنة ومن أجلها سمي الطيار.

مبررات الهجرة:

أما سبب الهجرة فهو الابتعاد عن الوقوع في التهلكة واللجوء إلى مكان الأمن وتدبير الخطة للجهاد المنظم ومصارعة الباطل وصرعه.

وبالهجرة وفضلها انتصر الإسلام على أعدائه، ولولاها لانطفأت شعلته وتحول إلى رماد تذروه الرياح. ومن هنا كانت الهجرة حينذاك هي الفضيلة العظمى والمنقبة الأولى التي لا يدانيها شيء.

ذم المتخلفين عن الهجرة:

هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وأمر المسلمين بالهجرة إليها فاستجاب له كثيرون وتخلف آخرون تمسكاً بأموالهم ومصالحهم؛ لأن المشركين لا يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله، ويشددون عليه بالأذى، ويمنعونه عن إقامة دينه وهو عاجز عن الدفاع والمقاومة، ولكنه كان قادراً على الخلاص والتحرر من الاضطهاد وإقامة الدين على أكمل الوجوه بالهجرة من دار الحرب على المسلمين إلى دار الإسلام والأمان إلى المدينة حيث النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

لذلك وبخ اللّه الذين آثروا البقاء في دار الكفر والحرب على الدين وأهله وبخهم وأنبهم بلسان ملائكة الموت قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾(١) بترك الجهاد والهجرة إلى دار الإسلام والرضا

---

(١) النساء: ٩٧.

بالبقاء في دار الكفر والإذلال والإخلال بواجبات الدين وتكثير الكافرين وتقليل المؤمنين، ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي قال ملائكة الموت للذين تركوا الهجرة: في أي شيء كنتم؟ وليس هذا سؤالاً في واقعه وإنما هو تأنيب وتبكيت، وبديهة أن التأنيب يكون على شيء واقع ومعلوم، وهو هنا تخلفهم عن إخوانهم المهاجرين الذين أطاعوا الرسول ﷺ في تنفيذ خطته لتحطيم الشرك وإعلاء كلمة اللّه.

وإن سأل سائل: هل كان هذا التوبيخ من ملائكة الموت للمتخلفين حين الاحتضار وقبل الموت أم بعده؟

الجواب: إن علم هذا عند اللّه، وقد سكت عنه فنسكت نحن أيضاً عما سكت اللّه عنه.

قال رسول اللّه ﷺ: ((وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها))(١).

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ هذا اعتذار واعتلال من المتخلفين. ومعناه أن المتخلفين أجابوا الملائكة الذين أنبوهم على التقصير في أمر الدين أجابوهم: كنا عاجزين في دار الشرك عن القيام بواجبات الدين لأن المشركين اضطهدونا ومنعونا عن ممارسة ما نعتقده. فرد الملائكة هذا الاعتذار ﴿قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ أي كنتم قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام حيث تتخلصون من الذل وتقيمون الدين

---

(١) نهج البلاغة: ٥٦٩ من قصار الحكم، رقم الحكمة [١٠٥]، وعنه بحار الأنوار ٢: ٢٦٠، ح١٤.

في حرية كما فعل غيركم من المسلمين.

وإن دل هـذا الحـوار على شيء فإنما يدل على أن اللّه سبحانه لا يعذب أحـداً إلا بعـد إتمـام الحجـة، بـل إلا بعـد تـراكم الحجـج عليه بحيث لا يدع للمذنب ملجأ إلا مغفرته تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء، اللّهم وأنا شيء فلتسعني رحمتك.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ أي المتخلفون ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾.

المعذورون:

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ بعـد أن هـدد سـبحانه وتوعـد المتخلفين استثنى مـنهم المعذوريـن لمرض أو عدم النفقة، وأسقط عنهم تكليف الهجرة لأن اللّه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وتسأل: إن استثناء الرجال والنساء المعذورين له وجه معلوم، فما الوجه لاستثناء الولدان مع العلم أنهم ليسوا من أهل التكليف؟

وأجيب عن هذا السؤال: أن المراد بالولدان هنا العبيد والإماء.

أما بعض العلماء فيقول بأن كثيراً من الولدان يستطيعون الهجرة بخاصة المـراهقين، بـل إن بعضـهم أقـدر عليها من الكبار، ومن أجل هذا قد يتوهم مـتوهم أن الهجـرة تجـب عـلى من قدر منهم؛ فدفع اللّه هذا التوهم وبيّن أن الهجرة تجب على كل قادر إلا إذا كان من الولدان [١].

---

(١) التفسير الكاشف ٢: ٤١٩، في تفسير سورة النساء آية: ٩٨.

الإقامة في بلد الكفر:

وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على أن المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد الكفر إذا تعذر عليه إقامة الدين فيه حتى ولو كان وطنه وله فيه أملاك ومصالح.

ولا موضوع اليوم لهذا الحكم لأن كل إنسان في كل بلد له أن يعبد الله بالشكل الذي يريد فإن ترك فهو وحده المسؤول.

وتسأل: إذا علم أن إقامته في بلد غير مسلم تؤدي به إلى ترك الفريضة لا لأن أحداً يمنعه عنها بل لضعف الدافع عليها ووجود الصارف عنها كالملاهي ونحوها، فهل تجوز له الإقامة بهذا البلد؟

الجواب: إذا علم علماً يقيناً أن الذهاب إلى أي مكان كان بلداً أو مجلساً أو سوقاً يوقعه حتماً في ترك الواجب أو فعل الحرام وجب عليه الإحجام عنه. وإذا كان مقيماً فيها وجب عليه الرحيل عنه لأن السبب التام الذي يستلزم حتماً الحرام فهو حرام

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((والهجرة قائمة على حدها الأول))(٢) أي لم يزل حكمها الوجوب على من يتعذر عليه القيام بأحكام دينه إلا في بلد مسلم. أما قول النبي صلى الله عليه وآله: ((لا هجرة بعد الفتح))(٣) فإن المراد به الهجرة من

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٩.

(٣) بحار الأنوار ٣٣: ٩٤ باب كتبه عليه السلام إلى معاوية.

مكة وتدل عليه لفظة الفتح.

ومن المؤسف أن بعض الأغنياء من شبابنا المسلم في هذا العصر يشدون الرحال إلى أمريكا وأوربا ومحلات أخرى لا لشيء إلا للفسق والفجور والزنى والخمور.

فلا يخرج الإنسان من وطنه إلا لأشياء منها أن لا يستطيع إقامة الدين فيه كما يريد، وقد يخرج الإنسان من وطنه إذا هظم أو ظلم وحقّر.

يقول الحوماني: أملى بعض الشيوخ الذين سبقونا في السن أنه كان يحكم قضاء صيدا في جنوب لبنان حاكم تركي أمعن في العسف والجور على بلدة في ذلك القضاء تدعى جبع وهو المصيف الأول لساحل صيدا. قال المملي عليَّ: ولعل هذا السبب في العسف يعود إلى أن جبع هذه كانت مقراً لفقهاء الشيعة الجعفريين وقد كان التعصب المذهبي آنذاك آخذاً بخناق الأمة الإسلامية، وقد كانت بطانة الحاكم نفراً من غلاة هذا التعصب الذميم ضد الشيعة الذين يجاورونهم، وكانت حكومة الترك تدين لله على مذهب أبي حنيفة.

بهذا التعصب أوغرت بطانة الحاكم صدره وأحفظته على أولئك المستضعفين ممن يدينون لله بمذهب جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. فأمعن هذا الحاكم في ظلم رعيته القاطنين بلدة جبع، وكانوا مع جيرانهم الذين طغى الظلم عليهم يعدون آلافاً من البائسين، ولما أوغل بهم عسف الحاكم تحت وطأة الضرائب، وضاقوا ذرعاً به، ولم يطيقوا صبراً عليه؛ فزع الخاصة منهم إلى فقيه جبع الأول يسترشدونه في الخلاص من بغي ذلك الحاكم، فسألهم

أتأتمـرون بمـا آمـركم بـه عـلى أن لا أحملكم على غير ما حمل رسول الله ﷺ المـبغي عليه من أصحابه؟ قالوا: اللّهم نعم، قال: على أن لا تسألوني السبب فيما آمركم به حتى تصلوا إلى النتيجة التي أسأل اللّه لكم فيها النجاة، قالوا: نسـمع لـك ونطـيع أمرك، فقال: إذا كان صباح يوم الجمعة فأتوا ساحة البلدة جمـيعاً نسـاءً ورجـالاً وأطفـالاً ودوابـاً محمـولاً علـيها كل ما تملكون من أثاث وسـأكون بينكم أفعل فعلكم هذا، وتنادى أهل البلدة والقرى المحدقة بها ليوم الجمعة بأمر العالم الفقيه المطاع على الشكل الذي رسم.

وكان يوم الجمعة مهبط القرى جميعها مع ما يملكون حتى ضاقت السوق وغصـت شـوارع الـبلدة والحقول المحيطة بها، وإذا بالشيخ الآمر الجليل يحمل أمتعـته وحـرمه وأطفالـه عـلى دوابه ويشير إليهم أن يتبعوه ثم لا يسألوه أين يتوجه ولا يجيبوا أحداً يسألهم في طريقهم إلا بأنهم تبع للشيخ.

ثم جعل القوم وجهتهم إلى صيدا.

وكـان لابـد من أن يتصل هذا الأمر بالحاكم لإعلان القائم مقام التركي في مركـز قضـاء صـيداء نـبأ هذا الحادث المخيف، وهو هجرة آلاف من رعيته رجالاً ونساء وأطفالاً إلى حيث لا يعلم.

فـراح يتسـاءل ونفسه عن سبب ذلك وإلى أين يغادر هؤلاء وطنهم وما الـذي حمـلهم عـلى الهجـرة، وقد عزم على مضجعه المقرر ساعتئذٍ، فلم يملك نفسـه مـن القلـق واسـتدعاء خاصـته مـن المجلـس الـبلدي إلى رجـال الإدارة واسـتفهمهم عـن هذا الحدث الغريب. وقر قرارهم أن يبعث الحاكم بنفر من الخاصـة مصـحوب بفصـيلة مـن الجـند إلى قـائدهم الشيخ قبل أن يصلوا إلى

صيداء فتُحدث هجرتهم هذه ضجة قد تتصل بالوالي في بيروت ويضطره إلى البحث والاستقصاء عن أسباب هذا العمل الشاذ المفاجئ. ولقد فعل ذلك فلم يفلح في إرجاع تلك الجموع التي ملأت سهول صيداء في طريقها إلى بيروت. ولم يزد الشيخ في الجواب على أنهم شعب مظلوم في وطنه خرج يلتمس وطناً آخر لا عهد لأهله بالظلم، وهو لا يرجع مع من معه إلا مستشهدين جميعاً أو يبلغوا في هجرتهم عاصمة المملكة إستانبول.

ونزل هذا الخبر على حاكم القضاء نزول الصاعقة، إذ عاد وفده مخفقاً. وقد اجتازت الجماهير صيداء في طريقها إلى بيروت ومنها إلى الإستانة.

وعزز الحاكم وفده بوفود تتلو الوفود إلى قائد المهاجرين يرجونه ويتهاوون على قدميه في سبيل إقناعه ويؤكدون أنهم يضمنون له رد الظلامات. فلم يفلحوا ولا أبه القوم بهم.

وكانت صيداء بأسرها تتجمهر خارج المدينة لتشاهد أمة بأسرها قد غادرت أوطانها نساءً ورجالاً وأطفالاً وأموالاً فيرتاعون لمنظرهم الرهيب تحت صراخ الصبية وعجيج الأباعر ونهاق الحمر وثغاء الشاة ومواء العنز وجلبة الخيول فتضاعفت الحسرات في نفوس النظارة، ويكثر السؤال عن أسباب هذه الفاجعة، وينزل الذعر في قلب الحاكم وحاشيته، فلا يرى قبل أن يستفحل الأمر إلا أن يتأثر بنفسه وخاصته أولئك القوم فيلحقوا بقائدهم ويسطوا له النزول على حكمه في كل ما يقترح مختاراً غير مكره.

وقد فعلوا ذلك ولحقوا بالجماعات حتى وقفوا بين يدي الفقيه فأكب الحاكم على يديه معترفاً نادماً مذعناً لتنفيذ ما يأمره به ولو كان في ذلك

استقالته من منصبه، على أن يعود الشيخ وجماعته موفوري الكرامة مطمئنين إلى الرفق بهم والعطف عليهم والعدالة في رعايتهم.

فقال الشيخ: نحن مسلمون لا نبيت على ضيم، ونحن مؤمنون والمؤمن عزيز لا يذل ولا يستضعف، وأرض اللّه واسعة لا تضيق بمن آمن وعقل وأتقى، ولقد بسطت يدك إلينا بالظلم فوق ما بسطنا لك أيدينا بالطاعة، فما لمسنا منك عدلاً ولا رحمة، وإنك راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته، ونحن الآن إنما نترك أوطاننا فراراً من جور سلطانك إلى سلطان من هو فوقك من رعاتنا لنعلم أكنت مخولاً منه أم خارجاً عليه في هضمنا والجور علينا، فأما وقد جئت إلينا معترفاً بذنبك معتذراً عما فرط منك فلا نجد غضاضة في العود إلى سلطانك والنزول على حكمك، شريطة أن تفي بوعدك ولا تنقض عهدك.

ويأمر الشيخ أهله وقومه بالرجوع إلى وطنهم واستئناف العمل تحت سمائهم والجهاد في سبيل حياتهم آمنين مطمئنين.

ولقد وفى لهم الحاكم بما وعد، وأصبح أخاً صادقاً للشيخ، مخلصاً في رعايتهم بفضل الحكمة التي كانت رائد الشيخ أولاً ثم كانت هدف الحاكم أخيراً (١).

ولو لم يكن ذلك كله من هذا وذاك، لو لم يعتصم الأول بدينه ويتأثر بنبيه في هديه، ولو لم يثب الآخر إلى عقله ويفزع إلى الإخلاص في عمله كما استقامت حياة هذا المجتمع.

---

(١) دين وتمدين ١: ٨١.

ولقد صدق الشيخ في قوله: المؤمن عزيز لا يذل ولا يستضعف. فإذا أريد به الذل والإهانة ترك وطنه. ألا ترى إلى ابن سيد المؤمنين أبي عبدالله الحسين عليه السلام لما ضيق عليه الأمويون وشتموا عرضه وأرادوا منه البيعة ليزيد ترك الوطن وخرج بالأهل.

فأبى أن يعيش إلا عزيزا أو تجلّى الكفاح وهو صريع

فرفض أن يعيش ذليلاً وأعلن ثورته على الأمويين في قوله: وإن مثلي لا يبايع يزيد بن معاوية[1] فخرج مع بنات رسول الله صلى الله عليه وآله في ليلة مظلمة ذات رعد وبرق.

---

(١) قالها في مجلس الوليد والسيوف مسلولة عند الوليد إلا أن الحسين أوقف عشيرته خلف الباب. انظر: مقتل الحسين ١: ١٨٤ في بيان ما جرى بين الحسين عليه السلام والوليد بن عتبة ومروان.

معارف سورة الفاتحة (١)

قال تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هذه الكلمة المقدسة شعار مختص بالمسلمين يستفتحون بها أقوالهم وأعمالهم. وتأتي من حيث الدلالة على السلام بالمرتبة الثانية من كلمة الشهادتين: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ﷺ. أما غير المسلمين فيستفتحون باسمك اللّهم، وباسمه تعالى، أو باسم المبدئ المعيد، أو باسم الأب والابن وروح القدس ونحو ذلك.

وتحذف الهمزة من لفظة ((اسم)) نطقاً وخطاً في البسملة، وتكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم؛ لكثرة الاستعمال. وتحذف الهمزة نطقاً لا خطاً في غير البسملة نحو: سبح باسم ربك الأعلى، وأقسم باسم اللّه.

---

(١) الفاتحة: ١ ـ ٧.

ولفظ الجلالة ((اللّه)) علم للمعبود الحق الذي يوصف بجميع صفات الجلال والكمال ولا يوصف به شيء. وقيل إن ((للّه اسماً)) هو الاسم الأعظم، وإن الذي يعرفه تفيض عليه الخيرات وتقع على يديه المعجزات. ونحن نؤمن ونعتقد بأنه كل اسم للّه هو الاسم الأعظم أي أنه عظيم، لأن التفضيل لا يصح إطلاقاً لعدم وجود طرف ثانٍ سوغ معه المفاضلة. وبكلمة أن المفاضلة تستدعي المشاركة وزيادة، والذي ليس كمثله شيء لا يشاركه أحد في شيء.

والرحمن في الأصل وصف مشتق من الرحمة. ومعناها بالنسبة إليه تعالى الإحسان، وبالنسبة إلى غيره معناها رقة القلب. ثم شاع استعمال الرحمن في الذات القدسية حتى صار من أسماء اللّه الحسنى، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾(١).

وعلى هذا فلك أن تعرب لفظة ((الرحمن)) صفة للّه بالنظر إلى الأصل، ولك أن تجعلها بدلاً بالنظر إلى النقل.

الرحيم أيضاً وصف مشتق من الرحمة بمعنى الإحسان بالنسبة إليه جل وعز.

وفرّق أكثر المفسرين أو الكثير منهم بين لفظة ((الرحمن)) ولفظة ((الرحيم)) بأن ((الرحمن)) مشتقة من الرحمة الشاملة للمؤمن والكافر، ((والرحيم)) من الرحمة الخاصة بالمؤمن. وفرّعوا على ذلك أن تقول: يا رحمن الدنيا والآخرة، وأن تقول: يا رحيم الآخرة فقط دون الدنيا.

والواقع أن اللّه رحمن ورحيم في الدنيا والآخرة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ

(١) الإسراء: ١١٠.

رَبِّكَ﴾(١).

ومعنى ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾ بجملة أنك قد ابتدأت عملك مستعيناً باللّه الذي وسعت رحمته كل شيء مسجلاً على نفسك أن ما تفعله باسم اللّه لا باسمك أنت ولا باسم أحد سواه. تماماً كما يقول موظف الدولة للرعايا باسم الدولة عليكم كذا وكذا، وأن عملك الذي باشرت هو حلال لا شائبة فيه لما حرم اللّه فإن كان حراماً وفعلته باسم اللّه فقد عصيت مرتين في آن واحد وفعل واحد، مرة لأنه حرام بذاته ومرة لأنك كذبت في نسبته إلى اللّه تعالى علواً كبيراً (٢).

أحكام البسملة:

قال الطبرسي: اتفق أصحابنا أنها (البسملة) آية من سورة الحمد ومن كل سورة، وأن من تركها في الصلاة بطلت صلاته سواء كانت الصلاة فرضاً أو نفلاً (٣).

والاسم مشتق من السمو وهو الرفعة، أصله سمو بالوار (سَمَوْا)(٤).

فالبسملة جزء من السورة عند الشيعة الإمامية، وقد أوجبوا الجهر بها فيما يجب الجهر فيه بالقراءة كصلاة الصبح وأوليي المغرب والعشاء،

---

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) التفسير الكاشف ١: ٢٤ ـ ٢٥، في البسملة وتحديد الإسلام بكلمة واحدة.

(٣) مجمع البيان ١: ٥٠ في تفسير سورة الحمد، آية البسملة.

(٤) المحيط في اللغة ٨: ٤٠٦ مادة (سمو).

ويستحب الجهر بها فيما يخافت فيه بالقراءة كأوليي الظهر والعصر، ويجوز الإخفات.

وقال الحنفية والمالكية: يجوز ترك البسملة في الصلاة كلية لأنها ليست جزء من السورة. وقال الشافعية والحنابلة: بل هي جزء لا تترك بحال سوى أن الحنابلة قالوا: يخفت بها إطلاقاً، وقال الشافعية يجهر بها في الصبح وأوليي العشاءين وما عدا ذلك إخفات. ويتفق قول الشافعية والحنابلة مع قول الإمامية (١).

أحكام أسماء الله وصفاته:

وتجمل الإشارة إلى أن اسم اللّه سبحانه وصفاته تتألف من هذه الحروف وتلفظ وتكتب كغيرها من الكلمات ومع هذا لها قدسية وأحكام خاصة بها. فلا يجوز أن يكتب شيء منها على ورق أو غيره أو بمداد أو قلم نجس. وأيضاً لا يجوز مسها إلا للمطهرين. وأفتى فقهاء الإمامية بكفر وارتداد من ألقى المصحف عامداً عالماً في القاذورات والقمامة أو ضربه برجله أو مزقه إهانة وإعراضاً ونحو ذلك مما يدل على الاستهزاء بالشرع والشارع(٢).

وفي هذا الزمان نرى القرآن ملقىً في الطريق وفي الأماكن المعدة للأوساخ وخصوصاً عندما تنتهي السنة الدراسية يلقي كل طالب ما عنده من الأجزاء في الشارع ويكنس مع الأوساخ. وفي الفواتح يمس القرآن غير

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٢٥ ـ ٢٦، في البسملة.

(٢) اللمعة الدمشقية ٩: ٣٣٥ في الحدود، عقوبات متفرقة.

المطهرين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي أمـراء المسلمين من مزّق المصحف وقيل خرقه بالنشاب وهو الوليد بـن يـزيد بـن عـبد الملك. حكى الماوردي أنه تفأل يوماً بالمصحف فخرج لـه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (١) فمزق المصحف. وفي خبر رماه بالسهام وأنشأ يقول:

أتوعـــد كـــل جـــبار عنـــيد فهـــا أنـــا ذاك جـــبار عنـــيد
إذا مـــا جئـــت ربـــك يـــوم حشـــر فقـــل: يـــا رب مـــزقني الولـــيد

فـلم يلبـث إلا أيامـاً يسيرة حتى قتل شر قتله، وطيف برأسه في دمشق على رمح ثم صلب رأسه على قصره(٢).

والـرحمة من مبادئ الإسلام وليست هي الإسلام كله، فالإسلام كله هو الاستقامة، وإن الإسلام يحدد بكلمة واحدة وهي الاستقامة.

يقـول الشـيخ محمـد جـواد مغنـية: قـرأت في جريدة الجمهورية المصرية تـاريخ ٢١ نيسـان سـنة ١٩٦٧ كلمة قال كاتبها ضياء الريس: إنه قرأ مقالاً في مجلة أدبية لكاتب عربي شهير قال فيه: إنه ـ أي الكاتب ـ حين كان عضواً في البعثة العلمية بإنكلترا اشتبك في نقاش حاد مع إنكليزية مثقفة حول الإسلام والمسيحية فقالت الإنكليزية ـ متحدية جميع المسلمين بشخص الكاتب المسلم ـ: إني ألخص مبادئ المسيحية كلها بكلمة واحدة هي المحبة، فهل تستطيع أيها

---

(١) إبراهيم: ١٥.

(٢) مروج الذهب ٣: ٢٢٨ ـ ٢٢٩، ذكر لمع من أخباره وسيره، وحياة الحيوان ١: ٦٣.

المسلم أن تأتي بكلمة تجمع مبادئ الإسلام؟

فأجابها الكاتب المسلم: أجل، إنها كلمة التوحيد.

وبعد أن نقل الريس هذا الحوار قال: لم يكن الجواب موفقاً، وذكر أسباباً وجيهة وصحيحة تدعم حكمه على الكاتب بعدم التوفيق. وبعد أن انتهى الريس من حكمه وأسبابه الموجبة قال: لو وجه لي هذا السؤال لأجبت بأن هذه الكلمة هي الرحمة، واستدل على صحة جوابه هذا بالعديد من الآيات والروايات مبتدئاً بـ((بسم اللّٰه الرحمن الرحيم)) إلى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

وصدق الريس في قوله: إن الكاتب لم يكن موفقاً في جوابه. ولكن الريس لم يكن موفقاً في اختياره كلمة الرحمة لأنه لم يزد شيئاً على ما قالته الإنكليزية حيث أخذ كلمة المحبة وترجمها إلى كلمة الرحمة، وعلى هذا لا يكون للإسلام أية ميزة على المسيحية.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: لو كنت حاضراً مع البعثة العلمية بإنكلترا لأجبت بكلمة الاستقامة، فإنها الكلمة الجامعة المانعة الشاملة للاستقامة في العقيدة بما فيها التوحيد والتنزيه عن الشبيه، وأيضاً تشمل الاستقامة في الأعمال والأخلاق والأحكام وجميع التعاليم بما فيها الرحمة والمحبة والتعاون.

إن الرحمة من مبادئ الإسلام وليست الإسلام بكامله، كما أن التوحيد

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

أصل من أصوله لا أصوله بأجمعها. وبما أن الاستقامة تجمع المحبة والرحمة والتوحيد وسائر الأصول الحقة والأعمال الخيرية والأخلاق الكريمة المستقيمة. وبما أنها المقياس الصحيح للفضيلة والكمال الذي يبلغ بالإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة لذلك كله أمرنا أن نكرر في صلاتنا صباحاً ومساءً ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾(١) وقال عز من قائل مخاطباً نبيه الأكرم ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢) (٣).

معاني الاستقامة:

يختلف معنى الاستقامة باختلاف الذي تنسب إليه. فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤) أنه يهدي إلى هذا الصراط ويأمر به، وعلى أساسه يثيب ويعاقب، وأن جميع أفعاله تعالى على وفق الحكمة والمصلحة.

وإذا وصفت بالاستقامة عيناً من الأعيان وقلت: إن هذا الشيء مستقيم، فمعناه أنه وضع في الموضع اللائق.

أما الإنسان المستقيم فأحسن تحديد له قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٥) وأحسن القول عند الله ومن آمن به هو هذا القرآن ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

---

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) هود: ١١٢.

(٣) التفسير الكاشف ١: ٢٦ ـ ٢٧، في البسملة وتحديد الإسلام بكلمة واحدة.

(٤) هود: ٥٦.

(٥) الزمر: ١٨.

الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾[١]، وأحسن القول عند الناس أجمعين والجاحدين هو ما يستريح إليه الضمير العالي لا ضمير اللصوص وسفاكي الدماء.

وفي الحديث عن رسول اللّه ﷺ: ((شيبتني سورة هود))[٢] . وقيل: أراد هذه الآية من سورة هود؛ لأن أمته أمرت بالاستقامة وهو غير واثق من استجابتها واستقامتها. ونحن لا نستبعد هذا التفسير على أن يكون المراد بالأمة قادتها لأنهم أصل النداء ومصدر البلاء.

ولا شيء أدل على أن الاستقامة هي الكل في الكل من قول إبليس اللعين: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣]. وجاء في الحديث الشريف قال سفيان الثقفي: يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال رسول اللّه ﷺ: ((قل آمنت باللّه ثم استقم)).

واختصاراً إن معنى الاستقامة أن نقف عند حدود اللّه ولا ننحرف عن الحق إلى الباطل، وعن الهداية إلى الضلال، وأن نسير بعقيدتنا وعاطفتنا وجميع أقوالنا وأفعالنا على الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوبين عليهم ولا الضالين[٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

---

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) مجمع البيان ٥: ٣٤٢ في تفسير سورة هود آية: ١١٢، وعنه بحار الأنوار ١٧: ١٥٢.

(٣) الأعراف: ١٦.

(٤) التفسير الكاشف ١: ٢٧، في البسملة.

تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١).

لكل شيء أجل معلوم وإذا جاء أجل الذين استقاموا على الطريقة الإلهية تنزلت عليهم ملائكة الرحمة بالسكينة والبشرى بأن اللّٰه قد اطلع على عملهم ورضي سعيهم وأعد لهم مقاعد الكرامات التي وعدهم بها على لسان أنبيائه ورسله، والملائكة تقول للمخلصين قبل أن ينقلوا من دار الفناء إلى دار البقاء تقول لهم: نحن أولياؤكم في الدنيا، لأن الشيطان كان يغريكم بالعدول عن صراط اللّٰه المستقيم ونحن ننهاكم عنه وكنتم تسمعون لنا دونه، وأيضاً نحن أولياؤكم في الآخرة لأننا نشهد لكم عند اللّٰه بالإيمان والاستقامة. فلا خوف على المستقيم من الموت ولا يهمه الموت. لما ضرب علي عليه السلام على رأسه قال: فزت ورب الكعبة(٢). ويقول الحسين عليه السلام: ما أرى الموت إلا سعادة(٣). ويقول عمار بن ياسر: اليوم ألقى الأحبة(٤) .

---

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٥ في مقتله عليه السلام.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨١ ب (٣٧) ما جرى عليه بعد بيعة الناس ليزيد إلى شهادته.

(٤) وقعة صفين: ٣٤٢ اذ قال عمار رضوان الله عليه لما قتل:

اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه

معارف سورة الفاتحة(٢)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾.

النـزول:

اختلفوا في مكان نزولها فقيل: في مكة المكرمة، وقيل: بل في المدينة، وقال ثالث: نزلت مرتين في مكة أولاً وفي المدينة ثانية تأكيداً لأهميتها ومبالغة في تشريفها، وأكثر المفسرين على أنها نزلت في مكة. وهذا الخلاف عقيم لا فائدة له لأن هذه السورة الكريمة لا تحتوي على آية يختلف معناها باختلاف النزول[١].

الأسماء:

ذكروا لها أسماءً عديدة:

أولاً: الفاتحة لأنها أول سورة في كتابة المصحف، ولوجوب قراءتها في أول الصلاة. هذا إلى أن التعليم على وجه العموم كان يفتتح أول ما يفتتح بها أيام زمان.

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٧ في سورة الفاتحة، والتفسير الكاشف ١: ٣١ في النزول.

ثانياً: الحمد لأنه أول لفظها.

ثالثاً: أم الكتاب وأم القرآن لأنها متقدمة على غيرها من السور، والعرب تسمي كل جامع أمر أو متقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه، (أُمّاً) فيقولون: أم الرأس: للجلدة التي تجمع الدماغ، وأم القرى لأن الأرض دحيت من تحت مكة فصارت لجميعها أماً، وقيل: لأنها أشرف البلدان فهي متقدمة على سائرها، وقيل: سميت بذلك لأنها أصل القرآن والأم هي الأصل.

وإنما صارت أصل القرآن لأن اللّه أودعها مجموع ما في السور، لأن فيها إثبات الربوبية والعبودية، وهذا هو المقصود بالقرآن وعليها ترتكز تعاليم القرآن.

رابعاً: السبع المثاني لأنها سبع آيات وبقراءتها يثنى في الصلاة، أو لأنها جمعت بين ذكر الربوبية والعبودية.

ومهما يكن فإن التسمية تصح لأدنى شيء[1]. وقد ذكروا في أسمائها الوافية: لأنها لا تنتصف في الصلاة والكافية لأنها تكفي عما سواها ولا يكفي ما سواها عنها.

ولست ترى في محكم الذكر سورة
تقام مقام الحمد والكل قرآن

ويؤكد ذلك ما رواه عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ: ((أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها)).

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٣٢.

ومن أسمائها الأساس، لما روي عن ابن عباس: ((لكل شيء أساس)) وساق الحديث، إلى أن قال: ((وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم))(١).

ومن أسمائها الشفاء لما روي عن النبي ﷺ: ((فاتحة الكتاب شفاء من كل داء))(٢). وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: ((من لم تبرأه الحمد لم يبرأه شيء))(٣). ومر سلمان الفارسي رضي الله عنه برجل مصروع فقرأ هذه السورة في أذنه فبرأ فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هي أم القرآن وهو شفاء من كل داء(٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((لو قرئت "الحمد" على ميت سبعين مرة ثم رددت الروح ما كان عجباً))(٥).

وقال عليه السلام: ((ما قرئ سورة الحمد على وجع من الأوجاع سبعين مرة إلا سكن))(٦).

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٧.

(٢) مجمع البيان ١: ٤٧، وتفسير العياشي ١: ٣٥، ح٩، وعنه بحار الأنوار ٨٩: ٢٣٧، ح٣٣.

(٣) مجمع البيان ١: ٤٨، وتفسير العياشي ١: ٣٥، ح١٠، وعنه بحار الأنوار ٨٩: ٢٣٧، ح٣٤.

(٤) جواهر روحية ٢: ١٦.

(٥) مكارم الأخلاق: ٣٦٣ الفصل الثاني، في الاستشفاء بالقرآن، وعنه بحار الأنوار ٩٢: ٦٥ ب (٥٩) الدعاء لعموم الأوجاع والرياح.

(٦) طب الأئمة: ٨٨، وعنه بحار الأنوار ٩٢: ١٤٨ ب (١٠٤) الدعاء لدفع الجن والمخاوف وام الصبيان والصرع والخبل والجنون.

وقال عليه السلام: ((من نالته علة فليقرأ الحمد في جيبه سبع مرات فإن ذهبت العلّة وإلا فليقرأها سبعين مرة وأنا الضامن له العافية))(١).

ذكر الفخر الرازي في تفسير الفاتحة من تفسيره: أن قيصر ملك الروم أصيب بصداع في رأسه فأعيي الأطباء عن معالجته، وكلما عالجوه زاد ألمهُ فكتب إلى علي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يومئذٍ بالكوفة: هل يوجد طب في الإسلام فيه شفاء هذا الداء؟ فأعطى علي عليه السلام الرسول قلنسوة وقال فليضعها على رأسه، ففعلوا ذلك فبرئ من وقته فلما اكتشفوا القلنسوة فإذا فيها ورقة صغيرة مكتوب فيها سورة الفاتحة، فعلموا أن السر في هذه الكلمات، فأعادوها على حالها واحتفظوا بها فكانت أثمن شيء في الخزانة، فإذا أصيب رجل منهم بعد ذلك بصداع يضعون تلك القلنسوة على رأسه فيبرأ(٢).

هشام بن عدي الهمداني أبينت إحدى يديه في حرب صفين فأخذ علي عليه السلام يده وقرأ شيئاً وألصقها، فقال: يا أمير المؤمنين ماذا قرأت؟ قال عليه السلام فاتحة الكتاب. فكأنه استقلها فانفصلت يده عن موضعها فتركه علي عليه السلام ومضى(٣).

---

(١) أمالي الطوسي: ٢٨٤، ح٥٥٣، وعنه بحار الأنوار ٩٢: ٦٥، ح٤٢.

(٢) التفسير الكبير ١: ١٧١ في النكت المستخرجة من البسملة.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٦١ في أُموره مع المرضى والموتى، وعنه مستدرك الوسائل ٤: ٣٠٠، ب (٣٠) استحباب تكرار الحمد، ح٤٧٤٠.

﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

واسمها الصلاة لما روي عن النبي ﷺ قال اللّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول اللّه حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يقول اللّه: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول اللّه مجدني عبدي فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول اللّه: هذا بيني وبين عبدي ماسأل[1].

اللـــــغة:

الحمد والمدح والشكر متقاربة المعنى، والفرق بين الحمد والشكر. إن الحمد نقيض الذم كما أن المدح نقيض الهجاء والشكر نقيض الكفران، والحمد قد يكون من غير نعمة والشكر يختص بالنعمة، إلا أن الحمد يوضع موضع الشكر، ويقال: الحمد للّه شكراً فينصب ((شكراً)) على المصدر ولو لم يكن الحمد في معنى الشكر لما نصبه فإذا كان الحمد يقع موقع الشكر فالشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، ويكون بالقلب وهو الأصل، ويكون أيضاً باللسان، وإنما يجب باللسان لنفي تهمة الجحود والكفران. وأما المدح فهو القول المنبئ عن عظم حال الممدوح مع القصد إليه.

وأما الرب فله معان منها السيد المطاع، كقول لبيد:

وَأهلكنَ قِدْماً رب كندة وابنَه ... وربَّ مَعَدٍّ بين خبتٍ وعرعر

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٨ في تفسير الحمد.

أي سيد كندة.

ومنها: المالك، نحو قول النبي ﷺ لرجل: أرب غنم أم رب إبل؟ فقال: من كل ما آتاني الله ما أكثر وأطيب.

ومنها: الصاحب، نحو قول أبي ذؤيب:

قد ناله ربُّ الكلابِ بكفِّه   بيضٌ رهابٌ ريشُهُنَّ مقَزَّعُ

أي: صاحب الكلاب.

ومنها: المربِّب، ومنها: المصلح.

واشتقاقه من التربية، يقال: ربيته وربيته بمعنى، وفلان يربي صنيعته: إذا كان ينممها.

ولا يطلق هذا الاسم إلا على اللّه، ويقيد في غيره فيقال: رب الدار ورب الضيعة.

دخل رجل على المأمون فقال: أعطني على عدد الأنبياء كل نبي درهم، وعدهم ١٢٥٠٠٠ ألفاً، فقال أعطيك بعدد من تعرف. فعدد قسماً من الأنبياء إلى أن قال: نمرود، فرعون. قال له: هؤلاء أرباب. قال: إذن فأنت الرابح، إذا أعطيتك الأرباب عوض الأنبياء.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له لأنه يدل على صانعه.

معنى الآية أن الأوصاف الجميلة والثناء الحسن كلها للّه الذي يستحق العبادة لكونه قادراً على أصول النعم وفاعلاً لها، ولكونه منشئاً للخلق ومربياً لهم ومصلحاً لشأنهم.

وفي الآيـة دلالـة على وجوب الشكر للّه على نعمه. وفيها تعليم العباد كيف يحمدونه(١).

وهذه الجملة إخبار بمعنى الإنشاء لأن المتكلم قصد إحداث الحمد للّه لا الإخبار عن ثبوت الحمد للّه. وهي تلقين وتعليم من اللّه لعباده كيف يحمدونه، أي قولوا يا عبادي: الحمد للّه.

ومعنى الحمد الثناء عليه سبحانه بقصد التعظيم والتبجيل على كل حال حتى على الضراء. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطب النهج: ((نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه))(٢).

ومحمد وأحمد ومحمود وحامد وحميد وحمدان أسماء مأخوذة من الحمد.

وقد يأتي الحمد وصفاً للشيء الذي ترضى عنه. قال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾(٣) عسى تدل على الرجاء في كلام المخلوق وعلى الوجوب والحتم في كلام الخالق. والخطاب في (يبعثك) لمحمد صلى الله عليه وآله ولا شيء فوق محمد ومقام محمد وآل محمد إلا الذي ليس كمثله شيء. وفي بعض الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وآله فسر المقام المحمود في هذه الآية بالمقام الذي يشفع فيه لأمته.

---

(١) مجمع البيان ١: ٥٨ في تفسير سورة الحمد.

(٢) نهج البلاغة: ١٩٣ من خطبة له عليه السلام وفيها مواعظ للناس، رقم الخطبة (١١٤)..

(٣) الإسراء: ٧٩.

وقالوا: حمد السوق من ربح، وعند الصباح يحمد القوم السرى[١].

ولفظ ((الرب)) يطلق على السيد والمالك، وكل من المعنيين يصح إرادته هنا، ولكن معنى الخالق هو المتبادر من لفظ هذه الآية الكريمة.

و ((العالمين)) جمع عالم بفتح اللام، والعالم يطلق على نوع خاص من الكائنات فيقال: عالم الجماد، وعالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان، ولا يطلق لفظ عالم على المفرد لأنه اسم للجمع.

والمراد بـ((العالمين)) هنا كل ما عدا الله سبحانه، فيعم جميع الكائنات. وقد يطلق على جميع أصناف الناس كقوله: ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢].

ومعنى ((رب العالمين)) خالق كل شيء ومدبره. ولفظ ((رب)) بدل كل من لفظ الجلالة، ويشعر بالعلية أي أني أحمد الله لأنه رب العالمين[٣].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((أحمده استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته واستعصاماً من معصيته))[٤].

يحمد الله ويشكره لأمور، منها أن يتم عليه نعمته بالصبر وغيره من النعم بعد أن أنعم عليه بالهداية إلى الإيمان، ومنها أن في الحمد والشكر طاعة لله ومجانبة لمعصيته.

---

(١) مجمع الأمثال ٢: ٣ ب (١٨) فيما أوله عين، رقم (٢٣٨٢).

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) التفسير الكاشف ١: ٣٣.

(٤) نهج البلاغة: ٢٣ من خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين، رقم الخطبة (٢).

أما من يحمد الله على معصيته كشماتته بموت عظيم فهو عاص لله.

هـذا التاريخ يحدثنا عن أناس حمدوا الله وسجدوا لـه شكراً على موت أناس مؤمنين بعد أن أخافوهم واضطهدوهم كما فعل المهدي عندما سمع بموت عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام. وإليك ترجمة عيسى بن زيد.

قـال أبـو الفـرج الأصبهاني ولد عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام في الوقـت الـذي أشخص أبوه زيد بن علي إلى هشام بن عبد الملك، وكانت أم عيسـى معـه في طـريقه فـنزل ديـراً ووافـق نزوله إياه ليلاً وضربها المخاض فولـدت تلـك اللـيلة فسماه أبوه عيسى على اسم عيسى المسيح عليه السلام، وكان عيسـى بن زيد على ميمنة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى واختفى بعد قـتل محمد وإبراهيم فتوارى بالكوفة في دار علي بن صالح بن أخي الحسن بن صـالح وتـزوج ابـنة لـــه وولـدت منه بنتاً ماتت في حياته. وكان يقال لـه مؤتم الأشبال(١).

حدث ابن أبي شيبة عن أبي نعيم قال: حدثني من شهد عيسى بن زيد أنـه لـمـا انصرف من واقعة باخمرا وقد خرجت عليه لبوة معها أشبالها فعرضت للطـريق وجعلـت تحمـل على الناس فنزل عيسى وأخذ سيفه وترسه ثم تقدم إليها وقتلها، فقال له مولىً له أيتمت أشبالها يا سيدي، فضحك فقال: نعم، أنا ميتم الأشبال(٢).

---

(١) مقاتل الطالبين: ٢٧٣، وثمرات الأعواد ٢: ١٦٤.

(٢) مقاتل الطالبين: ٢٧٨.

قـال يحـيى بـن الحسـين بـن زيد: قلت لأبي: يا أبة إني أشتهي أن أرى عمـي عيسـى بن زيد فإنه يقبح لمثلي أن لا يأتي مثله من أشياخه. فدافعني عن ذلك مدة وقال: إن هذا يثقل عليه وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إياه فتزعجه.

قـال: فـلم أزل بـه أداريـه وألطـف لـه حـتى طابـت نفسه لي بذلك فجهـزني إلى الكوفـة وقـال لـي: إذا صرت إليها فاسأل عن دور بني حي، فإن أدللـت علـيها فاقصـدها في السـكة الفلانية، وسترى في السكة داراً لها باب صـفته كذا وكذا فاعرفه واجلس بعيداً منها إلى أول السكة فإنه سيقبل عليك مـن المغـرب كهـل طويـل مسنون الوجه قد أثر السجود في جبهته، عليه جبة صـوف، يستسـقي المـاء عـلى جمـل، لا يضع قدماً ولا يرفعها إلا بذكر اللّه عز وجـل، ودموعـه تنحدر، فقم وسلم عليه وعانقه، فإنه سيذعر منك كما يذعر الوحش، فعرِّفه نفسك وانتسب له يسكن إليك ويحدثك طويلاً، ويسألك عنا جمـيعاً، ويخـبرك بشـأنه ولا يضـجر بجلوسـك معـه، ولا تطل عليه وودعه فإنه سـوف يستعفيك من العود إليه فافعل ما يأمرك به، فإنك إن عدت إليه توارى عـنك واستوحش منك وانتقل من موضعه وعليه في ذلك مشقة. فقلت: أفعل كما أمرتني.

ثـم جهـزني إلى الكوفـة وودعته وخرجت، فلما وردت الكوفة قصدت سـكة بـني حي بعد العصر وجلست خارجها بعد أن عرفت الباب الذي نعته لي، فلما غربت الشمس إذا أنا به قد أقبل يسوق الجمل، وهو كما وصفه لي أبـي لا يـرفع قدمـاً ولا يضـعها إلا حـرك شـفتيه بذكر اللّه عز وجل ودموعه

ترقرق في عينيه وتذرف أحياناً، فقمت إليه وعانقته فذعر مني كما يذعر الوحش من الأنس، فقلت: يا عم أنا يحيى بن الحسين بن زيد ابن أخيك، فضمني إليه وبكى حتى قلت: قد جاءت نفسه، ثم أناخ جمله وجلس معي فجعل يسألني عن أهله رجلاً رجلاً وامرأة امرأة وصبياً صبياً وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكي.

قال: يا بني أستسقي على هذا الجمل الماء فأصرف ما أكتسب يعني من أجرة الجمل إلى صاحبه وأتقوت باقيه، وربما عاقني عن استسقاء الماء فأخرج إلى البرية يعني بظهر الكوفة فألتقط ما يرمي الناس من البقول فأتقونه.

وتزوجتُ ابنته وهو لا يعلم من أنا إلى وقتي هذا، فولدت مني بنتاً فنشأت وبلغت وهي لا تعرفني أيضاً ولا تدري من أنا، فقالت لي أمها: زوج ابنتك بابن فلان السقاء لرجل من جيراننا فإنه أيسر حالاً منا، ومذ خطبها وألحت عليّ فلم أقدر على إخبارهم بأن ذلك غير جائز ولا هو بكفء لها فيشيع خبري، وجعلت تلح عليّ فلم أزل أستكفي الله أمرها حتى ماتت بعد أيام، فما أجدني آسى على شيء من الدنيا أساي على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من رسول الله ﷺ.

ثم أقسم عليّ أن أنصرف ولا أعود إليه، وودعني، فلما كان بعد ذلك صرت إلى الموضع الذي أنتظره فيه فلم أره، وكان هذا آخر عهدي به.

ولما طال تخفيه وتواريه أمر المهدي العباسي أن ينادى في الكوفة بالأمان لعيسى بن زيد، فسمع منادياً ينادي: ليبلغ الشاهد الغائب أن عيسى بن زيد آمن في ظهوره وتواريه. فرأى عندئذٍ عيسى بن زيد الحسن بن صالح وقد ظهر

فيه سرور بذلك فقال له: كأنك قد سررت بما سمعت؟ قال: نعم، فقال عيسى: واللّه لإخافتي إياهم ساعة واحدة أحب إليّ من كذا وكذا.

وحدّث يعقوب بن داود قال: دخلت مع المهدي بفي قبة في بعض الخانات في طريق خراسان فإذا حائطها عليه أسطر مكتوبة، فدنا ودنوت منه فإذا هي هذه الأبيات:

واللّه ما أطعم طعم الرقاد خوفاً إذا نامت عيون العباد
شردني أهل اعتداء وما أذنبت ذنباً غير ذكر المعاد
آمنت باللّه ولم يؤمنوا فكان زادي عندهم شر زاد
أقول قولاً قاله خائف مطّرد قلبي كثير السهاد
منخرق الخفين يشكو الوجى تنكبه أطراف مرو حداد
شرده الخوف فأزرى به كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد

قال يعقوب بن داود فجعل المهدي يكتب تحت كل بيت: لك الأمان من اللّه ومني فاظهر متى شئت حتى كتب ذلك تحتها أجمع، فالتفت فإذا هو دموعه تجري على خده، قلت: من ترى قائل هذه الشعر يا أمير؟ قال: أتتجاهل عليّ؟ من عسى قائل هذا الشعر إلا عيسى ابن زيد(١).

وذكر أبو الفرج أن المنصور طلب عيسى طلباً ليس بالحثيث وطلبه

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

المهدي وجدّ في طلبه حيناً فلم يقدر عليه فنادى بأمانه ليبلغه ذلك فيظهر، فبلغه فلم يظهر، وبلغه أن له دعاة ثلاثة وهم: ابن علاق الصيرفي وحاظر مولىً لهم وصباح الزعفراني، فظفر المهدي بحاظر فحبسه وقرره ورفق به واشتد عليه ليعرفه موضع عيسى فلم يفعل فقتله، ومكث طول حياة عيسى يطلب صباحاً وابن علاق فلم يظفر بهما، حتى إذا مات عيسى عليه الرحمة قال صباح للحسن بن صالح: أما ترى هذا العذاب والجهد الذي نحن فيه بغير معنى قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله وإنما نطلب خوفاً منه وإذا علم أنه قد مات أمننا فدعني آتي هذا الرجل يعني المهدي وأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا، فقال: لا واللّه لا نبشر عدو اللّه بموت ولي اللّه وابن نبي اللّه، ولا نقر عينه فيه ونشمته، فواللّه إن ليلة أبيتها خائفاً منه أحب من جهاد سنة وعبادة بها[1].

قال أبو الفرج ومات الحسن بن صالح بعد وفاة عيسى بشهرين. قال صباح الزعفراني ولما مات الحسن بن صالح أخذت أحمد بن عيسى وأخاه زيد وجئت بهما إلى بغداد فجعلتهما في موضع أثق به عليهما ثم لبست أطماراً وجئت إلى دار المهدي فسألت عن الربيع وأدخلت عليه وسألني فقلت: إن عندي نصيحة بشارة تسر الخليفة، وبعد الأسئلة الكثيرة استأذن لي على المهدي وأدخلت عليه فقال لي: أنت صباح الزعفراني؟ قالت: نعم، قال: فلا حيّاك اللّه ولا بياك ولا قرب دارك يا عدو اللّه، أنت الساعي على دولتي

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٢٧٨.

والداعي إلى أعدائي ثم تجيئني الآن.

قلت: إني جئتك مبشراً ومعزياً، قال: مبشراً بماذا، ومعزياً بماذا؟ قلت: أما البشرى فبوفاة عيسى بن زيد، وأما التعزية ففيه لأنه ابن عمك. قال فحول وجهه إلى المحراب وسجد، ثم التفت إليّ وقال: منذ كم مات؟ قلت: منذ شهرين، قال: فلم لم تخبرني بوفاته إلا الآن؟ قلت: منعني الحسن بن صالح، فقال: وما فعل الحسن؟ قلت: مات، ولولا ذلك ما وصل إليك الخبر فسجد سجدة أخرى وقال: الحمد للّه الذي كفاني أمره، فلقد كان أشد الناس عليّ ولعله لو عاش لأخرج عليّ غير عيسى.

قال: ثم التفت إليّ وقال: سل حاجتك، قلت: واللّه لا أسألك شيئاً إلا حاجة واحدة، قال: وما هي؟ قلت: ولد عيسى بن زيد واللّه لو كنت أملك ما أعولهم به ما سألتك في أمرهم ولا جئتك بهم، أطفال يموتون جوعاً وضراً وليس لهما الآن من يكفلهم غيري وأنا عاجز عن ذلك، وهم عندي في ضنك وأنت أولى الناس بصيانتهم وأحق بحمل ثقلهم فهم لحمك ودمك وأيتامك وأهلك.

قال: فبكى حتى جرت دموعه. ثم قال: إذن يكونون واللّه عندي بمنزلة ولدي لا أؤثر عليهم أحداً. قال: فجئت بهم إليه فلما نظر إليهم جعل يبكي رقة لهم وليتمهم[1].

هذا المهدي لما نظر إلى ولدي عيسى وهما صبيان بكى رقة لهم وليتمهم وابن زياد ما رقّ على ولدي مسلم، وأهل الكوفة ما رقوا على يتامى الحسين عليه السلام

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٢٨٠ ـ ٢٨١

معارف سورة الفاتحة (٣)

قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

اللـــــغة:

الملـك: القـادر الواسـع المقـدرة الـذي لـه السياسة والتدبير. والمالك: القـادر عـلى التصرف في ماله، وله أن يتصرف فيه على وجه ليس لأحد منعه منه[١].

للفـظ ((الدين)) معانٍ شتى منها: المكافأة والجزاء مثل: كما تدين تدان. وهذا المعنى يناسب المقام حيث تجازى في ذلك اليوم كل نفس بما كسبت.

وقُرئ ﴿مَـالِكِ يَـوْمِ الدِّينِ﴾ بالألف كما تقول: فلان مالك هذا البستان بمعـنى الاختصـاص. وقُـرئ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بكسر اللام كما تقول: ملك الـيونان بمعـنى الحكم والسلطة. والقراءتان متواترتان، والأولى أكثر استعمالاً. والمعـنى المسـاق إلى الذهـن واحـد على كلتا القراءتين، وهو أن كل شيء بيد اللّه وحده اليوم وغداً فهو رب العالمين ورب يوم الدين.

والغرض التخويف من المعصية والترغيب في الطاعة.

وعـلى القـراءة الأولى يكـون (مالك) وصفاً، وعلى القراءة الثانية يكون

---

(١) مجمع البيان ١: ٦١.

(ملك) بدلاً[١].

وفي نهج البلاغة: ((إنا لا نملك مع الله شيئاً ولا نملك إلا ما ملكنا فمتى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا، ومتى أخذه منا وضع تكليفه عنا))[٢].

وإنه سبحانه لما بيّن ملكه في الدنيا بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بيّن أيضاً ملكه في الآخرة بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أراد باليوم الوقت، أراد به الجزاء على الدين، وأراد به يوم لا ينفع إلا الدين. وإنما خص يوم القيامة بذكر الملك فيه تعظيماً لشأنه وتفخيماً لأمره.

وهذه الآية دالة على إثبات المعاد، وعلى الترغيب والترهيب لأن المكلف إذا تصور ذلك لابد أن يرجو ويخاف؛ لأن الأعمال مسجلة في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فيقال له: ﴿اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣]. وفي يوم الجزاء يدرك الحق ثأره من الباطل لأن الباطل قد قتل الحق في الدنيا وأحرقه.

ولقد ذكر أهل السير قصة لمحمد بن حبيب قال: كنت أتمشى في شاطئ النيل فرأيت راهباً يغسل ثيابه في الماء فجعلت انظر أليه فقال لي: ماذا تريد؟ لعلك تريد أن تسمع مني حديثاً، أليس كذلك؟ فقلت: نعم، فقال: حسناً انتظر ريثما أفرغ من غسل ثيابي فانتظرته إلى أن خرج من الماء فقال: وجدنا

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) نهج البلاغة: ٦٢٦ في القصار من كلماته، رقم الحكمة [٤٠٤].

(٣) الإسراء: ١٤.

في علمنا مثلاً، وهو أن الحق والباطل اصطحبا فسارا حتى صار الليل فقال الباطل للحق: انصرف وفتش لنا عن عشاء، فذهب الحق ثم رجع فلم يأتِ بشيء، فقال له الباطل: لأي شيء لم تأتِ بشيء؟ فقال: ما وجدت شيئاً من حله، فقال الباطل: اجلس وسوف آتيك بعشاء، فذهب الباطل فأتى بشيء، فقال له الحق: أنا لا آكل معك، قال: ولِمَ؟ قال: لأنه غير حلال، فقال: بعثتك فلم تأتِ بشيء ولما أن أتيت بهذا الشيء حرمته عليّ، فقام إليه وقتله، ثم قال: إن أصحابه سيطالبونني به فماذا أصنع، فقام إليه وأحرقه فطالبه أصحابه فأنكره فنظروا إلى الرماد وقالوا: هذا رماد الحق، فعملوه مداداً وصاروا يكتبون به.

فالحق قد مات ولو فتشت الدنيا لم تجد حقاً، والذي تراه بين الناس ما هو إلا رماد الحق فيوم القيامة ينتصر الحق وينتقم من الباطل لأن الحق مات في الدنيا ومات في كثير من البلدان.

تقول بعض القصص كان بين تاجر وآخر معاملات في التجارة فكان أحدهما يقدم البضائع والثاني يبيع البضائع وكل منهما في بلد تبعد عن البلد الثانية، حتى بلغ لمقدم البضائع على صاحبه عشرة آلاف دينار ولم يدفع إليه شيئاً، فقصده في بلاده فطلب منه حقه فتجاهله وأنكره ولم يقر له بأي حق، فقدم إليه دفاتره وصورة المعاقدات فأنكر كل شيء، وكان التاجر المنكر قوياً يستطيع أن يهين الرجل ويؤذيه لأنه أقوى منه(١)، فبقي الرجل حائراً

---

(١) والقوي يستطيع أن يخلق الذنب على الضعيف. وقف أسد في أعلى نهر وخروف في ☜

فمشى في طريق فمر بكنيسة والقس يضرب الناقوس والناس في سكوت تُعَدِّد الضربات، فسأله لماذا تضرب الناقوس؟ قال: فيه إشعار بالموت لأحد الناس، فإذا مات الفقير ضربته عشرين مرة، وإذا مات الغني ضربته أربعين مرة، وإذا مات الوزير ضربته ستين مرة، وإذا مات رئيس الوزراء ضربته ثمانين مرة، وإذا مات الملك مائة مرة.

قال له: كم راتبك على هذا؟ قال: ليرتان، قال: خذ مني خمسين ليرة واضرب الناقوس مائة وعشرين مرة، فاستلم خمسين ليره فضرب الناقوس فلما ضرب إلى عشرين قال الناس: مات فقير، فضربه أربعين قالوا: مات غني، وصل إلى الستين قالوا: مات وزير، وصل إلى ثمانين قالوا: مات رئيس الوزراء، وصل إلى المائة قالوا: مات الملك، والملك يصيح: أنا موجود لم أمت ضربه مائة وعشرين قالوا: من مات؟

فقال الملك ائتوني بصاحب الناقوس سريعاً، فجاؤوا به مع التاجر فسأل الملك القس: ما حملك على هذا؟ قال: اسألوا هذا الرجل فهو الذي

﴿أسفله فقال الأسد للخروف: لا تعكر عليّ الماء، قال: أنت في الأعلى وأنا في الأسفل فكيف أعكره؟ قال: وأنت العام الماضي شتمتني، قال: أنا لم أولد إلا هذا العام، قال: أبوك، قال: أنا يتيم، قال: أخوك، قال: ليس لي أخ، فقال: وأنت تستطيع أن تكلمني، فوثب عليه فقتله.

ودعوى القوي كدعوى السباع من الظفر والناب برهانها

أمـرني، فقـال الملك للرجل: ماذا تقصد بهذا فقد أحدثت إزعاجاً في بلادنا؟ قـال: قصـدت أن أعـرفك أن الحـق مـات في بـلادك، وأخبره بقصته وقدم لـه دفاتره، فطلب التاجر وأمر أن يعطيه حقه تماماً.

فالحق مات في هذا الزمان في كثير من البلدان.

فهناك يرجع الناس إلى خالقهم ويجزيهم على أعمالهم.

تقـول الآية: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وقـد بـيّن سـبحانه الحكمـة من إعادة الموتى بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾(١) أقدر الله سبحانه وتعالى الإنسان عـلى الفعـل ومـنحه عقـلاً يمـيز به الخير والشر، ونهاه عن هذا وأمره بذاك، فأطاعـه مـن أطـاع وعصـاه من عصى، ثم مضى كل إلى حفرته دون أن يثاب المطيع ويعاقـب العاصي، بل إن كثيراً من العصاة طغوا وبغوا وملأوا الأرض ظـلماً وجـوراً ولم يحاسبهم محاسب ويسألهم سائل. فإن افترض أنه لا بعث ولا حسـاب غـداً فمعـنى هـذا أن الظالم والمظلوم والمؤمن والكافر عند الله سواء بل الكافر به خير وأفضل عنده من المؤمن والطاغية المفسد أكرم على الله ممن استشـهد في سـبيل مرضاته. ولا شك في أن هذا يتنافى مع عدل الله وحكمته وقدرته، بل ومع وجوده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد رأينا كثيراً من المظلومين يصرخون من الأعماق قائلين: لو كان الله

---

(١) يونس: ٤.

موجوداً لما أبقى طاغية على وجه الأرض.

وليس هذا القول إلا انعكاساً عن غريزة الإيمان بوجود عادل قادر يقتص للمظلوم من الظالم ولكنهم تعجلوا القصاص لحرقة الألم وذهلوا عن فطرتهم التي فطرهم اللّه فقالوا ما قالوا.

وأقوى الأدلة على ثبوت البعث قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١) (٢).

مات بعض الصالحين فرأوه في حالة حسنة فقالوا له: ما فعل اللّه بك؟ قال: حاسبني عن كل شيء حتى أني كنت يوماً صائماً فأتيت إلى دكان حناط فأخذت حبة من الحنطة فكسرتها بين أسناني فحاسبني اللّه على ما نقص منها.

هذه الآية تحمل برهانها معها وتدل على نفسها بنفسها ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولماذا؟ لأنه لا ظلم عند اللّه بل هو سريع الحساب. والتحليل العقلي لهذه القضية أنه لولا هذا اليوم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت لكان اللّه ظالماً، ووجوده نقمة، وتكليفه عبثاً سبحانه وتعالى عما يصفون. والنتيجة الحتمية لهذا المنطق كل من أنكر البعث والحساب والجزاء فقد أنكر وجود اللّه من حيث يريد أو لا يريد.

وقد هدد الإمام موسى بن جعفر هارونَ الرشيد لما كان في سجنه مقيداً

---

(١) غافر: ١٧.

(٢) التفسير الكاشف ٤: ١٣٢ ـ ١٣٣.

كتب إليه ((إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون))(١) ويشير إلى يوم القيامة ويوم الحساب يجازى فيه كل امرئ بما عمل.

وبعث إليه مرة أيضاً يهدده بيوم القيامة رسالة على يد يحيى البرمكي.

قال الرشيد يوماً ليحيى البرمكي أرني تدبيراً في شأن موسى بن جعفر فقد طال حبسه عندي، فقال: الذي أراه لك أن تمن عليه وتصل رحمه وتطلق عنه، فقال الرشيد: انطلق إليه وأطلق عنه الحديد وأبلغه عني السلام، وقل له: يقول لك ابن عمك أنه: قد سبق مني فيك يمين أن لا أخليك حتى تقرَّ لي بالإساءة وتسألني العفو عما سلف منك وليس في إقرارك عاراً عليك ولا في مسألتك إياي منقصة، وهذا يحيى وهو ثقتي ووزيري فله بقدر ما أخرج من يميني وانصرف راشداً.

فلما دخل يحيى وبلغه، قال عليه السلام: يا يحيى قل له: يقول لك موسى بن جعفر رسولي يأتيك يوم الجمعة ويخبرك بما يرى، وستعلم غداً إذا جاثيتك بين يدي الله مَنْ الظالم والمتعدي على صاحبه.

فلما أخبره بجوابه قال له هارون: إن لم يَدْعُ النبوة بعد أيام فما أحسن حالنا، فلما كان يوم الجمعة توفي أبو إبراهيم عليه السلام(٢).

---

(١) كشف الغمة ٣: ٨ في مناقب الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام، وتاريخ بغداد ١٣: ٣٣، وتهذيب الكمال ٢٩: ٥٠، وسير أعلام العلماء ٦: ٢٧٣، في ترجمة الإمام موسى الكاظم، رقم الترجمة [١١٨].

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٤٠٩ في مغيباته عليه السلام، ونور الأبصار: ٦١.

ففي ذلك اليوم لا يُصَدَّق كاذب ولا يُكَذَّب صادق، وهناك توزن أعمال الخلائق كما تقول الآية: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾(١).

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ كثر الكلام حول حقيقة الميزان الذي يزن اللّه فيه أعمال الناس، حتى أن بعضهم قال: إن لهذا الميزان لساناً وكفتين.

والذي يفهم من هذا الميزان ـ واللّه أعلم بمراده ـ أنه المقياس الذي يميز الطائع من العاصي والخبيث من الطيب، وهذا المقياس هو أمر اللّه ونهيه، فإذا جاء أوان الحساب يُنظر إلى ما فعل الإنسان وما ترك ويقارن بينهما وبين أمره ونهيه تعالى، فإذا طبّق فعله وتركه على أمر اللّه ونهيه فهو من الذين ثقلت موازينهم وكان عند اللّه من المفلحين والراجحين وإلا فهو من الذين خفت موازينهم وكان من الظالمين الخاسرين أنفسهم بعذاب الحريق. وبتعبير ثان: أن لكل شيء في هذه الحياة أصولاً وضوابط، علماً كان أو أدباً أو فناً أو غير ذلك وبها يتميز الشيء عن غيره بل ويعرف جيده من رديئه.

وتسمى تلك الأصول والضوابط ميزاناً ومقياساً ومنهاجاً وحكماً وكذلك الحساب في الآخرة له أصول وضوابط وأطلق القرآن عليه كلمة الميزان. وكلمة الصراط.

وهذه الأصول والضوابط أو الميزان لأعمال الناس وأهدافهم هو أمر

---

(١) الأعراف: ٨ ـ ٩.

اللّه ونهيه، فشأنهما في محاكمة الإنسان غداً كشأن الفقه والقانون في محاكمة المدعى عليه في هذه الحياة.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وهم الذين محصت أعمالهم على أساس أوامر القرآن ونواهيه فجاءت كاملة وافية ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم لم يعثروا في الامتحان. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ وهم الذين ظهر البعد والتباين بين أعمالهم وبين أحكام اللّه وتعاليمه ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[١] قال كثير من المفسرين: إن المراد بالظلم هنا الكفر، والصحيح أنه التكذيب بآيات اللّه مطلقاً كما هو ظاهر الآية سواء أدلت تلك الآيات على وحدانية اللّه تعالى أم على رسالة رسله أم البعث أم على حلاله وحرامه، فالمراد بهذا التكذيب بآيات اللّه[٢].

ولما دخلت السيدة زينب مجلس يزيد مع أخواتها قامت في ذلك المجلس وقالت: الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على رسوله وآله أجمعين، صدق اللّه حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون﴾[٣] أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الإماء أن بنا على اللّه هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك

(١) الأعراف: ٩.

(٢) التفسير الكاشف ٣: ٣٠٣ ــ ٣٠٤، في تفسير سورة الأعراف، آية: ٨ ـ ٩.

(٣) الروم: ١٠.

ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا بك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلا لا تطش جهلاً أنسيت قول اللّه تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١) أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول اللّه ﷺ سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء(٢).

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٦٤، في رجوع السبايا إلى الشام.

معارف سورة الفاتحة (٤)

قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

العبادة في اللغة هي الذلة. يقال: طريق معبّد أي مذلل بكثرة الوطء. وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده لمولاه.

والاستعانة: طلب المعونة. يقال: استعنته واستعنت به[١].

المعنى:

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أدل على الاختصاص من أن نقول: نعبدك ونستعينك؛ لأن معناه نعبدك ولا نعبد سواك، ونستعينك ولا نستعين غيرك. كما إذا قال الرجل: إياك أعني، فمعناه لا أعني غيرك. ويكون أبلغ من أن يقول: أعنيك.

والعبادة ضرب من الشكر وغاية فيه؛ لأنها الخضوع بأعلى مراتب الخضوع مع التعظيم بأعلى مراتب التعظيم ولا يستحق إلا بأصول النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة ولا يقدر عليه غير اللّه تعالى فلذلك اختص سبحانه أن يعبد ولا يستحق بعضنا على بعض العبادة، كما يستحق بعضنا على بعض الشكر، وتحسن الطاعة لغير اللّه تعالى ولا تحسن العبادة لغيره.

---

(١) مجمع البيان ١: ٦٢.

وقـول من قال: إن العبادة هي الطاعة للمعبود يفسد بأن الطاعة موافقة الأمر. وقد يكون موافقاً لأمره ولا يكون عابداً له، ألا ترى أن الابن يوافق أمر الأب ولا يكـون عـابداً لـه، وكذلـك العـبد يطيع مولاه ولا يكون عابداً لـه بطاعـته إيـاه والكفار يعبدون الأصنام ولا يكونون مطيعين لها إذ لا يتصور من جهتها الأمر.

ومعـنى قولـه: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيـاك نستوفق ونطلب المعونة على عبادتك وعلى أمورنا كلها. والتوفيق هو أن يجمع بين جميع الأسباب التي يحتاج إلـيها في حصـول الفعل، ولهذا لا يقال فيمن أعان غيره: وفقه لأنه لا يقدر أن يجمع بين جميع الأسباب التي يحتاج إليها في حصول الفعل(١).

وأمـا تكـرار قـول: إيـاك؛ فللتأكـيد. وقيل: إنه تعليم لنا في تجديد ذكره تعالى عند كل حاجة.

والمعنى: نعبدك ولا نعبد سواك، ونستعين بك لا بغيرك.

وخاطـب العـبد ربـه بضـمير المفـرد إخلاصـاً في التوحيد وتنزيهاً عن الشـرك. ومـن أجـل هـذا لا يخاطـب الواحد القهار بصيغة الجمع. أما ضمير ((نحن)) في ((نعبد)) و ((نستعين)) فللمتكلم ومن معه لا للتعظيم.

وتحقـق العبادة بالصوم والصلاة والحج والزكاة لوجه اللّٰه تعالى، وأيضاً تـتحقق بكـل عمـل إنسـاني يسد حاجة من حاجات الناس(٢). فلقد جاء في

---

(١) مجمع البيان ١: ٦٣، في تفسير سورة الحمد، آية: ٥.

(٢) التفسير الكاشف ١: ٣٤، في شرح قوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

الحديث: ((أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة))[١]، ((خير الناس أنفع الناس للناس))[٢].

وليس معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن اللّٰه أهل للعبادة وكفى، بل تدل الآية أيضاً على أن الإنسان مخلوق كريم حرره اللّٰه من العبودية والخضوع إطلاقاً إلا للحق الذي يعلو على كل شيء ولا يعلو عليه شيء.

الحرية في عبادة اللّٰه:

وبديهي أن الحرية التي لا يحدها الحق تنعكس إلى فوضى. يقول جون بول سارتر: إن التحرر الحقيقي أن يلتزم الإنسان بوضع نفسه وحريته في خدمة الآخرين.

وقيل: إن اثنين كانا يتنزهان في حديقة، ومع أحدهما قضيب يلعب به فمس طرف القضيب أنف الأخر ولما اعترض هذا قال صاحب القضيب: أنا حر، فقال له: لحريتك حد ينتهي عند أنفي[٣].

وتحدد الحرية بالإيمان باللّٰه والتعبد له وحده؛ لأن من تعبد للحق دون سواه فقد تحرر من الباطل، ومن تحرر من عبادة الحق فقد عبد الباطل حتماً والتفكيك محال إلا عند فوضوي لا يؤمن بحلال وحرام ولا شيء على الإطلاق

---

(١) ثواب الأعمال: ٢١٧ في ثواب المعروف، وعنه بحار الأنوار ٧١: ٤١٢، ح٢٥.

(٢) اتحاف السادة المتقين ٦: ١٧٣ وورد بلفظ: خير الناس أنفعهم للناس، وكذلك مثله في كنزل العمال ١٥: ٧٧٧، ح٤٣٠٦٥، وقريب منه في بحار الأنوار ٧١: ٣٣٩، ح١٢٢ نقلاً عن الكافي.

(٣) التفسير الكاشف ١: ٣٤.

إلا بنفسه لا شريك لها.

ذل عبادة غير الله:

ويقال من أحب شيئاً عبده، فقسم من الناس يعبد الشهوات، يفعل كل ما تسول له نفسه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ))[١] وما أكثر عبيد الشهوات، يقول الحوماني: أذكر وأنا في دمشق أعطي دروساً لأحداث مدرسة الجامعة العلمية[٢]، سنة ١٩٣٢ أذكر أني سكنت في غرفة من منزل تقطنه امرأة يونانية عليها مسحة من الجمال تكاد الكهولة تذهب به، أذكر أني كنت أدخل المنزل وحدي وأخرج منه وحدي، وأكاد لا أحس بصاحبته ولا بأحد يقطنه غيري، بيد أني أشعر أنها تتهامس وشخصاً ما في بعض الليالي فأنصت إليها وأنا في الدور العلوي وهما تحتي في غرفة رأيتها يوماً فإذا بالفن كله مسبغاً على سمائها وأرضها من دهان وأثاث ورياش.

أقول لقد أنصت إلى تهامسهما فلم أفهم شيئاً ولكني شعرت بخروج ذلك الشخص وسمعتها بعد خروجه تنشج وتبكي فأوجست خيفة عليها وساقني فضولي إلى استطلاع أمرها فسألتها وأنا أنقدها أجر الغرفة عن بعض

---

(١) شرح كلمات أمير المؤمنين: ٤١، ح٥١، وعيون الحكم والمواعظ: ٣٤١، وورد عن النبي صلى الله عليه وآله في عوالي اللآلئ ١: ٢٧٣، ح٩٥، وبحار الأنوار ٦٨: ٦٩، وميزان الحكمة ٤: ٣٤٧٩، وشرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٤٢.

(٢) دين وتمدين ٢: ٣٥٦.

شأنها فلم أفهم شيئاً إلا أنها في أزمة نفسية من حياتها وأنه لا أهل لها ولا قرين معها، وفهمت آخر الأمر أنها عاشقة وأن عشيقها متعال عليها وأنها مستخدمة له وأنها أعدت هذه الغرفة الفخمة لتلتقيه فيها ليلة واحدة من كل أسبوع، وأن هذا الشخص يدل عليها ويخدعها ويمنيها في سبيل ثروتها التي لا أعلم مصدرها، وأخيراً علمت منها والدمع في عينها أنها مولهة به وأنها لا تستطيع دفعه مهما أساء إليها وأنه ملك عليها نفسها ومالها.

ثم علمت أنه كل أسبوع يطلب منها شيئاً من مال أو أثاث فلا ترد له طلباً.

وقد سمعتها صباح يوم تبكي بنشيج مسموع وهي تستغيث فأشرفت عليها من غرفتي وسألتها عن شأنها فأومأت إلى الشاب الذي تعلقت به وهو يحمل سجادة ويخرج إلى الزقاق، فنزلت إليها أحسب أنه سارق وهممت بلحاقه فأمسكت بي وقالت: عد إلى مكانك فإنه فتنني.

قلت: وما هي فتنتك؟ قالت: هذا الشاب هو الذي ملك نفسي ولا أطيق رده حتى طلب مني اليوم سجادة كنت أدخرها من آثار أبي وأظن بها عليه فأبى إلا أخذها فلم أملك دموعي وهو يحملها ويدفعني عنه كما ترى.

قلت: ألا أعينك على استرجاعها؟ فقالت: إني أحبه ولا أقوى على إيذائه، واستمرت تشيعه بعينها وهما تفيضان بالدموع حتى توارى عنها جلست إليها لحظات أواسيها وأعرض عليها خدماتي في إرجاع ما أخذه منها فقالت: لو أخذ روحي لوهبتها له، إني أحبه، ولا أرى في الحياة غير شخصه فأنا خاضعة له حتى انتهي.

وعمدت من غدٍ إلى البحث عن الشاب لأختبر نفسه فترصدت له الطريق إليها فلما لاح لي من أول الزقاق المتصل بمنزلها عن طريق الصالحية عرضت له واحتفيت به ثم استعطفته عليها، وإذا هو أمي لا يفهم من الحياة إلا ما يفهمه الجاهل الحريص على طعامه وشرابه. قال: هذه أجنبية والمال الذي عندها سلبته منا وأريد أن أسلبه منها. فإذا هو فيلسوف وطني ولم أقم بعد ذلك عندها فتركتها ثم لم أعلم من أمرها شيئاً[١].

هذه عبودية الشهوة الجنسية، وهنالك شهوات تستعبد معظم هذا السواد الأعظم من مجموعة الإنسان فالعبودية للمال والعبودية للجاه ثم العبودية للمناصب، فكما أن شهوة الحياة لا حصر لها كذلك نجد العبودية لها في نفوس صغار النفوس لا حصر لها. وكما أن عبادة أكثر من رب في الوجود شرك كذلك نجد أن العبودية لغير هذا الرب شرك.

وليس من شك في أن الدين جعل الرياء في العبادة من قبيل الشرك لأنه صرف لها عن مصدر العبودية الحق إلى غيره كذلك نجد أن عبودية الشهوات من قبيل الشرك لأنه صرف للعبادة عن مصدرها. والذي يقوم في صلاته مرائياً يغش الناس بها ليصطاد ما يشتهيه من دنياهم باسم الدين وهو عين الذي يقوم في صلاته متجهاً نحو القبلة ولسانه آخذ بتلاوة كتاب الله بينما قلبه وعقله في خمارة أو ماخور، هذا إذا كان من المصلين، وأما إذا كان مسلماً بلسانه وبعيد عن الإسلام بُعْد الأرض عن السماء فيا ويل الدين من

(١) دين وتمدين ٢: ٣٥٦.

نفثاته ويا ويل الأمة من فجوره.

قد يكون عبد الرقّ عزيزاً وأما عبد الشهوة فأحقر من أن يعتز بحياة بل قد يقضي على حياته لشهوته.

فيما ينقل أن فتاة جميلة كانت مع أبيها في حصن اعتصم به من عدوه رأت من أعلى الحصن شبان القائد المحاصر للحصن فانجذبت له ولم تملك نفسها من التهالك عليه فكتبت له من شرفة الحصن تعرض عليه مكان الضعف من الحصن على أن يتزوجها فأجابها القائد إلى طلبها فأرشدته إلى حيث يدخل القلعة فدك الحصن وقتل أباها وبر لها بوعده ولكنه قتلها فيما بعد لارتيابه منها.

ويعرض علينا التاريخ نماذج ممن ضحوا بأنفسهم ودينهم في سبيل شهواتهم.

حقيقة العبادة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والعبادة على ثلاثة أوجه: عبادة عبيد، وعبادة تجار، وعبادة أحرار. فعبادة العبيد خوفاً، وعبادة التجار طمعاً، وعبادة الأحرار لا خوفاً ولا طمعاً.

يقول علي أمير المؤمنين: ((إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك))(١).

إن الذين يقفون بين يدي ربهم للصلاة فريضة أو نافلة لا يزالون حتى

---

(١) بحار الأنوار ٦٧: ١٨٦ ب (٥٣) النية وشرائطها ومراتبها، ودين وتمدين ٢: ٢٢١.

اليوم، حتى عصرنا هذا عصر النور، يبنون صلاتهم على المادة التي يبتغون من ورائها متع العيش في الحياة الدنيا فما يلتفتون إلى ما تبنى عليه السور التي يتلونها في الصلاة من تعظيم الخالق وتمجيده.

في فاتحة الكتاب الكريم وغيرها من الآيات العظمى، لا نلتفت إلى ما يخبر به في هذه السورة من حمد خالقنا وتمجيده وسؤاله الهدى والإرشاد إلى حيث يتغمدنا برحمته ويوالي علينا نعمته بالعلم المفضي بنا إلى معرفته، حتى إذا رفعنا أيدينا للقنوت بعد كل ركعتين أو انتصبنا للدعاء والتعقيب بعد الفراغ من الفرض عدنا إلى الامتنان بالخضوع والتوسل إليه تعالى أن يغدق علينا شآبيب نعمه من أطائب العيش ومتعه في الحياة الدنيا وأن لا تحرمنا هذه المتع بالحور العين والولدان المخلدين وأنهار اللبن والعسل والخمر في الحياة الأخرى.

نرى أنفسنا ونحن في الصلاة ساهين عن كل ما تشتمل عليه هذه السور والآيات من تعظيم الله وتمجيده ومظاهر جماله وجلاله بينما ننتفض مرعدين لدى بسط أيدينا في القنوت أو التعقيب ونحن نسأل الله، وندعو أن يمن علينا من نعمه السابغة والعيش الرغد ثم نمعن في الدعاء لله أن يهلك أعداءنا ويبسط نفوذنا ويعزز سلطاننا لنحيي معروفاً ونهلك باطلاً بل لننعم في حياتنا ونعتز في سلطاننا.

أما أن نمعن في ملكوت الإمام علي عليه السلام ونفوز معه في عرفانه لنتعرف على عالم هو أسمى عوالم الحق في معالم الإنسانية، فنتصل من وراء ذلك بقدس الله الذي وقف علي بين يديه وهو يقول: ((إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك

ولا طمعاً في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك))(١) أما أن نمعن في الملكوت الذي يهيمن عليه علي أو يهيمن هو على علي وأن نتصل بما اتصل به هو من وراء عرفان ربه فذلك لم نعمل له ولم نعبأ به حتى كان همنا كله هو أن نشبع هذه الغرائز البهيمية التي تسيطر على جوارحنا وتملك علينا أن نفعل أو نفكر في غير طعامنا وشرابنا ونومنا ونكاحنا، فنحن أبداً في شغل من المادة تشغلنا لنشبع نهمنا دون أن نذكر أنا مخلوقون من مادة وروح وأن المادة إنما كانت لتكون وسيلة لغذاء الروح وأنها مقدمة لا نتيجة ووسيلة لا غاية.

من منا يقف بين يدي ربه موقف الإمام ثم يبكي بكاءه وينشج نشيجه؟ لا أحد يفعل ذلك لأنا لم نتخذه إماماً حقاً وإنما ندعيه ادعاءً ذلك لأنه حين قال ((من أحبنا فليعمل عملنا)) إنما يعني أناساً سيتشيعون له وينحتون من أثلته سيتشدقون في كل زمان ومكان بأنهم شيعة علي وأتباعه وأنهم يسيرون على نهجه وينشدون خطاه وأنهم بذلك هم الفرقة الناجية وهم راكبو السفينة التي من تخلف عنها هوى، هؤلاء الذين يدعون ذلك هم أبعد عن الإمام ممن ناصب الإمام العداء، وهم أقرب إلى التنطع منهم إلى التشيع، فمن هو هذا الشيعي الذي يحتكر الجنة لتشيعه وهو يعبد اللّه في جهة وإمامه في جهة أخرى.

---

(١) بحار الأنوار ٤١: ١٤، ح٤، مستدرك سفينة البحار ٧: ٥٧، ومنازل الآخرة: ٣١ ونحوه في شرح مئة كلمة: ٢١٩.

يعبد الإمام ربه لأنه أهل للعبادة، ونعبد نحن شيعة الإمام اللّه لأنه يطعمنا ويسقينا ويدخر لنا جنة عرضها السموات والأرض وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

أرأيت الأب الصالح وهو يستدرج أبناءه لطاعته والأخذ بنصائحه، فالبعض يخضع له من وراء بر الأب به وإغداق النعم عليه، والبعض الأخر يخشع له ويطيعه لأنه مصدر وجوده وعنوان حياته، أرأيت هذا الأب كيف يميز بين أبناءه ولمن يهب قلبه ويقف عليه عقله وتفكيره؟ أهذا الذي يرى أباه مصدر بره واحترامه، أم لذلك الذي يبيعه البر بالبر والعون بالعون؟!

إن من عبد اللّه لأنه أهل للعبادة كان حكيماً بقطع النظر عن ثوابه وعقابه وهو لا يكون إلا من الأفراد. ألا ترى الكثير من الناس يصلي ويصوم وقلبه متعلق بالمادة، يضحي من أجلها بكل شيء حتى بدينه وعلى هذا يقول ابن سعد:

أأترك ملك الري والري منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين(١)

ويقول الأخر:

املأ ركابي فضة أو ذهبا إني قتلت السيد المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا(٢)

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ٢٤٨، الفصل الحادي عشر، في خروج الحسين من مكة إلى العراق.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ١٢٨ باختلاف يسير، وفي مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٤٠.

معارف سورة الفاتحة(٥)

قوله تعالى:

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[١].

الهداية في اللغة: الإرشاد والدلالة على الشيء. يقال لمن يتقدم القوم ويدلهم على الطريق هاد خرِّيت أي: دال مرشد. قال طرفة:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقَه قدمُه

والهداية: التوفيق. قال:

فلا تعجلَنْ هداكَ المليك فإن لكلٍّ مقام مقالا

أي: وفقك.

والصراط: الطريق المحسوس الواضح المتسع. وفيه قراءتان بالسين والصاد، والسين هي الأصل. وسمي بذلك لأنه يسرط المارة أي: يبتلعها.

والمستقيم: المعتدل المستوي الذي لا اعوجاج فيه. وهو صفة للصراط، والمراد بالصفة والموصوف هنا الحق. قال جرير:

أميرُ المؤمنين على صراطٍ إذا اعوجَّ الموارد مستقيم[٢]

وليس المراد بالهداية هو مجرد العلم بل العلم مع التوفيق إلى العمل

---

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) مجمع البيان ١: ٦٥، في تفسير سورة الحمد، آية: ٦.

فمن دعا لك بالهداية فقد دعا لك بالخير كل الخير، ومن دعا لك بالعلم فقد دعا لك ببعض الخير.

والغريب أن الكثير من الناس يثقل عليهم الدعاء بالهداية بخاصة العلماء والكبراء مع العلم بأن الرسول الأعظم ﷺ كان يكرر الدعاء بها ليل نهار في صلواته وغيرها.

ولست أعرف هداية وتوفيقاً أفضل وأعظم من أن يكتشف الإنسان عيوب نفسه بنفسه، ويشعر بالتأنيب ووخز الضمير من أجلها، وبهذا الشعور يمكن النجاة والخلاص أعاذنا اللّٰه من الغرور وأسوائه (١).

معاني الهداية:

وقد قيل: معنى اهدنا وجوه:

أحدها: أن معناه ثَبِّتْنا على الدين الحق لأن اللّٰه قد هدى الناس كلهم إلا أن الإنسان قد يزل وترد عليه الخواطر الفاسدة فيحسن أن يسأل اللّٰه تعالى أن يثبته على دينه ويديمه عليه ويعطيه زيادات الهدى التي هي إحدى أسباب الثبات على الدين كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (٢) وهذا كما يقول القائل لغيره: وهو يأكل: كل أي: دُم على الأكل.

وثانيها: أن المراد بالهداية هي الثواب لقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (٣) فصار معناه: اهدنا إلى طريق الجنة ثواباً لنا. ويؤيده قوله تعالى:

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٣٥.

(٢) محمد: ١٧.

(٣) يونس: ٩.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾(١).

وثالثها: أن المراد: دلنا على الدين الحق في مستقبل العمر كما دللتنا عليه في الماضي. ويجوز الدعاء بالشيء الذي يكون حاصلاً كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾(٢) وقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾(٣) وذلك أن الدعاء عبادة وفيه إظهار الانقطاع إلى الله.

فإن قيل: ما معنى المسألة في ذلك وقد فعله الله؟

فجوابه: يجوز أن يكون لنا في الدعاء به مصلحة في ديننا وهو كما تعبدنا بأن نكرر التسبيح والتحميد والإقرار لربنا عز اسمه بالتوحيد وإن كنا معتقدين لجميع ذلك. ويجوز أن يكون الله تعالى أن أشياء كثيرة تكون أصلح لنا إذا سألناه وإذا لم نسأله لا تكون مصلحة فيكون ذلك وجهاً في حسن المسألة(٤).

معاني الصراط:

وقيل في معنى الصراط المستقيم وجوه:

أحدها: أنه كتاب الله وهو المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن علي عليه السلام.

وثانيها: الإسلام وهو المروي عن جابر وابن عباس.

---

(١) الأعراف: ٤٣.

(٢) الأنبياء: ١١٢.

(٣) الشعراء: ٨٧.

(٤) مجمع البيان ١: ٦٦.

وثالثها: أنه دين اللّٰه الذي لا يقبل من العباد غيره عن محمد بن الحنفية.

والرابع: أنه النبي ﷺ والأئمة القائمون مقامه وهو المروي في أخبار علماء أهل البيت.

والأولى حمل الآية على العموم حتى يدخل جميع ذلك فيه لأن الصراط المستقيم هو الدين الذي أمر اللّٰه به من التوحيد والعدل وولاية من أوجب اللّٰه طاعته وهو الرسول وأهل البيت(١).

الهداية في اتباع أهل البيت:

يقول المرحوم الحاج منصور الجشي في قصيدة طويلة:

هم الصراط المستقيم الذي   من حاد عنه بئس ما أمّلا

فهم الصراط، وهم باب حطة، وهم السفينة التي من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى. وشيعتهم في الحشر أكرم شيعة. فمن والاهم والى اللّٰه ومن عاداهم عادى اللّٰه، وموالاتهم هي اتباعهم ((من أحبنا فليعمل بعملنا))(٢) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: فموالوهم ومتبعوهم والعاملون كعملهم هم الذين ورد في حقهم: لم يمش فوق الأرض بعد النبيين والمرسلين أفضل منهم، أول من تغشاهم الرحمة، وتستغفر لهم الملائكة.

ومن أكبر علاماتهم خصلتان. يقول الإمام الصادق: ((امتحنوا شيعتنا

---

(١) مجمع البيان ١: ٦٦.

(٢) بحار الأنوار ٦٧: ٣٠٦ ب(٥٧) الورع واجتناب المحارم، ح٣٠.

عـند مواقيـت الصـلوات كـيف محافظـتهم علـيها......، وإلى أموالهـم كـيف مواساتهم لإخوانهم فيها))(١).

وهاتـان الخصـلتان توجدان الآن في القليل من الشيعة، أما المحافظة على الصلاة في أوقاتها لا تجدها إلا من رجل لا عمل لـه أما إذا كان لـه عمل فإنه يحافظ على صلاته قليلاً، فكأنما أصبح الدين للعاطلين، للأعمى والعاجز، أما أصـحاب الأعمـال وأصـحاب المتاجر الكبار لا يهمهم الصلاة ولا أوقاتها إلا من هدى اللّٰه منهم.

وأمـا مواساة الإخوان فهي غير موجودة، أصبحنا كأصحاب القبور كلنا وحيد فهل يعرف المؤمن عن أخيه المؤمن شيئاً أم يعرف الجار عنه جاره شيئاً.

ويقول الصادق: ((شيعتنا يعرفون بثلاث: بالسخاء))(٢) ومعنى السخي أن لا يـبات وللّـه قـبله حـق يطالبه به. وهذا لا يوجد إلا في النزر اليسير ممن يحاسب نفسه. والحديث مشجون.

تقـول رسـائل العلماء: من صلى في ثوب وفي قيمته درهم من خمس أو زكـاة فصـلاته باطلـة(٣). ومـن اشـترى أرضـاً أو بيـتاً وفي قيمـته حق شرعي فالصلاة فيه باطلة.

فـيعرفون بالسـخاء وبذل المال للإخوان وأن يصلوا إحدى وخمسين ليلاً

(١) بحار الأنوار ٦٥: ١٤٩ ب (١٩)، ح١.

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٢٨١ ب(٢٤) وصايا الصادق عليه السلام.

(٣) منهاج الصالحين ١: ١٣٧ في لباس المصلي مسألة (٥٢١).

نهاراً.

وصلاة إحدى وخمسين هي الرواتب، النوافل مع الواجب من الصلاة، فالرواتب ثمان للظهر قبلها، وثمان للعصر قبلها، وأربع ركعات نافلة المغرب، وركعتان من جلوس بعد العشاء تسمى الوتيرة تعدان ركعة وثمان ركعات صلاة الليل وركعتي الشفع وركعة الوتر وركعتي الفجر، المجموع أربع وثلاثون ركعة، وإذا أضيفت لها الصلاة الواجبة سبع عشرة ركعة فيكون المجموع إحدى وخمسين ركعة(١).

بشارة الشيعة:

فأهل هذه الصفات هم الذين قال فيهم الإمام أمير المؤمنين لغلامه قنبر: ((يا قنبر أبشر وبشر واستبشر، والله لقد قبض رسول الله وهو ساخط على جميع أمته إلا الشيعة، وإن لكل شيء شرفاً وإن شرف الدين الشيعة ألا وإن لكل شيء عروة وعروة الدين الشيعة، ألا وإن لكل شيء إماماً وإمام الأرض أرض يسكن فيها الشيعة ألا وإن لكل شيء سيد وسيد المجالس مجالس الشيعة))(٢).

يشير عليه السلام إلى مجالس الذكر، مجالس العلماء الذين يكون النظر إليهم عبادة، علماء الدين الذين إذا جلست معهم ذكروك الآخرة، أما من يذكر بالدنيا فالنظر إلى وجهه فتنة.

---

(١) منهاج الصالحين ١: ١٣٠، المقصد الأول، أعداد الفرائض ونوافلها ومواقيتها.

(٢) بحار الأنوار ٧: ٢٠٤ باب أحوال المتقين والمجرمين في القيامة، ح٩٠.

ومن المؤسف أن الزمان قد تبدل وأصبحت مجالس الشيعة هي شر المجالس، أصبحت مجالس لهو وغناء ورقص وأفلام وأشياء محرمة.

((ألا وإن لكل شيء إمام وإمام الأرض أرض يسكن فيها الشيعة. ألا وإن لكل شيء شهوة وإن شهوة الدنيا سكنى شيعتنا فيها، والله لو أن ما في الأرض منكم ما استكمل أهل خلافكم طيبيات رزقهم وما لهم في الآخرة من نصيب، كل ناصب وإن تعبد واجتهد منسوب لهذه الآية: ﴿وجوه يومئذ خاشعة * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[1] كل ناصب مجتهد فعمله هباءً. شيعتنا ينظرون بنور الله ومن خالفهم ينقلب بسخط الله. إلى أن قال: والله إن حاجكم ومعتمركم لخاص الله تبارك وتعالى وإنكم، جميعاً لأهل دعوة الله وأهل إجابتهم وأهل ولايته لا خوف عليكم ولا حزن، كلكم في الجنة، فتنافسوا في فضائل الدرجات[2]، ((ورب أشعث أغبر ذي طمرين مدقّع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))[3].

فلك أيها المحب والشيعي مقامات كريمة ودرجات رفيعة فاعرف قدرك.

قال الحكم بن عتيبة: بينا أنا مع أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام والبيت

---

(١) الغاشية: ٣ ـ ٧.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٥٥٠ في تفسير سورة الغاشية، آية: ٢ ـ ٥، ومثله في بحار الأنوار ٧: ٢٠٤، ذيل ح٩٠.

(٣) بحار الأنوار ٧٢: ١٤٣ ب (٥٦) من أذل مؤمناً أو أهانه، ح٧، نقلاً عن أمالي الطوسي.

غاص بأهله إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزه حتى وقف على باب البيت فقال: السلام عليك يا بن رسول اللّه ورحمة اللّه وبركاته، ثم سكت، فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته، ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً وردوا، ثم أقبل بوجهه على أبي جعفر عليه السلام ثم قال: يا بن رسول اللّه صلى الله عليه وآله ادنني منك جعلني اللّه فداك، فواللّه إني لأحبكم وأحب من يحبكم واللّه ما أحبكم وأحب من يحبكم في دنيا، وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، وواللّه ما ابغضه وأتبرأ منه لوترٍ كان بيني وبينه، واللّه إني لأحل حلالكم وأحرم حرامكم وأنتظر أمركم، فهل ترجو إلي جعلني اللّه فداك؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: إليَّ إليَّ حتى أقعد إلى جنبه ثم قال أيها الشيخ إن أبي علي بن الحسين عليه السلام أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه، فقال له: أبي إن تمت ترد على رسول اللّه وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ويثلج قلبك ويبرد فؤادك وتقر عينك وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين، لو قد بلغت نفسك هاهنا، وأهوى بيده إلى حلقه، وإن تعش تر ما يقر اللّه به عينك فتكون معنا في السنام الأعلى.

فقال الشيخ: كيف؟ قلت: يا أبا جعفر، فأعاد عليه الكلام فقال الشيخ: اللّه أكبر، إن أنا مت أرد على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، وتقر عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين، لو قد بلغت نفسي هاهنا وإن أعش أرَ ما يقر اللّه به عيني فأكون معكم في السنام الأعلى.

ثم أقبل الشيخ ينتحب وينشج آهاً آهاً آهاً حتى لصق بالأرض وأقبل أهل البيت ينتحبون وينشجون لما يرون من حال الشيخ، فأقبل أبو جعفر عليه السلام يمسح بإصبعه الدموع من حماليق عينيه وينفضهما، ثم رفع الشيخ رأسه فقال لأبي جعفر: يا بن رسول الله ناولني يدك جعلني الله فداك فناوله يده فقبلها ووضعها على عينه، ثم قال: السلام عليكم. وأقبل أبو جعفر ينظر في قفاه وهو مدبر ثم أقبل بوجهه على القوم فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.

قال الحكم بن عتيبة: فلم أرَ مأتماً قط يشبه ذلك المجلس. فهكذا الشيعة المخلصون.

وقال الصادق عليه السلام: خرجت أنا وأبي ذات يوم إلى المسجد فإذا هو بأناس من أصحابه بين القبر والمنبر قال: فدنا منهم وسلم عليهم، وقال: والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم، فأعينونا على ذلك بورع واجتهاد، واعلموا أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع والاجتهاد، ومن ائتم منكم بقوم فليعمل بعملهم أنتم شيعة الله وأنتم أنصار الله(١).

ويقول الصادق عليه السلام أيضاً لبعض شيعته: إني والله لأحبُّ رياحكم وأرواحكم فاعينوني بورع واجتهاد، قد ضمنا لكم الجنة بضمان الله عزّ وجلّ، وضمان رسول الله صلى الله عليه وآله والله ما على درجة الجنة أكثر أرواحاً منكم

---

(١) بحار الأنوار ٦٥: ٦٥ ب (١٥) فضائل الشيعة، ح١١٨، نقلاً عن صفات الشيعة ومثله في ص ٨٠ نقلاً عن الكافي.

فتنافسوا في فضائل الدرجات، أنتم الطيبون ونساؤكم الطيبات[١].

نعم سادتي من أتاكم وأطاع أمركم فقد نجا، ومن لم يأتكم فقد هلك، بكم يسلك إلى الرضوان وعلى من جحد ولايتكم غضب الرحمن.

ممن أتاهم وتمسك بهم وطلب منهم الجنة والفوز بالكرامة رجل من أهل الكوفة وقصته كما في المناقب لابن شهرآشوب: أقبل إلى الصادق عليه السلام رجل من أهل الكوفة وهو شاب من الشيعة فلما دخل وسلم وجلس قال: يا بن رسول اللّه جعلت فداك، إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه، فقال أبو عبداللّه عليه السلام: لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلا وقع في أيديهم، فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي من مخرج منه؟ فقال عليه السلام: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل. قال اخرج من جميع ما كسبت في دواوينهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ومن لم تعرف تصدقت به وأنا أضمن لك على اللّه الجنة، قال: فأطرق الفتى طويلاً فقال قد فعلت جعلت فداك. قال ابن أبي حمزة فرجع الفتى إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنة.

قال: فقسمنا له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا له بنفقة. قال: فما أتى عليه

---

(١) بحار الأنوار ٦٥: ٨٠ ب (١٥) فضائل الشيعة، ح١٤١ نقلاً عن الكافي، ونور الأبصار: ٣٤، في أحوال الصادق عليه السلام.

أشهر قلائل إلا شهر حتى مرض فكنا نعوده، قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السياق ففتح عينيه ثم قال يا علي وفى واللّه صاحبك، قال: ثم مات فولينا أمره فخرجت فدخلت على أبي عبداللّه فلما نظر إليّ قال: يا علي وفينا لصاحبك، قال: فقلت: صدقت جعلت فداك هكذا قال لي والله عند موته(١).

ضمن الجنة لهذا الشاب فأعطاه ووفى بما عهد، وأراد ما وعد، وهو الصادق لما وعد، والموفي لما عاهد. وضمن الجنة لرجل آخر من شيعته فوفى بما ضمن، وذلك أن رجلاً كان من محبي أهل البيت من ملوك أهل الجبل، وكان له كثير مال، ويحج في كل سنة وينزل في دار الصادق، وكان ينزله أبو عبداللّه في دار من دوره في المدينة، وطال حجه ونزوله فأعطى أبا عبداللّه عشرة آلاف درهم ليشتري له داراً، وخرج إلى الحج فلما انصرف الرجل قال: جعلت فداك اشتريت لي الدار؟ قال: نعم، قال: أين الصك؟ فأتى عليه السلام بصك فيه بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما اشترى جعفر بن محمد عليه السلام لفلان ابن فلان الجبلي له داراً في الفردوس محدود أربعة حدها الأول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم والحد الثاني أمير المؤمنين عليه السلام والحد الثالث الحسن بن علي عليه السلام والحد الرابع الحسين بن علي عليه السلام.

فلما قرأ الرجل ذلك قال: قد رضيت جعلني اللّه فداك، فقال: إني أخذت ذلك المال ففرقته في ولد الحسن والحسين عليهما السلام، وأرجو أن يتقبل اللّه ذلك ويثيبك به الجنة، قال: فانصرف الرجل إلى منزله وكان الصك معه، ثم

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ١: ٣٦٥ ـ ٣٦٦ في خرق العادات له عليه السلام.

اعتل علة الموت فلما حضرته الوفاة جمع أهل بيته وحلفهم أن يجعلوا الصك معه ففعلوا ذلك، فلما أصبح القوم غدوا إلى قبره فوجدوا الصك على ظهر القبر مكتوب عليه: وفى ولي اللّه جعفر بن محمد (١).

طوبى لمن يعمل في دنياه ويشتّري مثل هذه الدار الأخروية.

فما ضمن الإمام شيئاً إلا وفى به وليس من الممكن أنْ يعد الإمام ويضمن شيئاً لا يستطيع أن يحققه على شريطة أن لا يختلف المضمون له. فهم الموفون بوعودهم وعهودهم، فيرى من ضمن له ما ضمنه الإمام وأوعده به عياناً.

جاء الأكبر يطلب من أبيه الحسين شربة ماء ولو من طريق المعجز، فقال له الحسين عليه السلام: يا بني: عزٌ على محمد وعلى علي وعلى أبيك أن تدعوهم فلا يجيبونك وتستغيث بهم فلا يغيثوك... خذ هذا الخاتم في فيك وارجع الىقتال عدوك فإني أرجو أن لا تمسي حتى يسقيك جدك المصطفى بكأسه الأوفى، فمضى الأكبر مطمئناً بوعد أبيه فما كان إلا قليلاً وإذا بصوت الأكبر: يا أبتاه هذا جدي رسول الله صلى الله عليه وآله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً (٢).

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٥٩ في استجابة دعواته عليه السلام.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣١، في مقتل الحسين عليه السلام.

معارف سورة الفاتحة (٦)

قوله تعالى:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾.

اللغـــــة:

معنى الآية بيان الصراط المستقيم أي: صراط من أنعمت عليهم بطاعتك وهم الذين ذكرهم اللَّه تعالى في قوله: ﴿مَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾(١).

وأصل النعمة: المبالغة والزيادة. وهذه النعمة وإن لم تكن مذكورة في اللفظ فالكلام يدل عليها لأنه لما قال: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ بيّن أن هذا صراط من أنعم عليهم.

وأراد بـ(المغضوب عليهم) اليهود عند جميع المفسرين الخاص والعام، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾(٢) وهؤلاء هم اليهود بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) المائدة: ٦٠.

اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(١).

وأراد (بالضالين): النصارى بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾(٢).

وقال الحسن البصري: إن الله تعالى لم يبرئ اليهود من الضلالة بإضافة الضلالة إلى النصارى، ولم يبرئ النصارى من الغضب بإضافة الغضب إلى اليهود، بل كل واحدة من الطائفتين مغضوب عليهم وهم ضالون إلا أن الله تعالى يخص كل فريق بسمة يعرف بها.

وهؤلاء المغضوب عليهم والضالون يرى كل فريق منهم أن الجنة له ويعتقد أنه ناجٍ وغيره هالك.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٤).

وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى.

---

(١) البقرة: ٦٥.

(٢) المائدة: ٧٧.

(٣) البقرة: ١١١.

(٤) البقرة: ١١٣.

المـعـنى:

قال صاحب مجمع البيان: وهذا إيجاز، وتقدير الكلام: قالت اليهود: لن يدخـل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً(١).

وإنمـا قلـنا هـذا الكـلام مقدر هذا التقدير لأن من المعلوم أن اليهود لا يشـهدون للنصـارى بالجـنة ولا النصـارى يشهدون بذلك لليهود، فعلمنا أنه أدرج الخـبر عـنهما للإيجـاز مـن غـير إخلال بشيء من المعنى فإن شهرة الحال تغني عن البيان المفصل(٢).

ويظهـر مـن هـذه الآيـة الكـريمة أن الـيهود والنصـارى يؤمنون بنظرية الاحـتكار مـنذ القديم وأنها عندهم تشمل نعيم الدنيا والآخرة. وأيضاً يظهر أن احـتكار الجنة مختص برجال الدين وعلى هذا الأساس كانت الكنيسة تبيع صـكوك الغفـران للعصـاة والآثمـين بعد أن تقبض الثمن، وقد كسبت بذلك أموالاً طائلة ولكن على حساب تشجيع الجرائم وانتشار الفساد.

وممـا كانـت تكتبه الكنيسة للعاصي في صك الغفران أنه يغلق أمامك ـ الخطاب للعاصي ـ الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى العذاب والعقاب، ويفتح الـباب الـذي يـؤدي إلى فردوس الفرح، وإن عمرت سنين طويلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن وروح القدس.

---

(١) مجمع البيان ١: ٣٤٩، في تفسير سورة البقرة، آية: ١١١.

(٢) على ضوء القرآن: ٢٠٧.

ولقد بلغت الحالة أن البابوات في عهد أدريان الرابع سنة ألف ومائة وأربعة وخمسين ادعوا أنهم نواب الله على الأرض فتحكموا بهذه الخرافة في ضمائر الناس وأموالهم ورقابهم فجعلوا يبيعون الجنة بأثمان غالية، وقد ازدحم الناس على الشراء حتى أن بعض اليهود اضطر إلى أن يقابل هذه الخرافة بخرافة أخرى فأتى إلى البابا وقال له: بعني جهنم فباعها بثمن بخس لأنها غير مرغوب فيها، فلما تم شراؤها أعلن اليهودي إلى جميع المسيحيين أن لا يشتري أحد من الجنة لأني قد اشتريت جهنم وسوف لا أدخل أحد منكم فيها. فندم الباب فاضطر أن يبعث إلى اليهودي ويسترجع منه جهنم بثمن عظيم(١).

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع أماني لأنها كثيرة منها أمنيتهم أن يرجع المسلمون كفاراً، ومنها أن يُعاقب أعداؤهم، ومنها أن الجنة لهم وحدهم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢) كل دعوى تحتاج إلى دليل وأيضاً كل دليل نظري يحتاج إلى دليل حتى ينتهي إلى أصل عام يثبت بالبديهة والوجدان، ومعنى ثبوته كذلك أن يتفق على صحته العقلاء ولا يختلف فيه اثنان اللّهم إلا إذا كانت الدعوى بديهية على أن الدعوى البديهية لا يسمى القابل بها مدعياً لأن الدعوى مأخوذ من مفهومها الافتقار إلى الدليل أما القضية الواضحة فدليلها بذاتها معها وملازم لها لا ينفك منها وإلا لم تكن بديهية. واختصاراً لا يسوغ أن تقول أين الدليل لمن قال: العشرة أكثر من

---

(١) مجمع البيان ١: ٣٤٩ تفسير سورة البقرة، آية: ١١١.

(٢) البقرة: ١١١.

الواحد مثلاً.

وجاء في تفسير المنار عند ذكر الآية ما يتلخص بأن السلف الصالح من المسلمين كانوا يسيرون على هذا الأصل فيقيمون الدليل على ما يقولون ويطلبونه من الناس على ما يدعون، ولكن الخلف الطالح ـ على حد تعبير صاحب المنارـ عكسوا الآية فأوجبوا التقليد وحرموا الاستدلال إلا على صحة التقليد فقط، ومنعوا العمل بقول اللّٰه ورسوله وأوجبوا العمل بقال فلان وقال علان كما عبر صاحب تفسير المنار.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾(١) هذا تكذيب لدعواهم بأن الجنة لهم وحدهم دون الناس أجمعين.

والمراد بالوجه في الآية النفس والذات. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(٢)

والمعنى أن كل من آمن باللّٰه مخلصاً له في أعماله لا يشوبه شرك ولا رياء فهو من المكرمين عند اللّٰه، ولأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فإشارة إلى أن التقرب إلى اللّٰه إنما يكون بالعمل الصالح لا بالأعمال القبيحة الضارة لأن اللّٰه لا يطاع من حيث يعصى.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ

---

(١) البقرة: ١١٢.

(٢) القصص: ٨٨.

الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

قال صاحب مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس: إن نصارى نجران تنازعوا مع اليهود عند رسول الله ﷺ فقال رجل من اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، فأجابه رجل من النصارى: ليست اليهود على شيء. فنزلت هذه الآية تسجل قول كل من الفريقين في حق الآخر(١).

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي أن اليهود عندهم التوراة وهي تبشر لعيسى وتعترف بنبوته، وأيضاً النصارى عندهم الإنجيل يعترف بموسى وتوراته. وعلى هذا يكون اليهود والنصارى في حكم الطائفة الواحدة لأن دينهم واحد، كل من التوراة والإنجيل جزء متمم للآخر ومع ذلك فقد كفر بعضهم ببعض. وأيضاً المسلمون يكفر بعضهم بعضاً.

وإذا كان اليهود والنصارى بحكم الطائفة الواحدة لأن التوراة تعترف بعيسى، والإنجيل يعترف بموسى، فبالأولى أن تكون السنة والشيعة طائفة واحدة حقيقة وواقعاً لأن كتابهم واحد وهو القرآن لا قرآنان، ونبيهم واحد وهو محمد ﷺ لا محمدان فكيف إذن كفّر بعض من الفريقين إخوانهم في الدين.

ولو نظرنا إلى هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ لو نظرنا إليها بهذا المعنى الذي بيناه واتفق عليه جميع المفسرين ثم قسنا من يرمي

---

(١) مجمع البيان ١: ٣٥٢.

بالكفر أخاه المسلم، لو نظرنا إلى الآية وقسنا هذا بمقياسها لكان أسوأ حالاً ألف مرة من اليهود والنصارى. لقد كفّر اليهود النصارى وكفّر النصارى اليهود وهم يتلون الكتاب أي التوراة والإنجيل، فكيف بالمسلم يكفر أخاه المسلم وهو يتلو القرآن فليتقِ اللّٰه الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، وقلوبهم عمي عن معانيه ومراميه[١].

ورحم اللّٰه السيد عبدالحسين شرف الدين، يقال أتاه رجل قال: إني أحب أن أكون شيعياً، قال له: لا فرق بين الشيعي والسني، فلما ألحّ عليه قال: قل أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمداً رسول اللّٰه، فقالها، فقال: أنت شيعي.

فلا فرق هناك في شيء والمفروض أن كلمة لا إله إلا اللّٰه شرطها وشروطها، فهي قول باللسان وعقيدة بالجنان وعمل بالأركان. والكثير يقول لا إله إلا اللّٰه ويقضي على لا إله إلا اللّٰه يقول: لا إله إلا اللّٰه وهو لا يصلي ولا يصوم، يكذب، يشرب الخمر، يفجر بالأعراض، يكذب، يعبث.

كان بيد يزيد مخصرة مكتوب عليها لا إله إلا اللّٰه يكسر بها ثنايا الحسين ابن رسول اللّٰه ويهتف بأشياخه:

ليت أشياخي ببدر .... إلخ[٢].

---

(١) التفسير الكاشف ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ تفسير سورة البقرة، آية: ١١١ ـ ١١٣.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٥٩ في مقتل الحسين عليه السلام.

ماذا يراد بنا؟

قوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

اللغـــة:

الحسـد مذموم لأنه عبارة عن كراهية النعمة للغير وحب زوالها عنه. أما الغـبطة فغـير مذمومـة؛ لأنهـا الرغبة في أن يكون للإنسان من النعمة مثل ما لأخيه دون أن يتمنى زوالها عنه.

المـعـنى:

كـل إنسـان يـود أن يكـون الـناس كـل الـناس عـلى ديـنه. قـال أحد الفلاسفة: إن أسعد يوم عندي أن أرى من يوافقني على رأيي.

ولكـن جماعـة مـن الـيهود كـانوا يـبذلون جهوداً كبيرة لفتنة المسلمين وارتدادهم عن دينهم إلى الجاهلية الأولى، لا لشيء إلا بغياً وحسداً، مع العلم أنهـم يسـتطيعون الإسـلام كمـا فعـل غيرهـم، ولكنهم خافوا على أسواقهم

---

(١) البقرة: ١٠٩.

وأرباحهم من الخمر والميسر والدعارة.

وقد استغل اليهود انكسار المسلمين يوم أحد للدس على النبي ﷺ فقد جاء في الأخبار أنهم بعد وقعة أحد كانوا يدعون شباب المسلمين إلى بيوتهم ويقدمون لهم الخمر ويغرونهم ببناتهم كما يفعلون اليوم وفي كل يوم ثم يشككون المسلمين بالقرآن ونبوة الرسول الأعظم ﷺ.

أحس النبي ﷺ بهذا التدبير الرهيب فنهى عن مجالس اللّهو وشدد النكير على من يتعاطى الزنى والخمر والميسر ولحم الخنزير، فامتنع المسلمون عن الذهاب إلى بيوت اليهود التي فتحوها لهذه الغاية وهي المسماة اليوم (بالبار والكازينو).

﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي أن اليهود قد حاولوا إرجاع المسلمين إلى الكفر والضلال على علم منهم أن الإسلام هو الحق وأن الشرك وإنكار نبوة محمد ﷺ هو الباطل.

ولا يختص هذا باليهود فإن أكثر الناس تجحد الحق وتعانده لا لشيء إلا لأنه لا يتفق مع مطامعهم. فإن الإنسان مسير بوحي من عاطفته ومنافعه لا بوحي من دينه وعقله(١).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع))(٢).

﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي أعرضوا الآن ولا

(١) التفسير الكاشف ١: ١٧٣.

(٢) نهج البلاغة: ٥٩٠ في القصار من كلماته عليه السلام، رقم [٢١٩].

تتعرضوا لعقابهم وتأديبهم حتى يأمركم اللّه بذلك. فإن الأمور رهن بأوقاتها.

وفي كثير من التفاسير أن اللّه سبحانه أمر المسلمين بالإعراض عنهم إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١) وغير هذه الآية من آيات القتال. وقال الرازي: إن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: إن اللّه لم يأمر نبيه بالقتال حتى نزل جبرئيل بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٢) وقلده سيفاً.

وكل ما في الحياة من كفر وإلحاد وفسق وفجور وتهتك وفساد وظلم وطغيان وحروب ومشاحنات وفقر وبؤس كل ذلك وما إليه من أوباء وأدواء يرجع في النهاية إلى سبب واحد هو مخالفة الحق. ولو أنصف الناس لسعد واستراح كل الناس لا القاضي فحسب(٣).

إسلام بلا مسلمين:

سافر أحد العظماء إلى سويسرا فنزل في قطار السكة الحديدية فلم ير القوم يأخذون تذكرة بطاقة في أيديهم بل كل واحد منهم يحاسب نفسه بنفسه فيضع النقود بيده في الصندوق وليس عليه رقيب بخلاف عاداتنا. ولما دخل المدينة سأل عن القاضي أين هو ليحادثه؛ لأنه أيضاً من رجال القانون، فقالوا له: إن القاضي في الدكان يصنع الأحذية، فقال له القاضي: إن بلادنا تقل

---

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) الحج: ٣٩.

(٣) التفسير الكاشف ١: ٧٤.

القضـايا فـيها والأمـة تعرف واجبها وأنا لا أعمل إلا ثلاثة أيام في أول الشهر فـيأتي المتقاضـون يسـألونني في مـا أشكل عليهم من الأمور فأفتيهم ويقتنعون ولـيس لـي الحـق أن آخـذ راتباً في أيام لا عمل لي فيها فها أنا ذا آخذ راتب ثلاثة أيام وفي بقية الشهر أصنع وآكل من كسب يدي.

ثـم توجـه إلى فـتاة قروية قد نامت في وسط الأعشاب في البرية وحولها عشـرات مـن البقر تتبعها أينما سارت ويقمن حولها إذا نامت ويسرن وراءها إذا رجعـت إلى مـنزلها، قـال فسألتها ألا تخافين من اللصوص؟ قالت: لا أفهم معنى لصوص، فقال: سارقون، فقالت: هذه أول مرة أسمع أن الإنسان يأخذ ما لا حق له، وليس لنا علم بهذا. فتعجب مما سمعه ومما رآه.

هـذه الحكايـة وأمـثالها كـثيراً مـا تدهشـنا نحـن المسلمين وتدعو لأسفنا الشـديد أنـنا خـير أمـة أخرجـت للـناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ثم تكـون عاقبتـنا أنـنا قـوم لا نعـرف إلا القضـاء والمحامـاة، فأما تربية الوجدان وتهذيب النفوس فنحن عنها بمعزل ساكتون صامتون نائمون كما نام أصحاب الكهف سنين عدداً ولم نجد ما يوقظنا.

ولو عمل الناس بالحق وقبلوه لاستراح الناس والقاضي جميعاً.

وفي قولـه تعـالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾(١) إشارة إلى هذه الحقـيقة. أجل إن الحق لا يعدم نظيراً في كل زمان ولكنه قليل، ولو وجد الحق أنصاراً كما يجد الباطل لكان العالم في هنأ وأمان، بل لو طالب كل ذي حق به

---

(١) يونس: ٣٢.

وقام بواجبه لما رأينا للظلم والباطل عيناً ولا أثراً.

مسلمين بلا إسلام:

وقد أقام اللّه للحق دليلاً يهدي إليه ويدل عليه من الفطرة وكتاب اللّه ومن نبيه الأكرم وأهل بيته الأطهار الذين ساوى صاحب البيت بينهم وبين القرآن كما جاء في حديث الثقلين الذي رواه مسلم في صحيحه[١]، فمن عاند هذا الدليل على علم به فقد عاند اللّه ورسوله تماماً كما فعل اليهود والمشركون، وهذه العنادات لم توجد لمجرد الصدفة من غير سبب وتدبير، لأن كل شيء يخضع لأسبابه الواقعية سواء كانت ظاهرة اجتماعية كالجهل والفقر أو كان شأناً من شؤون القلب كالإيمان والكفر، ولابد أن هناك أسباباً وإلا لماذا لا يهتم الجيل الجديد بالقيم الدينية كما كانت تهتم به الأجيال السابقة، فأكثر شباب هذا الجيل قد انصرفوا عن العبادات والطقوس الدينية بل أثقل شيء على نفوسهم أن يسمعوا موعظة أو نصيحة تمت إلى الدين بسبب، حتى القيم الإنسانية كالإخاء والمساواة والسلام والتعاون والصدق والعدل لا صدى لها في نفوسهم، وإن تحدثوا عنها وعن قداستها فإنما يقدسونها بألسنتهم لا بقلوبهم وبأقوالهم لا بأفعالهم اللّهم إلا في حدود منفعتهم الشخصية.

والجواب: لقد كانت الشعوب الإسلامية العربية منها وغير العربية لا تثق بمبدأ من المبادئ ولا بقيمة من القيم إلا إذا كان مصدرها كتاب اللّه عز وجل وسنة رسوله فلا اشتراكية ولا وجودية ولا ديمقراطية ولا قومية، لا شيء

---

(١) صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣ كتاب فضائل الصحابة ب (٤) من فضائل علي بن أبي طالب، ح٣٦.

على الإطلاق إلا وحي السماء، منه تستمد أصول العقيدة وآداب السلوك، وعليه توضع مناهج التعليم، ومنه تستخرج القوانين والأحكام التي يعمل بها في دور القضاء وتراعى في الدوائر وسائر التصرفات الفردية والاجتماعية.

ومن هنا كانت تعاليم الدين واضحة في أذهان الكثير من الناس يعرفون ما يقره الشرع ويأمر به وما يرفضه وينهى عنه، وكان الذي يعيش الدين معائشه صحيحة محل ثقة الجميع وموضع أمانتهم، ومن انحرف عنه لا يأمنونه على شيء ولا يثقون به في شيء.

حرب شعواء ضد القيم:

ومعنى هذا في واقعه أن القيم الاجتماعية هي القيم الدينية بالذات فإذا ما شذ فرد منها وخرج عليها كان تماماً كمن خرج على النظام السليم والوضع القويم، ثم دارت الأيام وحدث الانقلاب الخطير بنفوذ الغرب وسيطرته على البلاد الإسلامية فاتجه أول مااتجه إلى شريعة القرآن ومحا أثرها من دور القضاء وأبدلها بالقانون الوضعي الفرنسي والإنكليزي، وألقى تعليم العقائد والأخلاق الدينية في مناهج التعليم وأفسح المجال للميسر والخمور وحانات الخمور ولكل ما من شأنه أن يشل العقيدة، فاختفت سمات القرآن والسنة النبوية من الحياة الاجتماعية، حتى اللغة العربية أصابها ما أصاب العقيدة والشريعة فكان هذا الجيل الجديد لا يهتم بعقيدة ولا خلق، وهو في الواقع نتاج للأوضاع الفاسدة التي نشأ فيها وربي عليها فمن الطبيعي أن يكون انعكاساً لها.

ومن الخطأ أن ننظر إلى الجيل مستقلاً عن مجتمعه وبيئته وحقاً ما قال

الفلاسفة: أن المعلول إظهار لعلته.

طريق الخلاص:

هذا هو الداء فما هو الدواء؟

والحق أن الجواب على هذا السؤال لا ينبغي أن ينفرد به مثقف واحد ولابد أن تمعن فيه وتتلاقى عقول كبيرة ومخلصة؛ لأن الأخلاق والعادات إذا حلت في بيئة وطال عليها الأمد تصبح حقيقة واقعة تنزع إلى البقاء والاستمرار وليس استئصالها بالشيء اليسير. إنها تعمل في عالم النفوس تماماً كما تعمل الأسباب الطبيعية في عالم الطبيعة، ويحتاج تغييرها إلى جهد وجهاد وطويل وشاق من نوع الجهد الذي بذله الرسول الأعظم ﷺ لتغيير عادات أهل الجاهلية وعقائدهم، وقد جاءت الإشارة في الأحاديث إلى ذلك، منها قال رسول الله ﷺ: ((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء))(١). إذن لن يؤوب عن غربته وتقر عيناه في عودته إلا بقائد كالنبي ﷺ وأصحاب كالمهاجرين والأنصار وليس على الله بعزيز أن يتيح الظروف ليوم يعود فيه سلطان القرآن وشريعة القرآن وأخلاق القرآن.

ولكن على المسلمين أن يعملوا جهد المستطيع ولا ينتظروا معجزة السماء. والعمل الذي يستطيعونه هو:

أولاً: أن يجعل للدين في المدارس مكاناً مرموقاً بخاصة لقراءة القرآن وحفظه وتفسيره لأنه حجر الأساس، أو إنشاء مدارس أهلية لهذه الغاية إلى

---

(١) بحار الأنوار ٥٢: ١٩١، ح٢٣.

جانب العلوم الزمنية الدارجة، وتنشئ هذه المدارس من الملايين التي تدفع باسم الحقوق الإلهية للمراجع وغيرهم ولا يعرف مورداً لها خيراً من إنفاقها لإحياء العلوم الدينية وانتشارها وتربية النشء عليها.

ثانياً: أن يؤدي كل واحد من رجال الدين مهمته بإخلاص بعد أن يؤهل نفسه لأن يكون هادياً داعياً يعرف من أين ينفذ إلى قلوب الشباب وكيف يقنعهم بأن الدين مصدر القيم التي تمنحهم حياة أفضل.

ثالثاً: أن يوضحوا الحقائق الدينية وييسروها للأفهام ويذيعوها بالخطب والكتب والمقالات والنشرات، التي تثبت للجاهل والمشكك أن الإسلام شريعته وأخلاقه تنبع من حاجات الإنسان الروحية والمادية، ويضع لمشاكله الحلول السليمة ويهدف إلى سعادته ديناً وآخرة.

حقاً لا يؤوب الدين من غربته إلا بقائد كرسول الله ﷺ ولابد من ظهور سمي رسول الله ﷺ فيملأها قسطاً وعدلاً مع أصحاب كأصحاب رسول الله ﷺ فيعود سلطان الإسلام.

يقال: رأى رجل الإمام الحجة عليه السلام بالمنام، فقال له: متى خروجك؟ فقرأ عليه السلام بيتين:

لا تسأموا طول البقاء فإنه قد آن لي بين الأنام ظهور
ودعوا خيول الظالمين بأرضكم تسري فلي في أرضهن مسير

قال محيي الدين الشهير بابن عربي حول المهدي: إن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملأها قسطاً وعدلاً، هذا الخليفة من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة، يواطئ اسمه اسم جده رسول الله، يبايع بين

الـركن والمقـام يشـبه رسول الله ﷺ في خلقه، هو أجلى الجبهة أقنى الأنف يـؤم الـناس لسـنة الله ﷺ وقال عنه جده النبي ﷺ: يقفوا أثري لا يخطئ. وهذه هي العصمة (١).

---

(١) الفتوحات المكية ٣: ٣٢٧.

الكبائر

قوله تعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾(١).

اللغــــة:

الكـبائر واحدتهـا كبيرة وهي المعصية العظيمة. ومُدخل بضم الميم من أدخل، وبفتحها من دخل، وفي الحالين هو اسم مكان والمراد به الجنة.

المــعـنى:

قَسَّـم القـرآن الكـريم الذنوب إلى قسمين كبائر وصغائر. وقد جاء هذا التقسـيم في العديد من الآيات، منها هذه الآية؛ لأن المراد من ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ في قولــه تعـالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ المـراد مـنها ما عدا الكبائر باتفاق المفسرين. والمعنى: من اجتنب كبائر الذنوب محونا عنه صغارها.

ومـنها قولــه تعـالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾(٢). ومـنها قولــه سـبحانه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

---

(١) النساء: ٣١.

(٢) النجم: ٣٢.

وَالْعِصْيَانَ﴾(١) وهي صريحة في أن المنهيات أقسام ثلاثة: الكفر وهو الجحود والإنكار، والفسوق وهو اقتراف الكبائر، والعصيان وهو الصغائر. وبهذا يتبين معنا أن قول من قال: كل الذنوب كبائر ولا صغائر فيها لأن معصية الله في شيء كبيرة مهما كان ذلك الشيء؛ أن هذا القول مخالف لظاهر القرآن، بالإضافة إلى أن الشرائع الوضعية تقسم الجريمة إلى جنحة وجناية. أجل يمكن نفي الصغائر بوجه يأتي.

ومهما يكن فإن الكتاب العزيز لم يضع حداً فاصلاً بين الكبيرة والصغيرة ولذا اختلف الفقهاء في معنى الكبيرة. فذهب جماعة إلى أن كل ما جاء في القرآن مقروناً بذكر الوعيد فهو كبيرة وما عداه صغيرة، وخير قول قول من قال: إن الذنوب جميعاً في نفسها كبائر، كما قال من نفى الصغائر من الأساس.

وإنما تقسم الذنوب إلى كبائر وصغائر بمقارنة بعضها إلى بعض. مثلاً النظر إلى الأجنبية بريبة ذنب كبير في نفسه صغير بالنسبة إلى القُبلة. وبهذه المناسبة يقال أن رجلاً من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام نزل في بيت لامرأة فكان يهواها ويحب النظر إليها، فجاء يوماً وطرق الباب ففتحته إليه فلم يتمالك دون أن وضع يده على جسمها، ثم جاء ودخل على الإمام الصادق عليه السلام والمجلس مملوء فقال له الإمام عليه السلام: يا فلان إن ولايتنا لن تنال إلا بالورع عن محارم الله(٢).

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) بصائر الدرجات ٥: ٢٤٢ ب (١١) في أن الأئمة يخبرون شيعتهم بأفعالهم وسرهم، وعنه بحار ←

والقُبلة صغيرة بالنسبة إلى الجنس. وكذا الأكل على مائدة عليها خمر كبير في نفسه صغير بالقياس إلى شرب الخمر.

وتجدر الإشارة إلى أن لذات الفاعل وسوابقه وظروفه ودوافعه تأثيراً بالغاً في جعل الذنب كبيراً وصغيراً على حد تعبير الفقهاء، وجناية أو جنحة على حد تعبير المشرعين الجدد، فعلينا قبل أن نضفي على الذنب صفة الشدة أو الضعف أن ننظر إلى الفاعل. فعل ما فعل لعدم فطنته وضعف إرادته كما لو لبس عليه غاوٍ وأثيم، أو فعله لحاجة ماسة، أو لأنه مولع بالإساءة إلى الناس كما هو شأن الكثيرين. وقد تواتر عن الرسول ﷺ أنه قال: ((إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى))(١)، ((لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار))(٢). وعن الإمام الصادق عليه السلام: ((إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا اللّه أبداً لو خلدوا فيها، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا اللّه أبداً ما بقوا فبالنيات تخلد هؤلاء وهؤلاء))(٣).

وقد عدد الإمام الصادق عليه السلام أنواع الكبائر، روي أن عمرو بن عبيد دخل على الإمام وسأله عن الكبائر في كتاب اللّه فقال عليه السلام:

الأنوار ٤٧: ٧١، ح٩ باختلاف يسير، ونحوه في الخرائج والجرائح ٢: ٦٢١، ح٢١، وعنه بحار الأنوار ٤٧: ١٠١، ح١٢٤.

(١) مصباح الشريعة: ٤، وعنه بحار الأنوار ٦٧: ٢١١، ح٣٢.

(٢) بحار الأنوار ٨٥: ٣٠ ب (٨٤) أحكام الجماعة.

(٣) بحار الأنوار ٨: ٣٤٧، ح٥ نقلاً عن علل الشرائع.

١ـ ((إن أكبر الكبائر الشرك بالله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾(١) قوله: ((ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار))(٢).

٢ـ وبعده اليأس من روح الله لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(٣).

٣ـ ثم الأمن من مكر الله لأن الله يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٤).

٤ـ ومنها عقوق الوالدين، لأن الله جعل العاق جباراً عصياً في قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾(٥).

٥ـ ومنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأنه تعالى يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾(٦).

٦ـ وقذف المحصنات لأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٧).

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) يوسف: ٨٧.

(٤) الأعراف: ٩٩.

(٥) مريم: ١٤.

(٦) النساء: ٩٣.

(٧) النور: ٢٣.

٧ـ وأكل مال اليتيم لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(١).

٨ـ والفرار من الزحف لأن اللّه يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢).

٩ـ وأكل الربا لقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(٣)، ولقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٤).

١٠ـ والسحر لأن اللّه يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾(٥).

١١ـ والزنى لأن اللّه يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾(٦).

١٢ـ واليمين الغموس وهي الكاذبة التي تغمس صاحبها في النار؛ لأن

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) الأنفال: ١٦.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

(٤) البقرة: ٢٧٩.

(٥) البقرة: ١٠٢.

(٦) الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩.

اللّه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾(١).

١٣ـ والغلول، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٢).

١٤ـ ومنع الزكاة لقوله جل وعز: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾(٣).

١٥ـ وشهادة الزور وكتمان الشهادة؛ لأن اللّه يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾(٤).

١٦ـ وشرب الخمر؛ لأن اللّه عدل بها عبادة الأوثان.

١٧ـ وترك الصلاة متعمداً أو شيئاً مما فرض اللّه عليه لأن رسول اللّه ﷺ يقول: ((من ترك الصلاة متعمداً فقد برأ من ذمة اللّه وذمة رسوله ونقض العهد))(٥).

فخرج عمرو بن عبيد وله صراخ من بكائه وهو يقول هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم يا أهل البيت.

---

(١) آل عمران: ٧٧.

(٢) آل عمران: ١٦١.

(٣) التوبة: ٣٥.

(٤) البقرة: ٢٨٣.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٣: ٤١٩ ـ ٤٢١ ب (١٧٩) معرفة الكبائر التي أوعد الله عزّ وجلّ عليها النار، ح١، وعلل الشرائع ٢: ٩٣ ب (١٣١) العلة التي من أجلها حرم الله تعالى الكبائر، وعنه بحار الأنوار ٧٦: ٦ ب (٦٨) معنى الكبيرة والصغيرة، ح٧.

وأكثر هذه الكبائر التي ذكرها الإمام موجودة اليوم في زماننا وعلى الأخص الخمر والزنى وترك الصلاة التي لم نعرف حقها،.وعرف حقها رجال من المؤمنين لم تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه وإقام الصلاة. تقول بعض زوجات الرسول ﷺ: كان النبي يحدثنا ونحدثه فإذا جاء وقت الصلاة شغل عنا كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يصلي في الحرب والسهام تمر عليه، وكان موسى بن جعفر عليه السلام يصلي في ظلمة السجون والحديد في رجليه.

الأمانة

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(١).

المعنى:

لقد تضمنت الآية وجوب تأدية الأمانة والعدل في الحكم. وقد جاء في الكتاب والسنة العديد من الآيات والروايات في الحث على حفظ الأمانة وأدائها لصاحبها براً كان أو فاجراً؛ لأنها حق له بما هو إنسان لا بما هو صالح أو طالح.

فمن القرآن هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ﴾، ومنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾(٢).

ومن الروايات: ((لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))(٣).

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) الأنفال: ٢٧.

(٣) نوادر الراوندي: ٥، بحار الأنوار ٦٩: ١٩٨، ح٢٦.

ما هي الأمانة؟

ولكن لم ينزل في الكتاب والسنة على ما نعلم تحديد لمعنى الأمانة. والذي نفهمه أن الأمانة هي الوديعة عندك لغيرك، وعليك أن تحتفظ بها وتحرص عليها وأن تردها لصاحبها عند طلبها كما هي، فإذا أمسكتها عنه أو رددتها ناقصة محرفة فأنت خائن بحكم الكتاب والسنة.

وليس من الضروري أن تكون الأمانة عيناً حسية كالمال والكتاب، فقد تكون سراً أو نصيحة أو عملاً. وأيضاً ليس من الضروري أن يكون صاحبها الذي تؤديها إليه شخصاً حقيقياً. فقد يكون الدين والعلم، بل قد تكون نفسك بالذات صاحب الأمانة. وأمانة الدين والعلم ما تعلمه من حلال الله وحرامه ومن الخير والشر، وتحقق التأدية لهذه الأمانة بأن تعمل بما تعلم.

أما أمانة نفسك عندك فأن تختار ما هو الأصلح لها في دنياها وآخرتها.

وبكلمة: إن الأمين هو الذي يؤدي ما عليه كاملاً غير منقوص سواء أكان الذي فرض هذا الواجب هو الدين أوالعلم أو الوطن أو المجتمع أو أي شيء آخر. فليست الأمانة على هذا ذوقاً وسليقة تعجبنا من الطعام أو الشراب، هذا.. لا، ذاك، ومن النساء هذه..لا، تلك، ولا وصفاً يحبب الناس بصاحبه كاللطف وخفة الروح، بل الأمانة عصب الحياة وقوامها الذي لا يستقيم شيء بدونه.

وإلى هذا المعنى أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: ((والأمانة نظاماً للأمة))(١)

(١) نهج البلاغة: ٥٩٤، في القصار من كلماته عليه السلام، رقم [٢٥٢].

أي أن الأمة لا تنتظم شؤونها إلا إذا أدى كل إنسان ما يطلب منه.

وقال عليه السلام: ((من لم يختلف سره وعلانيته، وفعله ومقالته، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة، ....، ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها، فقد أحل بنفسه الذل والخزي في الدنيا، وهو في الآخرة أذل وأخزى. وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة))[١]، يشير إلى القادة اللصوص وسوء شرهم وفظاعة خطرهم[٢].

الأمانة كلمة عامة وضدها الخيانة

إن الأمم يرجى تقدمها إذا اتصفت بفضائل الأعمال واتخذت كل الواجبات وسيلة، ومن أعظمها الأمانة، ومن لا أمانة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له لا خير فيه لنفسه ولا لعشيرته ولا يرجى منه نفع لأمته ولا لبلاده ووطنه.

فالأمانة هي الصخرة الصلدة التي تتحطم أمامها الأنانيات والادعاءات وتتلاشى دونها كل الغايات. ومن الأمانة تتولد الثقة التي هي أكبر قصد ووسيلة في بناء الأمة. ويتوقف عليها نجاح المشاريع الدينية والدنيوية وازدهار الحياة الاجتماعية وتقدم القيم الأخلاقية.

وإنما تعرف الأشياء بأضدادها على حد قول الشاعر:

---

(١) نهج البلاغة: ٤٤٦ ـ ٤٤٧ من عهده له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة، رقم العهد [٢٦].

(٢) التفسير الكاشف ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٧ في تفسير سورة البقرة، آية: ٥٨.

• وبضدها تتميز الأشياء •

فضد الأمانة الخيانة، ولا شيء أضر على الأمة وأبنائها من الخيانة فهي تنتشر في المجتمعات فتحبط أعمالها وتذهب بهيبتها وتعدم البركة من ثروتها.

خيانةُ كُلٍّ بحسبه:

والخيانة تحدث من أكثر المحيطات المسؤولة عن الرقي والعمران، فخيانة العمال إضاعتهم الوقت الذي يأخذون عليه أجرهم في غير عمل، وإهمالهم إتقان ما كلفوا به من مسؤولية أسندت إليهم. وخيانة التجار كذبُهم وغشُّهم واحتكارهم للبضائع قصد الغلاء، وتطفيفهم للكيل والوزن، وإدخالهم الأعداء لمص مصالح الوطن. وخيانة أرباب الوظائف عدم قيامهم بما عهد إليهم من إقامة العدل بين جميع أفراد الأمة على السواء. وعظم مسؤولياتهم على حسب مناصبهم، فالأمير والوزير والمدير كل يجب عليه أن يكون أميناً على أداء عمله بدون نقصان، كما أن من واجب كل مسؤول أن يكون حثيثاً في تسهيل مصالح العباد لا يعقد أمور الناس.

أما خيانة العلماء فهي أكبر من كل الخيانات ومن أعظمها نشر الأكاذيب على كتاب الله وعلى هدي رسول الله، وإظهار الخرافات والأقوال الزائفة عن الدين الإسلامي.

ولقد قال رسول الله ﷺ: ((من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)) (١).

فعلى العالم أن يكون أميناً في أداء رسالة ربه كما جاء في كتاب رب

---

(١) بحار الأنوار ٢: ١٦٠ كتاب العلم ب (٢١) آداب الرواية، ح١٠.

العالمين وأرشدنا إليه النبي الصادق الأمين ﷺ.

علماً بأن صلاح الخاصة هو صلاح العامة وفساد الخاصة فساد العامة.

سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن أحوال العامة، فقال: إنما هي من فساد الخاصة[١].

(١) ميزان الحكمة ٧: ٤٧١ ب (٣٢٠٢) فساد العامة من فساد الخاصة، ح١٥٥٩٠.

تجليات حب الله لعبده المؤمن

قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

المعنى:

من أحب اللّه يلزمه حتماً أن يحب رسوله وأهل بيته لحب النبي لهم ومن أحب الرسول يلزمه حتماً أن يحب اللّه، والتفكيك محال. قال تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٢) لأن الرسول هو لسان اللّه وبيانه والعكس صحيح، أي من نصب العداء للرسول وآله فقد نصب العداء للّه من حيث يريد أو لا يريد، فأهل الأديان الأخر الذين يدّعون الإيمان باللّه ثم ينصبون العداء لمحمد ﷺ هم من أعدى أعداء اللّه.

وإن قال قائل: إن جهلهم بنبوة محمد ﷺ عذر مبرر.

فالجواب: لا عذر إطلاقاً لمن اتبع هواه وقلد آباءه إلا بعد التثبت والنظر إلى جميع الدلائل على نبوة محمد ﷺ، وما نظر عارف إلى هذه الدلائل نظرة عدل وإنصاف إلا آمن وأذعن(٣).

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) التفسير الكاشف ١: ٤٥ ـ ٤٦.

١ـ يودع حبه القلوب:

ولا معنى لحب الصغير للكبير والعبد للسيد إلا الطاعة والمتابعة. وكل من أحب ما أبغض اللّٰه ورسوله وأبغض ما أحب اللّٰه ورسوله فهو عدو اللّٰه ورسوله وإن خيل له أنه من المحبين، لأن ما يظن أنه حب دون أن يبرز له أثر ملموس فهو مجرد وهم وخيال. وكل من أحب ما أحب اللّٰه ورسوله فقد أطاعهما وإذا أطاعهما أحبه اللّٰه وإذا أحبه اللّٰه حببه إلى الناس[١].

يقول الرسول ﷺ: ((إذا أبغض اللّٰه عبداً حببه إلى الناس))[٢].

كيف يحبب اللّٰه الإنسان ومتى يحبه؟ وهل العبد بروحه وبدنه مناط حب اللّٰه أم العمل الصادر من هذه الشخصية هو مبعث الحب؟ فإذا أحب اللّٰه عبداً لحسن عمله سخر له قلوب الناس لتتم محبته على الخلق بأن أحب خلقه إليه عزيز عليه ولن يكون عزيزاً عليه ما لم يكن موفور الكرامة بين عباده وبهذا يتقوم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] فليست العزة بقوة الجسم ولا جاه المنصب ولا كثرة المال فقد نجد ضخامة الجسم رهناً بالخور، كما نجد وفرة المال رهناً بالخسة، وسمو المنصب رهناً

---

(١) معاني الأخبار: ٣٨٢، وعنه بحار الأنوار ٦٨: ٣٧١، ح٢.

(٢) ورد في كنز العمال ١١: ٩٤، ح٣٠٧٦١ إذا أحب الله عزّ وجلّ عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبّه! فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه! فيحبه أهل السماء! ثم يوضع له القبول في الأرض.

(٣) المنافقون: ٨.

بالانحدار، ولكن الإيمان وحده الذي هو مصدر العزة لا يقوى على كسره قوي في ماله وسلطانه، هذا هو الإيمان الذي يحبب المرء إلى ربه، وهو الذي يعنيه اللّه بقوله في الحديث القدسي: ((لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها))(١).

٢. يخضع له عالم الطبيعة بإذنه:

وإذا بلغ العبد من ربه منزلة كهذه فكيف لا تستجيب له العزة وكيف لا يستسلم له سلطان الحق، ثم لا يخضع له الوجود.. ألم يحرز عند ربه المكانة التي بلغ بها رضاه، وإذا بلغ رضاه ألم يكن مطيعاً له، ثم إذا كان كذلك ألم يكن مصداق الحديث القدسي: ((يا ابن ادم... أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت يا ابن أم أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون))(٢). فأي عزة ينشدها المرء هي هذه العزة.

يقول ثابت البناني: كنت حاجاً مع جماعة عباد البصرة مثل أيوب السجستاني وصالح المري وعتبة العلام وحبيب القادسي ومالك بن دينار فلما دخلنا مكة رأينا الماء ضيقاً وقد اشتد بالناس العطش لقلة الغيث ففزع إلينا أهل مكة يسألوننا أن نستسقي لهم. فأتينا مكة وطفنا بها ثم سألنا اللّه

---

(١) الكافي ٢: ٣٥٣ كتاب الإيمان والكفر ب (١٤٥) من آذى المسلمين واحتقرهم، ح٧، وعنه بحار الأنوار ٧٢: ١٥٥، ح٢٥ باختلاف يسير، وج٦٧: ٢٢، ح٢١ نقلاً عن المحاسن.

(٢) بحار الأنوار ٩٠: ٣٧٦ ب (٢٤) علة الإبطاء في الإجابة، ذيل ح١٦، نقلاً عن عدة الداعي.

خاضعين متضرعين، فمنعنا الإجابة.

فيما نحن كذلك إذا نحن بفتىً قد أقبل قد أكربته أحزانه وأقلقته أشجانه فطاف بالكعبة أشواطاً ثم أقبل علينا فقال: يا مالك بن دينار ويا ثابت البناني ويا أيوب السجستاني ويا عتبة العلام ويا حبيب بن سليمان، فقلنا: لبيك وسعديك، فقال: أما فيكم أحد يحبيه الرحمن؟ فقلنا: يا فتى علينا الدعاء وعليه الإجابة، قال: أبعدوا عن الكعبة فلو كان فيكم أحد يحبه الرحمن لأجابه.

ثم أتى الكعبة فخر ساجداً فسمعته يقول في سجوده: سيدي بحبك لي إلا ما أسقيتهم الغيث. قال: فما استتم الكلام حتى أتاهم الغيث كأفواه القرب، فقلت: يا فتى من أين علمت أنه يحبك؟ قال: لو لم يحبني لم يستزرني فلما استزارني علمت أنه يحبني فسألته بحبه لي فأجابني.

ثم ولى عنا وهو يقول:

من عرف الرب فلم تغنه معرفة الرب فذاك شقي
ما ضر في الطاعة ما ناله في طاعة الرب وماذا لقي
ما يصنع العبد بغير التقى والعز كل العز للمتقي

فقلت: يا أهل مكة من هذا الفتى؟ قالوا علي بن الحسين عليه السلام(١).

وإذا أحب اللّه عبداً حببه إلى قلوب الناس، وإذا أبغض اللّه عبداً بغضه إلى قلوب الناس. وهل يكون المرء شراً إلا وهو مقيت عند اللّه؟ ثم هل

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٨١ في معجزاته عليه السلام باختلاف يسير، ونور الأبصار: ١٧٠ في معجزات السجاد عليه السلام.

يخاف الناس امرأً إلا وهو أبغض الخلق إليهم؟

أما إذا تألف الأشرار فهو من قبيل التضامن على الشر لا من قبيل التآلف على الحق، فإنك لو بحثت عن هذه الفئة من الناس فئة الشر والعبث بالإنسانية لوجدت قلوبها متنافرة تترقب الفرص ليعدو بعضها على بعض فلم يكن ليؤلف بينها إلا مصالح قاصرة على المادة الخبيثة التي تمليها عليها الأنانية والجشع حتى إذا نفذت هذه المصالح رأيتهم يتنازعون ويتقارعون على حطام دنياهم كما يتكالب الجياع من سباع الكلاب على الجيف.

فالحب الذي يؤلف بين الناس هو الحب الصادر عن الإيمان بالحق فمتى آمن امرؤ به أحبه كل مؤمن وكل كافر.

٣. يجعله محل ثقة الجميع:

أما المؤمن فلأنه شريك أخيه المؤمن في الحب المتبادل بينهما في الله. وقد جاء في الحديث: ((ما تحاب اثنان في الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما لصاحبه))(١).

وأما الكافر فيحب المؤمن لاطمئنانه إلى الحياة معه؛ إذ يأمن ضرّه وشرّه على ماله وعرضه.

لما كانت واقعة الزاب بين الأمويين والعباسيين وتقاتل الجيشان قال مروان بن محمد الحمار إلى رجل يقرب منه: ويلك ألا تخبرني صاحب جيشهم؟ قال: هو عبدالله بن علي بن العباس، قال مروان من ولد العباس هو؟ قال:

---

(١) كنز العمال ٩: ٤، ح٢٤٦٤٨، وميزان الحكمة ٢: ٢٣٣، ح٣١٨٦.

نعم، قال مروان: وددت أن علي بن أبي طالب مكانه في هذا اليوم، فقال: يا أمير أتقول هذا في علي بن أبي طالب وشجاعته التي ملأ الدنيا ذكرها؟ قال: نعم، إن علياً مع شجاعته صاحب دين وإن الدين غير الملك(١).

هكذا كانت ثقته في علي عليه السلام وهذا سر الإيمان إيمان علي بن أبي طالب وهو سر طاعة الله ومحبة الله للعبد المؤمن.

ولذا كان الناس في أي زمان يسوده الخوف من جور السلطان يفرون بأموالهم إلى من يثقون من دينهم وإيمانهم بالله، فالمؤمن إذا فقد الناس العدل فهو مستودع أموالهم ومفزع خائفهم.

والحب المتبادل بين الله وعبده يصدر عنه بلا شك هذا الحب المتبادل بين عبده المؤمن وبين خلقه.

في واقعة الحرة كان بيت السجاد مفزعاً للخائفين حتى على أعراضهم. وقد ورد أنه لما أبيحت المدينة ثلاثة أيام كان في بيت السجاد أربعمائة امرأة خائفات على عروضهن من جملتهن حرم مروان.

معنى الحب هنا:

ومعنى الحب لله أن تترك ما تريد لما يريد، وكما أن محبة الرسول صلى الله عليه وآله هي العمل بسنته. أما حب الله لعبده فإجزال الثواب له.

وجاء في الحديث: ((لأعطين الراية غداً إلى رجل ليس بفرار ـ وهو علي

(١) ثمرات الأعواد ٢: ١٦٠.

ابـن أبي طالب ـ يحبه اللّٰه ورسوله ويحب اللّٰه ورسوله))[١]، أي أن علياً يطيع اللّه واللّه يجزل له الثواب والرسول يكرمه ويقدمه.

فمعـنى الحـب الطاعـة وأن يكـون اللّٰه ورسوله أحب إليك من نفسك وأهلك ومالك.

يقـول : ((والـذي نفسـي بـيده لا يؤمـن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين))[٢].

وقـد وجـد بين المسلمين من الرجال والنساء من أحب النبي ﷺ هذا الحـب وفـدوه بـالأرواح والأولاد، فلقـد فر الناس عنه يوم أحد[٣] وثبتِ معه الإمـام علي وأبو دجانة وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت ونسيبة ابنة كعب بـن عمـر... بـن مـازن الأنصارية، وكانوا يتلقون الضرب والطعن عن رسول اللّـه ﷺ بـنحورهم[٤]. وكـان الإمـام علـي عليه السلام كـلما حملـت طائفة على الرسـول كشـفها عنه. وكانت نسيبة تخرج معه في غزواته تداوي الجرحى وكان ابـنها معها مع من كان في أحد فأراد أن ينهزم ويتراجع فقالت لـه: يا بني أين تفـر عـن اللّٰه والرسول؟ فردته، وحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سيفه وقتلت

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ٢٠ باب غزوة خيبر وفدك، ح١٥، ومثله في ح١٧.

(٢) بحار الأنوار ٢٢: ٨٧ ب (٣٧) ما جرى بينه وبين أهل الكتاب، ح٤٢.

(٣) تـاريخ الطـبري ٢: ٣٨٣ بلفظ: وفرّ عثمان بن عفان وعقبه بن عثمان وسعد بن عثمان حتى بلغـوا الجلعـب (جـبلاً بناحـية المدينة مما يلي الأعوص) فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فزعموا أن رسول الله ﷺ قال لهم: لقد ذهبتم فيها عريضة.

(٤) تاريخ الطبري ٢: ٣٩٢ باختلاف يسير.

بـه قاتلـه، فقـال لها النبي ﷺ: بارك اللّه فيك يا نسيبة، وكانت تقي الرسول بصدرها حتى أصابتها جراحات كثيرة(١).

ومـا أشبه موقف أم وهب في كربلاء بموقف نسيبة في أحد، قالت لابنها وهـب: قـم يـا بـني وانصر ابن بنت رسول اللّه، قال: أفعل يا أماه ولا أقصر. وحمل على جيش الأعداء حتى قتل منهم جماعة فرجع إلى أمه وامرأته، وقال: يا أمـاه أرضـيتِ عـني؟ فقالـت: كـلا إلا أن تقتل بين يدي الحسين، ارجع فقاتل فيكون رسول اللّه شفيعاً لك يوم القيامة، قالت زوجته امضي معي إلى الحسين أجـدد بـه عهداً، فمضت معه إلى الحسين فقالت سيدي: أريد منك شيئاً ومن وهـب شـيئاً أمـا وهـب لا ينساني من الشفاعة عند جدك، وأما أنت فإذا قتل وهب حولني إلى خيامك فإني امرأة غريبة.

ولما قتل ذهبت امرأته تمسح الدم عن وجهه فأبصرها شمر فأمر غلاماً لـه فضـربها بعمـود كـان معه على رأسها فشجها وقتلها وهي أول امرأة قتلت في معسكر الحسين عليه السلام(٢).

وكـان غلام مع أمه في كربلاء قتل أبوه في المعركة فقالت له أمه اخرج يا بـني وقـاتل بـين يـدي الحسين عليه السلام فخرج، ولما رآه الحسين عليه السلام قال: هذا شـاب قـتل أبـوه بالمعـركة ولعـل أمه تكره خروجه، فقال الغلام: أمي أمرتني بذلك فبرز وهو يقول:

---

(١) أعلام النساء ٥: ١٧٢ في ترجمة نسيبة بنت كعب الأنصارية، والإصابة ٤: ١٠٥٦.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ١٢ ـ ١٣ في مقتل الحسين عليه السلام.

أمـــيري حســـين ونعـــم الأمـــير

فقـاتل حتى قتل فأخذت أمه رأسه وقالت: أحسنت يا بني يا سرور قلبي ويا قرة عيني(١).

أرأيـت إلى هـذه الأم لا ترضـى عـن ولدها وأعز من كبدها إلا أن تراه مضـرجاً بدمائه جثة بلا رأس. ولا عجب أنه حب اللّٰه ورسوله وعترته وليس كمـثل اللّٰـه ورسوله وعترته شيء. فهذا الحب بهذا الإخلاص بهذه التضحية بهـذه الروح وحدها يستعد المؤمنون الخلص إلى ما بعد الموت، بهذا الزهد في العاجل يقضون غداً مرفوعي الرؤوس أمام جبار السموات والأرض لقد ترك أصحاب الحسين عليه‌السلام الدنيا وما فيها...

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٢١ ـ ٢٢.

إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

جاء في كتب التفسير والحديث أن قوماً من مكة أسلموا وأرادوا الهجرة إلى رسول اللّه ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم فنزلت هذه الآية؛ تحذر المؤمنين من طاعة بعض الأزواج والأولاد.

وإن سبب النزول لا يخصص دلالة العام وإنما هو فرد من أفراده؛ وعليه فكل زوجة لا تتعاون مع زوجها على ما فيه صلاح الطرفين دنياً وديناً فهي عدوة له. وأيضاً هو عدو لها إذا استنكف عن هذا التعاون معها. ونفس الشيء يقال في حق الوالد والولد والأم والأخ وكل من يفعل ما يفعله العدو فهو عدو كائناً من كان.

علماً بأن انتقال الإنسان من العزوبة إلى الحياة الزوجية أشبه بانتقاله من الدنيا إلى الآخرة، إما إلى جنة وإما إلى نار، وفي الأغلب إلى الجحيم لا إلى النعيم فإن الحياة في العصر الحاضر مع كثير من الزوجات والأولاد عذاب وجحيم، فلا الولد يرضى عن والده إلا بالخضوع والطاعة ولا الزوجة ترضى

---

(١) التغابن: ١٤.

عن زوجها إلا أن تكون هي الرجل وهو المرأة [١].

التسامح في الأسرة:

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لا فرق بين العفو والصفح والمغفرة إلا باللفظ. والقصد من الجمع بينها مجرد التأكيد والترغيب بعد أن حذر سبحانه من بعض الأزواج والأولاد لأنهم يفعلون ما يفعله العدو، وقال: إن تعفو عنهم رحمة بهم وطمعاً في إصلاحهم فإن اللّه تعالى يعاملكم بالمثل لأنه يرحم من يرحم ويغفر للذين يغفرون حيث تحسن الرحمة والمغفرة بلا ريب، وإلا فإن بعض الذنوب لا يجوز تجاهلها بحال.

وتومئ الآية إلى أن حياة الأسرة لا تستقيم إلا بالصبر والعفو عن كثير، وأنه لو حاسب كل واحد من أبنائها الآخر على كلمة يقولها أو حركة تبدر منه لساد بينهم التنازع والتخاصم وعاشوا في جحيم [٢].

وأول مثل وأصدقه في هذه الآية الكريمة ما ورد في القرآن: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [٣]، واللغة ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ أي زوجتين لنبيين عظيمين ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٣٤٣، في تفسير سورة التغابن، آية: ١٤.

(٢) التفسير الكاشف ٧: ٣٤٤، في تفسير سورة التغابن، آية: ١٤، ودين وتمدين ٣: ٢٢٤.

(٣) التحريم: ١٠.

أي بالكفر والنفاق لا بالزنى والفجور. وعداوة الزوجة لزوجها هنا واضحة جلية.

وكذلك عداوة الولد لوالده فإن مجرد عصيان ابن نوح لأبيه عداوة.

ولا فرق بين الرجل والمرأة أصلاً وطبيعة ومسؤولية، وكل منهما جزء متمم للآخر ولا غنى لأحدهما عن صاحبه، وفي الرجال الصالح والطالح وفي النساء الصالحة وغير الصالحة.

والآية بعيدة عن المقارنة بين الرجل والمرأة، وإنما ضرب اللّه مثلاً بها دون الرجل تعريضاً ببعض أمهات المؤمنين اللاتي تظاهرن على الرسول الأعظم ﷺ فقد ذكر سبحانه أن بعض نساء النبي قد تظاهرن عليه وهددهن.

ذكر هنا أن القريب من اللّه تعالى مَنْ قَرَّبته الأخلاق والأعمال حتى ولو كان أقرب الناس لأشقى الأشقياء، وأن البعيد عنه تعالى مَنْ أبعدته السيئات والآثام حتى ولو كان أقرب الناس لأتقى الأتقياء، أبداً لا محاباة ولا قرابات، لا شيء على الإطلاق يجدي في يوم القيامة إلا التقى والإخلاص.

وقد ضرب اللّه مثلاً لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط، فقد كانت الأولى تؤذي زوجها وتقول: إنه مجنون وتفشي أسراره بين المشركين. وكانت الثانية تعين الطغاة على زوجها وتدلهم على أضيافه. ومن أجل هذا وصفهما بالخيانة التي هي ضد الأمانة لا بمعنى الزنى؛ فإن المسلمين يعتقدون أنه ما زنت امرأة نبي قط(١).

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٣٦٧.

ومثل آخر في العداء الألد بين الزوجين من طرف الزوجة لا الزوج هو عداء جعدة بنت الأشعث زوجة الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام هذا وهو إمام يتصل ببيت الزهراء عليها السلام إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وهو سبطه. وقد بلغ من نفس رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه كان يعلو ظهره وهو يصلي أيام طفولته، وكان الرسول صلى الله عليه وآله لا يجيز لأحد منعه عن ركوب ظهره في الصلاة، وهو الإمام بعد أبيه، كان هدفاً لعدوان زوجته عليه حتى دست له السم في الطعام استجابة لمعاوية حين وعدها بتزويجها من يزيد، وكان ذلك سبب موت الحسن عليه السلام(١).

الحكم خاص لا عام:

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(٢) ولم يقل: إن أزواجكم؛ لأن من الأزواج من هو صالح كما أن من الأولاد من هو أصلح من آبائهم من أجل ذلك جاء عز وجل بـ((من)) التي هي في عرف النحاة للتبعيض، أي إن بعض الأزواج والأولاد عدو، لا كلهن ولا كلهم.

وفي القرآن الكريم ما يدل على ذلك ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾(٣) فقد كانت صالحة مع زوجها الفاسد. والصلاح المنسوب

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٠٢ في وفاته وزيارته عليه السلام.

(٢) التغابن: ١٤.

(٣) التحريم: ١١.

إلى زوجة فرعون قد يوجد في كثير من الزوجات ولكن تنويه القرآن بهذا الصلاح دليل على أنه من نوع قدسي يستحق الذكر في الذكر.

وهكذا نستطيع القول: في فساد امرأة نوح ولوط وإن كان هناك فساد مثله كثير في النساء الفاسدات ولكن فساداً يتمثل به الله عز وجل في أقدس رسالة حظي بها الإنسان هذا الفساد بالغ في الانحدار بلوغ ذلك الصلاح في السمو والتحليق.

وقد علل فساد المرأة وصلاحها ليدل نساءنا على الكرامة في هذه والمهانة في تلك فجعل الخيانة الزوجية سبباً في نسبة الفساد إليهما. ثم جعل سبباً في زوجة فرعون في إيمانها بالله واليوم الآخر إذ قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

وفي تفسير الطبري أن فرعون أرسل رجاله إليها وقال لهم: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن بقيت على الإيمان فألقوا الصخرة عليها، وإن رجعت فهي امرأتي. فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها فانتزع الله روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح[١].

فمن الأزواج من تكون صالحة تساعد زوجها على دينه ودنياه. قام الرسول بدعوته فساعدته خديجة وآزرته. وقام علي بدوره والزهراء إلى جانبه، وهو القائل: والله ما عصتني فاطمة ولا هانتني قط ولقد كانت تكشف الهموم والغموم عن وجهي أم الحسن والحسين.

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٣٦٨ ـ ٣٦٩، في تفسير سورة التحريم آية: ١٢.

ونهض الحسين عليه السلام فكانت أخته زينب عليها السلام إلى جانبه وهي شريكته في نهضته. قال الشاعر:

فتشاطرت هي والحسين بنهضة حكم القضاء عليهما أن يندبا
هذا بمعترك النصول وهذه في حيث معترك المكاره في السبا

بين الرياء والمداراة

قوله تعالى:

﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

اللغـــة:

الفوز: النجاة، ومفازة: اسم مكان الفوز والنجاة.

المـعـنى:

الفـرح بذاته غير محرم، ومن لا يفرح إذا أصابه خير أو نجا من شره؟ بل الفـرح مـن أجـل خير الناس يدل على صدق النية وطيب السريرة، بل ينبغي للإنسان أن يدخل الفرح والسرور على أخيه المؤمن[2].

عـن أبـي عبدالله عليه السلام: ((أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله إدخال السرور على أخيك المؤمن بما لا إثم فيه))[3]، يعني في غير معصية الله.

ويقـول الإمـام موسـى بـن جعفـر عليه السلام: ((مـن سـر مؤمـناً فبالله بدأ

---

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) التفسير الكاشف ٢: ٢٢٧، في تفسير سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٣) جـامع أحاديث الشيعة ١٥: ٥٣٥ باب ادخال السرور على المؤمن، ح١٧٢٥، وورد في الكافي ٢: ١٩٦ ب (٨٢) إدخال السرور على المؤمنين، ح١ـ ١٦ بألفاظ مختلفة.

وبالنبي ثنى وبنا ثلّث))(١).

وفي أيام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام رجل من أهل الرّي طلبته الخزينة العباسية بمال وافر، وألحّ عليه الوالي بالطلب وأراد مصادرة داره وأملاكه فقال له أحد أصحابه: إن الوالي يكتم التشيع مثلك فإذا ذهبت إليه وأخبرته بعقيدتك أرفق بك، قال الرجل المطلوب: خفت أن أمضي إليه فلا يكون كذلك، فذهبت إلى الإمام موسى بن جعفر فشكوت إليه فأصحبني بكتاب ولم يزد حرفاً على هذه الكلمات: بسم اللّه الرحمن الرحيم اعلم أن للّه عرشاً لا يسكن تحت ظله إلا من أسدى إلى أخيه معروفاً أو نفّس عنه كربة أو أدخل على قلبه سروراً وهذا أخوك والسلام. فمضيت إلى الوالي ليلاً واستأذنت عليه وقلت: رسول الإمام موسى الكاظم عليه السلام فضمني إليه وقبلني وأجلسني في صدر المجلس وجلس هو بين يدي فناولته الكتاب فقبله وقرأه قائماً ثم استدعى بماله وثيابه وقاسمني ماله ديناراً ديناراً ودرهماً درهماً وثيابه ثوباً ثوباً وقال لي: يا أخي هل سررت؟ قلت: إي واللّه وزدت على السرور. ثم أسقط عني المال وأعطاني براءة(٢).

وقد فرح الرسول صلى الله عليه وآله بقدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب من الحبشة وقبّل بين عينيه وقال: والله ما أدري بأيهما أنا أشد سروراً، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر(٣).

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣١٤، ح٧٠، نقلاً عن الاختصاص.

(٢) أهل البيت: ٢٠.

(٣) بحار الأنوار ٢١: ٢٣ ب (٢٢) غزوة خيبر وفدك: ح٢٠، نقلاً عن التهذيب، ومثله، ح١٩، وح

وإنما يكون الفرح مذموماً إذا كان بدافع الحقد والشماتة والغرور والخيلاء، أو يفرح الإنسان لأنه سلب ونهب وقتل وأفسد دون أن يعاقب أو يعاتب، أو لأنه مكر وخدع ليحمد بما ليس فيه وانطلت حيلته على البسطاء ففرح بتطبيلهم وتزميرهم إلى غير ذلك من الصور التي نشاهدها هنا وهناك.

وفي الآية الكريمة أقوال:

﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

قيل: إنها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا اسم محمد ﷺ وصفاته الموجودة في التوراة، وفي الوقت نفسه يحبون أن يمدحوا بالصدق وأنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

وقيل: إنها نزلت في المنافقين، كانوا يتخلفون عن رسول الله ﷺ في حروبه وغزواته ويتعللون بالأكاذيب وكان النبي ﷺ يظهر القبول ويفرحون هم بذلك، ويحبون أن يمدحوا بما ليس فيهم من الإيمان.

وأرجح الأقوال أن الله سبحانه بعد أن ذكر في الآية السابقة الذين أخذ الميثاق منهم ألا يكتموا الحق فنبذوه واشتروا به ثمناً قليلاً، وهي هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ

ص٢٢، نقلاً عن الخصال.

(١) آل عمران: ١٨٨.

فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(١) بعد أن وصفهم اللّه بهذا الوصف فلما سبق ذكرهم في هذه الآية بأنهم قد فرحوا بصنيعهم ذاك وأحبوا أن يمدحوا ويوصفوا بالحق والعدل وهم أبعد الناس عنهما، ومهما تمادوا في الغي فإنهم لا يخرجون عن قبضة اللّه وقدرته ولا ينجون من عذابه وعقابه كيف وللّه ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير.

وتسأل لماذا قال تعالى: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مع أن الجملة الأولى تغني عن الثانية؟

الجواب: فرق بين الجملتين؛ لأن الأولى أفادت أنهم غير ناجين عن العذاب دون أن تبين نوع العذاب، هل هو خفيف أو أليم، والثانية بينت أنه من النوع الأليم، كما تقول: أحبك وأحبك كثيراً(٢).

وبهذا التفسير يدخل في الآية اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، والمنافقون من المسلمين الذين أضمروا الكفر وأظهروا الإيمان، هؤلاء هم المنافقون وهم الذين يخادعون اللّه وهو خادعهم كما تقول الآية: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) التفسير الكاشف ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩، في تفسير سورة آل عمران، آية: ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٣) النساء: ١٤٢.

والمـراد بـ((يخـادعون)) يظهـرون الإيمـان ويضـمرون الكفـر، والمـراد بـ((خادعهم)) أن اللّٰه مجازيهم بالعقاب على خداعهم هذا.

وكسالى: جمع كسلان وهو المتباطئ المتثاقل.

﴿إن المنافقين يخادعون اللّٰه وهو خادعهم﴾. والمراد بخداعهم للّٰه إظهارهم الإيمان للرسول ﷺ مع إضمارهم الكفر؛ لأن من خان الرسول فقد خان اللّٰه. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[1].

والمراد بخداع اللّٰه تعالى يعاقبهم على خداعهم ونفاقهم من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب.

﴿وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى﴾ وكيف ينشطون لها وهم بها كافرون لا يرجون ثواباً على فعلها ولا عقاباً على تركها وإنما أتوا بها صيداً للدنيا وطريقاً إلى الكسب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2].

وتسأل: إذا صلى بدافع التقرب إلى اللّٰه ومع ذلك أحب أن يراه الناس ليحسبوه من الصالحين أو ليدفع عنه تهمة التهاون بالدين فهل يكون هذا رياءً؟

الجواب: كلا ما دام الباعث الأول هو أمر اللّٰه ومرضاته وما عداه تبع له[3]، فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) البقرة: ٤٥.

(٣) التفسير الكاشف ٢: ٤٦٧ ـ ٤٦٨، في تفسير سورة النساء، آية: ١٤٢.

إنسان فيسره ذلك؟، فقال: لا بأس، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك(١)، أي إذا لم يكن الفعل لمجرد الإظهار فقط.

﴿يُرَآؤُونَ النَّاسَ﴾ لأنهم لا يصلون للّه بل للصيد والربح. ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي إلا حين يراهم الناس، أما إذا انفردوا فلا يذكرونه إطلاقاً.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان الناس عنده، يتعرض في كل أمرٍ للمحمدة))(٢).

وتسأل: ما من أحد يظهر أمام الناس على حقيقته ويقول لهم كل ما يعتقد، ومن الذي يقول لكل واحد ما يعرفه منه ولو قال لَعُدَّ من المجانين، بل مَنْ الذي لا يفعل ويتصرف أحياناً على غير ما يحب ويريد، ثم أين المفر من عادات المجتمع وقيمه؟ وهل باستطاعتك إذا لقيت من تكره وابتدأك بقوله: أنا مشتاق إلى رؤيتك، هل باستطاعتك أن تجيبه بأني أكره أن أراك، وإذا أجبته بهذا المكروه فهل أنت مصيب في نظر الناس، بل وفي نظرك أيضاً؟ وأخيراً هل كل الناس مراؤون منحرفون لأنهم لا يعتقدون بكل ما يقولون ولا يؤمنون بكل ما يفعلون؟

الجواب: فرق بين الرياء والمداراة، فالرياء أن تظهر الصلاة نفاقاً وافتراءً

---

(١) الكافي ٢: ٣٠١ كتاب الإيمان والكفر ب (١١٦) الرياء، ح١٨، وعنه بحار الأنوار ٦٩: ٢٩٤، ح١٨

(٢) الخصال ١: ١١٢، في العلامات الثلاث، ح١١٣، وعنه بحار الأنوار ١٣: ٤١٥.، ذيل ح٨.

لتقف مع الصالحين ولست منهم. والمداراة أن تكون لطيفاً في معاملة الناس دون أن تهدف إلى شيء إلا أن تعيش معهم في وئام ووفاق.

صحيح أنك تتصرف أحياناً تبعاً لتقاليد المجتمع، فتهني أو تعزي أو تبتسم وتحترم إنساناً مجاملاً لا مؤمناً ولكن هذا تصرف سليم لا غبار عليه ولا تعد معه مرائياً ما دمت في فعلك وتصرفك متفقاً مع المجتمع. وأيضاً لا يجب عليك إذا صدرت منك خطيئة ـ وأينا المعصوم؟ ـ أن تذيعها وتعلنها على الناس، أجل يجب أن لا تبدو للناس قديساً لا خطيئة له.

وصحيح أيضاً أنك كاذب في قولك لمن تكره: أنا مشتاق، ولكنه كذب في المصلحة وحسن الخلق. قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[١] وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢] وقال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾[٣]. وفي الحديث: ((الكلمة الطيبة صدقة يثاب بها قائلها بما يثاب به أولو الفضل والإحسان))[٤]، وفيه أيضاً: ((أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض))[٥].

وأجمع الفقهاء على أن الكذب واجب إذا توقف عليه حفظ النفس

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) إبراهيم: ٢٤.

(٣) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) المعجم الكبير ١١: ٥٥، وبحار الأنوار ٨٠: ٣٦٩، ذيل ح٣٠ بلفظ: يا أبا ذر! الكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، نقلاً عن مجالس الشيخ.

(٥) بحار الأنوار ١٨: ٢١٣، ح٤٣، وج٢: ٦٩، ح٢٣.

البريئة وخلاصها من الهلاك، وأن الصدق حرام في النميمة والغيبة، فالنمام صادق والمغتاب صادق ولكنهما مذمومان عند الله وعند الناس.

وبعد فإن الرياء المحرم هو أن يتظاهر المرء أمام الناس بما ليس فيه فيريهم الخير والصلاح من نفسه ليحظى عندهم بمكان الصالحين الخيريين وهو من الأشرار المفسدين من الذين قال الله فيهم: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾[١] فتراه يفرح شماتة بأنه قتل وسلب ونهب ويحمد الله على المعاصي كما قال ابن زياد على المنبر يوم جيء برأس الحسين: الحمد لله الذي أظهر الحق لأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب يعني الحسين عليه السلام. ويقول لزينب ابنة أمير المؤمنين: الحمد لله الذي فضحكم وكذب أحدوثتكم[٢].

---

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٤٢، في مقتل الحسين عليه السلام.

من أحاديث المهدي عليه السلام

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١).

اللغـــة:

الزبور: الكتاب. والزبور هو كتاب داود. والذكر: ما تقدمه من الكتب السماوية كصحائف إبراهيم وتوراة موسى.

والمعنى: أن الحكم والسلطان في الأرض وإن كان الآن بأيدي الطغاة الفجرة فإن الله سينقله من أيديهم إلى الطيبين الأخيار لا محالة، وعندها يعم الأمن والعدل الكرة الأرضية وينعم بخيراتها وبركاتها الناس، كل الناس.

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة وصحيحة، منها ما رواه أبو داود في كتاب السنن وهو أحد الصحاح الستة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ((لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً))(٢).

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٤٦٠ كتاب المهدي، ومثله في الإمام المهدي عند أهل السنة ١: ٨١ ح١٠٢٢٢، ونحوه، ح١٠٢١٩، وح١٠٢٢٠، ح١٠٢٢٤.

وقانون الحياة لا يأبى ذلك بل يقره ويؤكده. وإذا كانت القوة الآن بأيدي الوحوش الضارية المتسلطة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيره فإنه لا شيء يمنع أن تتحول القوة في يوم من الأيام من أيدي أهل البغي والضلال إلى أيدي أهل الحق والعدالة، بل إن غريزة حب البقاء والتحرر من الظلم، والمبدأ القائل: كل ما على الأرض يتحرك تماماً كالأرض وإن دوام الحال من المحال؛ كل ذلك وما إليه يحتم أن القوة في النهاية تكون[1] للأصلح الأكفأ وهذا شيء لابد منه، إلا أنه لا يكون إلا بعد الاختبار والتصفية ليتميز المؤمن من المنافق، وهو الاختبار من بعض أسرار غيبته وهذا الاختبار اختبار المؤمن من المنافق يجري في كل زمان.

في الكافي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: لما أظهر الله تعالى نبوة نوح عليه السلام وأيقن الشيعة بالفرج اشتدت البلوى ووثب الكافرون من قومه إليه بالضرب المبرح حتى مكث في بعض الأوقات مغشياً عليه ويجري الدم من أذنه، ثم أفاق، وذلك بعد ثلاثمائة سنة من مبعثه، وهو في خلال ذلك يدعوهم ليل نهار فيهربون، ويدعوهم سراً فلا يجيبون، ويدعوهم علانية فيولون، فهمّ بعد ثلاثمائة سنة بالدعاء عليهم وجلس بعد صلاة الفجر فهبط عليه وفد من السماء السادسة وهم ثلاثة أملاك فسلموا عليه ثم قالوا له: يا نبي الله حاجتنا أن تؤخر الدعاء على قومك فإنها أول سطوة لله في الأرض، فقال: قد أخرت الدعاء عليهم ثلاثمائة سنة أخرى.

وعاد إليهم فصنع ما كان يصنع ويفعلون ما كانوا يفعلون حتى إذا

---

(١) التفسير الكاشف ٥: ٣٠٢ ـ ٣٠٣، في تفسير سورة الأنبياء، آية: ١٠٥.

انقضت ثلاثمائة سنة جلس في وقت ضحى النهار للدعاء فهبط إليه وفد من السماء السابعة فسلموا عليه وسألوه مثل ما سأله الوفد الأول فأجابهم مثل ما أجاب أولئك.

ثم عاود قومه بالدعاء حتى انقضت ثلاثمائة سنة فتمت تسعمائة سنة فصارت إليه الشيعة وشكوا ما ينالهم من العامة والطواغيت وسألوه الدعاء بالفرج فأجابهم إلى ذلك وصلى ودعا فهبط جبرئيل وقال: إن اللّٰه تبارك وتعالى قد أجاب دعوتك فقل للشيعة: يأكلوا التمر ويغرسوا النوى ويراعوه حتى يثمر فعرفهم ذلك واستبشروا ففعلوا ذلك وراعوه حتى أثمر ثم سألوه أن ينجز لهم الوعد فسأل اللّٰه ذلك فأوحى إليه قل لهم كلوا هذا التمر واغرسوا النوى فإذا أثمر، فرجت عنكم، فلما ظنوا أن الخلف وقع عليهم ارتد منهم الثلث وبقي الثلثان فأكلوا التمر وغرسوا النوى حتى أثمر أتوا به نوحاً فسألوه أن ينجز لهم الوعد، فسأل اللّٰه عز وجل عن ذلك فأوحى اللّٰه إليه: كلوا التمر واغرسوا النوى، فارتد الثلث الآخر وبقي الثلث، فأكلوا التمر وغرسوا النوى فلما أثمر أتوا به نوحاً فأخبروه وقالوا: لم يبق منا إلا القليل ونحن نتخوف على أنفسنا بتأخر الفرج أن نهلك، فصلى نوح عليه السلام وقال: يا رب إنه لم يبق من أصحابي إلا هذه العصابة، وإني أخاف عليهم الهلاك، فأوحى اللّٰه إليه: قد أجبت دعوتك، فاصنع الفلك، فكان بين إجابة الدعاء وبين الطوفان خمسون سنة(١).

---

(١) كمال الدين ١: ١٣٣ ـ ١٣٤ ب (٢) في ذكر ظهور نوح عليه السلام بالنبوة بعد ذلك، ح٢، وفي الكافي ٨: ٨٠ ـ ٨١ باختلاف، والنور المبين: ٦٠ في أحوال نوح.

وورد في سبب التأخير تصفية المؤمنين من الكفار المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويسترون الكفر، فالعوامل السابقة في ذلك الاختبار هي نفس العوامل في هذا الزمان للتصفية ليميز اللّه الخبيث من الطيب. وأنت ترى في هذا الزمان أكثر الناس عادت إليهم جاهليتهم وتبدلت الأوضاع رأساً على عقب. هذه الأغاني بدلت عوض الدعاء، والسينما بدل المساجد.

ويقول الحسن بن علي عليه السلام: ((لا يكون هذا الأمر الذي تنتظرون حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويلعن بعضكم بعضاً، ويتفل بعضكم في وجه بعض، وحتى يشهد بعضكم بالكفر على بعض. قلت: ما في ذلك خير؟. قال: الخير كله في ذلك، عند ذلك يقوم قائمنا فيرفع ذلك كله))[1].

وروى الباقر في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾[2] هو الاختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض.

يقول المفيد بسنده عن الرضا عليه السلام: لا يكون ما تمدون إليه أعناقكم حتى تميزوا وتمحصوا فلا يبقى منكم إلا القليل، ثم قرأ: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[3]، والظاهر أن المراد بذلك ارتداد الكثير عن الدين حتى لا يبقى إلا القليل وهم خالصوا الإيمان.

---

(١) غيبة الطوسي ٤٣٧ ـ ٤٣٨ في علائم ظهور الحجة عجل الله فرجه، ح٤٢٩، وعنه بحار الأنوار ٥٢: ٢١١، ح٥٨، واثبات الهداة ٣: ٧٢٦، ح٤٨، والخرائج والجرائح ٣: ١١٥٣، ح٥٩.

(٢) الأنعام: ٦٥.

(٣) العنكبوت: ١ ـ ٢.

وروى الحارث بن حصيرة عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: كونوا في الناس كالنحل في الطير ليس شيء من الطير إلا وهو يستضعفها ولو يعلم ما في أجوافها لم يفعل بها ما يفعل، خالطوا الناس أبدانكم وزائلوهم بقلوبكم وأعمالكم فإن لكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وهو يوم القيامة مع من اب أما أنك لن تروا ماتحبون وما تأملون يا معشر الشيعة حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يسمي بعضكم بعضاً كذابين، وحتى لا يبقى منكم على هذا الأمر، إلا كالكحل في العين والملح في الزاد[1].

وسأضرب لكم مثلاً وهو مثل رجل كان له طعام نقاه وطيبه ثم أدخله بيتاً وتركه فيه ما شاء الله ثم عاد إليه فإذا هو قد أصابه طائفة منه السوس فأخرجه ونقاه وطيبه وأعاده، ولم يزل كذلك حتى بقيت رزماً كرزمة الأندر، يعني قليلاً، لا يضره السوس شيئاً وكذلك أنتم تميزون حتى لا يبقى منكم إلا عصابة لا تضرها الفتنة شيئاً.

يعني يكون قوياً في دينه ومستحكماً في إيمانه وثابتاً على إمامة إمامه لا يعترضه الشك، هو كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، ويعبد اللّه حق عبادته، وينتظر قيام حجته فإن أدرك الحجة فهنيئاً له وإن لم يدركه فهو كمن أدركه.

وروى البرقي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ((من مات منكم وهو منتظر

---

(١) غيبة النعماني: ٢١٧، ح١٧، وبحار الأنوار ٢: ٧٩، ح٧٠.

لهذا الأمر كمن هو مع القائم في فسطاطه قال: ثم مكث هنيئة ثم قال: لا بل كمن قارع بسيفه، ثم قال: لا والله كمن استشهد مع رسول الله ﷺ))(١).

وهذه أكثر العلامات قد ظهرت. عن جعفر الصادق عليه السلام عن أبيه أن النبي ﷺ قال: ((كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر. قيل أو يكون ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا أتيتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً))(٢).

روحي فداك يا رسول الله كلامك معجز ومنطبق على زماننا هذا.

روى الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((سمعته يقول: يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة وهو شر الأزمنة نسوة كاشفات عاريات متبرجات من الدين، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات في جهنم خالدات))(٣).

ويقول ﷺ: ((سيأتي على أمتي زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه، يسمون به وهم أبعد الناس عنه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، فقهاء ذلك الزمان شر فقهاء تحت ظل السماء، ومنهم

---

(١) بحار الأنوار ٥٢: ١٢٦، ح١٨، نقلاً عن المحاسن.

(٢) بحار الأنوار ٩٧: ٩١، ح٨٢ نقلاً عن مشكاة الأنوار.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٨١ ب(١١١) المذموم من أخلاق النساء وصفاتهن، ح٥.

خرجت الفتنة وإليهم تعود))[١].

وقال ﷺ: ((إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشوا الزنا، وتقل الرجال، وتكثر النساء حتى أن الخمسين امرأة فيهن واحد من الرجال))[٢].

ويقول الإمام الصادق في حديث طويل: ((إذا رأيت الحق قد مات وذهب أهله، ورأيت الجور قد شمل البلاد، ورأيت القرآن قد خلق وأحدث فيه ما ليس فيه ووجه على الأهواء، ورأيت الدين قد انكفى كما ينكفي الماء ورأيت أهل الباطل قد استعملوا على أهل الحق، ورأيت الشر ظاهراً لا ينهى عنه ويعذر أصحابه، ورأيت الفسق قد ظهر، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء (اللواط والمساحقة) ورأيت المؤمن صامتاً لا يقبل قوله، ورأيت الفاسق يكذب ولا يرد عليه كذبه وفريته، ورأيت الصغير يستحقر بالكبير، ورأيت الأرحام قد تقطعت ورأيت من يمتدح بالفسق يضحك منه ولا يرد عليه قوله ورأيت الغلام يعطى ما تعطى المرأة، ورأيت الرجل ينفق المال في غير طاعة اللّه فلا ينهى ولا يؤخذ على يده، ورأيت الناظر يتعوذ باللّه مما يرى المؤمن فيه من الاجتهاد، ورأيت الجار يؤذي جاره وليس له مانع،......، ورأيت الخمور تشرب علانية ويجتمع عليها من لا يخاف اللّه عز وجل، ورأيت الأمر بالمعروف ذليلاً، ......، ورأيت معيشة الرجل من دبره، ومعيشة المرأة من فرجها

(١) بحار الأنوار ٢: ١٠٩، ح١٤ نقلاً عن ثواب الأعمال.

(٢) روضة الواعظين: ٤٨٥، مجلس في ذكر أشراط الساعة.

ورأيت النساء يتخذن المجالس كما يتخذها الرجال، ......، ورأيت المرأة تصانع زوجها على نكاح الرجال، ورأيت أكثر الناس وخير بيت من يساعد النساء على فسقهن،......، ورأيت البدع والزنا قد ظهر، ورأيت الناس يعتدون بشاهد الزور، ورأيت الحلال يحرم، ورأيت الدين بالرأي، ورأيت الناس يتسافدون كما تتسافد البهائم[١]،...... ورأيت المنابر يؤمر عليها بالتقوى ولا يعمل القائل بما يأمر، ورأيت الصلاة قد استخف بأوقاتها، ورأيت الصدقة بالشفاعة لا يراد بها وجه الله وتعطى لطلب الناس، ورأيت الناس همهم بطونهم وفروجهم لا يبالون بما أكلوا وما نكحوا، ورأيت الدنيا مقبلة عليهم، ورأيت أعلام الحق قد درست فكن على حذر واطلب من الله النجاة))[٢].

وقال ﷺ: ((إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة بعد الألف فقد حلت لهم والعزوبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال وذلك لأن الخلق في المائتين بعد الألف أهل الحرب والقتل فتربية جرو خير من تربية الولد، وإن تلد المرأة حية خير من أن تلد الولد[٣].

فيخرج الإمام على هذه الأوضاع الفاسدة فيعدلها وينصر المستضعفين

---

(١) السفاد: نزو الذكر على الأنثى.

(٢) الكافي ٨: ٢٨ ـ ٣٢ حديث أبي عبدالله مع المنصور في موكبه، ح٧، وعنه بحار الأنوار ٥٢: ٢٥٤ ح١٤٧، سفينة النجاة: ٣١٣.

(٣) روح البيان ١: ٢٧٣ في تفسير سورة البقرة، آية: ٣٥ وعنه عقائد الإمامية ٢: ٣٢٢، وصدره في زبدة البيان: ٥٠٥ ومثله في مستند الشيعة ١٦: ١٣، ومثله في تذكرة الموضوعات: ٢٢٣.

وإليـه الإشارة ﴿وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(١) أراد اللّـه بـ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ هـم المؤمنون الفقـراء الصـابرون يكونون في زمان المهدي فَيَمُنّ اللّه عليهم بالخير والرفاهية عـند ظهور المهدي عليه السلام بعد أن اضطهدهـم الأغنياء الفاسقون المانعون عنهم حقوقهـم لأنـه إذا ظهـر عليه السلام يـأخذ مـن الأغنياء حقوق الفقراء ويجعلهم في الحياة سواء لأن المهدي معناه يهدي الناس إلى أمر مضلول عنه.

وقـد اتفـق المسـلمون المؤمـنون أنه سيخرج في آخر الزمان رجل يسمى المهدي يصلح الأمم الإنسانية بعد أن يظلم بعضهم بعضاً ويجور بعضهم على بعـض فـيظهر المهدي فينصر الضعيف على القوي الظالم الجائر فيبسط العدل ويمحـق الجـور وهو منصور مؤيد من اللّه يخرج على يديه كنوز الأرض ويكون أنصاره المؤمنين المخلصين وألوفاً من الملائكة المقربين.

وفـيما ورد عـن سـيد المرسـلين: أن أكـثر أعدائـه العـلماء والفقهـاء والمعلمين من المسلمين (إشارة إلى علماء السوء).

وقـد اتفق المسلمون أن المهدي يكون من نسل علي وفاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاءت الأخبار والأنباء عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بأشياء مغيبات عن الناس ومـنها قوله: ((لن تنقضِ والأيام الليالي حتى يبعث اللّه تعالى رجلاً من أهل بـيتي اسمـه اسمي وكنيته كنيتي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما

(١) القصص: ٥.

ملئت ظلماً وجوراً))[١]. وأخبار كثيرة بهذا المعنى.

وقال ﷺ: ((لن تهلك أمة أنا في أولها وعيسى ابن مريم في آخرها والمهدي في أوسطها))[٢] .

التشكيك في مولد المهدي:

وبعض الطوائف الإسلامية تعتقد أن المهدي سيولد إذا جاء أوان ظهوره، ولا حاجة إلى وجوده وغيابه حيث لم يعرفوا المصلحة بغيابه فاعتقدوا أنه ما ولد.

والحق أنه وُلِدَ وغاب كما تعتقد الطائفة الشيعية الاثنا عشرية، ولد في النصف من شعبان سنة مائتين وخمس وخمسين هجرية، واسمه محمد بن الحسن العسكري، وأمه نرجس بنت يشوعا الملك قيصر، سبيت بعد أن فتحت الروم فاشتراها الحسن العسكري عليه السلام من سوق بغداد فتزوجها فجاءت بالإمام المهدي، فتكون أم المهدي بنت ملك الروم وأبوه من العرب من عترة سيد المرسلين محمد ﷺ[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٣٧: ٢ ب (٤٩) في ذكر مذاهب الذين خالفوا الفرقة المحقة، ومعجم أحاديث المهدي عليه السلام ١: ١٧٠ ـ ١٧٦ في الأحاديث حول المهدي، وكنز العمال ١٤: ٢٦٧، ح٣٨٦٧٦ باختلاف يسير.

(٢) كنز العمال ١٤: ١٦٦، ح٣٨٦٧١، والإمام المهدي عند أهل السنة ١: ٤٤٧، ح٣٨٦٧١، ومثله ينابيع المودة ٣: ٢٩٨، ح١١.

(٣) كمال الدين ٢: ٤١٧ ـ ٤٢٣ ب (٤١) ما روي في نرجس أم القائم عليهما السلام واسمها مليكة بنت يشوعا بن قيصر الملك، ح١.

وكان عمره يوم وفاة أبيه خمس سنوات فآتاه اللّه فيها الحكمة وفصل الخطاب كما آتاها يحيى بن زكريا.

وله غيبتان: غيبة كبرى وغيبة صغرى، أما الصغرى فهي مقدار أربع وسبعين سنة، وكان عمره سبع سنين، ثم رجع من الغيبة الصغرى وهو كهل فخاف من أعدائه، وغاب غيبته الكبرى وهي إلى اليوم ألف وثلاثمائة سنة [١].

طول حياة المهدي عليه السلام:

ولا يرد إشكال أنه كيف يبقى هذا الزمان الطويل حياً؛ فإن نوحاً عاش ألفاً وخمسمائة سنة، وإدريس بعد لم يزل حياً وكذا الخضر، والمهدي يكون كذلك في حالة غيبته.

أنصاره وأعوانه عليه السلام:

ويظهر المهدي على بعض المؤمنين ويرونه ويراهم ولكن لا يعرفونه، وله أنصار في الأرض معدود في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً [٢].

يقول ابن بابويه: جاء رجل إلى الصادق عليه السلام فقال له: ((يا بن رسول اللّه كيف يكون قيام القائم؟ وكيف حال الناس عند قيامه؟ ومن أنصاره وأعوانه؟ فقال الصادق عليه السلام: يقوم القائم إذا أضاع الناس الصلاة، واتبعوا الشهوات، وأطاع المرء زوجته وعصى والديه، وركبت الفروج السروج، وتزيا الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وابتغوا الحرام، وتركوا الحلال، وأكثر أنصاره بلاد في أعمال الشقيق من بيوت وربوع تفرق في سواحل البحر

---

(١) اعلام الورى ٢: ٢٥٩ في النصوص على غيبته عليه السلام.

(٢) كمال الدين ٢: ٦٥٤ ب (٥٧) علامات خروج القائم عليه السلام، ح٢١، وبحار الأنوار ٥٢: ٢٨٦، ح١٩.

وأوطئة الجبال. قيل: يا بن رسول الله هؤلاء شيعتكم ومحبوكم؟ قال: نعم هؤلاء شيعتنا ومحبونا والمؤمنون لغربتنا والحافظون لسرنا، واللينة قلوبهم لنا والقاسية قلوبهم على أعدائنا، وهم سكان السفينة في حال غيبتنا تمحل البلاد دون بلادهم، لا يصابون بالصواعق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك المرحومون المغفور لحيهم وميتهم، وذكرهم وأنثاهم وأسودهم وأبيضهم، وإن فيهم رجالاً ينتظرون والله يحب المنتظرين))(١).

والانتظار هو انتظار المهدي.

يقول الصادق عليه السلام: فكأني بالمهدي ظهر في يوم السبت عاشر محرم الذي قتل فيه جده الحسين عليه السلام فإذا ظهر وضع سيفه على عاتقه وميكائيل عن يمينه وإسرافيل عن شماله وجبرئيل ينادي بين السماء والأرض: ظهر الإمام المهدي من آل محمد، فيرتفع الظلم والجور من الأرض فيمر الذئب بين الشاة فلا تنفر منه، ويعرف عدوه من خاصته بالتوسم بالوجوه، ويعرف صاحب الحق بلا بينه، ويرد كل حق إلى صاحبه، وتخرج الأرض كنوزها وتنزل السماء بركاتها ولم يبق أهل دين حتى يظهر الإسلام ويعترفوا بالإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (٢) (٣).

---

(١) لم اعثر عليه ولكن ورد مثله في مختصر البصائر: ١٢٧ في أحاديث الرجعة، والزام الناصب٢ ١٣٢ ١٣٧، ١٣٩ في علائم ظهور القائم، وفي الغيبة للطوسي: ٤٥٣، ح٤٥٩ بلفظ: كأني بالقائم يوم عاشوراء يوم السبت... الخ.

(٢) آل عمران: ٨٣.

(٣) لم أعثر عليه ولكن ورد مثله في غيبة النعماني: ٢٦٢ ـ ٢٦٥، ح١٣، وبحار الأنوار ٥٢: ٢٨٥

وقال أبو جعفر عليه السلام: فتكون دولتنا آخر الدول (١).

لكـل أنـاس دولـة يرقـبونها ودولتـنا في آخـر الدهـر تظهـر

وقال دعبل:

فـيا نفس طيبي ثم يا نفس فابشري فغـير بعـيد كـل مـا هـو آتِ
ولا تجـزعي مـن مـدة الجـور إنـني كـأني بهـا قـد آذنـت بشـتاتِ
شـفيت ولم أتـرك لنفسـي ريـبة ورويـت مـنهم منصـلي وقـناتي

وروي أنـه إذا قـام المهدي يأتي أرض كربلاء فتجري دموع عينيه على خديه فيقول: ما هذه الأرض التي أحزنتني؟ فيقال له: هذه أرض كربلاء التي قتل بها جدك الحسـين عليه السلام، فـيقول: السلام عليك يا جداه، فيخرج صوت من داخل الضريح: وعليك السلام يا ولداه، إلى الآن تأخر ظهورك وقد كسرت الأعداء جناحي صدري.

ثـم يحفـر المهـدي بسيفه عند قبر الحسين عليه السلام فيستخرج طفلاً صغيراً مذبوحاً وهو جثة بلا رأس فيغضب ويقول: يا رب ما ذنب هذا الطفل فيضع سيفه على عاتقه ويضع أنصاره سيوفهم على عواتقهم ويقتلون أعداء اللّٰه.

شـعارهم يـا ثـار آل محمـد إذا أسـعرت نـار الوطـيس الفوارس

وفي استنهاض المهدي أشعار كثيرة وقصائد طويلة قالها الشعراء أكثرها للسيد حيدر الحلي صاحب الحوليات .... إلخ.

ح١٧ نحوه.

(١) بحـار الأنـوار ٥٢: ٣٣٢، ح٥٨، نقـلاً عـن غيـبة الطوسـي ولكنه ورد عن أبي جعفر عليه السلام ومثله في إلزام الناصب ٢: ٢٨٢.

دعاوى يهودية

قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

اللغـــة:

المــس والــلمس والحــبس متعدد والمعنى واحد. ويستعمل اللمس كثيراً فيما يكون معه إحساس بالحرارة والبرودة وما إليها.

المــعـنى:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ يـزعم الـيهود أنهم أبناء اللّه وشعبه المختار، وأن الناس كل الناس أبناء الشيطان وشعبه المنبوذ فاللّه لا يخلد اليهود في النار ولا يقسو عليهم بل يعذبهم عذاباً خفيفاً ووقتاً قصيراً ثم يرضـى عـنهم، أي أنـه سـبحانه يدللهم كما يدلل اليوم الاستعمار الصهاينة الذين احتلوا أرض فلسطين(٢).

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية في المجلد الأول من التفسير ص١٢٣ إن جماعـة مـن الصهاينة تقيم في أمريكا وبالتحديد في الحي المعروف ببروكلين بنـيويورك، واسـم هـذه الجماعـة (جماعـة شـهود يهوه) وهدفها الأول والأخير

---

(١) البقرة: ٨٠.

(٢) التفسير الكاشف ١: ١٣٦، في تفسير سورة البقرة، آية: ٨٠.

إشاعة الفوضى وإثارة الفتن الدينية في جميع أقطار العالم بخاصة العالم العربي والتنبؤ بفناء العالم، وتصدر هذه الجماعة العديد من النشرات والكتب بجميع اللغات وبأغلفة ملونة، تسرب الكثير منها إلى البلاد العربية، كما تصدر مجلة باسم ((برج المراقبة)). ومن الكتب التي نشرتها كتاب في الطعن بمحمد ﷺ والقرآن، واسم هذا الكتاب ((هل خدم الدين الإنسانية)) وكتاب ((ليكن الله صادقاً)) وكتاب ((نظام الدهور الإلهي)) و((الحق يحرركم)) و((المصالحة)) و((ملايين من الذين هم إحياء لن يموتوا أبداً)) وقد طبع هذا الكتاب ببيروت.

واكتشفت حكومة القاهرة بعض أعضاء شهوديهوه، وكانوا يعقدون اجتماعات سرية فقبضت عليهم وشرعت بمحاكمتهم في الشهر الرابع من سنة ١٩٦٧.

ومن تعاليم هذه الجماعة أنه جرى صراع طويل ومرير بين الله والشيطان دام ستين قرناً ثم اعتزل الله وسلّم دفة الحكم والإدارة للشيطان يتصرف كيف يشاء لأن الشيطان أبقى الله وحيداً فريداً لا أحد معه إلا أمة إسرائيل، ومن أجل هذا قال الله للشيطان خذ الناس كل الناس واترك لي هذه الأمة، وهكذا تم الاتفاق بين الله وبين الشيطان. ولكن الآية ستنعكس في النهاية لأن أمة إسرائيل ستملك من النيل إلى الفرات وسيخرج الأنبياء من قبورهم ويتولون إعلاء المناصب في دولة إسرائيل وبالتالي يخضع العالم كله لهذه الدولة وتخذل الشيطان وينتصر الرحمن.

ولهذه الجماعة أنصار وعملاء في كل مكان.

والغرض من هذه الإشارة التنبيه إلى رأس الحية وإلى الأصابع التي تحرك

في الخفاء بعض المؤلفين ومحرري الصحف وتضع لهم الخطط لإشاعة الفوضى والفساد وإثارة النعرات الطائفية والفتن الدينية.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً﴾

أي قل لهم يا محمد: إن زعمكم هذا جرأة وافتراء على الله بغير علم، وإلا فأين العهد والوعد الذي أخذتموه من الله سبحانه على ذلك؟!

وإن دل زعمهم هذا على شيء فإنما يدل على استهتارهم واستخفافهم بالذنوب وارتكاب القبائح[١]. قال الرسول الأعظم ﷺ: ((إن المؤمن ليرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، وإن الكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مر على أنفه))[٢]. وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: ((أشد الذنوب ما استهان به صاحبه))[٣].

وقول الرسول الأعظم ﷺ: كأن الذنب ذباب تمر على أنف المذنب ينطبق كل الانطباق على اليهود الذين يزعمون أنهم أبناء الله المدللون.

وعسى أن يتعظ بهذا من يستهين بذنوبه اتكالاً على شرف الأنساب ومن يثق بنفسه ولا يتحسس خطاياها ولا يقبل النصح من غيره محال أن يهتدي إلى خير.

إن العاقل لا ينظر إلى نفسه من خلال غرورها وأوهامها بل يقف منها دائماً موقف الناقد لعيوبها وانحرافها ويميز بين ما هي عليه وبين ما ينبغي أن

---

(١) التفسير الكاشف ١: ١٣٧، في تفسير سورة البقرة آية: ٨٠.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٦٠، في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) نهج البلاغة: ٦١٤، في القصار من كلماته رقم الحكمة [٣٤٨].

تكـون علـيه ويحررها من الأفكار الصبيانية والنزوات الشيطانية، وبهذا وحده ينطبق عليه اسم الإنسان بمعناه الواقعي الصحيح.

وفي الحديث الشريف: ((من رأى أنه مسيء فهو محسن))(١).

أما من لا يرى نفسه إلا محسناً وهو مسيء في الواقع فلا علاج له.

((شر الناس مسيء آمن، وأحسنهم محسن خائف))(٢).

ألم تـر أولـياء اللّـه كـيف قلـت طيب   الكـرى في الديـاجي مـنهم المقـل
يدعــون ربهــم في فــك عــنقهم   مــن رق ذنــبهم والكــل يبــتهل

انظـر إلى المحسـنين الذيـن لم يتكلوا على أنسابهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

يقـول أبـو الـدرداء: شـهدت علـي بـن أبـي طالـب في شويحطات بني النجار.... إلخ (٣).

ويقـول طاووس بن كيسان اليماني شهدت علي بن الحسين مناجياً ربه متعلقاً بأستار الكعبة من أول الليل إلى آخر السحر(٤).

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣١٧، ح٦١٤.

(٢) وردت أحاديث كثيرة بشأن ذلك منها: شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس اتقاء فحشة. انظر: مسند أحمد ٦: ٣٨، واتحاف السائلين ٦: ٢٨٨، ٧: ٥٦٥، ووسائل الشيعة ١٦: ٣١، ح٢٠٨٩١.

(٣) الفصول المهمة في حياة أبي الأئمة ٤: ١٢٢ في حديث أبي الدرداء عن صوته الحزين في مغيلات النخل

(٤) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٩١ في زهده عليه السلام.

الإنفاق

قوله تعالى:

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[١].

المراد بالبر هنا إكرام اللّه وتفضله على عبده.

وقد حثت آيات كثيرة على الإنفاق، ولكن لهذه الآية ميزة على كل آية وردت في هذا الباب؛ لأنها لم تأمرنا بالإنفاق وكفى كغيرها من الآيات، بل ربطت بين نيل الإنسان الدرجات العلا عند اللّه سبحانه وبين إقدامه على التضحية بما يحب. فالعبادة المجرّدة عن التضحية لا تقرب من اللّه بموجب دلالة هذه الآية وكذا سائر الأعمال إلا أن ينطبق عليها نوع من الفداء والتضحية في سبيل اللّه. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ بياناً وتفسيراً لكل آية ورواية حثت على العمل من أجل مرضاة اللّه تعالى والقرب منه، بياناً وتفسيراً بأن القرب منه تعالى لا يحصل ولن يحصل لأحد إلا إذا بذل من نفسه وماله ما يحب. وكأن الإمام علي عليه السلام أخذ من هذه الآية قوله: ((لا حاجة للّه فيمن ليس له في ماله نصيب))[٢].

---

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) بحار الأنوار ٦٤: ٢١٥، ح٢٢، نقلاً عن الكافي ٢: ٢٥٦ ب (١٠٦) شدة ابتلاء المؤمن، ح٢١.

عبادة المال:

إن البذل مما تشح به النفس وتحرص عليه بخاصة المال هو المحك المميز بين الإيمان الدخيل والأصيل، فلقد كان المال ولا يزال معبود الملايين، وإن كثيراً من الناس يخيل الشيطان إليهم أنهم يعبدون اللّه سبحانه وهم في حقيقتهم وواقعهم يعبدون الدرهم والدينار، ولكنهم لا يشعرون.

جاء في بعض الروايات أن إبليس كان قبل ضرب الدرهم والدينار في شغل شاغل لإغواء الناس وصرفهم عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ولا يجد فترة من راحة في ليل ولا نهار، وبعد أن دارت الأيام وضرب الدرهم والدينار تنفس إبليس الصعداء وفرح فرحاً لم يفرح مثله من قبل وأقام حفلات الأنس والطرب وكان يرقص وهو يضع الدرهم على إحدى عينيه والدينار على الثانية ويقول: لقد أرحتماني ولست أبالي بعد اليوم أعبدكما الناس أم عبدوا الأوثان.

وسواء كانت هذه الرواية قضية في واقعة أم كانت أسطورة من الأساطير فإنها تصوير صادق ورائع لعدم الفرق بين عبادة المال وعبادة الأوثان، فكل منهما يصرف عن اللّه والحق، بل إن عبادة المال أسوأ أثراً وأكثر ضرراً. لأن المال مادة الشهوات ومصدر الفساد في كثير من الأحيان، فالذين خانوا أوطانهم إنما خانوها من أجل المال، والذين حاربوا الأنبياء والمصلحين وحرّفوا الدين وشريعة سيد المرسلين إنما فعلوا ذلك بعد أن قبضوا الثمن.

ومهما شُكَّ فلا يُشك أن الملحدين وعبدة الأوثان الذين لم يخونوا بلادهم ولم يتآمروا على الأبرار والمصلحين لَهُمْ خَيْرٌ ألف مرة من الصائم

المصلي والحاج المزكي الذي تآمر مع أعداء اللّه على بيع البلاد وأقوات العباد.

إذن فلا عجب إذا أناط سبحانه نيل الدرجات عنده بالبذل والتضحية بالمال وبالعزيز الغالي حيث يكشف هذا البذل عن إيثار الحق على الباطل والآجل على العاجل.

ولك أن تسأل أن قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يدل بظاهره أن الجنة محرمة إلا على من بذل الطيب من ماله، مع العلم أن كثيراً من الناس أو أكثر الناس لا يملكون شيئاً.

الجواب: إن الخطاب في الآية الكريمة يختص بالمالك القادر أما العاجز الذي لا يملك شيئاً فيجب أن يأخذ لا أن يعطي بل هو أحد موارد البذل والعطاء. هذا إلى أن الذين يجاهدون بأنفسهم أعظم درجة عند اللّه من الذين يجاهدون بأموالهم؛ لأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال الشاعر.

وكما دلت هذه الآية على أن القرب من اللّه منوط بالبذل والتضحية، فقد دلت أيضاً على أن المال يكون مصدراً للخيرات ووسيلة لطاعة الرحمن كما يكون مادة للشهوات ومرضاة الشيطان(١).

قال رسول اللّه ﷺ: ((من طلب من الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي اللّه وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر))(٢).

---

(١) التفسير الكاشف ٣: ١٠٧ ــ ١٠٩، في تفسير سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٢٨ كتاب الإيمان والكفر ب (١٢٢) حب الدنيا وذمها.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: ((ما أعطي أحد منها شيئاً (الدنيا) إلا نقص حظه في الآخرة. قال: فقال له رجل: والله إنا لنطلب الدنيا، فقال له أبو عبدالله عليه السلام: تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعلى عيالي، وأتصدق منها وأصل منها وأحج منها. قال: فقال أبو عبدالله عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة))(١).

ولكن قل من يوفق لطلب الآخرة بماله بل كان كما قال الشاعر:

أعارك ماله لتقوم فيه بواجبه وتقضي بعض حقه
فلم تعمل بطاعته ولكن قويت على معاصيه برزقه

وعباد المادة في كل زمان موجودون لا يهمهم لا الدين ولا الشرف ولا الوطن بل تبعوا أنفسهم بل باعوا أنفسهم ودينهم كعبيدالله بن العباس والكندي الذين كانا من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام وأمثالهم، وكمن قال ليزيد املأ ركابي فضة وذهبا...(٢) إلخ.

تهافت الكوفيون على المناصب والمال وأقبلوا لقتل الحسين عليه السلام ووعد ابن زياد ابن سعد بملك الري وإمرة الجيش.

وتهافت الحسين وأصحابه على الآخرة.

---

(١) بحار الأنوار ٧: ١٢٧، ح١٣٠، نقلاً عن أمالي الطوسي: ٦٦٢، ح١٣٨١ المجلس الخامس والثلاثون.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٤٠ في رجوع السبايا إلى الشام.

الإيمان الثابت

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (١).

الخطاب لبعض أصحاب الرسول ﷺ الذين كانوا يتمنون الفوز بالشهادة قبل وقعة أحد، ولما جدّ الجدّ جبنوا وانهزموا وأسلموا النبي ﷺ لأعدائه وأعدائهم.. وفي بعض الروايات أن رجالاً من الأصحاب كانوا يقولون: لأن شهدنا حرباً مع النبي ﷺ لنفعلن ونفعلن، فلما ابتلوا بذلك لم يفوا بالعهد فأنزل اللّه فيهم: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾.

والمراد برؤية الموت رؤية أسبابه من مبارزة الأبطال. وقد وبخهم اللّه بهذه الآية لمخالفة أقوالهم لأفعالهم.

لكل إنسان ظروفه وبيئته الخاصة، وهذه الظروف هي التي تهيمن على أخلاقه وأفكاره في الغالب، فالضعيف مثلاً يستقبح الظلم أكثر من القوي، ومن تربى في بيئة تعبد الأوثان لا يرى بأساً في تقديسها، اللهم إلا إذا كان إنساناً فوق المعتاد كمحمد بن عبداللّه ﷺ فإنه كان بفطرته يرفض كل قبيح من عادات قومه.

---

(١) آل عمران: ١٤٣.

وقد تتغير ظروف الإنسان فيصبح غنياً بعد أن كان فقيراً أو بالعكس فتتغير تبعاً لها أخلاقه وأفكاره، فالذات تبقى على صفاتها ما لم تتغير ظروفها الاجتماعية، فإذا تغيرت تغيرت صفات الذات في الأعم الأغلب. وقد شاهدنا رجالاً كانوا ينتقدون الأغنياء والرؤساء وهم فقراء مرؤوسون حتى إذا نالوا نصيباً من المال والجاه نقضوا العهد وأصبحوا أسوأ حالاً ممن نقموا عليه بالأمس.

وقد أكد القرآن هذه النظرية بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ الآية، وبقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(١).

ويقال: إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطاه ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

ثم أتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسح على رأسه فذهب عنه القرع وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطاه بقرة وقال: بارك

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٧٦.

الله لك فيها.

ثم أتى الأعمى فقال: أي الأشياء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله عليّ بصري، فمسحه فرد الله عليه بصره، قال: أي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة فبارك الله له فيها.

وبعد مدة أتى الملك إليهم وقد وسّع الله عليهم بتلك الثروة العظيمة فقال للأبرص: أني رجل مسكين وقد انقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له الملك: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس وفقيراً فأعطاه الله؟ قال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت عليه.

وأتى الأقرع فقال له مثل ذلك، ورد عليه مثل ما رد الأول، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت عليه من حالتك الأولى.

ثم أتى الأعمى وقال له مثل ما قال لصاحبيه، فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت، فقال: أمسك مالك فإني قد أردت اختباركم وقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك وأرجعهما إلى حالتهما من قبل(١).

هذه حال الإنسان إذا افتقر أظهر الشك وأطال اللحية، وصار يؤذن في المساجد ويتقي ويتضرع إلى الله تعالى حتى إذا أعطاه الله نسي كل شيء.

---

(١) صحيح مسلم ٤: ٢٢٧٥ كتاب الزهد والرقائق، ح٢٩٦٤ بتصرف.

والعاقل المجرب يتهم نفسه ولا يؤكد كل ما يعرض لها من خطرات وتصورات خشية أن تكون سراباً يذهب مع الريح. كما أن المؤمن حقاً وواقعاً يبقى ثابت الإيمان في السراء والضراء تنطبق أقواله على أفعاله في جميع الحالات ويتجه بها جميعاً إلى اللّٰه وحده مهما تكن الظروف والنتائج[١].

وقد جاء في تفسير الآية ٩ من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ جاء في تفسيرها روايات تقول: إن المستقر هو الإيمان الثابت، والمستودع هو الإيمان

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ ووبخهم اللّٰه بهذه الآية لمخالفة أقوالهم لأفعالهم.

وإن بقاء النفس للنفس محبوب، ومن الذي لا يأبه بالموت فهو مر وكريه طعمه، إلا من عظمت الآخرة عنده.

كان علي عليه السلام يباشر الحرب في غلالة فقيل له: ما هذه صفة محارب، فقال: فوالله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي[٢]، وأفضل الموت الاستشهاد وفي سبيل الحق. فصدق قوله بالفعل لما ضرب على رأسه قال: فزت ورب الكعبة[٣]. وهكذا كان أبناؤه الكرام لا يبالون بالموت في سبيل الحق.

---

(١) التفسير الكاشف ٢: ١٦٨ في تفسير سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦: ١١٧.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٥ في مقتله عليه السلام.

فلما خفق الحسين عليه السلام على ظهر جواده في طريقه إلى العراق انتبه وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون.فسمع علي الأكبر تكرار أبيه لهذه الكلمة فتقدم إليه، وقال: أبه ذكرت الله وحوقلت، قال: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فرأيت فارساً على فرسه فرس وقف علي وقال يا حسين انكم تسرعون والمنايا تسرع بكم إلى الجنة فعلمت ان أنفسنا نعيت إلينا، فقال له ابنه علي: يا أبة أفلسنا على الحق؟ قال: بلى يابني والذي إليه مرجع العباد فقال ابنه علي: إذن لا نبالي بالموت، فقال له الحسين: جزاك الله يا بني خير ما جزى به ولداً عن والده(١).

فلم يبالِ الأكبر بالموت في سبيل الحق لما نظر إلى وحدة أبيه تقدم إليه وقال: أبه صمت إذن تسمع دعوتك فلا تجيبك.... إلخ.

فمن علم أنه على الحق وأن مصيره للجنة لا يأبه بالموت.

لو حدثك محدث لما كنت تصدق أن شاباً في مقتبل العمر ابن أربع عشرة سنة يقول: إن الموت عندي أحلى من العسل. نعم هو القاسم بن الحسن عليه السلام لما أخبر الحسين أصحابه(٢) بمناياهم ليلة العاشر أعرض عن القاسم فقام إليه القاسم وقال: أنا فيمن أقتل يا عم؟ قال: كيف تجد الموت عندك؟ قال: أحلى من العسل بين يديك. قال: بني أنت تقتل ويقتل عبد الله

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢٢٦ الفصل الحادي عشر في خروج الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق. بتصرف.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢٤٧ في خروج الحسين من مكة إلى العراق.

الرضـيع. قال: عم أيصل القوم إلى المخيم؟ قال: بلى. قال: وفيها عمتي زينب؟ قال: بلى وتألم بالسياط[١].

(١) الهداية الكبرى: ٢٠٤ ب (٥) الإمام الحسين الشهيد عليه السلام بتصرف.

ذرية بعضها من بعض

قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١].

الاصطفاء: الاختيار.

المعنى:

قال محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي في تفسيره الكبير المسمى بالبحر المحيط قال: ((قرأ عبدالله وآل محمد على العالمين). وسواء صحت هذه القراءة أم لم تصح فإن آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٢]، إن هذه الآية كافية وافية في الدلالة على اصطفاء اللّه لآل محمد ومنزلتهم وعظمتهم [٣]. فهم علماء الأمة إن كان لغيرهم شيء من الشرف فمن بحرهم أخذ واغترف،

إليكم وإلا لا تشد الركائب ومنكم وإلا لا تصح المواهب
وفيكم وإلا فالحديث مزخرف وعنكم وإلا فالمحدث كاذب [٤]

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) التفسير الكاشف ٢: ٤٨ في تفسير سورة آل عمران، آية: ٣٣ ـ ٣٤.

(٤) شرح الزيارة الجامعة: ١٨٩.

إن محمداً أفضل الأنبياء جميعاً فآله أيضاً أفضل الآل جميعاً، بل إن علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل، أو أفضل من أنبياء بني إسرائيل. فبالأولى إذا كان العلماء من آله الأطهار بشهادة اللّٰه تعالى.

ومهما يكن فقد ابتدأ اللّٰه سبحانه بذكر آدم لأنه أبو البشر الأول، وثنى بنوح وهو أبو البشر الثاني؛ لأن جميع سكان الأرض من نسله وحده من أولاده الثلاثة: سام وحام ويافث حيث قضى الطوفان على جميع الناس إلا نوحاً.

واصطفى اللّٰه كلاً من آدم ونوح بشخصه، ولذا لم يقترن اسمهما بآل أما إبراهيم وعمران فقد اصطفاهما مع الآل. وكما أن آدم ونوحاً هما أبوا البشر فإن إبراهيم أبو الأنبياء جميعاً بعد نوح، حيث لا نبي منذ إبراهيم إلا من نسله.

والظاهر أن المراد بعمران في قوله: ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ هو أبو مريم جد عيسى لا أبو موسى الكليم لتكراره في الآية الثانية: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ فهو نظير تكرار الاسم في جملتين وردتا في سياق واحد نحو: أكرم زيداً، إن زيداً رجل صالح. وعلى هذا يكون المراد بـ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ السيد المسيح وأمه مريم. وقيل: إنه كان لعمران أبي موسى الكليم بنتاً اسمها مريم أكبر من موسى سناً وإن بين عمران هذا وعمران جد المسيح ألف وثمانمائة سنة.

والمراد بقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أن اللّٰه قد اختار كل واحد ممن ذكرهم لأنه كان الصفوة الممتازة في أهل زمانه لا في كل زمان.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ ليس من شك أن نوحاً فرع عن آدم وإبراهيم

وآله فرع عن نوح، وآل عمران فرع عن إبراهيم، وبيان هذا الشبه من توضيح الواضح، وكلام اللّه يجب أن يحمل على أحسن المحامل، إذن ما هو القصد من هذا الإخبار؟

الجواب: ليس القصد الإخبار عن أن المتأخر فرع عن المتقدم، وإنما القصد كما هو ظاهر السياق مدحهم والثناء عليهم وأنهم كانوا أشباهاً ونظائر في القداسة والفضيلة.

وبعد هذا التمهيد ينتقل إلى قصة امرأة عمران أم مريم وجدة عيسى، وخلاصتها: أن قوفاذ بن قبيل الإسرائيلي له بنتان،اسم إحداهما حنة وتزوجها عمران وهو إسرائيلي أيضاً وأولدها مريم. واسم الثانية إيشاع وتزوجها زكريا وولدت منه يحيى، فيحيى بن زكريا ومريم أم عيسى هما ابنا خالة، وليس عيسى ويحيى ابني خالة كما هو معروف، هكذا في مجمع البيان.

ومات عمران وحنة حامل فنذرت حملها لخدمة بيت المقدس، وتضرعت خالصة للّه أن يتقبل نذرها، وكان هذا جائزاً في دينهم ولا يجوز في دين الإسلام.

وكانت تنتظر ذكراً لأن النذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ولما وضعتها أنثى توجهت إلى اللّه وقالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ... ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. ومريم في اللغة العبرية بمعنى خادم الرب. وتقبل اللّه نذرها وإن كانت أنثى.

واختلف بنوا إسرائيل، كلٌّ يريد أن يكفل مريم، ويدير شؤونها، ولما اشتدت الخصومة بينهم اتفقوا على الاقتراع، فكانت من نصيب زكريا زوج

خالتها، وكان آنذاك رئيس الهيكل اليهودي فاهتم بها وتفقد شؤونها، وكان كلما دخل عليها وجد عندها طعاماً وعهده بها لا يدخل عليها أحد، فسألها متعجباً: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾ أي لا بواسطة أحد من الناس ﴿إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وليس من شك أن هذه كرامة لمريم عليها السلام أما من نفى هذه الكرامة وقال: إن الطعام الذي رآه عندها زكريا كان من حسنات المؤمنين فهو خلاف ظاهر الآية. وليست هذه الكرامة بأعظم من ولادة عيسى بلا أب، فإن كانت تلك محلاً للشك والريب فهذه أولى.

﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ نشأت على الخلق الكريم وطاعة اللّه وعبادته(٢) فعن ابن عباس لما بلغت التاسعة(٣) من عمرها صامت النهار وقامت الليل وتبتلت غلبت حتى على الأحبار(٤) ولم تجر عليها خطيئة.

وحدثت مثل هذه الكرامة لسيدة النساء فاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء في تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي عند تفسير قوله تعالى

---

(١) آل عمران: ٣٧.

(٢) التفسير الكاشف ٢: ٥٠ في تفسير سورة آل عمران، آية: ٣٧.

(٣) وهذا هو حد التكليف للفتاة، إذا أكملت التاسعة ودخلت في العاشرة كلفت وطولبت بكل ما أوجب اللّه من الواجبات. أما بناتنا اليوم إذا أكملت في السنين لزمت الشنطة أو وقفت بالشارع، وليس هذا ممنوعاً ((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)) ولكن مع المحافظة على الدين والشرف.

(٤) مجمع البيان ٢: ٢٨٣ في تفسير سورة آل عمران، آية: ٣٧.

حكاية عن مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾ جاء في هذا التفسير ما نصه بالحرف: ((جاع النبي ﷺ في زمن من قحط فأهدت له فاطمة رغيفين ولحماً فأتاها فإذا بطبق عندها مملوءاً خبزاً ولحماً، فقال لها: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند اللّه، إن اللّه يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: الحمد للّه الذي جعلك شبيهة بسيدة بني إسرائيل)).

ثم جمع رسول اللّه علياً والحسنين وجمع أهل بيته عليه فأكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت فاطمة على جيرانها.

وفي كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري: إن علياً استقرض ديناراً ليشتري به طعاماً لأهله فالتقى بالمقداد بن الأسود الكندي في حال انزعاج، ولما سأله الإمام قال: تركت أهلي يبكون جوعاً، فآثره بالدينار على نفسه وأهله، وانطلق إلى النبي ﷺ وصلى خلفه وبعد الصلاة قال النبي ﷺ لعلي: هل عندك شيء تتعشيان، وكان اللّه قد أوحى إليه أن يتعشى عند علي عليه السلام فأطرق علي لا يحير جواباً، فأخذ النبي ﷺ بيده وانطلق إلى بيت فاطمة عليها السلام وإذا بجفنة من الطعام، فقال لها: من أين لك هذا؟ قال له النبي ﷺ: هذا ثواب الدينار، هذا من عند اللّه إن اللّه يرزق من يشاء بغير حساب، الحمد للّه الذي أجراك يا علي مجرى زكريا، وأجراك يا فاطمة مجرى مريم، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾(١) (٢).

---

(١) مريم: ٣٧.

(٢) ذخائر العقبى: ٤٦ ـ ٤٧.

ثـم قـال محـب الديـن الطبري: أخرج هذا الحديث الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.

وجـاء في صحيح مسلم باب فضائل بنت النبي ﷺ: أن رسول اللّه ﷺ قـال: لابنـته فاطمـة: ((أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة))(١).

ونقـل السـيد محسـن الأمـين في الجزء الأول من أعيان الشيعة (٢) سيرة الزهـراء: روى الـبخاري في صـحيحة أن النبي ﷺ قال: ((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة))(٣).

---

(١) صحيح مسلم ٤: ١٩٠٥ ب (١٥) فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، ح٩٨.

(٢) أعيان الشيعة ١: ٣٠٧، في مناقبها وفضائلها.

(٣) صحيح البخاري ٤: ٢٠٩ باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبة فاطمة بنت النبي ﷺ

الأبــــناء

قال تعالى حكاية عن نبيه زكريا عليه السلام:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (١).

زكريا شيخ كبير وامرأته عجوز عقيم، فخاف إن جاء أجله أن يرثه بنو عمومته وهم من بني إسرائيل، فإذا ورثوه أساؤوا إلى الناس وأفسدوا عليهم دينهم ودنياهم. ورغم شيخوخة زكريا وعقم زوجته فإنه كان عظيم الثقة بخالقه، ولذا دعا أن يجبر كسره ويقضي حاجته (٢).

المراد بالإرث هنا:

وتدل الآية على أن الأنبياء يورثون المال وأن الإرث المذكور فيها إنما هو المال لا العلم ولا النبوة. وإن لفظ الميراث في اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ما ينتقل من الموروث إلى الوارث كالأموال ولا يستعمل في غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع. ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة.

وإيضاً إن زكريا عليه السلام قال في دعائه: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٣) أي يا رب اجعل ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك ممتثلاً لأمرك. ومتى حملنا

---

(١) مريم: ٥ ـ ٦.

(٢) التفسير الكاشف ٥: ١٦٩، في تفسير سورة مريم، آية: ١ ــ ٦.

(٣) مريم: ٦.

الإرث عـلى النـبوة لم يكن لذلك معنى وكان لغواً عبثاً، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقـول أحـد: اللهم ابعث لنا نبياً واجعله عاقلاً مرضياً في أخلاقه؛ لأنه إذا كان نبياً فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في النبوة.

ويقوي ذلك أن زكريا صرّح بأنه يخاف من بني عمه بعده بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾. وإنما يطلـب وارثاً لأجل خوفه ولا يليق خوفه مـنهم إلا بالمال دون النبوة والعلم؛ لأنه عليه السلام كان أعلم بالله من أن يخاف أن يبعـث اللّـه نبـياً من هو ليس بأهل النبوة وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهـا بـأهل، ولأنه بعث لإذاعة العلم ونشره في الناس فكيف يخاف الأمر الذي هو الغرض من بعثته.

فإن قيل: إن هذا يقتضي نسبة البخل إليه في وراثة الأموال.

فـالجواب: معـاذ اللّـه أن يسـتوي الأمـران، فـإن المـال قـد يُرزقه المؤمن والكافـر والصـالح والطالح، ولا يمتنع أن يأسى على بني عمه إذا كانوا من أهل الفسـاد أن يظفـروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغي بل في ذلك غاية الحكمة، فإن تقويـة أهـل الفساد وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة في الدين والعقل، فمن عد ذلك بخلاً فهو غير منصف وقوله ﴿خفت الموالي من ورائي﴾ يفهم أن خوفـه مـن أخلاقهـم وأفعـالهم[1]، والمـراد خفـت الموالـي أن يرثوا بعدي أموالي فينفقوها في معاصيك فهب لي ولداً رضياً ينفقها فيما يرضيك.

---

(١) مجمع البيان ٦: ٤٠٢ ـ ٤٠٣، في تفسير سورة مريم، آية: ١ ــ ٦.

أبناء هذا الزمان:

وقد مني الناس في هذا الزمان ببعض الأبناء مردوا على النفاق فتراهم حتى في حضرة آبائهم ينفقون الأموال في المعاصي، ولعل الآباء ينجرفون مع الأبناء في بعض المعاصي.

وأكثر الأبناء في هذا الزمان كالغلام الذي قتله الخضر فأنكر عليه موسى فلما بيّن له الحكمة في قتله ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[1] أي أرحم بهما وأبر.

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: أن الغلام كان في سن البلوغ وكان كافراً، وأنه كان يعمل جاهداً لحمل أبويه على الكفر، تماماً كما يفعل الآن بعض الشباب من غلمان هذا العصر. وقد أدركنا أكثر من واحد من كبار العلماء بالذين كانوا محل الثقة والتقديس في جميع الأوساط حتى إذا بلغ غلمانهم هدموا كل ما بناه الآباء في السنين الطوال.

واشتهر عن الإمام علي عليه السلام قال: ((لازال الزبير معنا حتى أدرك فرخه))[2]. وفي تفسير روح البيان ج١، في تفسير ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[3] عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة

---

(١) الكهف: ٨٠ ـ ٨١.

(٢) بحار الأنوار ٦٨: ١٢٣ ب (٦٣) التوكل والتفويض والرضا والتسليم، ح١.

(٣) البقرة: ٣٥.

بعـد الألـف فقـد حلت العزوبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال وذلك لأن الخلق في المائتين بعد الألف أهل الحرب والقتل فتربية جرو خير من تربية الولد، وأن تلد المرأة حية خير من أن تلد الولد))[1].

وفي هـذا الـزمن يـربى الأولاد كواجـب شـرعي كتربية البنت لا لأجل نفعهم في الأكثر، والأهم أن يربيهم تربية دينية ويهذبهم ويؤدبهم، وهذا أنفع لـه ولهـم مـن أن يـترك لهـم ثروة طائلة لأن الثروة في يد الشباب رهينة عينين دعجاوين وخصر نحيل فما أكثر الأولاد وما أقلهم.

وقـد ظهـر مصـداق الآيـة في هـذا الـزمان ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[2]والـثمرات الوُلـد، والوُلـد كثيرون في هذا الزمان، فالنقص معنوي لا حقيقي، فلو فرضنا أن للإنسـان عشرة أولاد غير صالحين فكأنه لا ولد لـه، فالولد الصالح أحسن من عشرين ولداً غير صالحين.

وقـد فقـد الكـثير في هـذا الـزمان مـن الأبـناء احترامهم لآبائهم. وفي الحديـث: أن رجلاً أتى النبي ﷺ يشكو أباه بأنه أخذ ماله فأرسل النبي ﷺ إلى الأب وقبل مجيئه هبط الأمين جبرئيل وأمره أن يسأله عما قال في نفسه، ولما حضر الشيخ عند رسول الله ﷺ قال: سله يا رسول الله هل أنفق ماله على

---

(١) روح البيـان ١: ٢٧٣ في تفسير سورة البقرة، آية: ٣٥، وورد صدر الحديث في زبدة البيان: ٥، ومثله في مستند الشيعة ١٦: ١٣، وتذكرة الموضوعات: ٢٢٣ باختلاف يسير.

(٢) البقرة: ١٥٥.

نفسي أو على عماته وخالاته؟ فقال رسول اللّه: دعنا من هذا وأخبرني عن شيء قلته في نفسك لم تسمعه أذناك، فقال الشيخ: واللّه يا نبي اللّه إن اللّه سبحانه لم يزل يزيدنا فيك إلا يقينا لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي فقال: قل: وأنا أسمع، قال: قلت:

غدوتك مولوداً ومنتك يافعاً تعلُّ بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي طُرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما فيك كنت أؤمل
جعلتَ جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل

فلما سمع النبي ﷺ هذا من الشيخ التفت إلى ابنه وقال: قم، أنت ومالك لأبيك(١).

وبالطبع هذا من باب الأدب وإلا فالولد يملك في حياة أبيه لذا يقول الفقهاء إذا ملك الولد مالاً من كسبه في موسم الحج فعليه أن يحج من دون إذن أبيه.

والبر غالباً هو مظنة الأبناء تجاه الآباء. والولد شظية من كبد والده

---

(١) نهج البلاغة: ٤٥٧، من وصية له عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام، رقم [٣١].

وعضـو من أعضائه. قال علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: ووجدتك بعضي بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً أصابك...[١]

وقـد أوجـب المـولى سبحانه حقوق الأبوين على الولد لا سيما إذا كانا صـالحين. ومـن عظيم أثرهما عند الله سبحانه أن قرن شكره بشكرهما، فقال تعـالى: ﴿أنِ اشْـكُرْ لِـي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[٢]، كما قرن الإحسان إليهما بتوحيده ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٣].

والأبناء الصالحون هم وجه الدنيا وزينة الحياة:

نعـم الإلـه عـلى الخلائـق كـثيرة   وأجـــــلهن نجابــــة الأولاد

وفقدهـم الـرزء الـذي لا رزء بعده، فهو يقصم الظهر ويهشم الضلوع ويـنزف الدمـوع حـتى لـو كان الفاقد للولد إمام معصوم لابد وأن يبدو عليه الـتأثر وتجـري دموعـه. ويـتفاوت الـرزء في الولد إذا كان شاباً فمصابه أعظم وأجـل، وإن كـان رضـيعاً فمصـابه أهـون وأقـل إلا أن يكـون الرضيع مقتولاً فمصابه أعظم على والده ولا سيما إذا قتل بين يديه أو على يديه.. ساعد الله قلب الحسين عليه السلام قتل عبدالله الرضيع على يديه[٤].

---

(١) مجمع الزوائد ٤: ١٥٥، والمهذب البارع ٥: ٤١٨.

(٢) لقمان: ١٤.

(٣) الإسراء: ٢٣.

(٤) انظر: مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٢، في مقتل الحسين عليه السلام.

تربية الأبناء

قال أمير المؤمنين عليه أفضل التحية:

((لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب))(١).

ومن كلام له عليه السلام قال لولده الحسن عليه السلام: ((أي بني ما الإنسان لولا الأدب إلا بهيمة مهملة، واعلم أي بني أن العاقل يتعظ بالأدب والبهيمة تتعظ بالضرب، فلا كنز أنفع من العلم، ولا حسب أبلغ من الأدب))(٢).

سأل خطيب مصر أبا نؤاس عن نسبه، فقال: أغناني أدبي عن نسبي. وأبو نؤاس هو الحسن بن هاني الشاعر الشهير ولد بالبصرة وبها نشأ ثم نزل الكوفة وتوصل بأدبه ونوادره للرشيد وكان يميل مع الدولة. قصد مصر ومدح الخصيب عبدالحميد بقصيدة يقول فيها:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا   فأي فتى بعد الخصيب تزور

فأجازه الخصيب على ذلك، ولما رجع إلى بغداد نظم قصيدة في مدح الخليفة العباسي هارون الرشيد وأراد إنشادها بحضرته، فقالوا له: أي شيء

---

(١) نهج البلاغة: ٥٦١ في القصار من كلماته رقم الحكمة [٥٤]، وعنه بحار الأنوار ١: ٩٥، ح٣٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٤: ٢٨٢، وفيه: أيها الناس إنه لا كنز أنفع من العلم... ولا حسب أبلغ من الأدب، وورد عن أمير المؤمنين ٧٢: ٦٧، ح٣ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا حسب أبلغ من الأدب، وورد في ميزان الحكمة ٦: ٤٤٩، ح١٣٣٥٢ مقطع من الحديث بلفظ: لا كنز أنفع من العلم.

تقول بعد أن قلت في بعض نوابنا:

إذا لم تزر أرض الخصيب البيت؟

فأطرق ثم قال:

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنسان فأنت الذي نعني

قيل توفي أبو نؤاس سنة ١٩٨هـ (١).

ورثوا أبناءكم أدباً:

وما ورثت الآباء أبناءهم أفضل من الأدب لأنه كنز عند الحاجة، صاحب في الوحدة تعمر به القلوب الواهية، وتحيى به الألباب الميتة. والأدب يشرف الصغير على الكبير.

ولما كانت الخلافة لعمر بن عبدالعزيز قدمت عليه الوفود فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال ابن عبدالعزيز: اسكت يا صبي ليتكلم من هو أسن منك، فقال الصبي: لو كان القول كما تقول لكان في محلك من هو أحق به منك، فقال: صدقت بني تكلم، فقال: يا أمير المؤمنين قد قدمنا عليك من بلد يحمد اللّٰه الذي مَنَّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبةً منا ولا خوفاً منك، أما الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام.

فقال ابن عبدالعزيز: عظني، قال: يا أمير إن أناساً غرهم حلم اللّٰه وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم اللّٰه فتزل قدمك فتكون من الهالكين.

---

(١) الكنى والألقاب ١: ١٦٨ ـ ١٦٩ في ترجمة (أبو نؤاس).

فنظر إلى سن الغلام فإذا هو ١٢ سنة، فقال:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن أكبر القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل[١]

روي أن المأمون قال: ما أعياني جواب أحد قط مثل جواب ثلاثة أحدهم أم الفضل بن سهل فإني عزيتها عن أبنها وقلت لا تجزعي ودعي البكاء فأنا مكانه، فقالت: وكيف لا أجزع على من جعل مثلك لي ولداً.

والثاني رجل يزعم أنه نبي اللّه موسى عليه السلام فقلت له: إن اللّه تعالى أخبرنا عن موسى أنه يدخل يده في جيبه فيخرجها بيضاء من غير سوء، فقال متى فعل ذلك موسى؟، أليس بعد أن لقي فرعون! فاعمل كما عمل فرعون حتى أعمل كما عمل موسى.

والثالث إن جماعة من أهل الكوفة اجتمعوا إليّ يشكون إليّ عاملها فقلت: ارضوا بواحد أسمع منه فرضوا برجل منهم برجل فقال في العامل وأكثر؛ فقلت له: كذبت! بل هو العفيف الورع العدل، فذهب أصحابه يتكلمون فسكتهم ثم قال: صدقت يا أمير هو كما ذكرت فواس بين رعيتك في العدل فصرفته عنهم[٢].

ونظر المنصور الدوانيقي إلى إياس بن معاوية متقدما ٤٠٠ شيخ فقال بئس لهذه العثانين أما فيهم من يتقدم حتى قدموا هذا الغلام، ثم دعا به

---

(١) مروج الذهب ٣: ١٩٧ في ذكر لمع من أخباره وسيره بتصرف.

(٢) أمالي المرتضى ١: ٢٩٧ رقم المجلس [٢١].

وقـال: يـا غـلام كـم سـنك؟ قـال: سني سن اسامة بن زيد عندما بعثه رسول الله ﷺ أميراً على جماعة من الأنصار في سرية.

فالأدب له قيمته.

ومـن أبـدع الصدف التي اتفقت للربيع مع المنصور أنه لما دخل المدينة قـال: أبغـي رجـلاً أديـباً عاقلاً عالماً ليوقفني على دورها فقد بعد عهدي بديار قومـي، فالـتمس لــه الربـيع فـتىً من أعلم الناس وأعقلهم، فكان لا يبتدئ بالإخـبار عـن شـيء حـتى يسـأله المنصـور فيجيبه بأحسن عبارة وأجود بيان وأوفـى بـيان، فأعجب المنصور به فأمر لـه بمال فتأخر عنه ودعته الضرورة إلى استنجازه، فاجتاز المنصور ومعه الفتى ببيت عاتكة الأموية فقال له يا أمير هذا بيت عاتكة التي يقول فيها الأحوص بن محمد الأنصاري:

يــا بيــت عاتكــة الــتي أتعــزل   حــذر العـدى وبـه الفـؤاد موكـل

إنــي لأمــنحك الصــدود وإنــني   قسـماً إلـيك مـع الصـدود لأمـيل

ففكـر المنصـور في قولــه وقال: إنه لم يخالف عادته بابتداء الإخبار دون الاسـتخبار إلاّ لأمـر، وأقبل يردد القصيدة ويتصفحها بيتاً بيتاً حتى انتهى إلى قوله فيها:

وأراك تفعــل مــا تقــول وبعضــهم   مــذق الحديـث يقـول مـا لا يفعـل

فقـال المنصور للربيع هل أوصلت إلى الرجل ما أمرنا لـه به؟ فقال لـه: تأخر عنه، فقال: عجله مضاعفاً. وهذا ألطف تعريض من الفتى وأحسن فهم من المنصور.

إن للتربية أثراً كبيراً في نشأة الطفل[١] وتهذيب أخلاقه حيث إن الطفل قد يفسد بالعرض إذا أهمل المربي تربيته في حال أنه صالح بالذات فكثير من الأطفال من يتوقد ذكاءً بحسب فطرته ولكن إذا لم يُعتنَ بتربيته فسرعان ما ترى أن خمدت تلك النار وانطفأت هاتيك الشعلة.

إن العصا يمكن تعديلها ما دامت لينة ولكنها إن يبست إذا أردت تعديلها انكسرت، وهكذا الناشئ الصغير فإنه شب وترعرع ولم يُعتنَ بتربيته ففسدت أخلاقه، ومن الصعب حينئذٍ أن تفيده المدرسة شيئاً.

فالواجب إذن على الآباء أن يبذلوا النفس والنفيس في تهذيب أبنائهم وتثقيف عقولهم فإن وجود الطفل الفاقد للتربية يكون كلاً على والديه، كلاً على أسرته، كلاً على المجتمع البشري، ولا توضع هذه الجناية إلا على كاهل الآباء لأنهم لم يقوموا بواجباتهم الأبوية نحو أبنائهم مع إمكانهم إذا اهتموا بتربية الطفل أن يصبح الرجل الفرد في المستقبل.

ومن المؤسف جداً أنا نرى كثيراً من الآباء والأمهات يشغلهم حب أولادهم عن تعليمهم وتهذيب أخلاقهم، وطالما يكون عاقبة ذلك أن ينشأ الطفل وهو أمي لا يخط بيده حرفاً ولا يقرأ ولا يكتب فيضحون حينئذٍ بمستقبل أبنائهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢].

ذلك شأن الجاهل يريد أن ينفعك فيضرك. وهذا داء يكاد يسري في

---

(١) مجلة المدى: ٢٩٤.

(٢) الكهف: ١٠٤.

معظم أقطارنا الشرقية، ولكن لو تأملوا قليلاً لفهموا أن التربية خير وسيلة لنجاح الطفل ورقيه. ولقد أجاد الشاعر الرصافي حيث يقول:

هي الأخلاق تنبت كالنبات ... إذا سقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهدها المربي ... على ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق ... كما اتسقت أنابيت القناة
وتنعش من صميم الوجد روحاً ... بأزهار لها متضوعات

ولكن الذي يجب على الآباء أن يختاروا لأبنائهم التربية الصحيحة التي توصلهم إلى معرفة الله ورسله، وتغرس في قلوبهم حب الوطن والتفاني في سبيل الحق والفضيلة، تلك التربية التي تضطرهم إلى ملاحظة المصلحة العامة التي تعود بالنفع عليهم وعلى بلادهم.

التربية الدينية ضرورة:

وليست لدينا تربية بهذه المثابة سوى التربية الدينية فإنها هي التربية الحقيقية التي تؤهل الطفل لأن يكون في المستقبل في مصاف الرجال وفي مستوى رفيع من الرقي والمدنية، وليست التربية المدرسية الخالية عن التربية الدينية بضامنة لسعادة الطفل الذي نأمل أن يكون عضواً عاملاً في المجتمع ويداً قوية تعمل على بناء مجد الوطن حيث إنا نرى كثيراً من التلامذة الذين تخرجوا من أمهات المدارس العالية يضحون بالمصلحة العامة في سبيل مصلحتهم الخاصة، ويبيعون الوطن بثمن بخس إزاء مطامعهم وأغراضهم الشخصية، وما ذلك إلا لأنهم لم يأخذوا نصيباً من التربية الدينية حين

دراستهم لكي يعرفوا أن ((حب الوطن من الإيمان))(١)، وإلا فالحقوق الوطنية تقضي أن يسعوا في إصلاح وطنهم المحبوب سعيهم في إصلاح دارهم ليكون في المستقبل قطراً راقياً يضاهي سائر الأقطار والأمم المتمدنة. بل ينبغي للوطني الغيور على مصالح الشعب والبلاد أن يدفع إزاء حقوق الوطن بكل ما أوتي من حول وطول دفاع الرجل المستميت الذي يروم صون عرضه.

فلحفظ مستقبل الطفل ابن اليوم ورجل الغد يجب حينئذٍ على المربي أن يبذر في قلب الطفل تعاليم الدين الإسلامي وإلا فإنا نعتقد بأن الطفل المتعلم الذي لم يربَ تربية صحيحة يكون خطره على الوطن أشد من الخطر الناشئ من الطفل الجاهل حيث إنه أعلم بالأسباب التي تجلب الخطوب والويلات على الوطن.

على أن الباعث للإنسان على الأفعال الصالحة وعدم ارتكاب الأفعال السيئة هو الدين، فإذا كان الإنسان لا يخشى اللّٰه تعالى ولا يراعي حقوقه فأحرى به أن لا يخشى الناس وأن لا يراعي حقوق الوطن.

ولسنا نرى أنا في حاجة ماسة إلى إيراد الأدلة الكثيرة الدالة على أن التربية الدينية هي الصالحة لحفظ النوع الإنساني والضامنة لحقوق الوطن والمجتمع، فإن ما تحمله لنا الجرائد والمجلات من وقت إلى آخر من انتحار الطلبة عند سقوطهم في الامتحانات لشاهد صدق على ما نقول.

ولو كانت تعاليم الدين الإسلامي راسخة في عقل الطفل لما أقدم على

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٢٢ ب (٤١٠٨) في حب الوطن، ح٢١٦٢٨.

هـذه العـادة الـتي قذف بها إلينا الغرب تلك العادة السيئة التي تكسب العار في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

ولكـنا يـا للأسف مع ظهور فوائد التربية الدينية ترى مدارسنا بل كافة المـدارس في الشـرق لا تهتم في الدروس الدينية كاهتمامها في باقي الدروس. وهـذه قضـية ضـرورية لا أحسـب أنهـا تخفى على أحد، كيف وهذه مدارسنا نصـب أعينـنا نـراها لا تدرس الدروس الدينية إلا بصورة بسيطة لا تغني ولا تسمن من جوع. أضف إلى ذلك عدم اهتمام المعلمين بها في الامتحانات، فإن التلمـيذ إذا سقط بها وأجاب عن باقي الدروس عده الأساتذة ناجحاً في حين أنه لا يغتفر ذلك فيما إذا سقط الطفل في دروس الهندسة والجغرافيا أو غيرها من سائر الدروس.

وقـد شـاءت الأقـدار أن يـبقى الشرق مقلداً للغرب في عاداته وأخلاقه وأطـواره وجمـيع حالاته من غير هدى ومعرفة. استيقظ الشرق قليلاً من سباته في الأونـة الأخـيرة وفـتح عيـنه بعد أن أغمضها ردحاً من الزمن فرأى المدنية المـزيفة أمـام ناظـره فـرأى مـا فـيها مـن الزخارف الباطلة والمخترعات الخالية فحسـب حينئذٍ أن لا مدنية ولا عمران إلا ما توحيه تلك المدنية الحديثة. ألقى بصـره فـرأى كثيراً من الغربيين يندد على المسلمين لتمسكهم بدينهم وتجعله هـو السـبب في انحطـاطهم عن باقي الأمم الحية. ولكن هل فكر الشرق قليلاً عـند إلقاء هذه الكلمات ونحوها؟ هل عرف أنها ترمي إلى إماتة الروح الدينية وطمسـها مـن بين أفراد المسلمين كي تستتب الأمور ويصفو لهم الجو؟ كلا، لم يفكر في شيء من ذلك، بل أخذ يمشي على طبقها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أجل كيف يمكننا الاتفاق معهم وكيف يمكننا أن نعتقد بأن الدين في نظرهم هو السبب في انحطاط الأمم وها نحن نراهم يبذلون الملايين من الليرات في سبيل التبشير المسيحي في البلاد الإسلامية.

أحد المسيحيين يأتي بكمية كبيرة من الكتب في بعض البلدان لسوق الصفارين ليبشر بالمسيح، فيحرقونها أمامه وهو يكرر الكتب، سئل لماذا؟ وهم يحرقونها قال: لعل أحدهم يمضي بواحد من الكتب إلى بيته فتقرؤه عائلته فيصبحون مسيحيين.

لنفرض أن هذه أمور سياسية بصفة دينية ولكن ماذا تقول في العداوة الناشئة بين الكاثوليكية البروتستانتية التي طالما أدت إلى حروب هائلة؟ أليس هذا برهاناً ساطعاً على التعصب المذهبي فضلاً عن وجود الروح الدينية، بلى وأيم الله.

ولكن عدم تدبيرنا للمطالب جعلنا نقلد الغرب تقليداً أعمى من غير أن نفكر فيما يترتب على ذلك من النتائج السيئة التي لا تعود علينا إلا بالوبال والخسران، وما نصيبنا في هذه المدنية الحاضرة بعد أن ننبذ عادات آبائنا الحميدة إلا نصيب ذلك الغراب الذي رأى حجلة تدرج وتمشي فأعجبته مشيتها وطمع أن يتعلمها فمرن على ذلك نفسه فلم يقدر على إتقانها ولما آيس من إحكامها أراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها فإذا هو قد اختلط مشيه وغدا يمشي خلاعة وهوس فصار أقبح الطير مشياً.

فالتربية الدينية أساس كل فضيلة ودعامة كل منقبة.

المربي الكفء:

وأول شيء يحتاج إليه في التربية هو اختيار المربي الكامل العامل بالدروس التي يلقيها على من يراد تربيته. ولذلك ترى الأمم الناهضة في كل دور من أدوار التاريخ ينتخبون لتربية ناشئتهم من يرون فيه الكفاءة والمقدرة من ذوي الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة، علماً منهم بأن الناشئ يتخلق بأخلاق مربيه ويتأدب بآدابه.

أقسام الأدب:

وقد بوبوا للأدب أبواباً وقسموا أقساماً، وجعلوا لكل باب قسماً ولكل قسم اسماً يعرف به، فمنه حسن الاستماع والإصغاء للمتكلم.

أوصى بعض الحكماء ولده: أي بني تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث.

وقالوا: من حسن الأدب أن، لا تغالب أحداً على كلامه، وإذا حدث شخص بحديث فلا تنازعه ولا تقل له أنك تعلمه.

ومن الأدب أدب المجالسة. قال رسول الله ﷺ: ((الرجل أحق بصدر دابته وبصدر مجلسه))(١)، ((ومن قام عن مجلسه ثم عاد فهو أحق بمجلسه))(٢).

---

(١) المجموع ٤: ٣٩٢.

(٢) السنن الكبرى ٣: ٢٣٤ وورد بلفظ: إذا قام أحدكم من مجلس كان فيه ثم رجع إليه فهو أحق بمجلسه.

وقال بعض الحكماء: ((إن لجليسي عليّ ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا جلس أوسعت له، وإذا حدث أقبلت عليه))(١).

وقال الأحنف بن قيس: ((ما مددت رجلي بين يدي جليس قط، ولا قمت حتى يقوم))(٢).

ومن أقسامه إفشاء السلام وهي صفة النبي ﷺ فإنه كان يبدأ من لقيه بالسلام، وكان يقول: ((أطعموا الطعام، وأفشوا السلام))(٣). ودخل عليه رجل فقال: وعليك السلام يا رسول اللّه، فقال: لا تقل ذلك فإنه تحية الموتى، وقل: السلام عليك(٤).

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(٥).

ورد السلام وحده من فعل المقصر، بل المستحب أن يزيد عليه.

ومن أقسامه الآداب في عيادة المريض، منها أن لا يكثر السؤال منه، وأن لا يطيل الجلوس عنده إلا إذا أحب وطلب منه المريض ذلك (٦)، كما قال بحر العلوم ﷺ في منظومته:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢١: ١٣٧، وتهذيب الكمال ١٠: ٥٠٧، والبداية والنهاية ٨: ٩٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٥٤ ولكن ورد عن أسماء بن خارجة وليس الأحنف بن قيس.

(٣) بحار الأنوار ٦٨: ٣٥٥ ب (٨٧) السخاء والسماحة والجود.

(٤) منتهى المطلب ١: ٢٩٧، وذخيرة المعاد ٣: ٣٦٥، والحدائق الناضرة ٩: ٧٢.

(٥) النساء: ٨٦.

(٦) انظر مكارم الأخلاق: ٣٦٠، وبحار الأنوار ٧٨: ٢١٤.

مــن الأكــيد أن تعــاد المرضــى وربمــا كانــت لــبعض فرضــا
فــاربع بهــا إن شــئت ولا فاغــب وخفــف الجلــوس إلا أن يحــب

مرض يحيى بن خالد بن برمك فكان إسماعيل الكاتب يعوده فيقف عند رأسه ويدعو له ويخرج، ويسأل الحاجب عن منامه وطعامه وشرابه، فلما برئ قال: ما عادني إلا إسماعيل.

ومرض الأعمش[1] فعاده أبو حنيفة فابطأ فقال: أبو حنيفة لعلنا ثقلنا عليك؟ فقال له: واللّه إنك تثقل عليّ وأنت في دارك فيكف لا تثقل عليّ وأنت في داري[2].

وكما يستحب للعواد أن يخففوا الجلوس عنده كذلك أن لا يدفعوا به ولا يؤذوه، لا كما فعل أهل الكوفة في مريض كربلاء، وقد دخلوا عليه بعد قتل أبيه.

كانــت عــيادته مــنهم ســياطهم وفي كعــوب القــنا قــالوا الــبقا لكــا

ولكنهم خففوا الجلوس وما أطالوه سوى أنهم جروه فانتهبوا النطع المعد له وأوطؤوا جنبه السعدان والحسكا.

ومن أقسام الأدب في الخطاب قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ

---

(١) سليمان بن مهران الأسدي مولى بني أسد، عالم فاضل معروف بالفضل والثقة والجلالة والتشيع والاستقامة. انظر: الكنى والألقاب ٢: ٤٥ في الأعمش.

(٢) وفيات الأعيان ٢: ١٣٦ ـ ١٣٧ في ترجمة الأعمش، رقم [٢٥٧]، بلفظ عاده في مرضه فطول القعود عنه، فلما عزم على القيام قال له: كأني إلاّ ثقلت عليك فقال: والله إنك لتشتغل عليّ وأنت في بيتك.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١] قالوا: إنه تأدب في خطابه ولم يقل: أمسستني الضر، ولم يقل: ارحمني، بل عرض تعريضاً فقال: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ومنه أدب العباس مع أخيه الحسين عليه السلام في خطابه فإنه ما كان يخاطبه إلا بالسيادة حين قال له الحسين يوماً: هلا تدعوني يا أخي، فيأتي العباس ويقول له: أنا عبدك. فما سمع منه كلمة أخي طيلة حياته، حتى جاءه العمود صاح عند سقوطه: أخي.

ومنها خطاب فاطمة عليها السلام لأمير المؤمنين فإنها ما كانت تخاطبه إلا بالسيادة أو بالكنية، إلا في اليوم الذي رجعت فيه من المسجد بعد نزولها من خطبتها.

ومنها الآداب في الاستئذان وذلك إذا أراد أحد أن يدخل يستأذن، قال الله تعالى: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾[٢]. قال الصادق عليه السلام: ((الاستئناس: وقع النعل والتسليم))[٣]، وقال الصادق عليه السلام: ((الاستئذان ثلاثة: الأول يسمعون، والثاني: يحذرون، والثالث إن شاؤوا أذنوا، وإن شاؤوا لم يفعلوا فيرجع المستأذن))[٤].

---

(١) الأنبياء: ٨٣.

(٢) النور: ٢٧.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١٤ ب (٩٨) الاذن في الدخول، وسلام الاذن، ح٣ نقلاً عن معاني الأخبار.

(٤) الخصال: ٩١ باب الثلاثة في وجوه الاستئذان ثلاثة، ح٣٠ عنه بحار الأنوار ٧٣: ١٤، ح٢ والموسوعة الفقهية الميسرة ٢: ١٩٩.

ظواهر الأمور تخدع

قوله تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (١).

المـــعـــنى:

((مـن)) في قولـه تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ للتبعيض. والمراد بالعلم هنا علـم الغيـب، أي آتيناه شيئاً من علم الغيب. ويومئ بذلك إلى خرقه السفينة وقـتل الغـلام. ويعتمد الصوفية على هذه الآية لصحة مذهبهم القائل بالعلم اللدني، أي العلم تلقائياً بلا واسطة.

والمعـنى أن موسى وفتاه حين وصلا إلى المكان الذي كان فيه وجدا رجلاً من عباد اللّه الصالحين رحمه الله وأنعم عليه بعلم وافر نافع، فحياه موسى فرد التحـية بأحسن منها. قال لـه موسى: أنت بغيتي فهل تصحبني معك وتعلمني ما أسترشد به وأنتفع؟.

وقـد اسـتدل القـائلون بنـبوة هـذا الرجل الصالح استدلوا بقوله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾ لأن الرحمة هي النبوة.

---

(١) الكهف: ٦٥ ـ ٦٨.

ويلاحظ بأن الرحمة أعم من النبوة، ووجود العام لا يدل على وجود الخاص. فإذا قلت: أكلت فاكهة؛ فإن قولك هذا لا يدل على أنك أكلت عنباً لأن كلمة الفاكهة تشمل العنب وغيره من الفواكه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال الرجل الصالح لموسى: لو صحبتني لرأيت عجباً يثقل عليك السكوت عنه وعدم الاعتراض عليه؛ لأنه منكر في ظاهره، وواقعه ومجهول لديك.

قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ استثنى موسى في الصبر بقوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ خشية أن لا يملك نفسه على السكوت وعدم الاعتراض كما حدث بالفعل.

﴿قَالَ﴾ صاحب موسى: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ اشترط الرجل الصالح على موسى أن لا يسأله عما يفعل كائناً ما كان، وقبل موسى الشرط لأنه انطلق معه كما يتضح مما يلي.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(١).

تدل هذه الآيات أن هناك أموراً ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وأخرى بالعكس، وأن الحكم فيها هو التوقف عن الحكم إيجاباً وسلباً حتى ينكشف الواقع.

وقد تواتر عن الرسول الأعظم ﷺ قال: ((الحلال بيِّن والحرام بيِّن

(١) الكهف: ٧١ ـ ٧٢.

وبين ذلك أمور مشتبهات لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم من الحرام، فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه فقد سلم، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يواقع في الحرام))[١]، وفي حديث ثان: ((الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة))[٢]، وروي أن لقمان دخل على داود بن يسي بن عويد وهو يصنع الدروع ولم يكن قد رآها من قبل وهمّ أن يسأله ثم رأى الصبر أجمل، ولما فرغ داود لبس الدرع وقال: نعم، لباس الحرب، ففهم لقمان أن الدرع وقاية من الطعن والضرب، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله.

وقدم العبد الصالح ثلاثة شواهد على هذه الحقيقة وهي

أولاً: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ سار موسى وصاحبه على ساحل البحر ولما وجدا سفينة طلبا من صاحبها أن يحملهما معه فاستجاب ولكن ما أن توسطت في لجة البحر حتى خرقها العبد الصالح في مكان يمكن أن يتسرب الماء منه ويتعرض من فيها للغرق فذعر موسى من هذا المنكر وقال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي فظيعاً وأخذ موسى

---

(١) الخلاف ٣: ١٢٧، وسنن الترمذي ٢: ٣٤٠، ح١٢٢١، والكافي ١: ١٢٠ ب (٢١) مع اختلاف يسير، ح١٠، وأسد الغابة ٥: ٢٣.

(٢) المحاسن ١: ٢١٥، ح١٠٢، والكافي ١: ٥٠ ب (١) النوادر، ح٩، ومجمع الفائدة ١٢: ١٠ نقلاً عن الوسائل ١٨: ٧٥ ب(٩) من أبواب صفات القاضي، ح١، والتهذيب باب الزيادات ح٥٢، وكتاب المسح على الرجلين: ٣٠ نقلاً عن أمير المؤمنين، والرسائل التسع: ١٢٧، وفي الوسائل ٢٧: ١٥٧، ح٣٢٤٧٢.

ثوبه وحشا بها الخرق على عهدة المفسرين. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يذكّره بالشرط وهو أن لا يسأله عن شيء فاعتذر إليه موسى وقال: ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ لأن النسيان لا يقتضي المؤاخذة ﴿وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ لا تضيق عليّ في صحبتي لك.

ثانياً: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ﴾ ففزع قلب موسى من القتل ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ ماذا جنى هذا المسكين، أتقتله متعمداً دون أن يأتي بجناية، إن هذا هو المنكر بعينه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾ مرة ثانية يذكره بالشرط، وأيضاً مرة ثانية يعتذر موسى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ من قبل اشترط العبد الصالح على موسى أن لا يسأله والآن يشترط موسى على نفسه أن يجعله في حل من صحبته إن سأله، والمؤمنون عند شروطهم فكيف الأنبياء؟ ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قطعت عليّ كل عذر أتعلل به.

ثالثاً: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قيل هي أنطاكية، وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: أنها الناصرة، ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ طلبا منهم الطعام ضيافة ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ للإشارة إلى أن أهل القرية كانوا لئاماً لأنه لا يرد الضيف إلا لئيم بخاصة إذا كان الضيف غريباً، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ ضمير ((فيها)) إلى القرية، وضمير ((فأقامه)) للعبد الصالح، و ((يريد)) هنا بمعنى ((يكاد)) وكل من ((أراد، وكاد)) تستعمل بمعنى يكاد والمعنى أن موسى وصاحبه رأيا في القرية حائطاً أوشك على السقوط

فسواه الثاني وأصلحه بلا مقابل فعجب موسى من ذلك و ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أتصلح الجدار بالمجان لقوم أبوا ضيافتنا ونحن في أمس الحاجة إليها، هلاّ طلبت أجراً على عملك لننفقه في ثمن الطعام.

وخرق السفينة وقتل الغلام مثالان على ما يبدو شراً في ظاهره دون باطنه، وإقامة الجدار مثال على العكس.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ لك طريق ولي طريق، هكذا قال لموسى صاحبه، وقبل أن يفترقا أخبره العبد الصالح بحكمة ما أنكره، ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ والعاقل يتحمل الضرر لدفع ضرر أكبر كما قال الشاعر:

* تحملت بعض الشر خوف جميعه *

ومن هنا اتفق الفقهاء على أن الضرر الأشد يدفع بالضرر الأخف وإذا تعارضت المفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما واستخرجوا من هذه القاعدة الكثير من الأحكام، منها جواز قطع العضو الفاسد إذا عرّض صاحبه للهلاك(١).

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي أرحم بهما وأبر. وروى الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن الغلام كان في سن

---

(١) التفسير الكاشف ٥: ١٤٥ ـ ١٥٠، في تفسير سورة الكهف آية: ٦٥ ـ ٧٠.

البلوغ وكان كافراً وأنه كان يعمل جاهداً بحمل أبويه على الكفر تماماً كما يفعل الآن بعض الشباب من غلمان هذا العصر، وقد أدركنا أكثر من واحد من كبار العلماء بالدين كانوا محل الثقة والتقديس في جميع الأوساط حتى إذا بلغ غلمانهم هدموا كل ما بناه الآباء في السنين الطوال، واشتهر عن الإمام عليه السلام أنه قال: ((مازال الزبير منا حتى أدرك فرخه))(١). ويقول أحمد أمين المصري في كتاب حياتي: ها أنا ذا في شيخوختي قد أقبل ما كنت أرفض وقد أتنازل عن بعض المبادئ التي كنت ألتزم للواسطة وأحاديث الناس وكثرة الأولاد، ويعجبني قول العاقل:

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما ... رماني زماني بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني ... ولدت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

المراد بالأشد: الحلم والرشد.

ويتلخص المعنى بأن الجدار هو لصغيرين وتحته مال مدفون فأراد الله سبحانه أن يحمي لهما هذا المال ويحفظه من الضياع ببقاء الجدار قائماً حتى يكبرا أو يعقلا ويستخرجا المال بأنفسهما، وقد كان أبوهما من أهل الصلاح

---

(١) بحار الأنوار، ٣٢: ١٠٨، ح٨٠ نقلاً عن الخصال ١: ١٥٧ باب الثلاثة، ذيل ح١٩٩.

واللّـه يصـلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده، فأمرني ربي أن أصلحه ففعلت. هذا هو تفسير ما ثقل عليك فهمه والسكوت عنه.

ومكـان العظـة في هـذه القصـة أن لا يعجـب المرء بنفسه ولا يبادر إلى الحكـم عـلى الشيء حكماً مطلقاً وهو لا يعرف إلا جهة واحدة من جهاته بل لا بـد من ملاحظة جميع الجهات بدقة ومقارنتها بعضها مع بعض ثم ملاحظة الأفضـل مـنها فإن المصالح والمضار متشابكة فما من أمر نافع إلا وفيه الضرر، وما من أمر ضار إلا وفيه بعض النفع، والعبرة دائماً بالأكثر(١).

صلح الحديبية:

ومن هنا نعرف أن الذين اعترضوا رسول اللّه ﷺ في صلح الحديبية لم يدركوا الأمر من كل جهاته بل من جهة واحدة.

آثـر رسول اللّه ﷺ الصلح يوم الحديبية على الحرب وأمر به عملاً بما أوحـى إلـيه عـز وعـلا، وكانت المصلحة في الواقع ونفس الأمر توجبه لكنها خفيـت عـلى أصحابه، فأنكر بعضهم عليه وعارضه فيها علانية بكل ما لديه مـن قـول، فـلم يعبأ ﷺ بمعارضتهم ومضى قدماً في تنفيذ ما كان مأموراً به، فكانت عاقبته من أحسن عواقب الفاتحين والحمد للّه رب العالمين.

وبـيان هـذه الحقـيقة بشـيء مـن التفصـيل: خرج رسول اللّه ﷺ من المديـنة يـوم الاثـنين مستهل ذي القعدة السنة السادسة للهجرة يريد العمرة، وكـان يخشى من قريش أن يتعرضوا لـه بحرب أو يصدوه عن البيت كما فعلوا

(١) التفسير الكاشف ٥: ١٥٠ ــ ١٥١، في تفسير سورة الكهف، آية: ٨٣.

فاستنفر الناس إلى العمرة معه، فلباه من المهاجرين والأنصار وغيرهم من الأعراب ألف وأربعمائة رجل، وقيل أكثر منذ ذلك، وقيل أقل، وأخرج معه أم المؤمنين زوجته السيدة أم سلمة رضي الله عنها وتخلف عنه كثير من الأعراب منافقون ذمهم اللّه في سورة الفتح المنزلة في هذه الواقعة بعد انتهائها ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(١).

وكان ممن خرج معه المغيرة بن شعبة وابن سلول وبايعاه في الحديبية تحت الشجرة، وكان معه مائتا فارس وساق معه الهدي سبعين بدنة ولم يخرج بسلاح إلا سلاح المسافر ـ السيوف في القرب ـ، فقال له عمر بن الخطاب: أتخشى يا رسول اللّه أبا سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب عدتها؟ فقال ﷺ : لا أحمل السلاح معتمراً. فلما كان بذي الحليفة قلد الهدي وأحرم هو وأصحابه منها ليأمن الناس حربه وليعلموا إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له.

ثم سار حتى إذا كان في بعض الطريق علم ﷺ أن خالد بن الوليد في الغميم ـ موضع قرب مكة ـ في خيل لقريش فيها مائتا فارس طليعتهم عكرمة بن أبي جهل فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك وأمرهم أن يأخذوا ذات اليمين ليسلك بهم غير طريق خالد فسلكوا بين ظهري الحمض ـ موضع يخرج على مهبط الحديبية ـ فما شعر بهم خالد حتى رأى قترة جيشهم ـ غباره الأسود ـ ودنا خالد في خيله نحو رسول اللّه ﷺ وأصحابه فأمر ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله بإزاء خالد وخيله وحانت صلاة الظهر فصلاها

---

(١) الفتح: ٦.

رسول الله ﷺ بأصحابه.

فقال المشركون:

لقد أمكنكم محمد وأصحابه من أنفسهم وهم في الصلاة، فقال خالد: نعم لقد كانوا في غرة فلو حملنا عليهم أصبنا منهم، وستأتي الساعة صلاة أخرى هي أحب عليهم من أنفسهم وأبنائهم، فأوحى الله عز وجل إلى نبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾(١)... إلخ، فصلى رسول الله ﷺ فريضة العصر بأصحابه صلاة الخوف المشروعة بهذه الآيات ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾(٢) وقد قابل رسول الله ﷺ شراستهم بالحكمة. لقي رسول الله ﷺ في الحديبية حين أتاها أذى كثيراً من المشركين وغلظة وجفاء ومكاشفة له ولأصحابه في العداوة والبغضاء، ولقي المشركون من أصحاب رسول الله ﷺ مثل ذلك وأشد عملاً منهم بقول تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾(٣) لكن رسول الله ﷺ وسع المشركين بحلمه الموحى يومئذ إليه من ربه عز وعلا، وبحكمته التي فطر عليها، وبخلقه العظيم الذي فضله الله به على سائر النبيين والمرسلين عليه

---

(١) النساء: ١٠٢.

(٢) الأحزاب: ٢٥.

(٣) التوبة: ١٢٣.

وآله وعليهم السلام.

صده المشركون صداً شكساً شرساً لئيماً فما استخفه بذلك غضب ولا روع حلمه رائع، كان يأخذ الأمور مع أولئك الجفاة بالملاينة والإغماض، وله في شأنهم كلمة متواضعة على ما فيها من الرفعة والعلا ما يريهم إياه فوق الثريا ويريهم أنفسهم تحت الثرى، وفيها من النصح لهم والإشفاق عليهم ما لم يكن فيه ريب لأحد منهم، ومن الحكمة الإلهية ما يأخذ بمجامع قلوبهم على قسوتها وغلظتها إليه، ومن الوعيد باجتياحهم والتهديد باستئصال جذرتهم وبذرتهم، ما يقطع نياط قلوبهم[١]، وإليك بعض المأثور عنه من ذلك، فأمعن به لتقف على أهدافه،

قال ﷺ: ((يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوه، وإن أظهرني اللّٰه عليه دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فواللّٰه لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره اللّٰه أو تنفرد هذه السالفة))[٢] وهي صفحة العنق، كناية عن قتله.

وقال ﷺ: يطعمهم في خلقه الكريم وفضله العميم، والذي نفس محمد بيده ((لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا

---

(١) النص والاجتهاد: ١٦٣ ـ ١٦٦ المورد (١٧) صلح الحديبية.

(٢) السيرة النبوية ٢: ٣٠٩ امر الحديبية في آخر سنة ست، وذكر بيعة الرضوان والصلح بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو، ومثله في صحيح البخاري ٣: ١٧٨.

أعطيتهم إياها))(١).

أعلن رحمته هذه بكلماته هذه الحكيمة الرحيمة ثم جمع أصحابه يستشيرهم في حرب قريش إذا أصروا على صده عن البيت، فكان جلهم إن لم يكونوا كلهم متأهبين للقتال متعبئين لجهاد قريش وغيرها.

ونهض المقداد أثناء اندفاعهم يتكلم بلسان الجميع فقال: يا رسول اللّٰه نحن لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(٢)، وإنما نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. واللّٰه يا رسول اللّٰه لو سرت بنا إلى برد الغماد(٣) لسرنا معك ما بقي منا رجل(٤).

ثم أخذ منهم البيعة فبايعوه على الموت في نصرته وكانوا ألفاً وأربعمائة رجل منهم كهف المنافقين ابن سلول. وذكر أهل السير والأخبار ممن أرخ غزوة الحديبية واللفظ للحلبي في سيرته: إن قريش بعثت إلى ابن سلول ـ وهو مع رسول اللّٰه في الحديبية ـ إن أحببت أن تدخل ـ مكة ـ وتطوف بالبيت

---

(١) السيرة النبوية ٢: ٣١٠.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) حصن في اليمن من أمنع حصون العرب، كان مسيرهم إليه مسيراً إلى الموت لا محالة لشدة حصانته في نفسه وفي بأس حاميته وكان يومئذ على الشرك مضافاً إلى وعورة طرقه وحزونة ما حوله من الجبال.

(٤) مسند أحمد ٤: ٣١٤، والدر المنثور ٢: ٢٧١.

فافعل، فقال لـه ابنه عبدالله رضي الله عنه: يا أبتِ أذكرك الله أن لا تفضحنا في كل موطن فتطوف ولم يطف رسول الله ﷺ، فأبى الرجل حينئذٍ وقال: لا أطوف حـتى يطوف رسول الله ﷺ. فابن سلول إذن ممن بايع بيعة تحت الشجرة إذ لم يتخلف عن هذه البيعة إلا الجد ابن قيس الأنصاري بإجماع أهل الأخبار(١).

وهذه البيعة (وهي بيعة الرضوان) كانت تحت شجرة من سمر فقيل عنها بيعة الشجرة، وأضيفت إلى الرضوان لقوله تعالى في شأن المؤمنين من المبايعين يومـئذٍ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾(٢) إلى قوله عز من قائل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣) بـخ بـخ، طوبـى وحسـن مـآب للمـتقين من هؤلاء على الإيمـان والعمـل الصالح حين لقوا ربهم عز وجل اختصهم الله بالرضا عنهم والثـناء العظيم في محكمات القرآن عليهم ووعدهم ـ دون غيرهم من المبايعين ـ بالمغفـرة والأجـر العظيم؛ لأن هذه هي على حد قوله عز وجل في آية أخرى تخـتص بأمهـات المؤمـنين: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٤) وهدفها إنما هو الهدف الـذي يـرمى إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ

---

(١) السيرة النبوية ٢: ٣١٦، في بيعة الرضوان، والكشاف ٤: ٢٦٥ في تفسير سورة الفتح.

(٢) الفتح: ١٨.

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) الأحزاب: ٢٩.

تُوعَدُونَ﴾(١).

وبلغ قريش هذه البيعة فانخلعت قلوبهم وملئت صدورهم رعباً، ولاسيما بعد خروج عكرمة بن أبي جهل على المسلمين يومئذٍ في خمسمائة فارس فبعث النبي ﷺ ـ كما في الكشاف ـ من هزمه وأصحابه وأدخلهم حيطان مكة، وعن ابن عباس أظهر اللّٰه المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت وعلموا أنهم لا قبل لهم بمحمد وأصحابه(٢).

فأحضر حينئذٍ أهل الرأي والمشورة منهم إلى طلب الصلح من رسول اللّٰه ﷺ وكان قد بلغهم قوله: ((والذي نفس محمد بيده لا تدعوني اليوم قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها))(٣) فأرسلوا إليه عدة من كبارهم كان على رأسهم سهيل بن عمرو بن ود العامري يمثلهم جميعاً لدى رسول اللّٰه ﷺ في طلب المهادنة على شروط اشترطوها كانت ثقيلة على المسلمين إلى الغاية فأبوها كل الإباء، وأسرف بعضهم في إنكارها لكن المشركين تشبثوا في اشتراطها بإطلاق الخصلة التي وعدهم رسول اللّٰه ﷺ بإعطائهم إياها متى دعوه إلى ذلك، وكان ﷺ مأموراً بهذا الوعد وبالعمل على مقتضاه.

---

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) الكشاف ٤: ٢٦٣، في تفسير سورة الفتح وذكر ابن عباس قال: رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم.

(٣) السيرة النبوية ٢: ٣٠٩ في أمر الحديبية وسبل الهدى والرشاد ٥: ٤٠ باختلاف يسير، ومثله في صحيح البخاري ٣: ١٧٨، والسنن الكبرى ٩: ٢١٩، ٢٢٠.

وإنما قبل شروطهم على ما فيها من الشدة عملاً بالوحي وبما توجبه المصلحة التي كان اللّه عز وجل بها عليماً وقد علمها الجميع بعد ذلك واعترفوا بها.

وما أن تقرر الصلح بين الفريقين حتى وثب عمر بن الخطاب وقد استشاط غيظاً وغضباً فقال ـ كما في السيرة الحلبية وغيرها من كتب الأخبار ـ: يا أبا بكر أليس هو رسول اللّه؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال له أبو بكر: أيها الرجل إنه رسول اللّه ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه[1]. حتى تموت فإني أشهد أنه رسول اللّه ﷺ[2].

وأخرج مسلم في باب صلح الحديبية من الجزء الثاني من صحيحة أنه قال لرسول اللّه ﷺ: ألسنا على الحق وهم على باطل؟ قال: بلى قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولَمَّا يحكم اللّه بيننا وبينهم؟ فقال: يا بن الخطاب إنه رسول اللّه ولن يضيعه اللّه أبداً [3].

---

(١) الغرز ركاب من جلد يضع الراكب رجله فيه، فيكون المعنى: اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه.

(٢) السيرة النبوية ٢: ٣١٧، في أمر المدنة.

(٣) صحيح مسلم ٣: ١٤١٢ ب (٣٤) صلح الحديبية في الحديبية، ح٩٤، ونيل الأوطار ٨: ١٨٧ وبحار الأنوار ٢٠: ٣٣٥، وفي صحيح البخاري ٣: ١٨٢ ذكر في ذيل الحديث: قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري....

وأخـرج الـبخاري في آخر كتاب الشروط مثل هذا وقال: عن عمر قلت لرسول اللّه ﷺ: أوليس كنت تحدثنا أن سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به(١).

وأخرجه الإمام أحمد من حديث المسور بن مخرمة (٢).

ونـص الحلـبي في غـزوة الحديبية من سيرته وغير واحد من أهل الأخبار أن عمـر جعـل يـرد على رسول اللّه ﷺ الكلام فقال أبو عبيدة بن الجراح: ألا تسـمع يـا بـن الخطـاب رسـول اللّـه ﷺ يقـول ما يقول: نعوذ باللّه من الشيطان الرجيم؟

وقـال الحلـبي وغـيره: وقال رسول اللّه ﷺ يومئذٍ: يا عمر إني رضيت وتـأبى. وكـان عمـر بعـد ذلك يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به(٣).

لكـن رسـول اللّه ﷺ لم يأبه يومئذٍ لمعارضة من عارضه في إنفاذ الخطة الـتي كـان مـأموراً بهـا، خطـة الصـلح بتلك الشروط الثقيلة، فاستدعى علياً لتسـجيل كـتابها، فقـال لـه: اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمـر لا نعـرف هـذا، فليكتب باسمك اللهم، فضج المسلمون وقالوا: واللّه لا يكتـب إلا مـا أمـر بـه رسـول اللّـه، لكن رسول اللّه ﷺ قطع النزاع بقوله

(١) صحيح البخاري ٣: ١٨٢ في الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب.

(٢) مسند أحمد ٤: ٣٣١.

(٣) السيرة الحلبية ٢: ١٤٣، في غزوة الحديبية.

لعلي: اكتب باسمك اللهم، فكتبها علي ممتثلاً أمره ﷺ، ثم قال له النبي: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمر، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك وما صددناك عن البيت، ولكن ليكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله، سهيل بن عمر، فقامت قيامة المسلمين في الإنكار على سهيل بذلك وأبوا إلا أن يكتب رسول الله كل الإباء وكادت الفتنة تقع لولا أن رسول الله ﷺ قال: أنا محمد رسول الله وإن كذبتموني وأنا محمد بن عبدالله، فاكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمر، فكتبها علي متغيظاً متزفراً، فقال رسول الله ﷺ: إن لك يا أبا الحسن مثلها، أو أنه قال: ستسام يا أبا الحسن مثلها، فتجيب وأنت مضطهد(١).

وهذه الكلمة من رسول الله ﷺ معدودة عند المسلمين كافة من أعلام النبوة وآيات الإسلام.

وكان الصلح على أن يرجع رسول الله ﷺ بأصحابه من الحديبية فإذا كان العام القابل تخرج قريش من مكة فيدخلها رسول الله ﷺ بأصحابه فيقيم بها ثلاثاً وليس معه من السلاح سوى السيوف في القرب، وأن توضع الحرب عشر سنين، وقيل سنتين، وقيل أربع سنين، يأمن فيها الناس ويكف فيها بعضهم عن بعض، وأنه من أحب من العرب أن يدخل في عقد

---

(١) النص والاجتهاد: ١٧٥، وذكر نص حادثة الصلح في مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٣٦٦ بمتن مختلف، وبحار الأنوار ٣٣: ٣٥١، وشرح نهج البلاغة ٢: ٢٧٥.

محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت خزاعة في عقد رسول اللّٰه ﷺ وعهده، وكانوا من قبل حلفاء جده عبدالمطلب، ودخلت بكر في عقد قريش وعهدها.

ثم كان بين خزاعة وبكر حرب أمدت قريش فيها حلفاءها، أعني بني بكر على حلفاء رسول اللّٰه ﷺ أعني خزاعة، وبذلك نقضت قريش ما عاهدت عليه رسول اللّٰه ﷺ يوم الحديبية. وبهذا استباح رسول اللّٰه ﷺ غزو قريش فكان الفتح المبين والنصر العزيز والحمد للّٰه رب العالمين.

ومن الشروط أن يكون الفريقين عيبة مكفوفة أي صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، أي لا سرقة ولا خيانة، وأنه من أتى محمداً ﷺ من قريش ممن هو على دين محمد ﷺ بغير أذن وليه، ردّ إليه ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمد فارتد عن الإسلام لا ترده قريش إليه، فقال المسلمون: سبحان الله كيف نرد للمشركين من جاءنا منهم مسلماً؟! وعظم عليهم هذا الشرط، فقالوا: يا رسول الله أتكتب هذا على نفسك؟! قال: نعم انه من ذهب منا مرتداً أبعده الله، ومن جاءنا مسلماً فرددناه اليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

توجيهات اجتماعية

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾[1].

اللغــة:

اليتيم من الناس من مات أبوه إلى أن يبلغ الحلم. وعن الأصمعي أن اليتيم من الحيوان من لا أم له ومن الإنسان من لا أب له.

وتتضمن هذه الآية أموراً:

الأول: البر بالوالدين: إن اللّه سبحانه قرن شكر الوالدين بشكره، وأوجب البر بهما والإحسان إليهما تماماً كما أوجب التعبد له. ومن هنا أجمع الفقهاء قولاً واحداً على أن عقوق الوالدين من أعظم الكبائر، وأن العاق بهما فاسق لا تقبل له شهادة. وفي الحديث الشريف: ((إن العاق بوالديه لا يشم ريح الجنة))[2]. والمراد بالإحسان للوالدين طاعتهما والرفق بهما قولاً

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢٢٠ الفصل السادس في الأولاد وما يتعلق بهم في فضل الأولاد بلفظ: قال ﷺ: والذي بعثني بالحق أن العاق لوالديه ما يجد ريح الجنة، وعنه بحار الأنوار ١٠١: ٩٣ ب (١٠٥) فضل الأولاد، ح٢٣.

وعملاً.

حكي أن امرأة حملت أباها من اليمن إلى مكة على ظهرها وطافت به البيت العتيق فقال لها قائل: جزاك اللّٰه خيراً فقد وفيتي بحقه، فقالت: كلا، ما أنصفته، لقد كان يحملني وهو يود حياتي وأنا أحمله الآن وأود موته.

وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[١]. وفي الحديث: ((لا يشكر اللّٰه من لا يشكر الناس))[٢]، وفي حديث آخر: ((من أسدى معروفاً إلى إنسان فشكر الخالق وقال الشكر للّٰه وتجاهل صاحب المعروف فإن اللّٰه سبحانه لا يقبل منه الشكر حتى يشكر من أجرى المعروف على يديه))[٣].

ومن هنا اشتهر: من لا يشكر المخلوق لا يشكر الخالق[٤].

ولهذه الملازمة أسرار:

أولاً: أن العقل والشرع يحكمان بوجوب شكر المنعم أي منعم كان ومن ترك هذا الشكر فقد عصى اللّٰه سبحانه، والعصيان كفر وجحود لأنعمه جل وعلا. إن كرامة الإنسان من كرامة اللّٰه، إن شكر المحسن من الوفاء والوفاء دليل الإيمان والصدق، بل هو أصل الفضائل، فحيث يوجد الوفاء

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٢٧ ب (١٧٦) النوادر، ح٨٢٨، وفقة السنة ١: ٤٢٩، واتحاف السادة المتقين ٤: ١٥٦.

(٣) اتحاف السادة المتقين ٤: ١٥٦، و١٥٧ قريب منه وبلفظ: لا يشكر الله عزّ وجلّ من لا يشكر الناس ونحوه في الوسائل ٩: ٤٥٤، ح١٢٤٨٥، وج٦: ٢١٧، ح٩.

(٤) تاريخ دمشق ٢٢: ٢٦٢.

يوجد الصدق والإخلاص والأمانة والتضحية. والوفاء لا يتجزأ، فمن يفي إلى من أحسن إليه فإنه يفي أيضاً له للأهل والأصدقاء والوطن وللإنسانية جمعاء ومن غدر بمن أحسن إليه أو تجاهله فإنه يتجاهل ويغدر أيضاً بأهله وأصدقائه ووطنه. ومن هنا قيل بحق: من لا وفاء عند [من] لا دين له.

وأروع ما يكون الوفاء في وقت المحنة وساعة العسرة؛ لأن الوفاء في وقت النعمة والميسرة وفاء للمال لا لصاحبه وللدنيا لا لمن هي في يده.

وأي منعم بعد اللّه أعظم من الأبوين وقد أوجب اللّه برهما وأكد ذلك في حالة الكبر بقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾(١) علماً بأن البر يجب في كل أدوار الحياة ولكن في حالة الكبر آكد.

الثاني: ﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾.

لقد أوجبت الآية صلة الرحم لصلته بالوالدين. والأرحام هم الأقارب والأصهار. وقد قرن اللّه الأرحام به فقال: أيها الناس ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢)، وفي الحديث: ((يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها اللّه ثلاثين سنة ويفعل اللّه ما يشاء))(٣).

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) النساء: ١.

(٣) الكافي ٢: ١٥٠ ب (٦٨) صلة الرحم، ح٣.

وأوجبت الآية الحرص والمحافظة على اليتيم وأمواله على من كان ذلك واجباً عليه. وأوجبت للفقير نصيباً في أموال الأغنياء.

الثالث ـ أصل الصحة

وقولوا: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾

إذا صدر من الإنسان عمل من الأعمال أو قول من الأقوال يمكن حمله على وجه صحيح وعلى وجه فاسد فهل يحمل على الصحة أو على الفساد أو يجب التوقف وعدم الحكم بشيء إلا بدليل قاطع؟ ومثال ذلك أن ترى رجلاً مع امرأة لا تدري هل هي زوجته أو أجنبية عنه، أو تسمع كلاماً وأنت لا تدري هل أراد المتكلم النيل منك أو لم يرد ذلك؟

قد اتفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحة في ذلك وأمثاله. واستدلوا فيما استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾. ويقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: ((وضع أمر أخيك على أحسنه))(١)، ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((يا محمد كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة أنه قال، وقال لك، قولاً فصدقه وكذبهم))(٢).

وهذا مبدأ إنساني بحت لأنه يكرس كرامة الإنسان ويؤكد علاقة التعاون والتعاطف بين الناس ويبعد بهم عما يثير الكراهية والنفور. وبهذا يتبين أن الإسلام لا يقتصر على العقيدة والعبادة، بل يهتم بالإنسانية وخيرها

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٨٦ ب (١٣) من ينبغي مجالسته مصادقته، ح٧ نقلاً عن أمالي الصدوق.

(٢) بحار الأنوار، ٧٢: ٢٥٥ ب (٦٦) الغيبة، ح٤٠ نقلاً عن ثواب الأعمال باختلاف يسير.

ويرسم لها الطرق التي تؤدي بها إلى الحياة المثمرة الناجحة.

ولكن الذين باعوا دينهم للشيطان استغلوا هذا المبدأ الإنساني وانحرفوا به عن هدفه النبيل وأرادوا به أعمال القراصنة والمرابين.

وبديهة أن مبدأ الحمل على الصحة لا ينطبق على أعمال السلب والنهب والاحتيال والتضليل وما إلى ذلك مما نعلم علم اليقين أنه من المحرمات والموبقات وإنما ينطبق على ما يُحتمل فيه الصدق والكذب والصحة والفساد... إلخ[١].

---

(١) التفسير الكاشف ١: ١٤١ ـ ١٤٢، في تفسير سورة البقرة، آية: ٨٣.

بعض أحكام المرأة في الإسلام

قوله تعالى:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ليس المراد بالمماثلة هنا الاتحاد في الجنس بحيث يستحق هو عليها النفقة والمهر كما تستحق هي عليه ذلك، وإنما المراد بالمماثلة الوجوب واستحقاق المطالبة. وقال الفقهاء: حقه عليها أن تطيعه في الفراش، وحقها عليه أن يملأ بطنها ويكسوا جلدها.

وقال صاحب تفسير المنار: ((يُرجع في تفسير وتحديد حق الزوج على الزوجة وحق الزوجة على الزوج إلى ما جرت عليه عادة الناس إلا ما كان منه محرماً في الشريعة، فما يراه العرف حقاً لأحد الزوجين فهو كذلك عند الله)).

والذي يستظهر من سياق الآية أن الحق الذي عليها هو العدّة والصدق في الإخبار عنها، وعدم الاعتراض على الرجعة المستوفية للشروط. والحق الذي عليه أن يقصد الرجل من إرجاعها الإصلاح لا الإضرار، وحسن الصحبة لا سوء المعاملة. أما الحقوق الأخرى التي لكل من الزوجين على الآخر فالآية أجنبية عنها، وتستفاد من أدلة مستقلة عن الآية.

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

اختلف العلماء والمفسرون في المراد من هذه الدرجة التي امتاز بها الرجل عن المرأة. فقيل: هي العقل والدين، وقيل هي الميراث، وقيل هي السيادة، أن عليها أن تسمع من الرجل وتطيع. ومن الطريف أن بعضهم فسر الدرجة باللحية، كما جاء في أحكام القرآن للقاضي أبي بكر الأندلسي.

وغير بعيد أن يكون المراد بالدرجة جعل الطلاق والرجعة بيد الرجل دون المرأة (١).

لقد سبق الإسلام الشرائع والقوانين كلها إلى تحرير المرأة وإقرار حقوقها بعد أن كان الرجل يعاملها معاملة السلع والحيوانات حتى في أوربا وأمريكا إلى عهد قريب. وإذا ميز الإسلام الرجل عن المرأة بأشياء فإن هذا التمييز تفرضه الفروق الطبيعية بينهما أو مصلحة الجماعة، وليس من العقل والعدل المساواة في كل شيء بين من تهتم بالفساتين والموضة وتسريح الشعر وما إليها، وبين من يشعر بالمسؤولية عنها وعن أولادها ويتحمل المصائب والمشاق من أجلها وأجلهم.

ومهما يكن فإن فقهاء الإسلام ذكروا فروقاً بين الرجل والمرأة في الأحكام الشرعية:

أولاً: أن دية المرأة نصف دية الرجل.

ثانياً: الطلاق والرجعة بيد الزوج دون الزوجة.

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٣٤٣، في تفسير سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

ثالثاً: ليس لها أن تمتنع عن فراشه ولا أن تسافر وتخرج من بيته إلا برضاه، وله أن يفعل ما يشاء.

رابعاً: لا تجب عليها صلاة الجمعة حتى ولو تحققت الشروط الموجبة بالنسبة إلى الرجل.

خامساً: لا يجوز لها أن تتولى الإمرة ولا القضاء إلا عند أبي حنيفة في حقوق الناس خاصة دون حقوق اللّه.

سادساً: لا يجوز أن تكون إماماً في الصلاة للرجال ويجوز أن يكون الرجل إماماً للنساء.

سابعاً: لا تقبل شهادتها إطلاقاً في غير الأموال لا منفردة ولا منضمة إلى الرجال إلا في مسألة الولادة، وتقبل في الأموال منضمة إلى الرجال على أن تكون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد.

ثامناً: للأنثى من الميراث سهم وللذكر سهمان.

تاسعاً: لا جهاد عليها ولا جزية ولا تقتل في الحرب مالم تقاتل.

عاشراً: لا تشارك الأم الأب في الولاية على وليدهما الصغير في الزواج ولا التصرف في أمواله ويستقل الأب في جميع ذلك.

حادي عشر: لا تصح معها المسابقة والرماية.

ثاني عشر: أفتى الفقهاء بأن من قتل إنساناً عن خطأ تحمل الدية عن القاتل لمن يتقرب إليه بالأب كالإخوة والأعمام وأولادهم ويسمون بالعاقلة ولا تدخل المرأة معهم.

ثالث عشر: إذا قتلت المرأة رجلاً قتلت به بلا شرط، وإذا قتل رجل

امرأة فلا يقتل بها إلا بعد أن يدفع وليها نصف الدية لورثة القاتل.

رابع عشر: على المرأة أن تستر عن الرجال الأجانب شعرها وجميع بدنها ما عدا الوجه والكفين. ولا يجب على الرجل أن يستر عن النساء سوى القبل والدبر.

واليوم انعكس الأمر أصبح الرجل هو الذي يتستر والمرأة هي التي لا تتستر، كاسيات عاريات، وهو آخر الأزمنة وشر الأزمنة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

الدنيا طريق للآخرة

قوله تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(١).

المراد بالدنيا هنا دنيا القصور والفجور والليالي الحمراء والبذخ والإسراف على حساب الضعفاء، ودنيا المستعمرين والصهاينة صانعي الموت والمؤامرات العدوانية والانقلابات الرجعية، ودنيا شركات الاحتكار والاستغلال والخيانة والعمالة والاتجار بالدين والوطنية، ودنيا الصحافة المأجورة لتمرير الأفكار وتشويه الحقائق والإشاعات الكاذبة، هذه هي دنيا العبث والفساد والضلال التي يمقتها اللّه وأعد لأهلها عذاب الحريق.

أما دنيا الطيبين والأحرار المناضلين والشرفاء الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون فهي دنيا الحق والخير والهدى والفلاح التي يحرز بها رضا اللّه والفوز بنعيمه وجنانه.

والدنيا المذمومة في كتاب اللّه وعلى لسان أنبيائه هي التي تطلب

---

(١) الحديد: ٢٠.

للشـهوات والملذات وللزهو واللهو وللكبرياء والخيلاء. أما الدنيا التي تقضى بهـا حوائج المحتاجين، وتدفع بها ظلامة المظلومين، وينفع بها عباد اللّه وعياله فهي من الآخرة لا من الدنيا المذمومة.

ومـن تتـبع آي الذكـر الحكـيم يجـد أن ثـواب اللّـه وقف على من آمن وعمـل صـالحاً في هـذه الحـياة وأدى الحقـوق والواجـبات، وأنـه لا وسيلة إلى السعادة الآخرة إلا بالعمل النافع في الحياة الدنيا.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾.

هـذا الوصف يصلح للدنيا لأنها لا تدوم على حال، إنها تخضر وتصفر وتقسو وتلين وتعطي وتمنع، ولو أعطت الإنسان كل ما أحب وأراد فإنها عما قليل تسلبه كل شيء حتى نفسه وأهله.

وأيضـاً يصلح هذا الوصف للإنسان في الحياة الدنيا، فأنه يشب ويقوى عظمـه ويشـتد لحمه وينضر لونه ثم يدب فيه الوهن فيذوب منه اللحم ويدق العظـم ويصـفر اللـون وينـتقل في كـل يـوم مـن سيئ إلى أسوأ حتى يتحطم ويضـمحل. وإذا كـان هذا شأن الدنيا وشأن الإنسان فيها فأولى له ثم أولى له أن يعمل لحياة دائمة لا يفنى نعيمها ولا يهرم مقيمها.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

بعـد أن ذكر سبحانه أن الدنيا لا يدوم لها رخاء ولا غناء ذكر أن الآخرة ثابـتة عـلى وتـيرة واحـدة، نعـيمها دائـم وجحـيمهما دائم؛ لأن سبب النعيم رضوان اللّه، وسبب الجحيم غضبه تعالى، وكل منهما قائم لقيام سببه.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

نقـل الـرازي عن الصحابي الجليل سعيد بن جبير قال عند تفسير هذه الآيـة: الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، أما إذا دعتك إلى طلب رضوان اللّٰه فنعم المتاع ونعم الوسيلة[١].

وهذا الصحابي من تلامذة الرسول المقربين.

وجـاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: ((سيدي إني أحب أن يرزقني اللّٰـه مـالاً وأخاف أن يكون ذلك طلباً للدنيا، فقال عليه السلام: إذا رزقت مالاً ماذا تصـنع؟ قـال: أوسـع عـلى نفسـي وعـلى عـيالي وبـني عمي وجيراني وأحج وأتصدق، قال عليه السلام: هذا طلب للدين)).

ولكن أقول من يوفق.

وإذا كـان كذلـك فقد جمع بين الدنيا والآخرة كما قال عليه السلام: ((وواحد فـاز بكلتـيهما قد جمع الدنيا مع الآخرة كإسحاق بن عمار بن حيان الصيرفي الكـوفي كـان من الثقاة الذين رووا الحديث عن الصادق عليه السلام وابنه الكاظم وأخوتـه يونـس ويوسـف وإسماعـيل وهـو بيـت كبير من الشيعة وابني أخيه علي وشـبر ابني إسماعيل، كان من وجوه من روى الحديث، وكان الصادق عليه السلام إذا رآه أو رأى أخـاه إسماعـيل، قـال: وقـد يجمعهما الأقوام يعني الدنيا والآخرة[٢] لأنهما كانـا مـن ذوي الثروة والمال الوافر يصلان به أصحابهما وينيلان منه)) ورويت في إسحاق مدائح أخرى. وهكذا علي بن يقطين جمع بين الدنيا والآخرة.

---

(١) التفسير الكبير ٢٩: ٢٣٤، في تفسير سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٢) الفوائد الرجالية ١: ٣٠٣.

الأخسرون أعمالا

قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

المعنى:

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي نخبركم ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ أي بأخسر الناس أعمالاً، والمعنى: بالقوم الذين هم أخسر الناس فيما عملوا، وهم كفار أهل الكتاب: اليهود والنصارى، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي بطل عملهم واجتهادهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي يظنون أنهم بفعلهم محسنون وأن أفعالهم طاعة وقربة.

وروى العياشي بإسناده قال: قام ابن الكوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فسأله عن أهل هذه الآية، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فقال: أولئك أهل الكتاب كفروا بربهم وابتعدوا في دينهم فحبطت أعمالهم، وما أهل النهر عنهم ببعيد(٢)، يعني الخوارج.

---

(١) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ح٨٩، في تفسير سورة الكهف آية: ١٠٣، وعنه بحار الأنوار ٣٣: ٤٢٤، ح٦٣٢.

ويتلخص المعنى بأن أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعياً وهو الجاهل المركب الذي يرى جهله علماً وشره خيراً وإساءته إحساناً، وليس من شك أن هذا خائب خاسر في الدنيا؛ لأنه يعيش في غير واقعه، وهو كذلك في الآخرة؛ لأنه يلقى اللّه غداً بالجهل والغرور وسوء الأعمال.

وتومئ الآية إلى أن قيمة الإنسان الحقيقية لا تقاس بنظرته إلى نفسه لأن الخصم لا يكون حكماً، ولا بنظرة الناس إليه لأنهم يسعون الخائنين والمنافقين عملياً وإن ضاقوا بهم نظرياً. وإنما تقاس قيمة الإنسان بقيم القرآن ومبادئه والالتزام بتعاليمه وأحكامه. يقاس بالصدق والعدل ونصرة الحق وأهله والتضحية في سبيل ذلك بالنفس والمال.

والقرآن الكريم مليء بهذا النوع من التعاليم مثل قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[2]، ﴿كُونوا أنصَارَ اللَّهِ﴾[3]، ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[4]، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[5]، وفي قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[6] غنىً عن كل شاهد.

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) النساء: ١٣٥.

(٣) الصف: ١٤.

(٤) آل عمران: ٧٩.

(٥) التوبة: ٤١.

(٦) الحجرات: ١٣.

وتسأل: إن المخطئ يرى نفسه مصيباً، وأنه قد أحسن صنعاً بإصابة الواقع، فينبغي أن يكون من الأخسرين أعمالاً مع أنه لا عصمة إلا لمن له العصمة.

الجواب: إن المخطئ على قسمين:

الأول: أن يخطئ بعد البحث والتدقيق تماماً كما يفعل الأكفاء بحيث تكون النتيجة التي توصل إليها هي غاية ما يمكن أن يتوصل إليها العالم المجد وليس من شك أن هذا المخطئ ليس من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وأن خطأه لا عيب فيه، بل إن صاحبه مأجور على ما بذل من جهد كما جاء في الحديث الشريف على شريطة أن يكون على نية الرجوع عن خطئه متى انكشف له الصواب.

الثاني: إن يخطئ لأنه جزم وحكم بمجرد الحدس والوهم وقبل أن يبحث ويلاحظ؛ لأنه يجهل أصول البحث والملاحظة العلمية، أو يعرفها ولم يستعملها إطلاقاً، أو استعملها ناقصة فحكم قبل أن يستكمل ويستوعب جميع الملاحظات. وهذا المخطئ من الأخسرين أعمالاً ما في ذلك ريب؛ لأن اللّٰه سبحانه أمر بالتدبر والتثبت ونهى عن التسرع والقول بغير علم.

الصدق مع النفس:

وبعد فإن الدرس الذي يجب أن نستفيده من هذه الآية هو أن نكون صادقين مع أنفسنا فلا نصفها بغير ما هي فيه، ولا نخدعها بالقول الكاذب. وأيضاً يجب محاسبتها حين توحي إلينا بالغرور والتعاظم قبل أن يحاسبنا اللّٰه والناس. وأن لا نتخذ موقفاً نتمسك فيه بآرائنا وأقوالنا نعتقد أنها مقدسة

لا يمكن الارتياب فيها بحال. إن الخطأ جائز على الجميع بل ومكتوب أيضاً.

والغريب أن الأدعياء يسلمون هذا المبدأ ولكنهم ينكرون نتيجته الحتمية.

فمن أراد أن يكون من الفائزين لا من الخاسرين فليتمسك بالصدق ونصرة الحق وأهله، أما من نصر الباطل وتمسك وساند أهل الضلال فهو من الأخسرين أعمالاً؛ لأنه يبيع دينه بدنيا غيره.

يروى أنه جاء إلى المدينة والياً من قبل المنصور بعد مقتل محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم رجلٌ يقال له شيبة بن غفال، يقول عبدالله بن سليمان التميمي: فلما حضرت الجمعة صار إلى مسجد رسول الله ﷺ فرقي المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن علي بن أبي طالب شق عصا المسلمين وحارب المؤمنين وأراد الأمر لنفسه ومنعه من أهله فحرمه الله أُمنيته وأماته بغصته، وهؤلاء ولده يتبعون أثره في الفساد وطلب الأمر بغير استحقاق له فهم في نواحي الأرض مقتولون وبالدماء مضرجون.

قال: فعظم هذا الكلام منه على الناس ولم يجسر أحد منهم أن ينطق بحرف فقام إليه رجل عليه إزار قومسي سَحْق فقال: فنحن نحمد الله ونصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى رسل الله وأنبيائه أجمعين، أما ما قلت من خير فنحن أهله، وأما ما قلت من سوء فأنت وصاحبك ـ يعني المنصور ـ به أولى وأحرى، يا من ركب غير راحلته وأكل غير زاده ارجع مأزوراً.

ثم أقبل على الناس فقال: ألا أنبئكم بأخف الناس يوم القيامة ميزاناً

وأبينهم خسرانا؟، من باع آخرته بدنيا غيره، وهو هذا الفاسق.

فأسكت الناس وخرج الوالي من المسجد لم ينطق بحرف.

فسألت عن الرجل فقيل لي: هذا جعفر بن محمد عليه السلام(١).

فالأخسرون من باعوا دينهم بدنيا غيرهم، وهم كثيرون موجودون في كل زمان ومكان.

يروي الصدوق في الأمالي وغيره عن عبيدالله البزاز النيسابوري: قال النسيابوري المذكور: كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة فرحلت إليه في بعض الأيام فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم أغيرها وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر (فرأيت بين يديه طعاماً فدعاني للأكل فامتنعت)، فقال لي حميد: مالك لا تأكل؟ فقلت: أيها الأمير هذا شهر رمضان، ولست بمريض أو ذا عذرٍ ولابي علة توجب الإفطار، ولعل الأمير له عذر في ذلك، أو علة توجب الافطار فقال: مابي علة توجب الإفطار، ثم تأوه، ثم قال: يا عبدالله وهل يفيدني صومي وقد قتلت في ليلة واحدة بأمر من هارون الرشيد ستين علوياً.

وبعد فراغه من تناول الطعام صار يذكر لي كيفية قتله لهم.. هكذا يروي، قال:

دعاه هارون الرشيد ليلة، فلما مثل بين يديه قال له: يا حميد، قال:

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٠ ـ ٥١ المجلس الثاني، ح٦٦، وعنه بحار الأنوار ٤٧: ١٦٥ ب(٢٨) ما جرى بينه عليه السلام وبين المنصور، ح٥، والمطالب المهمة: ١٦٤.

لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقال: بالنفس والمال فأطرق هارون الرشيد ثم أذن له بالانصراف، ثم أرسل عليه ثانياً، فلما حضر قال له: يا حميد كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقال: بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسم ضاحكاً ثم أذن له بالانصراف، ثم أرسل عليه في المرة الثالثة، فلما حضر فقال: يا حميد كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ قال: بالنفس والمال والأهل والولد والدين، فضحك الرشيد وأمره أن يأخذ السيف وأن يمتثل ما يأمره به الخادم، فجاء به الخادم إلى بيت فيه عشرون علوياً مقيدين بالحديد فيهم الشباب والكهل والشيخ فأمره الخادم وقال: إن أمير المؤمنين يأمرك بضرب أعناقهم وطرحهم في هذا البئر، فصار العبد يخرج إليه الواحد بعد الواحد وهو يضرب عنقه والعبد يرمي بالجثة في البئر، حتى إذا أتى على العشرين فتح له بيتاً ثانياً وفيه عشرون علوياً وكلهم من ذرية علي وفاطمة عليهما السلام فقتلهم جميعاً، ثم أتى به إلى غرفة ثالثة وفيها ذلك العدد وأخذ يقدم الواحد بعد الواحد إلى أن انتهى إلى شيخ كبير قدمه للقتل فقال لحميد بن قحطبة: يا ويلك يا ميشوم تبا لك، أي عذر لك يوم القيامة إذا قمت بين يدي جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قتلت ستين من ولده وليس لهم ذنب، فأرعد حميد فزجره الخادم فقدمه وقتله.

وكان بعد ذلك يبكي ويقول: لا ينفعني كل عمل مع فعلي هذا[١].

وهل ينفعه صومه؟ أجل لا يفيد هذا وأمثاله ولا الذي أمره أعني هارون

---

(١) بحار الأنوار ٤٨: ١٧٧ ب (٤١) أحوال عشائره وأصحابه عليه السلام، ح٢٠ بتصرف.

الرشيد الذي أضاف إلى فعلته هذه وأمثالها وغيرها أن وضع موسى بن جعفر عليه السلام في السجون والطوامير حتى قتله مسموماً [١].

ونقل الصدوق: لما بنى المنصور الأبنية ببغداد جعل يتطلب العلوية طلباً شديداً ويضع من ظفر به منهم في الأسطوانات المجوفة المبنية من الجص والآجر فظفر ذات يوم بغلام منهم حسن الوجه وله شعر أسود وهو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فسلمه إلى الباني الذي كان يبني له وأمره أن يجعله في جوف أسطوانة ويبني عليه، ووكل عليه من يراعي ذلك، وحين أراد الباني أن يدخله حياً في الأسطوانة أخذته الرقة والرحمة فترك في الأسطوانة فرجة يدخل منها الريح وقال للغلام لا بأس عليك فاصبر فإني سأخرجك في جوف الليل إذا جن.

ولما دخل الليل أتاه وأخرجه من الأسطوانة وقال له: اتق اللّٰه في دمي ودم الفعلة الذين معي وغيب شخصك فإني أخرجتك خوفاً من أن يكون جدك خصمي يوم القيامة، فقال الغلام سأفعل ولكن لي أم وهي في مكان كذا، اذهب إليها وعرِّفها أني قد نجوت وأن عودي إليها غير ممكن. قال الباني: ذهبت إلى الموضع الذي دلّني عليه فسمعت دوياً كدوي النحل من البكاء فعلمت أنها أمه فدنوت منها وعرفتها الخبر وأعطيتها شيئاً من شعره وانصرفت[٢].

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٢٩، في أخباره عليه السلام بأنه سيقتل مسموما، ح١.

(٢) شجرة طوبى ١: ١٧١ باختلاف يسير.

ومن الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم وهب بن وهب أبو البختري[١]، وهو شيخ من شيوخ السوء يبيعون العلل والحيل يتسابقون إلى عرضها على من يدفع الثمن تماماً كما يفعل البزاز والبقال والفحام، أفتى بقتل يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن، وذلك لما اشتد أمر الرشيد على العلويين خرج يحيى بن عبدالله بالديلم[٢].

قال ابن الأثير[٣] والأصفهاني[٤] ما ملخصه: أن يحيى استتر مدة يجول في البلدان ويطلب موضعاً يلجأ إليه حتى بلغ الديلم، وقد شهر هناك واشتدت شوكته وأتاه الناس من الأمصار، فانتدب إليه الرشيد الفضل بن يحيى في خمسين ألف مقاتل وراسل الفضل يحيى في الصلح فأجابه إليه لما رأى تفرق أصحابه وخلافهم عليه، واشترط يحيى أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه يشهد عليه القضاة والفقهاء وجملة بني هاشم ومشائخهم، فكتب الرشيد الأمان على ما رسم يحيى وأشهد الشهود الذين التمسهم وجعل الأمان على نسختين إحداهما مع يحيى والأخرى مع الرشيد.

---

(١) قال الشيخ عباس القمي: عده علماء الرجال في الكذابين بل عن الفضل بن شاذان أنه قال: كان أبو البختري من أكذب البرية. الكنى والألقاب ١: ١٥ في ترجمة أبو البختري.

(٢) الكنى والألقاب ١: ١٥ وأورد السيد عبدالحسين شرف الدين في كتابه (أبو هريرة): ١٢٢ قائلاً: أن عبدالله بن مصعب هو الذي أفتى هارون الرشيد بقتل يحيى بن عبدالله بن الحسن.

(٣) الكامل في التاريخ ٥: ٩٠ في ذكر ظهور يحيى بن عبدالله بالديلم.

(٤) مقاتل الطالبيين: ٤٦٥ وما بعدها.

وحين قدم على الرشيد أكرمه وأجازه بمائتي ألف دينار وخلع وغيرها.

ولكن الرشيد لم يذهب ما في نفسه وقال له يوماً: أينا أقرب إلى رسول اللّه ﷺ أنا أو أنت؟ قال: اعفني، قال: لابد من الجواب، فقال له يحيى: لو عاش رسول اللّه ﷺ وخطب إليك ابنتك أكنت تزوجه؟ قال: إي واللّه، قال يحيى: لو عاش رسول اللّه ﷺ فخطب إليّ أكان يحل لي أن أزوجه؟ قال الرشيد: لا، فقال يحيى هذا جواب ما سألت. فغضب الرشيد وقام من مجلسه.

ثم إن يحيى مضى إلى المدينة فأقام بها إلى أن سعى به عبداللّه بن مصعب بن ثابت بن عبداللّه بن الزبير إلى الرشيد فقال له: إن يحيى أرادني على البيعة له، فكتب الرشيد إلى يحيى أن يقدم إليه من المدينة فأتاه، فجمع الرشيد بينهما فالتفت الزبيري إلى يحيى وقال: سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا، فالتفت إليه يحيى وقال: من أنتم؟ فغلب الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف لأن لا يظهر منه فقال يحيى: يا أمير أترى هذا المشنع عليّ خرج واللّه مع أخي محمد بن عبداللّه على جدك المنصور وهو القائل من أبياته:

قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا إن الخلافة حبكم يا بني حسن

وليس سعايته يا أمير المؤمنين حباً لك ولا مراعاة دولتك ولكن واللّه بغضاً لنا أهل البيت، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعاً لفعل وقال باطلاً وأنا مستحلفه، فإن حلف أني قلت ذلك فدمي للأمير حلال.

فقال الرشيد: احلف يا عبداللّه، فامتنع، فقال له الفضل: لِمَ تمتنع وقد زعمت آنفاً أنه قال: ذلك؟ قال عبداللّه: إني أحلف له، فقال له يحيى: قل

تقلدت الحول والقوة دون حول اللّه وقوته إلى حولي وقوتي إن لم يكن ما حكيته عنك صحيحاً حقاً، فحلف له فقال يحيى: اللّه أكبر، حدثني أبي عبداللّه عن جده عن علي بن أبي طالب عن رسول اللّه ﷺ قال: إنه قال: ما حلف أحد بهذه اليمين كاذباً إلا عجل اللّه له العقوبة بعد ثلاثة أيام. واللّه ما كذبت وها أنا بين يديك فقدم بالتوكيل بي فإن مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبداللّه حدث فدمي للأمير حلال.

فقال الرشيد للفضل: خذ بيد يحيى وليكن عندك حتى أنظر في أمره، قال الفضل: واللّه ما صليت العصر ذلك اليوم حتى سمعت الصائح من دار عبداللّه بن مصعب فأمرت من يتعرف خبره فعرفت أنه قد أصابه الجذام وأنه قد تورم واسود فصرت إليه وما كدت أعرفه لأنه صار كالزق العظيم واسود حتى صار كالفحم.

فصرت إلى الرشيد وعرفته خبره، فما انقضى كلامي حتى أتى خبر وفاته، فبادرت الخروج وأمرت بتعجيل أمره وتوليت الصلاة عليه وأقبلنا به إلى حفرته، فلما أدلي فيها لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحة نتنة فرأيت أحمال الشوك تمر في الطريق، فقلت عليَّ بذلك الشوك فأتيت به فألقيته فيها فانخسفت ثانية، فقلت: علي بألواح الساج فطرحتها على موضع قبره، ثم طرح التراب عليها فانصرفت إلى الرشيد فعرفته، فأمر بإحضار يحيى فأحضر وسأله: لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة بين الناس؟ قال: لأنا روينا عن جدنا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((من حلف بيمين مجد اللّه فيها استحيا اللّه من تعجيل عقوبته، وما من أحد حلف يميناً نازع اللّه فيها حوله وقوته إلا

عجل الله له العقوبة قبل ثلاثة أيام))[١].

أراد يحيى أن يغدر بيحيى وينقض العهد الذي جعله بيمينه وأشهد فيه على نفسه فلم يجد مبرراً ولا عذراً يعتذر به، فأمسك وسكت على مضض وأسند هذا الأمر والتجأ إلى شيخ السوء أبي البختري فعرض عليه الأمان وقال: ما قولك في هذا الأمان والعهد، فأفتاه بأن هذا العهد باطل منتقض وأن يحيى يحل قتله ودمه وأخذ العهد ومزقه فأعطاه مليون وستمائة ألف وولاه القضاء.

واستناداً إلى هذه الفتوى أخذ الرشيد يحيى وضربه مائة عصا ويحيى يناشده الله والرحمن والقرابة من رسوله الله ﷺ ثم سجن في سجن مظلم وفي الثاني أحضره وضربه مائة عصا ثم رده إلى السجن وضيق عليه من الطعام والشراب، وأخيراً بنى عليه أسطوانة وهو حي على خبر إبراهيم بن رياح. وقيل بل مات في السجن[٢].

والشيخ أبو البختري موجود في كل عصر، من عصر الرشيد وقبله وبعده. جاء في حاشية الكامل لابن الأثير: أن يزيد بن عبدالملك صاحب حبابة وسلامة القس شهد له أربعون شيخاً أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب[٣].

---

(١) عمدة الطالب: ١٥٣.

(٢) عمدة الطالب: ١٥٤ بتصرف.

(٣) الكامل في التاريخ ٤: ١٩١ في ذكر بعض سيرة يزيد بن عبدالملك، هامش ١.

وإنه لَيُعْرَفُ اليوم شيوخ بأسمائهم وسيماهم ناصروا أمثال الرشيد ويزيد في الفسق والفجور ضدّ من أوقف نفسه للّه وسهر الليالي لتأييد دين اللّه والذب عن أولياء اللّه، وكل أعمال الرشيد تهون عند خطب موسى بن جعفر عليه السلام، قبض عليه وهو يصلي عند مسجد جده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم(١).

(١) نور الأبصار: ١١٦.

المساجد

قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1].

المراد من المساجد:

في الآية الكريمة أقوال:

قول: لا تذكروا مع اللّه في المواضع التي بنيت للعبادة والصلاة أحداً على وجه الإشراك في عبادته كما تفعل النصارى في بيعهم والمشركون في الكعبة.

قال الحسن: ((من السنة عند دخول المساجد أن يقال: لا إله إلا اللّه، لا أدعو مع اللّه أحداً))[2].

وقيل: المساجد مواضع السجود من الإنسان، وهي الجبهة والكفان وأصابع الرجلين وعينا الركبتين، وهي للّه تعالى إذ خلقها وأنعم بها فلا ينبغي أن يسجد بها لأحد سوى اللّه تعالى[3]، وهي التي لا تقطع لأنها للّه سبحانه.

---

(١) الجن: ١٨.

(٢) مجمع البيان ١٠: ١٥٢ في تفسير سورة الجن آية: ١٨، وبحار الأنوار ٨٠: ٣٤٨ ب(٣٠) فضل المساجد وآدابها وأحكامها.

(٣) مجمع البيان ١٠: ١٥٢، في تفسير سورة الجن، آية: ١٨.

كان للإمام محمد الجواد عليه السلام مجالس مع أكابر العلماء والقضاة بحضرة المعتصم كما في تفسير العياشي عن زرقان صاحب ابن أبي داود قال: رجع ابن أبي دؤاد يوماً من عند المعتصم وهو مغتم، فقلت له في ذلك، قال: وددت أني قد مت منذ عشرين سنة، قال: قلت له: ولِمَ ذلك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبي جعفر محمد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين، قال: قلت له: وكيف كان ذلك؟ قال: إن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي، فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟، قال: فقلت: من الكرسوع، قال: وما الحجة في ذلك؟، قال: قلت لأن اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع لقول اللّه تعالى في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾(١) واتفق معي على ذلك قوم، وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأن اللّه لما قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(٢) في الغسل دل ذلك على أن حد اليد هو المرفق.

قال: فالتفت إلى محمد بن علي عليه السلام قال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني مما تكلموا به، أي شيء عندك؟ قال: اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك باللّه لما أخبرت بما عندك فيه، فقال: أما إذا أقسمت عليّ باللّه، إني أقول: إنهم

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) المائدة: ٦.

أخطأوا فيه السنّة فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف. قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله ﷺ: ((السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين)) فإذا قطعت يده من الكرسوع والمرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وما كان لله لم يقطع.

قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.

قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنيت أني لم أكن حياً. قال زرقان: قال ابن أبي داود صرت إلى المعتصم بعد ثالثة وقلت له: إن نصيحة أمير المؤمنين عليّ واجبة... قال: وما هو؟ قلت: إذا جمع أمير المؤمنين من مجلسه فقهاء رعيته وعلماءهم لأمر واقع من أمور الدين فسألهم عن الحكم فيه فأخبروه بما عندهم من الحكم في ذلك... ثم يترك أقاويلهم كلهم لقول رجل يقول شطر هذه الأمة بإمامته...

قال: جزاك الله عن نصيحتك خيراً(١).

فسم الإمام على يد بعض الوزراء في المائدة....إلخ.

وقيل: إن المراد بالمساجد البقاع كلها، وذلك لأن الأرض كلها جعلت

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣٤٨ ـ ٣٤٩، في تفسير سورة المائدة، ح١٠٩، وكذلك في مدينة المعاجز: ٤٠٣ ـ ٤٠٥، ح٢٤١٢، وبحار الأنوار ٥٠: ٥، ح٧، و٧٦: ١٩٠، ح٣٣، موسوعة الإمام الجواد ١: ٣٠، ح٥.

للنبي ﷺ مسجداً، عن الحسن. وقالت سعيد بن جبير: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك فنزلت الآية(١).

وقال بعض أرباب التفسير: إن المساجد في هذه الآية يقصد بها ثلاثة أشياء:

الأول: البيوت المعدة للعبادة فيؤتى بها يوم القيامة على حالها فتشهد لمن عبد اللّه تعالى فيها كما أنها تصيح إلى اللّه إذا هجرت. وقد قال نبينا محمد ﷺ: ((ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجلّ: مسجد خراب لا يصل فيه أهله وعالم بين جهال ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يقرأ فيه))(٢).

الثاني: هي الأرض، قال رسول اللّه ﷺ: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً))(٣) وإن اللّه سبحانه جعل الطهارة على قسمين: مائية وترابية. والمائية هي الأصل في الطهارة، والترابية طهارة بدلية، لذا لا يصح لكل محدث سواء كان بالحدث الأصغر أو كان محدثاً بالحدث الأكبر لا يصح له استعمال الطهارة الترابية اختياراً، ويجوز في حالة الاضطرار. فالتيمم له مسوغات.

---

(١) مجمع البيان ١٠: ١٥٢، في تفسير سورة الجن آية: ١٨.

(٢) الكافي ٢: ٥٨٦ ب (٧) قراءة القرآن في المصحف، ح٣، وعيون الحكم والمواعظ: ٢١٤، وبحار الأنوار ٨٩: ١٩٥، ح١، والخصال ١: ١٤٢، ح١٦٣.

(٣) الخصال ١: ٢٩٢ باب الخمسة، ح٥٦، وعنه بحار الأنوار ٨: ٣٨، ح١٧، ومن لا يحضره الفقيه ١: ٢٥٥ ب (٣٨) المواضع التي تجوز الصلاة فيها... ح١.

الأرض آية عظيمة:

والأرض من أعظم الآيات التي نمر عليها في كل وقت وعلى كل حال نعيش عليها، ونعيش منها، وفيها بدؤنا، وإليها معادنا، منها بدأكم، وإليها تعودون، ولا نزال نمشي على الأرض ونثير ترابها في الحرث والنسل، ونقلبها في الغرس والزرع، ونزاولها في عامة شؤون الحياة، ولا تزال تدر علينا بخيراتها وبركاتها ونحن ساهون لاهون، عن آياتها معرضون، غافلون عما فيها من عظيم القدرة وباهر الصنعة ودلائل العظمة والقوة.

هذا التراب الذي يعد من أحقر الأشياء كم يحتوي على عناصر لا تحصى وخواص لا تتناهى، تنثر فيه حب القمح مثلاً فيعطيك أضعافاً من نوعه وبنفس الخواص. وتغرس في نفس ذلك التراب نواة النخل وبذرة الكرم وأقلام التين والتفاح وأمثالها من الفواكه فتثمر تلك الثمار الشهية المختلفة الأذواق المتغايرة الخواص.

وأعظم من هذا أثراً ما تخرجه الأرض من المعادن. انظر إلى هذه المعادن الثمينة والأحجار الكريمة من الذهب والفضة والياقوت والفيروزج ونظائرها هل هي إلا من التراب.

والأرض هي أم المواليد الثلاثة الجماد والنبات والحيوان، وتحوطها العناية بالأولاد الثلاثة الماء والشمس والهواء، فهي الحياة وهي الممات وهي الداء ومنها الدواء. وقد تحصى نجوم السماء أما نجوم الأرض فلا تحصى، نعم لا تحصى نجوم الأرض ولا معادنها ولا عناصرها.

ولا تزال الشريعة الإسلامية في قرآنها وحديثها تعظم شأن الأرض وتنوه

بهـا صـراحة وتلميحاً فيقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا﴾(١) ويقـول في موضـع آخـر: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا﴾(٢)، وقال في موضع آخر: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾(٣).

دع عـنك مـا تخـرجه الأرض مـن نـبات وأشجار وحبوب وثمار ومعادن وأحجـار، ولكـن هـلم إلى هـذا الإنسـان ذي العقل الجبار الذي سخر الأثير والـبخار والكهـرباء والذرة فهل يكون إلا من التراب؟ وهل عناصره وأجزاؤه التي التأم جسمه منها إلا من التراب. وهل يتلاشى ويعود إلا إلى التراب؟

ومـن أجـل شـرف الـتراب وقداسته وعظم خيراته وبركاته كنى رسول اللّـه ﷺ وصـيه وأحـب الخلق إليه علياً عليه السلام بأبي تراب(٤). وكانت أحب الكـنى إلى أمـير المؤمـنين عليه السلام. وللشـاعر الشهير عبدالباقي العمري في هذه الكنـية معنى مبتكر جميل يجعل آدم ابناً للتراب لأنه خلق منه، ويجعل علياً أباه لأنه أبو تراب، فاستمع إليه حيث يقول:

---

(١) المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) النازعات: ٣٠ ـ ٣١.

(٣) عبس: ٢٤ ـ ٣١.

(٤) بحار الأنـوار ٣٥: ٥١ ب (٢) اسمائه عليه السلام وعللها، ح٤ بلفظ: لم كنى رسول الله ﷺ علياً أبا تراب؟ قال: لأنه صاحب الأرض وحجّة الله على أهلها بعده... الخ.

أنـــت ثـــاني الآبـــاء في منـــتهى الـــدور وآبـــاؤه تعـــد بـــنوه
خلـــق اللّــه آدم مـــن تـــراب فهـــو ابـــن لـــه وأنـــت أبـــوه

فالآية تشمل هذه الثلاثة.

تفاضل المساجد:

ولكـل مسجد فضل يتميز عن غيره، وأفضل الأماكن للصلاة هي المساجد والمشـاهد المقدسـة. وأفضل المساجد هو بيت اللّه الحرام، ورد أن الصلاة فيه بمائة ألـف صـلاة، والصـلاة عند مسجد الرسول ﷺ بخمسين ألف صلاة، والصلاة في مسـجد الكوفـة والمسـجد الأقصـى بخمسـة وعشـرين ألف صلاة، ثم مسجد الجامع والصلاة فيه تعدل مائة صلاة[1].

وهـناك ترتيـب في المسـاجد وفضـلها، فالمسـجد المهجور أقل فضلاً من مسـجد السـوق، ومسـجد السـوق أقـل فضـلاً مـن مسجد القبيلة، ومسجد القبيلة أقل من المسجد الذي تقام فيه الجماعة[2].

والمسجد المهجور يضج إلى اللّه وكذلك القرآن المهجور والعالم المجهول.

ومع مزيد الأسف أصبحت المساجد مهجورة والعلماء مجهولين والقرآن مهجـوراً، والقرآن أعظم فادحة، فقد تجد مصلين ولكن لا تجد تالياً للقرآن في هـذه الأزمان. وقد كان الناس على ضعفهم قبل هذه الظروف التي كثرت فيها المـادة لهـم الاهتمام التام بتعليم أبنائهم القرآن والحث على درسه. وقد ذهب

---

(١) انظـر وسـائل الشـيعة ٥: ٢٧٠ ب (٥٢)، ح١، ح٢، وكذلـك ص: ٢٧٩ ـ ٢٨٣ ب(٥٧) في استحباب الاكثار من الصلاة في مسجد الرسول، وص: ٢٥٥ ـ ٢٦١.

(٢) تهذيب الأحكام ٣: ٢٢٥ ب(٢٥) فضل المساجد والصلاة فيها، ح٦٩٨.

ذلـك ذهـاب أمس الغابر، فترى الوالد فضلاً عن الولد يحث ولده على علم الحسـاب والجغرافـية والهندسـة والـتاريخ وأعظمهـا اللغة الإنكليزية ولا ترى للقـرآن ذاكـراً ولا في سبيله ناصراً. أعمتنا المادة ودمرتنا تدميراً، ولقد خسرنا ديـنـنا أكـثر ممـا ربحناه من دنيانا. هذه الأشياء تعليمها ليس حراماً ولكن لم لا يكون القرآن ودرسه ضمن هذه الأشياء فنجني الفضلين الدنيا والدين.

هـذا أمـير المؤمـنين ينقل عن رسول اللّه ﷺ في حديث يقول فيه: قال رجـل لرسـول اللّـه ﷺ: علمـت ابـني الكـتابة أي شـيء أعـلمه؟ ويجيـب الـنبي ﷺ بعـد أن نهـاه عـن بعـض الحرف والمهن الخسيسة المكروهة: علم ابنك القرآن فإن اللّه يثيب المعلم والمتعلم والمسبب(١).

أمـا مـا ورد في تلاوتـه فشـيء لا تحيط به الأفهام ولا تقدر على حصره الأقلام. وأفضل الأوقات في شهر رمضان قالت عائشة: كان النبي ﷺ في كل الشـهور صلاته أكثر من تلاوته للقرآن إلا في شهر رمضان لا ينفتل عن تلاوة القرآن(٢).

وهكـذا الإمـام علي والحسن والحسين عليهم السلام كان كل هؤلاء لا ينفتل عن تلاوته حتى بعد.قطع رأسه.

---

(١) المهذب البارع ٢: ٣٣٦، والحدائق الناظرة ١٨: ٢٢٥، وفقه الصادق ١٥: ٥١ باختلاف يسير.

(٢) لم أعـثر عليـه ولكن انظر: تهذيب الأحكام ٣: ٥٨ ـ ٦١ في فضل شهر رمضان والصلاة فيه ح٦ـ ١٦ يذكـر فضـل الصـلاة في هذا الشهر والكافي ٢: ٦٠١، ح١٠ عن أبي جعفر عليه السلام قـال: لكـل شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان، وص: ٦٩١، ح٥ قوله عليه السلام لأبي بصير: يا أبا محمد إن من كان قبلكم من أصحاب محمد ﷺ كان يقرأ القرآن في شهر وأقل،... الخ.

ومن المساجد المفضلة المباركة المسجد الأعظم يعني مسجد الكوفة. والأخبار في شرافته كثيرة[١].

في الوسائل عن هارون بن خارجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ((قال لي: يا هارون بن خارجة كم بينك وبين مسجد الكوفة يكون ميلاً؟ قلت: لا قال: فتصلي فيه الصلاة كلها؟ قلت: لا، قال: أما لو كنت حاضراً لرجوت أن لا تفوتني فيه صلاة. لوتدري ما فضل ذلك الموضع، ما من عبد صالح ولا نبي إلا وقد صلى في مسجد كوفان حتى أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أسري به قال جبرئيل: أتدري أين أنت الساعة يا رسول الله؟ أنت مقابل مسجد كوفان قال: فاستأذن لي ربي حتى آتيه فأصلي ركعتين، فاستأذن الله عز وجل فأذن له. وإن ميمنته لروضة من رياض الجنة، وإن وسطه لروضة من رياض الجنة وإن مؤخره لروضة من رياض الجنة، وإن الصلاة المكتوبة فيه لتعدل بألف صلاة، وأن النافلة فيه لتعدل بخمسمائة صلاة، وإن الجلوس فيه بغير تلاوة وذكر لعبادة، ولو علم الناس ما فيه لأتوه ولو حبواً))[٢].

وفيه أيضاً عن الباقر عليه السلام قال: ((لو يعلم الناس ما في مسجد الكوفة لأعدوا له الزاد والرواحل من مكان بعيد إن صلاة فريضة فيه تعدل حجة

---

(١) انظر: وسائل الشيعة ٥: ٢٥٥ ـ ٢٦١ ب (٤٤) تأكد استحباب قصد المسجد الأعظم بالكوفة وذكر فيه روايات كثيرة في ذلك، وهداية الأبرار: ١٩٩.

(٢) وسائل الشيعة ٥: ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ب (٤٤) تأكد استحباب قصد المسجد الأعظم بالكوفة، ح٣ وتذكرة الفقهاء ١: ٩٠.

وصلاة نافلة فيه تعدل عمرة))[١].

وعن الصادق عليه السلام: ((نفقة درهم بالكوفة تحسب مائة درهم فيما سواها، وركعتان فيها تحسب بمائة ركعة))[٢].

وفيه عن أبي حمزة الثمالي إن علي بن الحسين عليه السلام أتى مسجد الكوفة عمداً من المدينة فصلى فيه ركعات، ثم عاد حتى ركب راحلته وأخذ الطريق[٣].

وقال الباقر عليه السلام لرجل من أهل الكوفة: ((أتصلي في مسجد الكوفة كل صلاتك؟ قال: فقال الرجل: لا قال فقال أبو جعفر عليه السلام: إنك لمحروم من الخير قال: ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أتغتسل من فراتكم في كل يوم مرة؟ قال: لا، قال: ففي كل شهر؟ قال: لا، قال: ففي كل سنة؟ قال: لا، قال فقال له أبو جعفر عليه السلام: إنك لمحروم من الخير. ثم قال: أتزور قبر الحسين عليه السلام في كل جمعة؟ قال: لا، قال: في كل شهر؟ قال: لا، قال: ففي كل سنة؟ قال: لا، فقال له أبو جعفر عليه السلام: إنك لمحروم من الخير))[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((ما دعا فيه مكروب بمسألة له في حاجة من

---

(١) وسائل الشيعة ٥: ٢٥٦ ب (٤٤) تأكد استحباب قصد المسجد الأعظم بالكوفة، ح١٤ والتهذيب ٦: ٣٢، ح٦٠.

(٢) بحار الأنوار ٩٧: ٣٩٩ ب(١٦) فضل الكوفة ومسجدها الأعظم وأعماله، ح٤٢.

(٣) وسائل الشيعة ٥: ٢٥٤ ب(٤٤) تأكد استحباب قصد المسجد الأعظم بالكوفة، ح٦ والتهذيب ٣: ٢٥٤، ح٧٠٠.

(٤) بحار الأنوار ٩٧: ٤٠١ ب (١٦)، ح٥٣ نقلاً عن كامل الزيارات.

الحوائج إلا أجابه اللّه تعالى وفرج عن كربته))[١].

ومن المساجد المعظمة المباركة مسجد السهلة. في الوسائل قال الصادق عليه السلام: ((ما من مكروب يأتي مسجد السهلة فيصلي فيه ركعتين بين العشاءين ويدعو اللّه عز وجل إلا فرج الله كربته، أو قال: قضى حاجته))[٢].

فيه زبرجدة فيها صورة كل نبي وكل وصي. وفي خبر فيه صخرة خضراء فيها صور جميع النبيين.

وقال الصادق عليه السلام: ((بالكوفة مسجد يقال له مسجد السهلة، لو أن عمي زيداً أتاه فصلى فيه واستجار اللّه لأجاره عشرين سنة منه، وفيه مناخ الراكب وبيت إدريس النبي عليه السلام، وما أتاه مكروب قط فصلى فيه بين العشاءين ودعا اللّه إلا فرج اللّه كربته))[٣].

كما أن الصادق عليه السلام مضى إلى مسجد السهلة وصلى ودعا اللّه لاستخلاص تلك المرأة الصالحة فاستجاب اللّه دعاءه كما روى المجلسي عطر اللّه مرقده في الثاني والعشرين من بحار الأنوار في باب فضل مسجد السهلة روى بشار بن عبداللّه أنه قال: دخلت على مولاي الصادق عليه السلام وهو يومئذٍ بالكوفة فرأيت قدامه طبقاً من رطب وهو يأكل منه فقال لي: يا بشار أدنُ

(١) بحار الأنوار ٩٧: ٤٠٣ ب (١٦) فضل الكوفة ومسجدها الأعظم وأعماله، ذيل ح٥٩ نقلاً عن كامل الزيارات.

(٢) بحار الأنوار ٩٧: ٤٤٠ ب (١٧) مسجد السهلة وسائر المساجد بالكوفة، ح٢٠.

(٣) بحار الأنوار ٩٧: ٤٣٩ ب (١٧ مسجد السهلة وسائر المساجد بالكوفة، ح١٦.

فكـل معـي مـن هذا الرطب، فقلت: هنأك اللّه به وجعلني فداك، فقال: لِمَ لا تـأكل؟ فقلت: إني في هم عظيم من شيء رأيته الآن في طريقي هذا وقد أوجع قلـبي وأهـاج حـزني، فقـال: بحقـي علـيك إلا ما أخبرتني بما رأيت، فقلت: يا مولاي رأيت ظالماً يضرب امرأة ويسوقها إلى الحبس وهي تنادي المستغاث باللّه ورسـوله، ولم يغـثها أحـد من الناس، فقال عليه السلام: ولِمَ فعل هذا بها؟ فقلت: سمعـت مـن الـناس يقولـون أنهـا عـثرت بحجر وهي تمشي فقالت: لعن اللّه ظالميك يا فاطمة الزهراء فسمعها هذا الجلواز فصنع بها ما سمعت.

قـال: فقطـع عليه السلام أكلـه وتظاهـر حزنه ولم يزل يبكي حتى ابتل منديله ولحيـته، وقال: نغصت عليّ يا بشار، قم بنا إلى مسجد السهلة لندعو اللّه عز وجـل ونسـأله خـلاص هـذه المـرأة، ووجـه عليه السلام بعـض أصـحابه إلى بـاب السـلطان وقـال عليه السلام: لا تـبرح حتى تأتيني بخبر صحيح فإن حدث حدث سر إلينا حيث كنا.

فسـرنا إلى مسـجد السـهلة وصلى كل منا ركعتين للّه عز وجل ثم رفع يديـه بالدعـاء وابـتهل إلى اللّـه تعالى بالثناء ثم خرّ للّه ساجداً ساعة ثم رفع رأسه وقال: الحمد للّه، قم يا بشار أطلقت المرأة من يد الظالم.

فبيـنما نحـن عـلى الطـريق إذ أتانـا الرجل الذي وجهه عليه السلام إلى باب السـلطان فقـال عليه السلام: مـا الخـبر؟ فقال: أطلقت المرأة، فقال عليه السلام: كيف كان إطلاقهـا؟ قـال: كنت واقفاً عند باب السلطان إذ خرج صاحب السلطان فدعا المـرأة وقـال لهـا: مـا الـذي تكلمت به؟ قالت: عثرت بحجر فقلت: لعن اللّه ظالمـيك يـا فاطمة الزهراء، ففعل بي ما ترون، فناولها مائتي درهم وقال: خذي

المال واجعلي السلطان في حل، فأبت أن تأخذها وانصرفت إلى منزلها.

فقال عليه السلام: أبت أن تأخذها وهي والله محتاجة إليها. ثم أنه عليه السلام أخرج من جيبه صرة فيها سبعة دنانير لم يكن عنده غيرها وقال: اذهب يا بشار أنت إلى منزلها وأقرئها عني السلام وادفع إليها هذه الدنانير، فمضيت إليها وأقرأتها منه السلام فقالت: بالله عليك أقرأني مولاي الصادق السلام؟ فقلت: إي والله، فخرت ساجدة ساعة ورفعت رأسها وقالت: أقرأني مولاي الصادق السلام؟ فقلت: نعم، فسجدت لله شكراً حتى فعلت ذلك ثلاثاً فقلت لها: يا أمة الله خذي ما أرسل إليك سيدي وأبشري بالجنة، فأخذت واستبشرت وشكرته على ذلك وقالت: يا بشار اسأله أن يستوهب أمته من الله تعالى.

فرجعت إليه وحدثته بما جرى فجعل الإمام عليه السلام يبكي ويقول: غفر الله لها(١).

هذا الصادق عليه السلام سمع أن امرأة من شيعته ضربوها وذهب بها إلى الحبس فما استقر حتى مضى إلى المسجد ودعا لها وخلصها.

سيدي ليت شعري أسمعت أن عمتك زينب ضربت وحبست في الدار في الكوفة وقد اسود متنها من ضرب السياط؟!.

---

(١) بحار الأنوار ٤٧: ٣٨٠ ب (٣٣) أحوال أصحابه وأهل زمانه عليه السلام باختلاف.

العالم العامل

قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (1).

أي لا يستوي الذين يعلمون ما وعد الله من الثواب والعقاب والذين لا يعلمون ذلك.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أي إنما يتعظ ذوو العقول من المؤمنين.

وروي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: ((نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولوا الألباب))(2)(3).

وليس المراد بالعلماء هنا الذين حفظوا الشروح والمتون، ولا الذين اكتشفوا قوى الطبيعة واخترعوا العقول الألكترونية والصواريخ عابرة القارات وغزوا الفضاء وصعدوا إلى القمر والمريخ، كلا، إنما المراد بهم العاملون لخير الإنسانية جمعاء وتحرير المعذبين في الأرض وخلاص الناس من البؤس والشقاء. أما العلماء اللامبالون أو الذين باعوا دينهم للأبالسة والشياطين لجلادي الشعوب فاخترعوا لهم الأسلحة الجهنمية، أما هؤلاء فهم

---

(1) الزمر: 9.

(2) بحار الأنوار 65: 29 ب (15) فضائل الشيعة، ح57 نقلاً عن المحاسن.

(3) مجمع البيان 8: 389، في تفسير سورة الزمر آية: 9.

كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

ولا يدرك هذه الحقيقة إلا أولوا العقول والأبصار(١)، فالعلم خير في نفسه سواء كان من علوم الدين أم الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ حيث عمم ولم يخصص، وقول الرسول الأعظم ﷺ: ((اطلب العلم ولو بالصين))(٢) أراد به كل علم لا علوم الدين فحسب. واتفقت كلمة الفقهاء على أن العلوم الدنيوية التي يتوقف عليها نظام الحياة ولا تتم بدونها كالصناعة والزراعة والتجارة تجب كفاية تماماً كالعلوم الدينية.

علوم الإسلام

أما علوم الدين الإسلامي فخمسة: علم الكلام، والتفسير، والحديث والفقه، وأصول الفقه. وعد البعض التصوف من العلوم الإسلامية، وعرّفه بأنه علم القلب وتطهيره من الصفات الذميمة.

والواقع غير هذا؛ لأن التصوف أشبه بالزهد والتقشف على قول. أو هو اتصال الروح بخالقها مباشرة على قول آخر. وعلى الأول يكون باباً من علم الأخلاق، وعلى الثاني يكون بحثاً من بحوث الفلسفة وسبباً من أسباب المعرفة. وعلى أي حال فليس التصوف علماً مستقلاً بذاته.

ويبحث علم الكلام عن وجود اللّه وصفاته، ونبوة الأنبياء وما يتعلق برسالتهم من المعاجز وتلقي الوحي، ويبحث عن المعاد والثواب والعقاب

---

(١) التفسير الكاشف ٦: ٣٩٩ ـ ٤٠٠، في تفسير سورة الزمر، آية: ٩.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٧٧ ب (١) فرض العلم، ووجوب طلبه... ح٥٥.

والحسن والقبح، والجبر والاختيار، وعن النفس وحقيقتها ومصدرها ومصيرها، ويدافع عن الدين بالحق والبراهين العقلية.

ويبحث علم الفقه عن أحكام اللّه تعالى في أفعال المكلفين من الوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة.

ويستخرج الفقيه هذه الأحكام من أدلتها المقررة في علم الأصول.

وقد تغلب علم الفقه على سائر العلوم الإسلامية، فإذا قيل: فلان عالم دون قيد يفهم منه الفقيه في العلوم الإسلامية، بل إن الكثير من طلاب العلم الديني لا يعرفون للدين علماً غير الفقه وأصوله.

ويبحث علم الأصول في أدلة الأحكام الشرعية، أي أن الأصولي يستخرج الأحكام من الأصول الأربعة وهي الكتاب والسنة والإجماع والعقل ولا يتجاوزها إلى غيرها. ولكن امتد إلى علم الأصول نظريات فلسفية وتحاليل منطقية فيها من الدقة والعمق ما في أهم بحوث الفلسفة. ومن تتبع علم الأصول وتفهّم التآليف كرسائل الأنصاري وكفاية الخراساني وتقريرات النائيني وجد فيها مناهج للبحث لا تقل في ضبطها ودقتها عن مناهج البحث الحديث.

ويبحث علم التفسير عن معنى كلام اللّه سبحانه في كتابه المنزل على نبيه المرسل محمد بن عبداللّه ﷺ.

ويبحث علم الحديث عن قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره وثبوتها بالنقل الصحيح.

فوائد العلوم الدنيوية:

أما فوائد العلوم الدنيوية فمن فوائدها أنها تساعد على الاحتفاظ بالصحة وبموارد العالم واستغلالها لصالح الإنسان، وتجعل العمل أكثر يسراً وتقرب البعيد، وتوفر الراحة، وتغير طريقة التفكير، وتحل المشاكل الاقتصادية بسبب العلم، وتدخل بكل كبيرة وصغيرة في حياة الإنسان منذ وجوده إلى آخر يوم في حياته غنياً كان أو فقيراً.

وبكلمة: أصبح العلم اليوم قوة في كل ميدان ومقياساً لتقدم الشعوب والأمم.

فوائد العلوم الدينية:

أما فوائد العلوم الدينية، فالدين بسيط جداً وواضح جداً، بسيطٌ بساطة الخير لأنه هو الخير الذي يقول لك: لا تقتل، لا تسرق، لا تزنِ، لا تكذب، لا تظلم، لا تتجسس، لا تخن أحداً، لا تأكل الربا. مدَّ يد العون إلى كل محتاج إليك.

وبالتالي فإن الدين يقوي صلتك بخالقك وأسرتك والناس جميعاً على أساس الحب والتعاون ويحاسبك على كل خطيئة ترتكبها.

وقد زهدنا في هذا الزمان في العلوم الدينية، فلا تجد أحداً من الأثرياء يبعث ولده لطلب العلم الديني، أما الدنيوي فكثيرون من يهاجرون إلى أمريكا وأمثالها فيعود الولد نصرانياً كاملاً. على أن العالم الديني إذا كان عاملاً مخلصاً فهو أكبر من كل أحد ممن يحمل الشهادات، وأكبر من الحاكم، فأمره مطاع فوق كل أحد لأنه يملك القلوب فلا يستطيع أحد مقاومته.

ومـنه على سبيل المثال[1] أذكر لك فرداً من هؤلاء العظماء الذين كانوا أئمة في الفقه والشريعة وكانوا أئمة في الثورات التحررية كالميرزا السيد محمد حسـن الشـيرازي، ففـي سـنة ١٣٠٩هـ منح شاه إيران ناصر الدين القاجاري امتـيازاً لشركة إنكليزية بحصر التبغ، وكان المرجع الديني الأول يومذاك السيد محمد حسن المشهور بالميرزا الشيرازي، فأدرك أن هذه الشركة أكبر خطر يهدد اقتصـاد إيـران وأنهـا طـريق لـتحكم الاستعمار بمصير البلاد، فلم يجد سبيلاً للقضـاء عليها إلا بتحريم التدخين على الإيرانيين، فأشاع خبر التحريم حتى تـركه أهـل إيران وكسرت كل نارجيلة وكل آلة من آلات التدخين حتى نساء الشـاه حطمن آلات التدخين في القصر بما فيها نارجيلة الشاه، ولما علم الشاه بذلـك لم يحـرك سـاكناً مع نسائه وخدمه واضطر إلى فسخ الامتياز واستراحت البلاد من شرور الشركة [2].

وقـيل: إن مديـر الشـركة سـأل: كـم يملـك هـذا السـيد مـن الجـيوش والأساطيل؟ فقيل له: لا شيء، فقال: وكم تبلغ ثروته من الملايين؟ فقيل له: لا يملك شيئاً، قال: إن هذا لا يمكن مقاومته.

أجـل لـو كان يملك الأموال والأساطيل لأمكن أن يقاوم بأساطيل أعظم وبثروة أضخم ولكنه يملك القلوب التي لا حول ولا قوة معها للنار والدينار.

وهكـذا أيـد اللّـه هـذا السيد بعونـه وسـدده بتوفـيقه حـين علم منه

---

(١) مع علماء النجف الأشرف: ١٠٩.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٣٠٦ ـ ٣٠٦ في فسخ امتياز الدخان.

الإخلاص في النية والصدق في العلم.

وحسبنا بهذا الركن حجة على من قال إن الدين منفصل عن السياسة وإنه في حقيقته لا يتعدى حدود الجوامع والأديرة، وإن على رجاله أن يتجافوا عن كل ما يمت إلى الحياة بصلة.

وقد رد جمال الدين الأفغاني على هؤلاء بقوله: إذا لم نشتغل بالسياسة وهي عصب الحياة فما هي إذن صلتنا بهذا العالم الحي؟

وقال السيد محسن الأمين:

في سنة ١٢٨٧هـ زار ناصر الدين شاه العتبات المقدسة في العراق وكان الوالي على بغداد مدحت باشا الشهير، فلما قصد الشاه إلى كربلاء خرج لاستقباله علماؤها جميعهم إلى المسيب فسلم عليهم وهو راكب، ولما ورد النجف الأشرف خرج أيضاً لاستقباله علماؤها فسلم عليهم وهو راكب أيضاً، ثم زاروه بعد مادخل النجف ولم يخرج السيد محمد حسن الشيرازي لاستقباله ولم يزره فأرسل إلى كل واحد مبلغ من المال فقبله وأرسل إلى السيد فلم يقبل، فأرسل الشاه وزيره حسن خان إليه يعاتبه ويطلب منه زيارة الشاه فأبى، فأصر الوزير، وأصر السيد، وبعد الإلحاح تم الاتفاق على أن يذهب الشاه لزيارة الحضرة الشريفة العلوية في وقت معين ويذهب السيد إليها بهذا القصد وهناك يتم اللقاء وهكذا كان، وزادت بذلك منزلة السيد عند الشاه وعند كافة الناس.

وكان ذلك أول ما ظهر من مخائل كياسته وبعد نظره في الأمور[١].

وأصبحت هذه الطريقة سنة متبعة عند كبار العلماء منذ السيد الشيرازي حتى اليوم فإذا جاء إلى النجف ملك من ملوك المسلمين أو من هو في منزلته أحجموا عن استقباله وزيارته وإذا دعت الضرورة للاجتماع التقوا به في الحضرة المقدسة.

امتنع السيد عن زيارة الشاه وتصلب في موقفه رغم الإغراء والإلحاح إعزازاً للدين لا لنفسه بخاصة بعد أن استقبل الشاه أهل العلم وهو راكب وأظهر من التصلف والتكبر عليهم ما أظهر. لقد ترفع السيد عن الشاه ليرفع الدين وأهله بأعين الناس ويفهم الجميع بأن عظمة الدين لا يدانيها شيء لأنها من عظمة اللّٰه سبحانه.

وقد كان للسيد جوانب أخرى لا تقل أهمية عن هذا الجانب، فقد بنى مدرسة لأهل العلم وأنشأ سوقاً في سامراء وأقام جسراً على دجلة وعين المشاهرات السرية للعائلات المستورة التي يحسبها الجاهل أغنياء من التعفف وأعان من أفلس من التجار دون أن يعلم أحد بذلك، ورتب المرتبات للطلاب والمدرسين حسب مراتبهم ومنازلهم العلمية، وكان لا يخيب قاصداً كائناً من كان عالماً أو جاهلاً، شيعياً أو غير شيعي، فكان الفقراء والمعوزون من طلاب العلم يستدينون على عطاياه، وكان تجبى إليه الأموال من أقصى الصين وما وراء النهر مما دون، ومن كل بلد فيه شيعي فينفقها بكاملها في وجوه الخير

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥ ما جرى للسيد الميرزا الشيرازي مع الشاة ناصر الدين القاجاري.

والبر ولا ينفق منها على نفسه وعياله إلا بمقدار الضرورة، فلقد كان زاهداً متواضعاً في لباسه وطعامه وجميع مظاهره. ومات ولم يترك لأولاده عقاراً ولا درهماً.

ومن خصائصه التي امتاز بها عن المراجع أنه كان يسأل ويتعرف على العلماء والطلاب في أقاصي البلاد، فما من عالم أو طالب في مدينة أو قرية من بلاد الشيعة إلا ويتفقد أحواله ويعرفها حتى كأنه معه، وكان يساندهم ويعينهم مادياً وأدبياً بخاصة الذين يفيدون وينفعون، وإذا سمع من أحدهم ما يكره تجاهله حتى كأنه غير موجود.

أي اتزان ورجحان في هذا العقل؟ وأي عطف وحنان في هذه النفس الزكية؟ وأي نبل وسمو في هذا الضمير الحي؟ وأي إيمان وإخلاص في هذا القلب الطاهر؟ وليس من شك أن قلباً كهذا يجلب إليه جميع القلوب فتنقاد لصاحبه انقياداً لا تملك معه شيئاً ولا ترى لنفسها أمراً ولا نهياً.

إن العلاقات والصلات بين الناس وبين المرجع الأعلى للدين تماماً كالصلات بينهم وبين المعصوم؛ لأنه النائب عنه في مهماته كلها أو جلها على اختلاف بين الفقهاء. وبديهة أن صلة المعصوم بالناس إنما هي صلة الأب الرؤوف بأبنائه الكبار والصغار الأبرار والفجار على السواء، ومحال أن تكون للعالم الأهلية لهذا التمثيل إذا لم يكن له عقل كعقل السيد الشيرازي وقلب كقلبه، محال أن يكون سيداً للجميع إذا لم يكن أباً للجميع، وإذا كان الإنسان لا يبلغ درجة الاجتهاد إلا بعد أن يتقن القواعد والأصول المقررة فإن المجتهد لا ينوب عن المعصوم إلا إذا ملك القلوب، ولا يملكها إلا من كان بأوصاف

السيد الشيرازي الذي أوجزها السيد الأمين في كتابه الأعيان بقوله:

((كان ثابت الفكر، راجح العقل، بعيد النظر، مصيباً في الرأي، حسن التدبير، صائب الفراسة، قوي الحفظ، على جانب عظيم من كرم الأخلاق يوقر الكبير ويحنو على الصغير، أعجوبة في أحاديثه وسعة مادته وجودة قريحته آية في ذكائه ودقة نظره وغوره. وكان بالإضافة إلى ذلك أديباً يحب الشعر وإنشاده ويجيز عليه ولذلك قصده الشعراء والأدباء فراجت بضاعة الأدب في أيامه(١).

وبالتالي لو كان السيد الشيرازي عند الأجانب لوضعوا في أفعاله وآرائه مئات المجلدات، ولعرضوا حياته على المسرح مرات ومرات، وملأوا الصحف والإذاعات، ولكنه عند الشيعة.

وفي النهاية لقد أرسى السيد الشيرازي العظيم المبادئ الأساسية العامة الرئيسية، فعلى كل مرجع من مراجع الدين أن يتخذ من سيرته دستوراً لجميع أقواله وأفعاله.

هذا من العلماء الذين يكون النظر إلى وجوههم عبادة، وهذا ممن يكون موته ثلمة في الدين، فموت العالم يحدث ثلمة في الدين، وموت الإمام هدم للدين لذا هتف جبرئيل يوم قتل علي عليه السلام فقال: تهدمت والله أركان الهدى(٢). وما جعل واقعة كربلاء مهمة عظيمة للغاية أن المفقودين فيها بعض

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٣٠٤ في وصفه.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦، وج١٠٩: ٦٣، وكلمات الإمام الحسين: ١٤٧، والأنوار العلوية: ٣٧٧.

الشهداء فحسب، بل أكثرهم علماء كأبي الفضل الذي يقول في حقه أبوه أمير المؤمنين عليه السلام: ولدي زق العلم زقاً [١]. ويقول الصادق عليه السلام: إن عمي العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان[٢]. وكحبيب بن مظاهر الذي عَلِم عِلْم المنايا والبلايا.

ولعلم أبي الفضل وحبيب حفر السجاد لكل واحد منهما قبراً

---

(١) أعيان الشيعة ٧: ٤٣٠ نقلاً عن مقاتل الطالبيين، وذخيرة الدارين: ١٢٣، والعباس بن علي رائد الكرامة: ٤١.

(٢) مجالس الحسين: ٨٤.

حقيقة الزهد

قوله تعالى:

﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(1).

المعنى:

﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي فعلنا ذلك لئلا تحزنوا على ما يفوتكم من نعم الدنيا، ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي بما أعطاكم الله منها. والذي يوجب نفي الأسى والفرح من هذا أن الإنسان إذا علم أن ما فاته منها ضمن الله عليه العوض في الآخرة فلا ينبغي أن يحزن لذلك، وإذا علم أن ما ناله منها كلف الشكر عليه والحقوق الواجبة فيه فلا ينبغي أن يفرح به. وأيضاً فإذا علم أن شيئاً منها لعله لا يبقى فلا ينبغي أن يهتم له بل يجب أن يهتم لأمر الآخرة التي تدوم ولا تبيد.

وفي هذه الآية إشارة لأمور:

الأول: حسن الخلق؛ لأن من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها لا يحسد ولا يعادي ولا يشاح فإن هذه من أسباب سوء الخلق، وهي من نتائج حب الدنيا.

وثانيها: استحقار الدنيا وأهلها إذا لم يفرح بوجودها ولم يحزن لعدمها.

---

(1) الحديد: ٢٣.

وثالثها: تعظيم الآخرة بما ينال فيها من الثواب الدائم الخالص من الشوائب.

ورابعها: الافتخار بالله دون أسباب الدنيا.

ويروى أن علي بن الحسين عليه السلام جاءه رجل فقال له: ما الزهد؟ فقال: الزهد عشرة أجزاء: فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا. وإن الزهد كله في آية من كتاب الله: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

وقيل لبزرجمهر: ما لك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات ولا تفرح بما هو آت؟ فقال: إن الفائت لا يتلافى بالعبرة والآتي لا يستدام بالخبرة[١]. وكان بزرجمهر لا يُرى فَرِحاً ولا حزيناً.

إن العاقل لا يقول لشيء كان: ليته لم يكن، ولا لشيء لم يكن: ليته كان.

وفي الحديث: ((فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا... فإن لو تفتح عمل الشيطان))[٢].

ويقال إن تاجراً في أمريكا احترقت أمواله كلها، وكانت تبلغ الملايين، فجاءه بعض معارفه يعزيه فوجده كعادته كأن لم يكن شيء، ولما سأله عن عدم

---

(١) مجمع البيان ٩: ٣٩٩ ـ ٤٠٠، في تفسير سورة الحديد، آية: ٢٣.

(٢) صراط النجاة ٢: ٤٥١، وسبل النجاة ٤: ٢٠٧، وفقه السنة ١: ٦٠٨، وشرح أصول الكافي ٨: ٢٠٥، وصحيح مسلم ٨: ٥٦، والسنن الكبرى ١٠: ٨٩.

اكتراثـه ومبالاته قال لـه: إن الحزن على ما فات لا يجدي نفعاً، وأنا أفكر بجمع الثروة من جديد وهذا أهم شيء لدي.

ويحدثـنا الـتاريخ عـن رجـال صفت نفوسهم من كل شائبة كالخليل بن أحمـد الفراهـيدي الـذي كانـت أفعالـه دروسـاً وعظـات للأجيال. قال سفيان الـثوري: مـن أراد أن يـنظر إلى رجـل خلـق مـن الذهـب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد(١).

بل هو أغلى وأثمن من الذهب لأنه زهد فيه وفي الدنيا كلها.

وهـو أول مـن ضـبط اللغـة، وابتكر المعاجم. إن هذا العالم كان يقاسي ضيقاً شديداً.

خلـف علـيه أبوه بستاناً فصار يعيش بغلته ولكنه كان كريماً فسرعان ما تـبدد الغلـة ويضـرب الفقـر عائلـته، كان يغلق بابه ولا يستقبل أحداً خشية اطلاع الناس على همومه.

وأصـبحت البصـرة ذات يـوم وإذا بخـيول مطهمـة تجـتاز شـوارع البلد فخمـة تلفـت الـنظر، وعلـيها فرسـان أنـيقون يـرتدون ألبسـة فارسية زاهية ويتسـارع الـناس إلى رؤيـتهم ويتساءلون عن أمرهم، فيقول قائلهم: إنهم من الأهـواز وأيم الله، لقد رأيت أصحاب الأمير هناك وهم يرتدون هذا الضرب مـن اللـباس، ولا جـرم أنهـم يحملـون هدايا إلى أميرنا، ويسير الفرسان وراء دلـيل يشـق الطـريق أمامهم، ولا يلبثون أن ينحرفوا عن قصر الأمير ويتجهوا

---

(١) كتاب أمثال الحديث: ٦٧.

وجهة أخرى حتى يدخلوا حي الخليل بن أحمد ويقتربوا من بيته، فينزل الدليل مسرعاً ويبادر إلى باب الخليل، يطرقه طرقاً مستعجلاً يشير به إلى عظم ما أتى به، فيخرج ابن الخليل عبدالرحمن ويتأمل الدليل والفرسان والخيول فيصيبه الوجوم فهو لم يكن يرى بين زائري والده إلا متعممين ومتطيلسين لابسو العمائم والطيلسان والجبة.

فيعجل الدليل ويقول: هيا أخبر والدك أن أمير الأهواز بعث إليه رسولاً من كبار أصحابه، فيدخل عبدالرحمن على والده، وكان يلقي درساً على طلابه ويقول له بسرور مستعجلاً مرتبكاً: قم يا أبتي أتانا الخير وذهب الفقر، هذا رسول أمير فارس يأتي بأبهة عظيمة إليك موفداً، وقد رأيت من خيوله وتابعيه ما لم تر عيني قبل اليوم.

قال الفتى ذلك متوقعاً لقوله أثراً عظيماً عند والده، غير أن هذا لم يبد كبير اهتمام، ولم ينهض بل قال: دعه يأتي يدخل إلينا، فنظر عبدالرحمن إلى والده بدهشة عظيمة وخيبة أكبر، ثم لم يرَ بداً من تنفيذ أمره، فيخرج فيقول للدليل ومن معه: أهلاً بكم، ادخلوا بترحاب، فنزل الرسول متثاقلاً وقد خاب ظنه بحسن اللقاء ومزيد الحفاوة، ويدخل داراً بسيطة متواضعة فيزداد عجباً، وقد كان يعتقد أن من أرسل إليه رئيس من رؤساء المدينة كبير، وينتهي إلى مجلس الخليل فيلقاه هذا بالابتسامة والترحيب ويدعوه إلى الجلوس وأصحابه، ثم يعود إلى درسه ليتمه.

فيرى له الرسول من هيبة العلم ووقار المجلس ما يدفعه إلى أن يطرق الرأس باحترام.

يفـرغ الخلـيل من الدرس فيلتفت مرحباً بضيفه مرة أخرى ويسأله عن حـال صـاحبه فيقول الرسول: إن مولاي الأمير سليمان بن حبيب المهلبي أعزه اللّـه الـذي تجمعـك بـه القرابة من قبيلة بني أزد قد أمر على فارس والأهواز وقـد أقـام مـولاي في قصـر عظـيم فخـم وحفت به الأمراء والقواد والفرسان واجـتمع إلـيه العـلماء وجلس على بابه الشعراء، وقد بحث عن أديب يلازم مجلسه وينادمه ويؤدب أولاده، ولم ير مولاي الأمير أعزه اللّه أن يوفدني وهؤلاء الفرسان دون هدية فأنعامه غزيرة وخيراته عميمه.

ويلتفـت إلى الفـارس الموكل بالصندوق ويقول: اقترب بما معك، فيرفع هـذا صندوقه ويضعه أمام الخليل ويفتحه ويقول: هذه مائة ألف درهـم أرسلها إلـيك مـولاي الأمـير عـلى سـبيل الهديـة المستحبة، وقليلها كان لتجهيزك إلى حضرته على خير مثال.

فنظر عبدالرحمن إلى الدراهم وهي بيضاء ناصعة تلمع أمامه، سال لعابه وانفجـرت عيـناه، وبهـر بهـا تلامـذة الخلـيل وعلـت بعضهم ابتسامة الفرح فالخليل حري بأن يهبهم منها وهو الذي شاطرهم ماله مهما قلّ.

أمـا الخليل فينهض مبتدءاً ويذهب إلى خزانة في البيت ويخرج منها شيئاً صـغيراً يحمله في يده ويعود إلى مجلسه وما استوى قاعداً حتى قال: أرأيت هذه الكسرة من الخبز، إنها زادي الوحيد، ولكنها كافية لسد رمقي، وما دام عندي منها فلست في حاجة إلى سليمان.

وأمـا هذه الدراهـم الكثيرة فعند الأمير من الشعراء من هـم بحاجة إليها فليردها عليهم.

ما سمع عبدالرحمن ذلك حتى اضطرب واكفهر وأراد أن يتكلم ولكن الكلام وقف في حلقه، فصار يأتي بما لا يفهم. أما الرسول فما صدق ما سمع وعاد إلى الخليل يستفهم منه، فقال له: لقد كفاني اللّه الخبز من الرحلة إلى أميرك، وهذا جوابي، وبلغ الأمير هذه الرسالة:

للناس مال ولي مال ومالهما إذا تحارس أهل المال حراس
مالي الرضا بالذي أصبحت أملكه ومالي اليأس مما يملك الناس

وكان ذلك كلاماً نال اليأس منه فاحمر وجه الرسول وأدرك أنه أخفق في مهمته إخفاقاً مريعاً ما كان يتوقعه، فحاول أن يقنع الخليل فصار يصف له قصور فارس وجمال بنيانها وحسن طبيعتها وكثرة خيراتها ولطف الأمير وظرف حاشيته دون أن يثني الخليل عن عزمه، حتى عرف الرسول أنه لا أمل له بإقناعه، فأمر الفارس الموكل بالمال أن يرفعه، فأغلق الصندوق وانقطعت الفضة من اللمعان فكادت عين عبدالرحمن تخرج من صدغيه.

وحمل المال وأخرج من البيت وقال له: بماذا أجيب مولاي الأمير؟ فقال:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنىً غير أني لست ذا مال
شحا بنفسي أني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال

هذا ما تنقله إليه بالحرف الواحد. فاستأذن الرسول وهو يتعثر بخيبة أمله، وخرج وهو يقول: ما هذا إنسان كما رأيت.

نظر طلاب الخليل إلى أستاذهم نظرة حيرة فيها العجب والإجلال والأسف والحسرة وأن شيخهم لأعظم الناس وأحراهم بالإجلال، وما فعل أمامهم أكبر من أن يصدق، وأطرقوا الرأس بين يديه وانتظروا أن يأذن لهم

بالخروج ليذهبوا فيحدثوا عن أعجب ما رأوا وسمعوا، وعن أجل الناس وأرفعهم(١).

وما أشبه الحكاية بحكاية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري:

أرسل عثمان إلى أبي ذر موليين له ومعهما مائتا دينار، فقال لهما انطلقا بها إلى أبي ذر فقولا له: عثمان يقرئك السلام وهو يقول لك هذه مائتا دينار فاستعن بها على مانابك فقال أبو ذر: هل أعطى أحداً من المسلمين مثل ما أعطاني؟ قالا: لا. قال: فإنما أنا رجل من المسلمين قالا: له إنه يقول: هذا من صلب مالي وبالله الذي لا إله إلاّ هو ما خالطها حرام ولا بعثت بها اليك إلاّ من حلال. فقال: لا حاجة لي فيها وقد أصبحت يومي هذا وأنا من أغنى الناس. فقالا له: عافاك الله واصلحك! مانرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً مما يستمتع به؟ فقال: بلى تحت هذه الأكاف التي ترون رغيفا شعير قد أتى عليهما أيّام فما أصنع بهذه الدنانير(٢).

ومثلها حكاية ديجون الفيلسوف اليوناني الشهير مع الإسكندر الكبير، أرسل الإسكندر إلى ديجون يدعوه إلى مجلسه، فقال للرسول: قل له: يقول لك ديجون: إذا منعك عن المسير إلي استغناؤك عني بسلطانك فقد منعني عن المسير إليك استغنائي عنك بقناعتي.

فسار الإسكندر إليه مع وزرائه وحاشيته فوجده جالساً في الشمس على

---

(١) أعيان الشيعة ٦: ٣٤٠ بصورة مختصرة.

(٢) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٧، ح٥٣.

الأرض فلم يأبه لـه ديجون فقال له الإسكندر: أنا الملك إسكندر، فأجابه: وأنا الكلـب ديجون، فقال: كبير الوزراء للإسكندر: لو كنت مكانك لضربت عنقه فقـال الإسـكندر: لـو كنـت أنـا أنـت لم أصل إلى ما وصلت إليه، ثم التفت الإسكندر إلى ديجون وقال له: سل حاجتك، فقال: حاجتي أن تتنحى جانباً فقد حجبـت عـني نور الشمس، فذهب الإسكندر وهو يقول: لو لم أكن الإسكندر لكنت ديجون.

وهكـذا الروحانـيون يلقـون الملـوك وأهـل الدنـيا بالإعـراض وعـدم الاكتراث حتى ولو كانوا بعظمة الإسكندر الذي يملك المشرق والمغرب.

وكـان للخلـيل تلامـيذ كثر، وألف العديد من الكتب فانتشر علمه في كـل مكـان في حلقـات الـدرس ومجـالس الملـوك والمنـتديات، وكـان الأساتذة والطـلاب يقولون في بحوثهم ومذكراتهم وأجوبتهم: قال الخليل، وذكر الخليل وكـانوا يعيشـون ويكتسبون بعلمه، أما هو فقد تعلم وعلم لوجه الله والعلم ولم يكتسب بعلمه ديناراً ولا درهماً ولم يتقرب به لأمير أو وزير.

قـال الـنظر بن شميل: أكلت الدنيا بأدب الخليل بن أحمد وكتبه وهو في خص لا يشعر به أحد(١).

وكان يحج سنة ويغزو سنة. وكان إذا حج أدى الفريضة متنكراً ورجع إلى خصه دون أن يشعر أحد بمكانه. هذا والناس في الحرمين وفي طريقهما وفي كل

---

(١) العين ١: ٦، وأعيان الشيعة ٦: ٣٣٨ في ترجمة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وروضات الجنات ٣: ٢٩٠ باب ما أوله الخاء المعجمة، رقم [٢٩٤].

مكان يرددون أقواله ويحتجون بآرائه.

فيم يزهد العلماء؟

وليس في هذا غرابة ما دام لم يطلب العلم للكسب والمال والشهرة والجاه، إن من يتنافسون على الظهور يتحدثون عن أنفسهم بمناسبة وغير مناسبة، ويندبون حظهم وحرمانهم من المناصب والأموال، ويشكون ويبكون من مضيعة العلماء في عصرهم؛ إن هؤلاء لم يطلبوا العلم للّٰه والعلم وإنما طلبوه للدنيا وأهانوه وأنفسهم من أجلها فلما لم يبلغوا ما يريدون شكوا وبكوا، ولو كانوا علماء حقاً لاستغنوا بنعمة العلم عن كل شيء؛ لأنها فوق كل شيء.

إن سيرة العلماء المخلصين تدلنا على أن العالم لا يغضب لشيء من أشياء الدنيا، ولا تذهب نفسه عليها حسرات، وإنما يتحسر ويتألم إذا مر عليه يوم لا يستفيد فيه علم ولا يفيد.

قال الخليل: إذا رأيت من هو أعلم مني فذاك يوم استفادتي، وإذا رأيت من هو دوني فذاك يوم إفادتي، وإذا رأيت مثلي فذاك يوم مذاكرتي، وإذا لم أر أحداً من هؤلاء فذاك يوم مصيبتي.

وهذا قول من ذاق حلاوة العلم ورسخ فيه وتكشفت له أسراره وخفاياه، أما الذين يلبسون ثوب العلم وليسوا منه في شيء، إذا رأوا من هو أعلم منهم حقدوا وحسدوا، وإذا رأوا مما هو مثلهم اغتابوا وافتروا، وإذا لم يروا أحداً حمدوا اللّٰه على السلامة.

ومن كلام الخليل: الإنسان لا يعرف خطأ معلمه حتى يجالس غيره[١].

وقوله: لا يعطيك العلم بعضه حتى تعطيه كلك[٢]، وأنت من البعض على خطر.

وأتمنى أن يتعظ بهذه العظة البليغة المبتلون بداء العجب والغرور الذين ادعوا لأنفسهم الاجتهاد وعلوم الأولين والآخرين لا لشيء إلا لأنهم أقاموا في النجف بضع سنوات أتقنوا فيها صنع الشاي وتكوير العمة ولبس الجبة.

يقول الخليل العالم المجرب: أنت من بعض العلم على خطر إن أعطيته كلك.

ويقول الجاهل المغرور: أعطاني العلم كله مجاناً دون أي مقابل.

ومن أقواله: الرجال أربعة:

١ـ رجل يدري ويدري أنه يدري فذاك هو العالم فالزموه.

٢ـ ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك هو الغافل فأيقظوه.

٣ـ ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذاك هو الجاهل فعلموه.

٤ـ ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك مالق فاجتنبوه.

والمالق: الأحمق جداً.

---

(١) السرائر ٣: ٦٥٢.

(٢) منية المريد: ١٦٩، والكنى والألقاب ١: ٤٢٣، ومثله في روضات الجنات ٣: ٢٩٦.

ثم أنشد:

لـو كنـت تعـلم مـا أقـول عذرتـني　　أو كنـت أجهـل مـا تقـول عذلـتكا
لكـن جهلـت مقـالتي فعذلـتني　　وعلمـت أنـك جـاهل فعذرتكا [1]

يقـول الشـيخ محمد جواد مغنية: أما نحن فلا نقدر الجاهل المقصر ونحذر الـناس مـنه كـي لا يـنخدع به البسطاء المغفلون، وأقسم أني ما رأيت جاهلاً يتعمم إلا تطرق اليأس إلى قلبي بألم ومرارة من صلاح وإصلاح هذه الفئة، قال السـيد حبيب العبيدي مفتي الموصل في كتاب النواة، قلت يوماً لأحد العلماء: لـو لبسـت العمامـة، فقـال: أجـل لـو تسـتطيع أن تنزعها من رؤوس الجهال فتصبح شعاراً مصوناً.

ثـم قـال العبـيدي: مـا دامـت العمامة الجاهلة تنخدع بجاهل تخرج من مدرسة البزاز والخياط فليس إلى إنقاذ هذه الأمة من الضلال من سبيل.

وعـلى أن تـترك هـذه الأمـثال الـتي تقـدم للقـراء شـيئاً من الأثر واللّه المسؤول أن يبعدنا عن الزلل والضلال.

لقـد كـان الخلـيل عظيماً في صراحته وجرأته كما كان عظيماً في علومه وأخلاقه، فكان يقول الحق ولو كان فيه ذهاب نفسه.

سـأله سـائل عـن الدلـيل عـلى أن علـي بن أبي طالب عليه السلام هو إمام الكل في الكل فقال الدليل: احتياج الكل إليه وغناه عن الكل [2].

---

(١) روضات الجنات ١: ٢٩٧ باب ما أوله الخاء المعجمة رقم [٢٩٤].

(٢) روضـات الجنات ٣: ٣٠٠ باب ما أولـه الخاء المعجمة رقم [٢٩٤] ونحوه في المهذب البارع ٤: ٢٩٣، والمناظرات في الامامة: ١٧٤، ومعجم رجال الحديث ٨: ٨١.

وسأله آخر: لِمَ يهجر الناس علياً عليه السلام وقرباه من رسول الله صلى الله عليه وآله قرباه وموضعه من المسلمين موضعه وعناه في الإسلام عناه؟ فقال: بهر واللّه نوره أنوارهم وغلبهم على صفو كل منهل والناس إلى أشكالهم أميل(١).

وسأله سائل ثالث عن فضائل علي عليه السلام، فقال: ما أقول في حق رجل أخفى الأحباء فضائله خوفاً من الأعداء، وسعى أعداؤه في إخفائها من الحسد والبغضاء، وظهر من فضائله مع ذلك كله ما ملأ المشرق والمغرب(٢).

وفي كتاب روضات الجنات أن الخليل في عصر الإمام الصادق عليه السلام وأنه من جملة أصحابه وله الرواية عنه(٣).

والطبع مكتسب من كل مصحوب، اكتسب هذه الأخلاق والترفع عن الدنيا وأهلها من سيده الصادق الإمام العظيم.

يروي الرواة أن المنصور استدعى الصادق عليه السلام يوماً فعاتبه على قطيعته له، فقال: لِمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجاب عليه السلام ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ولا أنت في نعمة فنهنيك ولا نراها نقمة فنعزيك بها... فكتب إليه.... تصحبنا لتنصحنا،فاجاب عليه السلام: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا

---

(١) علل الشرائع ١: ١٧٤ ب (١٢١) العلة التي من أجلها ترك الناس عليا عليه السلام وعدلوا عنه إلى غيره مع معرفتهم بفضله، ح١، والأمالي: ٣٠٠، ح٣٤١، وروضة الواعظين: ١١٦.

(٢) كشف اليقين: ٤ باختلاف يسير: ولمحات: ٣٣٠، ومثله في مجموعة الرسائل ١: ٩١.

(٣) روضات الجنات ٣: ٣٠٠ باب ما أوله الخاء المعجمة، رقم [٢٩٤].

يصحبك[١].

وكانت موعظة الإمام هذه للمنصور كأنها صاعقة على أهل الباطل والظالمين وأهل الدنيا، وكشف له في جوابه أن دنياه هذه ليست لنا فيها نصيب لأنها تقطع الصلة بينك وبين أهل الآخرة، وأوضح له في هذا الجواب بأن من يريد الآخرة لا يصحبك؛ لأن أبوابها مغلقة دونك ولا سبيل لك فيها مادام الجور سبيلك والباطل منهجك والحق من وراء ظهرك.

ولقد صدق الإمام، إن الجور سبيله والباطل منهجه، وأبواب الآخرة مغلقة عنه، أيكون في الآخرة نصيب لمن أوقف الصادق أمامه حاسر العمامة.

لأن الصادق وتلامذته وأتباعه لا يأسى على الدنيا ولا يفرح بما أتاهم منها، والزهد كله بين هاتين الكلمتين من القرآن: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢]، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح فقد أخذ الزهد بطرفيه.

وما من أحد إلا ويحزن ويفرح حتى الأنبياء، والقصد من النهي أن لا يدخله الفرح في باطل ولا يخرجه الحزن عن الحق. فقد ثبت عن الرسول الأعظم ﷺ أنه قال عند موت ولده إبراهيم: ((تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون))[٣].

---

(١) كشف الغمة ٢: ٤٢٠ في فضائل الإمام الصادق عليه السلام، ودرر الأخبار: ٣٥٠ وبحار الأنوار ٤٧: ١٨٤.

(٢) الحديد: ٢٣.

(٣) مكارم الأخلاق: ٢٢ في بكائه عليه السلام، وعنه بحار الأنوار ١٦: ٢٣٥ باب مكارم أخلاقه ﷺ

من الذي لا يحزن إذا فقد ولداً ولا سيما إذا كان شاباً، يحزن لموته، أما إذا نظر إليه مقطع بالسيوف، فماذا يكون حاله كالحسين عليه السلام نظر إلى علي الأكبر مقطع بالسيوف[١]... إلخ.

وسيره وسننه صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) انظر: مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٠ ـ ٣١ حيث قال عليه السلام بعد مقتله: قتل الله قوماً قتلوك! يا بني ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله! على الدنيا بعدك العفا!.

البنتُ حسنةٌ

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾(١).

وأد البنات:

هذه كناية عن شدة همه وحزنه بالبنت. وتقول العرب لمن لقي مكروهاً: اسود وجهه. وعلى الرغم من أن هذه عادة جاهلية وقد ندد بها القرآن وسفّه أهلها فإن كثيراً من أهل الجاهلية يكرهون البنات وتسود وجوههم إذا بشروا بالأنثى.

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا ظهرت آثار الطلق بامرأته اختفى إلى أن يعلم بالمولود، فإن كان ذكراً ظهر وابتهج، وإن كان أنثى حزن وفكر ماذا يصنع بهذا المولود المشؤوم ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ فيبقيه متحملاً المذلة والمهانة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ حياً.

ويروى أن بعض العرب كانوا يدفنون البنت وهي على قيد الحياة، وبعضهم كانوا يرمونها من شاهق، وآخرون يذبحونها، ومنهم من كانوا

---

(١) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

يغرقونها، إما للغيرة والحمية، وإما خوفاً من الفقر والإملاق كما أشارت الآية: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(١).

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأمرت امرأتي أن تزينها فأخرجتها إلي فانتهيت بها إلى واد بعيد القعر فألقيتها فيه. فقالت: يا أبتي قتلتني فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء.

وقد يظن أن الدافع إلى هذه القسوة الجهل وتخلف البيئة عن الحضارة والمدنية، ولكن نحن الآن في عصر الفضاء ومع هذا يلقي المستعمرون والصهاينة قنابل النابالم في فيتنام وفلسطين على الشيوخ والأطفال والنساء، يلقونها لا للغيرة والحمية ولا خوفاً من الفقر والإملاق بل لزيادة الأرباح وتكديس الثروات وتراكمها. فأي الفريقين أقبح وأسوأ، أهل الجاهلية أو المستعمرون والصهاينة في عصر العلم والإشعاع؟! ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢).

الإساءة في قتل البنات مع مساواتهم للبنين في حرمة الولادة، ولعل الجارية خير من الغلام.

وروي عن ابن عباس قال: لو أطاع اللّه الناس في الناس لما كان الناس لأنه ليس أحد إلا ويحب أن يولد له ذكر، ولو كان الجميع ذكوراً لما كان لهم أولاد فيفنى الناس(٣).

---

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) التفسير الكاشف ٤: ٥٢٣ ـ ٥٢٤، في تفسير سورة النحل، آية: ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) مجمع البيان ٦: ١٦٨، في تفسير سورة النحل، آية: ٥٨ ـ ٥٩.

عن الحسن بن سعيد اللحمي قال: ولد لرجل من أصحابنا جارية ودخل على أبي عبدالله عليه السلام فرآه متسخطاً لها، فقال له أبو عبدالله عليه السلام: أرأيت لو أن الله أوحى إليك إني أختار لك أو تختار لنفسك ما كنت تقول؟ قال: كنت أقول: يارب تختار لي قال عليه السلام: فإن الله قد اختار لك[١].

فضل البنت:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((نعم الولد البنات، ملطفات مجهزات مونسات مباركات مفليات))[٢]، و((إن اللّه تبارك وتعالى على الإناث أرأف منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرّحه اللّه يوم القيامة))[٣]، ((وإذا أصاب الرجل ابنة بعث اللّه عزّ وجلّ ملكاً إليها فأمرّ جناحه على رأسها وصدرها وقال: ضعيفة خلقت من ضعف، المنفق عليها معان))[٤]، ((ومن عال ثلاث بنات أو مثلهن من الأخوات وصبر على لأوائهنّ حتى يبنّ إلى أزواجهن أو يمتن فيصرن إلى القبور كنت أنا وهو في الجنة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى. فقلت: يا رسول اللّه واثنتين؟ قال: واثنتين، قلت: وواحدة؟ قال: وواحدة))[٥].

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٣٦٢، في تفسير سورة الكهف، آية: ٨١، ح٦٠، وعنه بحار الأنوار ١٠١: ١٠١، ح٨٦.

(٢) الكافي ٦: ٨ ـ ٩ ب (٣) فضل البنات، ح٥.

(٣) الكافي ٦: ٩ ب (٣) فضل البنات، ح٧.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٥٥ ب (١٤٨) فضل الأولاد، ح١٤.

(٥) بحار الأنوار ١٠١: ٩٩ ب (١٠٥) فضل الأولاد، ح٧٩، نقلاً عن عدة الداعي.

وقال ﷺ: ومن كانت له ثلاثة وضع عنه الجهاد وكل مكروه، ومن كانت له أربع فيا عباد اللّه أعينوه، ويا عباد اللّه أقرضوه، ويا عباد اللّه أرحموه[١].

وكان رسول اللّه يكنى أبا بنات؛ لأن له أربع بنات: رقية وأم كلثوم وزينب والصديقة فاطمة.

وكان جالساً يوماً فبشر بابنة فنظر إلى وجوه أصحابه فرأى الكراهية فيهم قال ﷺ: ما بالكم، ريحانة أشمها، ورزقها على اللّه عز وجل.

كتب يحيى بن زكريا إلى أبي الحسن الهادي عليه السلام: إن لزوجتي حملاً فادع اللّه أن يرزقني ولداً. فكتب عليه السلام: رب ابنة خير من ابن. فولدت له ابنة[٢] وأقل الخيرات في البنت أن لا يسأل الرجل عنها كما في الخبر عن الصادق عليه السلام قال: ((البنات حسنات والبنون نعمة، والحسنات يثاب عليها والنعمة يسأل عنها))[٣].

رعاية البنت والزوجة:

ومما ينسب لزين العابدين: ((أربع هن ذل: الدّين ولو درهم، والغربة ولو ليلة، والسؤال ولو كيف الطريق، والبنت ولو مريم))[٤].

---

(١) المهذب البارع ٣: ١٧١، والكافي ٦: ٦ باب فضل البنات، ذيل ح٦، ومن لا يحضره الفقيه ٣: ٤٨٢، ح٤٦٩٧، ثواب الأعمال: ٢٠٢.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٤١٧.

(٣) بحار الأنوار ١٠١: ١٠٤ ب (١٠٥) فضل الأولاد، ح٩٩، نقلاً عن ثواب الأعمال.

(٤) لم اجده منسوباً للإمام زين العابدين عليه السلام وورد في كشف الخفاء ١: ٤١٥. قال القاري رحمه الله

ولِمَ البنت ذل؟

القول ليس على إطلاقه، بل يريد إذا تزوجت برجل شرس الأخلاق أو طلقت.

لذلك ينبغي للإنسان أن يختار لبنته زوجاً عاقلاً مؤمناً يخاف اللّه فإن أحبها سعدت معه وإن لم يحبها لم يظلمها حقها.

وأكثر الأزواج يتعدى على المرأة ويظلمها حقوقها ويعاملها معاملة شرسة. فعلى الآباء أن يلاحظوا هذه الناحية في تزويج بناتهم، وعلى الأزواج أيضاً أن يتحملوا زوجاتهم، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾(١)، ويلاحظوا الدين والشرف والعفة.

ذكر المؤرخون أن رجلاً زعيماً ثرياً على جانب عظيم من الورع والصلاح كانت له ابنة قد أدركت، فخطبها الكثير من أمثاله وهو يأبى عليهم، بل خطبها بعض الملوك، فلم ترضهم، ومرت سنون وخطابها يكثرون من ذوي الشخصيات البارزة وهو يمتنع ضد ما عرف به من الوقوف على أوامر الدين ونواهيه؛ فإن الإعضال جناية تؤول على صاحبها بالخسران، وقد يتسرب إلى الفضيحة الدنيوية، وذلك فيما إذا انحرفت ابنته من جراء منعها

والمشهور والسؤال ذل ولو أين الطريق، وذكره النجم بلفظ الدين ولو درهم والبنت ولو مريم والسؤال ولو كيف الطريق.

(١) البقرة: ٢١٦.

من الزواج أو بالعادة السرية كالمساحقة إذا كان معها مثلها أو مع جارتها أو غير ذلك مما هو ممقوت عند اللّٰه، وإذا بالجميع في جهنم يقدمهم ذلك الذي يرى نفسه فوق مستوى البشر.

نعود إلى زعيمنا المانع ابنته حتى على الملوك، وينتظر من يأتيه من أهل الديانة والعفة وإن لم يكن ثرياً، هو رجل ساقه التوفيق بإشارة بعض أصحابه (ولعلهم يسخرون به) أن يخطب تلك البنت الممنوعة على أهل الملايين فيأتي إليه بكتاب الخطبة فيقرؤه ويلقيه من يده الأمر الذي لا يدل على شيء، وبقي منتظراً أكثر من يومين ثم عقب بكتاب آخر وجاء إليه فقال له: القني وقت كذا في محل كذا، فخرج من عنده وقد ذهبت به الظنون كل مذهب حتى جاء وقت الوعد فتوجه نحوه فوجده في انتظاره وافتتح كلامه قائلاً: ما الذي دعاك على اقتحام أمر ردت فيه الملوك والوزراء والزعماء والشخصيات البارزة من أهل العلم وغيرهم، أأنت خير من هؤلاء كلهم؟ قال: لا، ولكن حسن ظني بك وأنك لا تطلب المال لأنك غني، فقال له: إن ظني بك حسن فلقد أعطيتك ابنتي تحفظني فيها لا تسيء من ناحيتها ولا تخبر أحداً عما تراه منها سواء كان حسناً أم قبيحاً، فقال نعم أكون معها كما تحب مهما كلف الأمر قال له: أزوجك إياها على هذا. وعقد له عليها وهيأ له بيتاً وأعطاه مالاً يقوم بما يلزمه من شؤون الزواج وأدخله عليها.

فلما دنا منها وأراد أن تسفر وجهها اندفعت في البكاء كثيراً حتى اشمأز من ذلك، ثم قالت له: أي شيء قال لك أبي؟ فذكر الحديث الذي دار بينه وبين أبيها، فأجابت قائلة: وأنت على ذلك، فقال لها: نعم، فقالت: لتعلم أن

أبـي ما منعني من الملوك وغيرهـم إلا خوفاً من وقوع ما يكره، فإن وجهي ليس بحسـن بـل لـيس كوجـه أدنـى امـرأة في العالم، فإن كنت على ما أعطيته أبي وتُقْـدِم عـلى كـل عيب شرعي من أقبح الصور وغير ذلك وإلا فدعني بستري فقال لها: أنا على ما أعطيته أباك وأعطيك مثله مهما كلف الحال.

هـنا أسـفرت عـن وجههـا فوجـد صـورة لا تكاد تخطر في بال أحد من الـناس مـن أقـبح مـا يكـون مـن الصـور، مع العلم أن الناس يظنونها ملكة الجمـال، فـلما رآهـا أقـبل عليها يضمها وأخذ في ملاعبتها حتى اطمأنت إليه وجعلـت تـبادلـه الحديـث والمداعـبة ولعبت معه دوراً هاماً مما ينبغي الإنسان القـيام به أمام العمل الجنسي الذي هو آخر النعم التي يتحصل عليها الإنسان مـن زوجـته، فإن بعض الزوجات دون الكثير من الحيوانات، يعني أن الحيوان أحسن منها، فما زال معها كذلك حتى كان لباساً لها وكانت لباساً له، فولدت لـه عـلى مـر السنين البنين الذين هم آية في الجمال، وكلما نظر إليهم الناس يقولـون جاؤوا شبه أمهم، ولم يعلموا أن وجهها من أقبح الصور، ولكن صبر هـذا المؤمـن وإقدامـه، وصـبر أمهم وبتسليمها لأمر اللّه عوضهم اللّه بهؤلاء الأولاد على أنهما لم يخسرا شيئاً، فكم امرأة قبيحة المنظر حسنة المخبر، والمدار على المخبر كما أنت أخبر.

يقول بعض الأدباء سئل بعض العلماء: إن اللّه يقول: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾(١) ولا يطيـب للإنسـان إلا مـن كانت ذات جمال.

---

(١) سورة النساء: ٣.

والرسول ﷺ يقول: ((من نكح المراة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها...))[١] فقال: إن النبي ﷺ طلب الدين ويريد أن لا تتعطل امرأة من الأمة.

تسمية الأولاد:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾.

يقول السكوني: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام وأنا مغموم مكروب فقال لي: ((يا سكوني مما غمك؟ قلت: ولدت لي ابنة، فقال: يا سكوني على الأرض ثقلها وعلى اللّه رزقها، تعيش في غير أجلك وتأكل من غير رزقك فسرّى واللّه عني، فقال لي: ما سميتها؟ قلت: فاطمة، قال: آه آه ثم وضع يده على جبهته فقال: قال رسول الله ﷺ حق الولد على والده إذا كان ذكراً أن يستفره[٢] امه ويستحسن اسمه... أما إذا سميتها فاطمة فلا تسبها ولا تلعنها ولاتضربها))[٣]، هذا الاسم محترم عند اللّه عز وجل، وهو اسم مشتق من اسمه العظيم لحبيبته الصديقة.

ونحن في زمان تركت فيه هذه الأسماء الطاهرة واستبدلنا بها سهام وهيام وأمثالها، أما فاطمة وزينب وخديجة فقل أن يسمى بهن، أفلا نتبرك ونتيمن بهذه الأسماء كمثل زينب أخت الحسين شرفاً وشريكته التي سماها اللّه كما قال الشيخ كشك المصري.

---

(١) اتحاف السادة المتقين ٥: ٣٤٠.

(٢) أي يستكرم امه ولايدعو بالسب لأمه واللعن والفحش.

(٣) الكافي ٦: ٥١ ب (٣٤) حق الأولاد، ح٦، وتهذيب الأحكام ٨: ١١٢، ح٣٨٧، ووسائل الشيعة ٢١: ٤٨٢، ح٢٧٦٤٧، وشجرة طوبى ٢: ٤١٧.

ليست العبرة بالظاهر

قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (١).

اللغـــة:

الإعجـاب هو سرور المعجب بما يستحسن، ومنه العجب بالنفس: وهو سرور المعجب من الشيء استحساناً لـه، وذلك إذا تعجب من شدة حسنه تقـول: عجـب وتعجـب وعجّب غيره وأعجبه. واستعجب الرجل: إذا اشتد تعجبه. قال الأزهري: العجب: كل شيء غير مألوف.

والألد: الشديد الخصومة، تقول: لدّ يلدّ لدوداً، ولدّه يلدّه: إذا غلبه في الخصـومة، ولـدّ الـدواء في حلقـه: إذا أوجـره في أحد شقي فمه، واللديدان: جانبا الوادي، ولديدا كل شيء: جانباه، والتلدد: التلفت عن تحير.

والخصام قيل: إنه جمع الخصم عن الزجاج.

والتولي هو الانحراف والزوال عن الشيء إلى خلاف جهته(٢).

---

(١) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) مجمع البيان ٢: ٥٤، في تفسير سورة البقرة، آية: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

الـــنزول:

قـال ابـن عـباس: نزلـت في المـرائي لأنـه يظهـر خلاف ما يبطن، وهو المـروي عـن الصـادق عليه السلام. وقال الحسن: نزلت في المنافقين، ثم بين سبحانه حال المنافقين بعد ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ أي: تستحسن كلامه يا محمد ويعظم موقعـه من قلبك ﴿فِي الحياة الدنيا﴾، أي: يقول آمنت بك وأنا صاحب لك ونحـو ذلـك ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: يحلف بالله ويشهده على ما يقـول فيقول: اللهم اشهد عليّ به، وضميره على خلافه ﴿وهـو ألد الخصام﴾ أي: وهو أشد المخاصمين خصومة[1].

مـلأ بعض المفسرين الجدد الصفحات بكلام رائع من الوجهة الفنية في تفسـير هـذه الآيات، ولكنه لم يزد شيئاً على تقسيم الناس إلى طيب وخبيث. وبديهة أن هذا معلوم للجميع لا يحتاج إلى بيان فضلاً عن التفسير والتطويل.

وتسـأل: إذا كـان تقسـيم الـناس معلومـاً للجمـيع يكون بيانه تحصيل للحاصـل وتوضـيحاً للواضـح مـع أن كـلام الله سبحانه يجب أن يحمل على أحسن المحامل؟.

الجواب: من الجائز أن يكون القصد هو الإرشاد والتوجيه إلى أن العاقل ينـبغي أن لا يخـدع بالظواهـر ولا يـثق بمن يتقن صناعة الكلام فإن المفسدين المـأجورين متخصصون بهذه الصناعة وعملية الرياء، فعلينا أن لا نعتمد على

---

(١) مجمع البيان ٢: ٥٥، في تفسير سورة البقرة، آية: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

أحد إلا بعد التجربة وقيام الدليل على صدقه ونزاهته، وهذا أصل عام يتفرع عليه الكثير من الأحكام الدينية والدنيوية كاختيار الحاكم والنائب والقاضي والمفتي وكل من يتولى مصلحة من المصالح العامة.

وغريبة الغرائب أن تطلب الشهادات العلمية من المرشح للوظائف الحساسة التي تناط بها مقدرات البلاد وحياة العباد ولا يسأل عن أمانته وكفاءته الخلقية مع أنها الأساس.

إن الكثير من حملة الشهادات يستعملونها أداة للصوصية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي يظهر الحب والخير وهو من أشد الناس عداوة للخير وأهله، وهؤلاء هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يبدو للناس وإنه لمن أهل النار وانه ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وانه من أهل الجنة))[١].

كثيراً ما يعرف أناس تكاد تقوى الله ظاهراً تفيض من وجوههم بالنور ثم ينكشفون أنهم من ملكوت الأبالسة، وأن النار تكاد تلفحهم في الدنيا قبل الآخرة، ومن هؤلاء على سبيل المثال كما يقول الأديب محمد علي الحوماني: كان قريب لزوجتي عرفته أنا وهي، يصلي الصلاة التي يبكي له من أجلها واعية وعلى سمته صلاح لا يشوب من ورائه شك في أنه من صلب رسول الله وأن صلة التقوى بينه وبين أجداده لا انفصام لها، وتمر على معرفتنا

---

(١) مسند أحمد ٥: ٣٣٢، و٣٣٥.

بـه سـنون ونحن نجله ونحترمه كلما زارنا أو جمعنا وإياه بلد، حتى إذا عدا على ملـك زوجـتي عـادٍ ولـيس لـنا في بلد هذا العادي أحد نعتمده في رعاية هذا العقار إلا ذلك السيد القريب التقي البار، فوكلنا إليه أمر العقار.

ومـرت سـنون وهـو يرعاه ويبعث إلينا بالنزر اليسير من ريعه فنتسامح معـه ونحتسـبه من الله لآل رسوله ﷺ، ولكنه اغتنم فرصة غيابي إلى أمريكا فـزار زوجتي التي هي من ذوي قرباه ودخل فيها دخول الشيطان إذ شكا لها أن ذلـك العـادي عـلى العقار يعمل جهده في تبديده واستلابه، ولا مندوحة عن ذلـك إلا بـأن تعقـدي لابـني بـيعاً صـورياً ليتسـنى لنا الدفاع، وأغراها بكل وسـائل الدهـاء والمكر حتى اقتنعت بعد أن طمأنها بقوله: إنك تعرفينني منذ سنين طويلة أني لا طمع لي في حطام الدنيا ولكن غيرة على حقك وأنت من ذوي رحمـي رأيـتني مجـبوراً عـلى نصـرتك، فسلمت لـه، وجاء بكاتب العدل وأشهده على أنها باعت ما تملك لولده.

ومـنذ لك الحين وقد مرت عشرون سنة وهو يتصرف بالعقار ولا يلتفت إلى صـاحبة العقـار. وكـلما أرسـلت في طلـبه يجيب بأنها باعت ملكها لولده وليس لها عندي حق فلتطلب ولدي(١).

ولا يـزال إلى الآن عـلى صلاته وصيامه وسمته وعمته ولحيته والسبحة في يده ولا يفتر لحظة عن التقديس بها لله، ويمر بي كأن لم يفعل شيئاً، وإذا قلت ملوحـاً أو مشـيراً إلى فعلـه هـز رأسـه ونفض أذنيه يشير إلى أنه لا يعلم شيئاً

---

(١) دين وتمدين (الحوماني) ٤: ١٨٢.

وهـو إلى الآن لا يـزال حياً يرزقه اللّٰه على حساب زوجتي المسكينة التي تقول: أسفي على السنين الطويلة التي مرت بي وعقيدتي فيه أنه يشفع لي.

قلـت لهـا: هونـي علـيك يـا شـريكتي فإنك معذورة لأن الرسول ﷺ يقـول: ((لا تـنظروا إلى كـثرة صـلاتهم وصـومهم وكـثرة الحـج والمعـروف وطنطنـتهم بالليـل ولكـن انظـروا إلى صـدق الحديث وأداء الأمانة))[1]، فلو حفظـتي هـذا الحديث لأرحت نفسك من عناء الثقة العمياء بالناس، وقد كان علـيك قبل أن توقعي على ما أغراك به أن تكوني على بصيرة لو حفظتي قول الرسـول ﷺ: ((عـلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه))[2] وينبغي أن تكوني حـذرة لقولـه عليه السلام: ((المؤمـن كـيس فطـن حـذر))[3]، فاستعيذي باللّٰه من شياطين الجن والإنس.

والغريـب أن هـذا الـرجل لا يـزال محترمـاً في الـناس تفتح لـه المجالس وتفتح له الصدور وتبسط لـه الأيدي ويلتمس الناس منه الدعاء؛ ذلك لأنهم لم يمارسـوه كما مارست، ولأن ظاهره الصلاح والتقوى فيما يبدو لهم ولكنه في حميم جهنم.

فمـن يضـع لـنا قيمة وزن الإنسان في ظاهره وباطنه؟ هل إلا قوله عليه الصلاة والسلام: ((قيمة كل امرئ ما يحسنه))[4].

---

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٩ ب (٦٠) الصدق والمواضع التي يجوز تركه فيها، ح١٣.

(٢) بحار الأنوار ٦٨: ٢٧٩ ب (٧٨) السكوت والكلام وموقعهما وفضل الصمت، ح١٩.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٣٠٧ ب (١٤) علامات المؤمن وصفاته، ح٤٠.

(٤) نهج البلاغة: ٥٦٤، قصار الحكم، رقم الحكمة [٨١]، وعنه بحار الأنوار ١: ١٨٢، ح٧٧.

وأرى الناس فيما يزنونه لا ينشدون إلا الظاهر، وإلا الزي يُلبس عليهم الحق والباطل.

وأغرب من هذا الغريب أني كلما حدثت شخصاً بأمر هذا الرجل وأنه فعل معي كيت وكيت يضحك مما أقول وأكاد أعلم أنه يسخر مني أن أدعي على رجل هو غاية في خلوصه للّه أنه افترى هذه الفرية، وقد يصدقني بعضهم ممن يثق بي ولكن إذا رآه في مجلسه يحترمه؛ ذلك لأن عبودية الزي المضلل لا تزال قائمة في نفوس الأغنياء والأذكياء من الناس على السواء.

وهنا حكاية أخرى على عكس المثل السابق:

ذكر شيخنا بهاء الدين: أن تاجراً من أهل نيسابور كان له جارية في غاية الجمال والكمال، فأراد سفراً فأودعها رجلاً إماماً، مقتدى أهل تلك البلدة اسمه أبو عثمان الصوفي، فوقع يوماً نظره على تلك الجارية فوقع عشقها في قلبه وترك عبادته ومطالعة كتبه فأتى إلى شيخه وحكى له صورة الحال، فدله على رجل في الري له علم وزهد فقصده، فلما أتى الري سأل عن منزله وكان اسمه أبا يوسف، فقال له الناس: أنت إمام بلدتك وهذا الرجل الذي تسأل عنه فاجر فاسق يحب الصبيان ويشرب الخمور ومنزله في محلة الخمارين، فرجع أبو عثمان إلى نيسابور وحكى لشيخه ما سمع، فأعاد عليه مرة أخرى وقال: امضِ إليه ولا تبالِ بما تسمع فيه.

فخرج مرة ثانية وسأل عن منزله في محلة الخمارين فهداه الناس إليه فلما دخل عليه رأى صبياً كطلعة الشمس إلى جانبه وقارورة من الخمر بالقرب منه، فقال له: يا شيخ كيف صار منزلك في هذه المحلة؟ فقال: إن

الظالمين غصبوا منازل أهل هذه المحلة وجعلوها منازل الخمارين فصار منزلي في هذه المحلة اضطراراً مني، فقال: وما هذا الغلام الذي إلى جنبك؟ فقال: هذا ولدي أعلمه شرائع الدين، فقال: وما هذه القارورة التي فيها الخمر؟ قال: فيها خل جعلته إداماً للخبز أنا وعيالي.

فتحير أبو عثمان ثم قال: إذا كانت هذه حالك فيكف عرضت نفسك لتهمة أهل هذه البلاد حتى قالوا فيك ما قالوا؟ قال: نعم شهرت نفسي عندهم بما سمعت لئلا يغتر تجار هذه البلدة بصلاحي فيودعوني جواريهم فأعشق واحدة منهن وأهيم بها وأترك طاعة ربي. فاستيقظ أبو عثمان وعرف الحال فاستحى منه ومن عشقه لجارية التاجر فذهب عشقه فرجع إلى نيسابور وأعطى التاجر جاريته(١).

هذا من يسوؤك منظره ويعجبك مخبره وعلى العكس من يعجبك منظره ويسوؤك مخبره(٢).

أوتي الحجاج بصندوق قد أصيب من بعض خزائن كسرى، مقفل فكسره فإذا فيه صندوق آخر فقال الحجاج: من يشتري هذا الصندوق بما فيه ولا أدري بما فيه فتزايد فيه أصحابه حتى بلغ خمسة آلاف دينار فأمضى الحجاج البيع فعزم على المشتري أن يفتحه ويريه ما فيه ففتحه بين يديه فإذا فيه رقعة مكتوب فيها: من أراد أن تطول لحيته فليمشطها من أسفل.

وكان كميل بن زياد قائداً ووالياً لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان من خاصته

---

(١) زهر الربيع: ١٣٧.

(٢) المطالب المهمة في تاريخ النبي والزهراء والأئمة: ٢٥٢.

وحملة سره، وكان الإمام يفضي إليه ببعض الأخبار التي ستكون من بعده كما ذكر صاحب الإرشاد[١]. وصرح بعض المؤرخين بذلك.

قالوا خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجهاً إلى داره وقد مضى ربع من الليل ومعه كميل بن زياد رضي الله عنه وكان من خيار شيعته ومحبيه فوصل في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٢] بصوت شجي حزين فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئاً، فالتفت صلوات الله عليه إليه وقال: يا كميل لا تعجبك طنطنة الرجل إنه من أهل النار سأنبئك فيما بعد!

فتحير كميل لمكاشفته له على ما في باطنه ولشهادته بدخول النار مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة.

ومضت مدة متطاولة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل وقاتلهم أمير المؤمنين عليه السلام وكانوا يحفظون القرآن كما أنزل، فالتفت أمير المؤمنين إلى كميل وهو واقف بين يديه والسيف في يده يقطر دماً ورؤوس أولئك الكفرة الفجرة محلقة على الأرض فوضع رأس السيف على رأس من تلك الرؤوس وقال يا

---

(١) الارشاد ١: ٣٢٧ في إخباره عليه السلام بالغائبات واستشهاد كميل، وعنه بحار الأنوار ٤٢: ١٤٨ ح١٢.

(٢) الزمر: ٩.

كميل ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فأعجبك حاله فقبل كميل قدميه واستغفر اللّه تعالى وصلى على مجهول القدر[1]، وقال لـه: يا كميل ستحوطن بك القصور وفي كل قصر شيطان. فقتل بأمر من الحجاج.

يروى أن الحجاج ذكر علياً ونال منه وصلى عليه كميل بن زياد فقال لـه الحجاج: واللّه لأبعثن إليك من يبغض علياً أكثر مما تحبه أنت، فأرسل إليه ابن أدهم وكان من أهل حمص فضرب عنقه ودفن جسمه الشريف بالثوية[2] حيث قبره اليوم ودفن في يومه وسيده الحسين عليه السلام قتل وبقي طريحاً على أرض كربلاء جسداً بلا رأس.

عوداً على بدء فكثير ممن يغتر الناس بظاهره وبفعله وبمنظره قبل مخبره.

مضى رجل من أهل العراق إلى قرية في خراسان اسمها جام نسبة إلى عبدالرحمن الجامي الفاضل المشهور، ثم إن العراقي تحنك وتردى وصار إمام جماعة فترك الناس الصلاة مع الملا عبدالرحمن ومالوا إلى الشيخ العراقي لطول لحيته وحسن هيأته للصلاة. فعظم الأمر على الملا عبدالرحمن الجامي فقال لهم: يا قوم هذا العراقي جاهل ولا يجوز الاقتداء به. قالوا: نجمعكما للمباحثة، فاجتمع الناس وحضر الرجلان فقال العراقي: أسألك عن كلمة، وكان يتكلمان بالعربية، فقال: أسألك ما معنى قول العربي: لا أعلم، فقال معناه نميدا نم، فلما

---

(١) درر الأخبار: ٢٤٠ نقلاً عن ارشاد القلوب.

(٢) الغارات ٢: ٩٤٤، والبداية والنهاية ٩: ٥٧.

سمع الحاضرون هذه الكلمة أخذوا في الوجد والرقص وقالوا: إن الشيخ غلب الملا الجامي، فعرف الملا أن العراقي احتال عليه بذلك السؤال وصدقه عوام القرية.

فأقام أياماً ثم خرج من قريته فخرج معه جماعة للمشايعة، فلما وصل خارج البلد وقف وقال: أيها القوم إني ظلمت الشيخ وهو عالم صالح وأنا معترف بالتقصير وأريد أن يرجع منكم واحد ويأخذ لي براءة الذمة منه ويخبره بأني أتبرك بشعرة من لحيته تكون معي حرزاً في السفر، فرجع رجل منهم إلى العراقي وحكى له صورة الحال وأعطاه شعرة من لحيته، فلما أتى بها إلى المولى عبدالرحمن أخذها وقبلها ووضعها على عينه وجعلها في حرز هيكله. ومضى.

ثم إن خبر الشعرة شاع في تلك القرية فأتى إليه رجال القرية يطلبون منه كل واحد شعرة للتيمن والبركة فما مضى يومان أو ثلاثة إلا والشيخ ليس له لحية[١].

كما يدين الفتى يوماً يدان به   من يزرع الثوم لا يقلعه ريحانا[٢]

قيل لبعض مشائخ العصر: يا شيخ قد قبض البارحة على طلبة سارق، فقال: سارق لابس لباس طلبة[٣].

ومن هذا الباب قيل: إن العمامة كالأجمة تضم الأسد والخنزير والأرنب والذئب والفهد والثعلب، فإذا كشفت رجع الغرور علماً والسفاهة حلماً.

---

(١) زهر الربيع: ٤٩.

(٢) التوحيد: ٢١٦، وعدة الداعي: ٣١٣.

(٣) الرياض الخزعلية ٢: ١٢.

وكثيراً ما يغتر الناس باللباس والاسم الحسن واللقب الصالح كفلان الشيخ وكالسيد فلان وفلان الحاج، ولا طائل تحته. والحازم لا يغتر بالاسم. فإلى بعض النبلاء:

وما أنا بالمغتر باسمك إنما تسميت كي تحتال في طلب الرزق

ومن الأمثال إن أعرابيا صاد سنوراً فلم يعرفه فتلقاه رجل فقال: ما هذا السنور؟ ولقي آخر فقال: ما هذا القط؟ ثم لقي آخر فقال: ماهذا الهر؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الضيون؟ ثم لقى آخر فقال: ماهذا الخيدع؟ ثم لقي آخر فقال: ماهذا الخيطل؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الدم؟ فقال الاعرابي: أحمله وأبيعه لعل الله تعالى أن يجعل فيه مالاً كثيراً، فلما أتى به إلى السوق قيل له: بكم هذا؟ فقال: بمئة درهم فقيل له: إنه يساوي نصف درهم، فرمى به وقال: لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل ثمنه[١].

ومن هذا الباب كثير، وطالما ضاعت الأمانات بسبب الأسماء والتظاهر بالصلاح وملابس أهل الصلاح.

لا يغرنك من المرء قميص رقعه

أو إزار فوق كعب الساق منه رفعه

أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه

ولدى الدرهم فانظر غيه أو ورعه[٢]

---

(١) بحار الأنوار ٦٢: ٦٧، ح٢٦.

(٢) الغدير ١١: ٢٧٩ من قصيدة لشيخنا البهائي.

قال ابن الجوزي في كتاب ((الأذكياء)): وفد بلال بن أبي بردة على عمر بن عبدالعزيز فنظر إليه، فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصاً بعمر: إن يكن سر هذا كعلانيته فهو فحل أهل العراق غير مدافع عن فضل. فقال العلاء: أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال له: اشفع صلاتك فإن لي حاجة، فلما سلم من صلاته قال له العلاء: أتعرف منزلتي وموضعي من أمير المؤمنين وحالي فإني أشرت عليه أن يوليك العراق، ما تجعل لي؟ قال: عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ألف درهم ومائة ألف، قال: فاكتب لي على ذلك خطاً، فقام من وقته وكتب له خطاً بذلك. فحمل الخط إلى عمر بن عبدالعزيز، فلما قرأه كتب إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والياً على الكوفة: أما بعد فإن بلالاً غرنا باللّه فكدنا نغتر به ثم سبكناه فوجدناه خبثاً كله[١].

قيل: إن رجلاً دخل مسجداً فرأى رجلاً يصلي بخضوع وخشوع فأعجبه ذلك فقال له: نعم المصلي! فقال له: وأنا مع ذلك صائم، فإن صلاة الصائم تضعف صلاة المفطر، فقال الأعرابي: تفضل واحفظ ناقتي هذه فإن لي حاجة أقضيها، وخرج لحاجته فركب المصلي ناقته وخرج، فلما رجع الرجل لم ير الناقة ولا الرجل فطلبه فلم ير أحداً فأنشد الأعرابي حينئذٍ:

صلى فأعجبني وصام فرابني ... نحِّ القلوص عن المصلي الصائم

---

(١) الأذكياء: ٥٤ ب(١١) في السياق المنقول من ذلك عن السلاطين والامراء والشرطة، وتهذيب الكمال ٤: ٢٧١، وتاريخ دمشق ٢٧: ٢٧٢.

ونقل بعض الثقات عن بعض المؤمنين قال: سافرت إلى خراسان بصحبة بعض التجار لزيارة الرضا عليه السلام فصحبنا رجل في الطريق من المعممين، حسن الأخلاق، يتسارع إلى خدمتنا، أخف من كل أحد من خدمنا، وربما شارك الطباخ في الطبخ ومع ذلك إذا حضر الطعام لا يأكل شيئاً، وإذا دعوناه للأكل معنا يقول: إنما أخدمكم لوجه اللّه تعالى ولمولاي الرضا عليه السلام، وبعد ذلك لم يكن له شغلا إلا الصلاة والنوافل، فزادت محبته في قلوبنا وزاد اعتقادنا ووثوقنا به لما نرى من عبادته وخشوعه، فنزلنا في رباط في طريقنا، وكنت أنا في حجرة والتاجر في حجرة وذلك الرجل يبات مع التاجر، فبتنا تلك الليلة هناك، فلما أصبح الصباح إذا التاجر يطرق عليّ باب الحجرة فخرجت فوجدته يبكي، فقال: سرقت دراهمنا وأنا لا أبكي على الدراهم وإنما أبكي لحال هذا المؤمن المسكين أصبح مضرجاً بدمه وقد خلفته يعالج سكرات الموت، فمضيت أنا والتاجر إلى رئيس الرباط فأخبرناه فجاء ودخل الحانوت ينظر فيه يمنياً وشمالاً ثم دخل الحجرة ونظر فيها إلى المؤمن وهو مسجى بدمه يتنفس الصعداء، فنظر إليه ملياً ثم قال: أعطوني هذا يوماً واحداً، فقلنا: ذهاب الدراهم ولا ذاك، فقال: أعاهدكم أني لا أضربه ولا أسبه، ولكم عليّ دراهمكم، قلنا: شأنك به، وأوصيناه بإكرامه.

فحمله إلى بيته وأنزله إلى طامورة فيها قبر محفور ثم أمر ببعض من في السجن أن يضربه خمسمائة سوط وأمر بآخر فضربه كذلك وأحضر ثالثاً فكواه بمكاوٍ ثم التفت إلى صاحبنا وقال: أتدري ما جناية هؤلاء؟ أما الأول فسارق خمسة دراهم، وأما الثاني فسارق عباءة خلقة، وأما الثالث فقد اتهم

بشرب الخمر، وهذا عذابهم كما رأيت، وأما أنت فلا تخرج من المطمورة وهذه المكاوي لك والقبر محفور لأجلك ولا تخلصك إلا الإقرار. فعند ذلك وقع عليه وقال: عندي الدراهم وهي مدفونة في ذيل الحانوت، فأخرجناها وما أسفنا إلا على غرورنا بظواهر الأفعال.

صلى وصام لأمر كان يطلبه لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

قام حجي ليلاً فسمع غاغة عظيمة وخناج وجدال تحت طاقته، وكانت ليلة باردة، فقام من النوم وأخذ لحافه على كتفه وخرج لينظر ما الخبر، فلما فتح الباب خطف اللصوص اللحاف وهربوا، فرجع وهو يرتعش من البرد فسألته زوجته: ما الخبر؟ فقال: إن هذا الضجيج من أجل اللحاف، فلما أخذوه سكن ضجيجهم.

فما أكثر من يظهر الصلاح لغايته!. فمحاسن الأفعال الظاهرة لا تدل على حقيقة الباطن فلعلها غير صحيحة، ولعلها لغايات دنيوية وهذا كله من قبيل الشذوذ في العبادة، وإلا فالظاهر عنوان الباطن. ويقول الإمام عليه السلام: ((ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه))(١)، والحكمة المأثورة: أبى الظاهر إلا أن يكون عنواناً على الباطن، حكمة سارية في جزئياتها إلا من شذ.

لزم عبدالله بن الزبير الكعبة وكان يتعبد ويسجد كل يوم من بعد صلاة الصبح إلى الزوال يقول: أجد البغاددة كذب، والله نائم فكان مظهر في

(١) نهج البلاغة: ٥٥٤، في من كلماته، رقم ٢٦.

العباد حتى دُعي حمامة المسجد، ولما ادعى الخلافة بايعه كثير من أهل الحجاز وامتنع عبدالله بن عمر، فشق عليه ذلك فتوصل إلى زوجة عبدالله بن عمر وهي صفية بنت أبي عبيدة الثقفي أخت المختار، وكانت أثيرة عند زوجها، فأغراها فكلمته في ذلك وذكرت صلاته وقيامه بعد أن وضعت له العشاء ذكرت له ذلك وقالت: لم لا تبايع ابن الزبير وهو يدعو إلى الله ورسوله، وخصومه يدعون إلى الشيطان. فلما أكثرت القول أجابها بقوله: أما رأيت البغلان الشهب اللائي كان معاوية يوقرهن بالهدايا من الشام إلى آل أبي سفيان؟ قالت: بلى، قال لها: إن عبدالله بن الزبير يعبد الله منذ ثلاثين عاماً من أجل البغلين الشهب، فإياهما يطلب بصلاته وصيامه.

خرج يطلب الخلافة ويدعو الناس إلى مبايعته وذلك في زمان يزيد بن معاوية وبعد شهادة الحسين عليه السلام بسنة بعث إليه يزيد مرتين بجيش عظيم فلم يقدروا عليه حتى هلك يزيد وجلس ابنه معاوية بن يزيد على سرير الملك ومات بعد أربعين يوماً، فعند ذلك اشتد أمر ابن الزبير واستقام له الأمر وبعث عماله إلى نواحي البلاد لأخذ البيعة له. منهم أخوه مصعب وللزبير ثلاثة أخوة: عمر بن الزبير، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير. وكان عروة بن الزبير موافقاً لأخيه، وعمر بن الزبير كان مخالفاً لأخيه في الرأي حتى تقلد أمر الجيش من قبل بني أمية وخرج لمحاربة أخيه إلى مكة ووقع بينهم حروب عظيمة حتى انكسر جيشه وفر جمعه وظفر به أخوه عبدالله بن الزبير فأمر عبدالله بنزع أثواب أخيه عمر على باب المسجد الحرام وجلده حتى

مات(١).

وكـان مصعب موافقاً له في الرأي، وهو صاحب حسن وجمال، فبعثه إلى العـراق فـنزل البصـرة أولاً ودعـاهم إلى البيعة، فلما بايعوه توجه إلى الكوفة فاعترضـه جـيش المخـتار بـن أبـي عبيدة الثقفي وأبى المختار دخوله، وجرت بيـنهم حـروب عظـيمة فقـاتلوه قتالاً شديداً حتى انهزم جيش المختار ودخل مصـعب الكوفـة وقـتل مـن أهل الكوفة سبعة آلاف رجل، كل هؤلاء طالبون بـدم الحسين عليه السلام وسماهم مصعب الحسينية، ثم تتبع الشيعة بالكوفة وغيرها وقتلهم، وضيق الأمر على أهل الكوفة وظفر بالمختار وقتله واحتز رأسه وقطع أعضـاءه، وجلـس في قصر الإمارة ووضع رأس المختار بين يديه وذلك في سنة سبع وستين من الهجرة.

ثـم أتـى بحـرم المخـتار ودعاهن إلى البراءة منه والدخول في طاعة أخيه عـبدالله ففعلـن إلا حرمـتين، إحداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري والثانية عمـرة ابـنة الـنعمان بـن بشير الأنصاري، وقالتا: كيف نتبرأ من رجل يقول: ربـي اللّـه، كان صائماً نهاره وقائماً ليله، وقد بذل دمه للّه ولرسوله في طلب قتلة ابن رسول اللّه وأهله وشيعته فأمكنه اللّه منهم حتى شفى النفوس.

فكتـب مصـعب إلى أخيه عبداللّه يخبره بخبرهما، فكتب إليه: إن رجعتا عمـا همـا علـيه وتبرأتا فخلِّ سبيلهما وإلا فاقتلهما، فعرضهما مصعب على

(١) شـجرة طوبـى ١: ١٢٠ ـ ١٢١، والكامل في التاريخ ٣: ٣٨٦ في الأحداث التي جرت في سنة ٧١هـ بصورة مفصلة.

السيف فرجعت بنت سمرة وتبرأت منه وقالت: لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرت، أشهد أن المختار كافر، وأبت ابنة النعمان بن بشير وقالت: شهادة أرزقها فأتركها، كلا، إنها موته ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته، واللّه لا يكون آتي مع ابن هند فاتبعه وأترك ابن أبي طالب، اللّهم اشهد أني متبعة نبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته. ثم قدمها مصعب فقتلت صبراً(١).

وفي ذلك يقول الشاعر:

إنما أعجب الكبائر عندي ... قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلاً على غير ذنب ... إن للّه درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جر الذيول (٢)

ولا يخفى أن الرجل الغيور لا يتعرض لواحدة من النساء ولا يؤاخذها بكلامها وإن اخشنت في كلامها فكيف بأن يقتلها.

فأين عبادته؟! وأين سجوده وصلاته؟ وقد عمل عملاً لم يعمله حتى ابن زياد. وقفت زينب في مجلس ابن زياد وشتمته وسبت أباه فهم ليضربها فاعترضه عمرو بن حريث وقال: إنها امرأة، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها، فقال ابن زياد: يا زينب لقد شفى الله قلبي من... الخ (٣)..

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢١، ومثله في تاريخ الطبري ٥: ٢٢١ في أحداث السنة السابعة والستون وأعلام النساء ٣: ٣٦١ ذكر قصة مقتل عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية.

(٢) انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي: ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٤٢.

ولما صفا لمصعب العراق وأخذ البيعة من أهلها خرج إلى الشام لحرب عبدالملك بن مروان، وسار حتى وصل باجميرى[١] وفي ذلك يقول الشاعر:

أبيت يا مصعب إلا سيرا في كل يوم لك باجميرى

وبعث إليه عبدالملك بعساكر مصر والجزيرة والشام والتقوا بمسكن[٢] وهي قرية من أرض العراق وعلى مقدم جيش عبدالملك محمد بن مروان وخالد بن عبدالله وعلى جيش مصعب إبراهيم بن الأشتر النخعي، فكاتب عبدالملك رؤساء أهل العراق الذين كانوا بعسكر مصعب وغيرهم وهو يمنيهم ويرغبهم ويرهبهم. فلما تلاقى العسكران أخذوا يقاتلون حتى غشيهم المساء فأشرف إبراهيم بن الأشتر على الفتح، فذكر أهل العراق الذين كانوا معه ما كتب عبدالملك إليهم من الوعد والوعيد فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي إبراهيم وليس معه إلا عدد يسير، فدارت به الرجال وازدحم عليه أهل الشام حتى أثخنوه بالجراح وسقط عن جواده وقطعوا رأسه. وأتي بجسد إبراهيم بين يدي عبدالملك ثم أخذ الجسد مولى الحصين بن نمير وجمع حطباً وأحرقه بالنار[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٥٥ في الاحداث التي جرت سنة ٧١هـ وباجميرا: بضم الجيم وفتح الميم وياء ساكنة: موضع دون تكريت، ذكر الأخباريون أن عبدالملك بن مروان كان إذا هم بقصد مصعب بن الزبير بالعراق يخرج في كل سنة فيعسكر بها ويخرج مصعب بن الزبير إلى مسكن فيعسكر بباجميرى من أرض الموصل: معجم البلدان ١: ٣٧٣ رقم [١٢٨٨].

(٢) موضع قريب من أوانا على نهر الدجيل عند دير الجاثليق به كانت الوقعة بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢ فقتل مصعب. معجم البلدان ٥: ١٤٩ رقم [١١٢٣٩].

(٣) شجرة طوبى ١: ١٢٢.

ولما قتل إبراهيم بقي مصعب وحيداً وتفرق عنه جميع من كان معه إلا سبعة، واحد منهم عيسى ابنه فقال له: يا بني اركب وانجُ بنفسك والحق بمكة بعمك وأخبره بما صنع بي أهل العراق ودعني فإني مقتول، فقال له: لا واللّه لا تتحدث بنا قريش أني فررت عنك، فقال له: أما إذا أبيت فتقدم أمامي حتى احتسبك، فتقدكم عيسى وقاتل حتى قتل وخر إلى الأرض وبقي مصعب بلا ناصر(١).

وجاء محمد بن مروان إلى أخيه عبدالملك وسأله أن يؤمن مصعب فاستشار عبدالملك من حضره، فقال علي بن عبداللّه بن عباس:لا تؤمنه وقال خالد بن يزيد بن معاوية: بلى أمنه، وارتفع الكلام بين علي وخالد حتى تسابا، فأمر عبدالملك أخاه أن يمضي إلى مصعب ويؤمنه، فمضى محمد بن مروان إلى مصعب وقال: أمنك أمير المؤمنين على نفسك ومالك وكل ما أحدثت، وأن تنزل أي البلاد شئت، فبينما هو يكلمه إذ أقبل رجل من أهل الشام إلى عيسى بن مصعب ليحتز رأسه، فقام إليه مصعب من قفاه حتى قتله، فأقبل عبداللّه بن زياد بن ظبيان وكان أولاً في جيش مصعب وصاحب الراية؛ وحمل على مصعب فاختلفا ضربتين وسبقت ضربة مصعب إلى رأسه وكان مصعب قد أثخن بالجراح، فضربه عبداللّه بضربه فقتله واحتز رأسه وأتى به عبدالملك فلما رآه سجد عبدالملك. وكان ذلك يوم الثلاثاء لثلاث

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٢، وذكره أيضاً صاحب الكامل في التاريخ ٤: ١١ في ذكره مقتل مصعب وملك عبدالملك العراق، وتاريخ الطبري ٥: ٢٦١ مثله.

عشر خلت من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين من الهجرة.

ثم أمر عبدالملك بمصعب وابنه فدفنا بدير الجاثليق(١).

لما قتلا أمر عبدالملك بدفنهما (٢)، يا رسول الله سود الله وجوه القوم قتلوا ابن بنت رسول الله وتركوه عرياناً صريعاً على الأرض.

ودعا عبدالملك أهل العراق إلى البيعته فبايعوه، ثم جاء عبدالملك حتى دخل الكوفة ودخل قصر الإمارة وبين يديه رأس مصعب، عن مسلم النخعي قال: كنت جالساً فرأى عبدالملك مني اضطراباً فسألني، فقلت: يا أمير المؤمنين دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثم دخلتها بعد ذلك فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه، ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير، وهذا رأس مصعب بين يديك، فوقاك الله يا أمير المؤمنين.قال: فوثب عبدالملك بن مروان وأمر بهدم الطاق الذي على المجلس(٣).

ولكن شتان بين رأس الحسين ورؤوس هؤلاء، رأس ما أعظمه شأنا وأشرفه قدراً وهو رأس كان النبي يضمه إلى صدره ويضعه على عاتقه ويقبله في جبهته وثناياه فكان موضع شفتي رسول الله ﷺ ولكن ابن زياد ينكت

---

(١) دير الجاثليق: دير قديم البناء رحب الفناء من طسوح مسكن قرب بغداد في غربي دجلة في عرض حربى، وهو في رأس الحد بين السواد وأرض تكريت، وعنده كانت الحرب بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير. انظر: معجم البلدان ٢: ٥٧١.

(٢) شجرة طوبى ١: ١٢٣، ومروج الذهب ٣: ١١٢ ـ ١١٥.

(٣) شجرة طوبى ١: ١٢٣، ومروج الذهب ٣: ١١٧.

بين ثنيتي الحسين بالقضيب .... إلخ [١].

ولما قتل مصعب في حرب عبدالملك اتصل خبره بأخيه عبداللّه بن الزبير بمكة فأسرف في البكاء وصعد المنبر وجبينه يرشح عرقاً فقال: الحمد للّه ملك الدنيا والآخرة يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير. ألا إنه لن يذل اللّه من كان الحق معه، ولن يعز من كان أولياء الشيطان حزبه، إنه أتانا خبر من العراق أحزننا وأفرحنا، قتل مصعب، فأما الذي أحزننا من ذلك فإن فراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم يرعوي من بعد ذلك إلى كريم الصبر وجميل العزاء، وأما الذي أفرحنا فإن القتل له شهادة ويجعل اللّه له ولنا في ذلك الخيرة. أما واللّه إنا لا نموت حتفاً كميتة آل أبي العاص وإنما نموت قعصاً بالرماح وقتلاً تحت ظلال السيوف. ألا وإن الدنيا عارية من الملك القهار... إلخ [٢].

فبعدما قتل مصعب بعث عبدالملك بجيش عظيم وعليه الحجاج بن يوسف الثقفي لحرب ابن الزبير بمكة فأتى الحجاج الطائف وأقام بها شهوراً ثم زحف إلى مكة وحاصر عبداللّه بن الزبير وكتب إلى عبدالملك: أني ظفرت بأبي قبيس، فلما ورد كتاب الحجاج على عبدالملك فرح وكبر فكبر من معه في داره واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا، واتصل ذلك بأهل السوق فسألوا عن الخبر فقيل: إن الحجاج حاصر ابن الزبير.

---

(١) انساب الأشراف ٣: ٤١٢، ومقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٥٨ ـ ٥٩ في مقتل الحسين عليه السلام مثله.

(٢) شجرة طوبى ١: ١٢٣، ومروج الذهب ٣: ١١٩.

وكان حصار الحجاج لابن الزبير بمكة هلال ذي العقدة سنة اثنتين وسبعين. وطالت مدة حصاره خمسين ليلة.

ومنع ابن الزبير الحجاج أن يدخل مكة ويطوف بالبيت، ونحر ابن الزبير بمكة ولم يخرج بعرفة[١].

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وقد بلغت مائة سنة لم تقع لها سن ولا ابيض لها شعر وما زال عندها عقل، قال: يا أماه، كيف تجدين ابنك؟ قالت:إني لشاكية يا بني، قال: يا أماه، إن في الموت راحة، قالت لعلك تمنيه لي وأنا لا أحب أن أموت حتى أرى إحدى طرفيك أما قتلت فأحتسبك، وإما ظفرت فقرت عيني بك.

وأوصى عبدالله إليها بما يحتاج من أمره وأمر نساءه[٢].

وأعطي عبدالله الأمان على يد أخيه عروة وأن ينزل أي البلاد يشاء فأبى عبدالله قبول ذلك.

وقالت له أمه أسماء: يا بني لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل مت كريماً وإياك أن تؤسر وتعطي بيدك.

فقال: يا أماه إني أخاف أن يمثل بي بعد القتل، فقالت: يا بني وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح[٣].

---

(١) مروج الذهب ٣: ١٢، وشجرة طوبى ١: ١٢٤، وورد ذكر لحصار الحجاج لابن الزبير في تاريخ الطبري ٥: ٢٧٦ في أن الحجاج يقاتل ابن الزبير، والكامل في التاريخ ٤: ٢١ ــ ٢٢.

(٢) شجرة طوبى ١: ١٢٤.

(٣) شجرة طوبى ١: ١٢٤، ونحوه في الكامل في التاريخ ٤: ٢٤.

ودخلوا على ابن الزبير في المسجد وقت الصلاة، ونظر إلى طائفة منهم قد أقبلوا نحوه بالسيوف فقال لأصحابه: من هؤلاء؟ قالوا: أهل مصر. قال: قتلة عثمان أمير المؤمنين ورب الكعبة، فحمل عليهم وتكاثر عليه الرجال من الشام ومصر فلم يزل يضرب فيهم حتى أخرجهم عن المسجد ورجع إلى البيت فاستلم الحجر، فجاءه حجر وأدمى جبهته، ثم تكاثروا عليه فكشفهم عن المسجد ثم رجع إلى أصحابه عند البيت فقال لهم: ألقوا أغماد السيوف وليصن كل رجل منكم سيفه كما يصون وجهه، لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كما تقعد المرأة. ولا يسأل منكم رجل أين عبدالله من يسأل عني فأنا في الرعيل الأول، ثم أنشأ:

يا رب إن جنود الشام قد كثروا ... وهتكوا من حجاب البيت أستارا

يا رب إني ضعيف الركن مضطهدٌ ... فابعث إليّ جنوداً منك أنصارا

وازدحموا عليه ألوفاً من كل باب فحمل عليهم فشدخ بالحجارة فانصرع وأكب عليه موليان له واحدهما يقول: العبد يحمي ربه ويحتمي.

حتى قتلوا جميعاً، وتفرق من كان معه من أصحابه، وأمر به الحجاج فصلب بمكة.

وكان مقتله يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

وكلمت أسماء أم عبدالله الحجاج في دفنه فأبى عليها..(١)

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٥، ومروج الذهب ١: ١٢٠ ــ ١٢٢.

ولقد ظهر ما أخبر به الصادق المصدق أمير المؤمنين عليه السلام وهذه من كرامات علي لأنه أخبر عن قتل ابن الزبير بمكة واستحلال حرمة البيت كما في الخبر لما عزم الحسين عليه السلام من مكة جاءه عبداللّه بن الزبير وتكلم معه بما تكلم فأجابه الحسين عليه السلام بما أجاب، قال عبداللّه بن الزبير: يا بن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد حضر الحج أو تدعه وتمضي إلى العراق؟ فقال عليه السلام: يا بن الزبير لأن أدفن بشاطئ الفرات أحب إليّ من أن أدفن بفناء الكعبة، إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش، يعني بذلك ابن الزبير. فخرج ابن الزبير من عند الحسين عليه السلام فمر به عبداللّه بن عباس وقال له: قرت عينك يا بن الزبير هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك الحجاز لأن بن الزبير عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين عليه السلام بمكة وهو أثقل خلق اللّه عليه فلم يكن شيء يؤتى به أحب إليه من شخوص الحسين عليه السلام(١).

ولما خرج الحسين عليه السلام فرح ابن الزبير وسر سروراً عظيماً وقرت عينه، والحال لم يبق أحد بمكة إلا حزن لمسير الحسين عليه السلام(٢).

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٥،والأخبار الطوال: ٢٤٤، وتاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢١١.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢١٧ الفصل العاشر وفيه قال ابن عباس للامام الحسين عليه السلام: والله يابن رسول الله لقد اقررت عيني ابن الزبير بخروجك عن مكة... ثم ان ابن عباس مر بابن الزبير في طريقه وقال له:

يا لك من قبرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري ... إن ذهب الصائد عنك فابشري

كان الباطل زهوقاً

قوله تعالى:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١).

اللغـــة:

الـزهوق: الهـلاك والـبطلان، يقـال: زهقت نفسه إذا خرجت فكأنه قد خرجت إلى الهلاك(٢).

المـعـنى:

﴿وَقُلْ﴾ يـا محمد: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر الحق وهو الإسلام والدين، ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي: وبطـل الـباطل وهـو الشرك عن السدي. وقيل: الحق التوحـيد وعبادة اللّٰه، والباطل: عبادة الأصنام عن مقاتل. وقيل: الحق القرآن، والـباطل الشيطان عن قتادة، والحق هو رسالة محمد ﷺ عقيدة وشريعة وكل ما عداها باطل وهباء في الواقع وعند اللّٰه حتى ولو آمن به أهل الأرض جميعاً.

وقـال المفسـرون: إن المـراد بـالحق هـنا الإسلام، وبالباطل الشرك، وأن الـنبي ﷺ لـمـا فـتح مكـة دخل الكعبة كان فيها ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها(٣) فأنزل اللّٰه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.

---

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) مجمع البيان ٦: ٢٨٢، في تفسير سورة الاسراء، آية: ٨١.

(٣) التفسير الكاشف ٥: ٧٦، في تفسير سورة الاسراء، آية: ٨١.

للحق قوة وللباطل قوة:

وتسأل إن ما نراه ونشاهده في أحيان كثيرة أن أهل الباطل هم الغالبون وأهل الحق مغلوبون، ويتنافى هذا مع ظاهر قوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

الجواب: إن للحق قوة ذاتية لا تنفك عنه بحال، وهي تفعل فعلها وتؤثر أثرها في القلوب النقية الزاكية، وكثيراً ما يبلغ هذا الأثر في النفوس الطيبة حداً لا تقوى على مقاومته سيوف الجلادين ومشانق الطغاة المأجورين.

وقد حدثنا التاريخ عن شهداء العقيدة كيف أقدموا على الاستشهاد بوجوه باسمة ونفوس راضية. بل حصل ذلك في عصرنا بفيتنام وكوريا وفلسطين وغيرها. أجل إن هؤلاء قليلون شأن كل كريم وثمين ولو كانوا الأكثر عدداً أو كثيرين نسبياً لامتلأت الأرض قسطاً وعدلاً وما كان للظلم والجور فيها عين ولا أثر.

ولسنا نشك أن الإنسانية تسير في هذا الطريق وإن طال مادام الصراع قائماً بين المحقين والمعتدين.

أما الباطل فلا حول له ولا طول وإنما يستمد قوته وبقاءه من الرشاوات وشراء الذمم ومن الظلم والطغيان بالقتل والتشريد، ومن المؤامرات والدسائس. وهذه تزول مع الأيام وتتبدل مع الظروف. أما قوة الحق فهي هي في شتى الأحوال لأنها تستمد من ذات الحق من طبيعته وهويته، ومن أجل هذا نقول مرة ثانية: إنا نؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأن العقبى والكلمة العليا للحق وحده(١).

---

(١) التفسير الكاشف ٥: ٧٦ ـ ٧٧.

للإنسان قيم ومبادئ وموازين يعيش على مقتضاها وتتكيف حياته حسب وعيه بالخط المرسوم له أو ابتعاده ونكوصه عن ذلك الخط، وإن سلوكه يتبلور حسب مفاهيمه، وهو كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه، والصراع مستمر بين قوى الخير ونوازع الشر، بين نور الحق وظلام الباطل، والمرء إما في هذا المعسكر أو ذاك.

ولضبابية الباطل فإن أهل معسكره ينظرون دائماً إلى أنفسهم أنهم هم الذين يمثلون جانب الحق والعدل ويضحكون من معسكر الذين آمنوا، فإذا ما انكشفوا وسقط في أيديهم لجأوا إلى أسلوب واحد في التعامل استخدم منذ بداية تاريخ البشرية بين ابني آدم حيث قربا قرباناً فتقبل اللّه من الذي كان يمثل جانب الحق ولم يتقبل من الذي كان يمثل جانب الباطل، فقرر هذا الأخير حسم الأمر على طريقته الخاصة قال: لأقتلنك، هكذا يتعامل حزب الشيطان المهزوم في نفسه مع جند اللّه، لكن جند اللّه يقفون في ثبات ويمضون على سنة الأولين ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

عندما ينتصر عدوك بالظلم والعدوان فلا تيأس لأن التاريخ أثبت أن طريق الظلم ينتهي بالسقوط ولكن ليس بطريقة أتوماتيكية أو بمعجزة خارقة، وإنما بجهود أهل العدل.

يقول الإمام علي عليه السلام: ((ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب))(٢).

---

(١) الصافات: ١٧٣.

(٢) نهج البلاغة: ٦١١، في القصار من كلماته عليه السلام، رقم [٣٢٧].

إن دعـاة الـباطل يدعون إلى باطلهم بأساليب مختلفة ومتعددة ويقدمون شـيئاً عجيـباً مـن التضحية والفداء انتصاراً لدعوتهم، ويجدون لهم أنصاراً أو يجتمع حولهم حثالات يتبعونهم حباً للخبز والدرهم وإيثاراً للدسم، ويتخذون سيوفهم حفاظاً على النعيم غير المقيم ذلك دأبهم على مر التاريخ.

أمـا دعاة الحق فإنهم يقل أنصارهم ويكثر خصومهم ويحاربهم الصديق حسداً وبغضاً قبل العدو، ويعاديهم المسلم الجاهل المزور فعله قبل الكافر.

إن حكمـة اللّـه مكـنونة في أن ينهزم صاحب الحق أمام صاحب الباطل فـيظهر الحـق كأنـه ضعيف والباطل كأنه قوي قد تنجلي الحكمة في ذلك وقد تظـل في صـحائف الغيـب، ولكن أصحاب الحق دائماً لا يهمهم أن ينتصروا هـم ويشـهدوا بأنفسهم قطف ثمار كفاحهم أو أن ينهزموا ظاهرياً إنما يكفيهم أن يعلـنوا الحـق أمام أنصار الباطل ودعاته، ويهمهم أن يظهروا صدق المبادئ التي يمثلونها والقيم التي ينادون بها وإن كان ثمن ذلك رؤوسهم وأرواحهم.

وقـيل: إن الآيـة: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ نزلت على رسول اللّـه ﷺ يـوم كسـر الأصـنام مـن عـلى ظهر الكعبة فجعل يطعنها ويقول: ﴿جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أورده الـبخاري في الصـحيح. قـال الكلـبي: فجعـل الصنم ينكب لوجهه إذ قال ذلك وأهل مكة يقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي مضمحلاً ذاهباً هالكاً لا ثبات له(١).

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٨٥، في تفسير سورة الإسراء، آية: ٨١.

العناية بالصلاة

قوله تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (١).

البيوت هي المساجد. وقال ﷺ: ((المساجد بيوت اللّه في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض))(٢).

ثم قيل: إنها أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل، ومسجد بيت المقدس بناه سليمان، ومسجد المدينة ومسجد قبا بناهما رسول اللّه ﷺ.

وقيل: هي بيوت الأنبياء، وروي في ذلك مرفوعاً أنه سئل النبي ﷺ لما قرأ الآية: أي بيوت هذه؟ فقال: ((بيوت الأنبياء، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها، يعني بيت علي وفاطمة عليهما السلام؟ قال: نعم، من أفاضلها))(٣).

ويعضد هذا القول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ

---

(١) النور: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) بحار الأنوار ٢٣: ٣٢٦ ب (١٩) رفعة بيوتهم وأنها المساجد المشرفة.

(٣) بحار الأنوار ٢٣: ٣٢٥ ب (١٩) رفعة بيوتهم المقدسة في حياتهم، ح١.

أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١) وقوله: ﴿رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾(٢).

فالإذن برفع بيوت الأنبياء والأوصياء مطلق.

والمراد بالرفع التعظيم ورفع القدر من الأرجاس والتطهير من المعاصي والأدناس. وقيل المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى اللّه.

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي يتلى فيها كتابه عن ابن عباس. وقيل: تذكر فيها أسماؤه الحسنى. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ أي: يصلى له فيها بالبكور والعشايا. وقيل: المراد بالتسبيح تنزيه اللّه عما لا يجوز عليه(٣) ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾ التجارة والبيع هنا كناية عن مطلق العمل للدنيا من أي نوع كان، وإنما خص التجارة بالذكر لأنها أكثر ربحاً وأقوى صارفاً من جميع الأعمال.

والمعنى أن المؤمنين يعملون للدنيا في الأسواق والحقول والمصانع وغيرها. وأيضاً يعملون للآخرة فيصومون ويصلون ويزكون ويحجون ولا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ولا الآخرة عن الدنيا عاملين بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٤).

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) هود: ٧٣.

(٣) مجمع البيان ٧: ٢٥٣ ـ ٢٥٤، في تفسير سورة النور، آية: ٣٦ ــ ٣٧.

(٤) القصص: ٧٧.

فالمؤمنون إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجراً ممن يتجر.

أما اليوم فالأكثر لا يحضر للصلاة في المساجد إلا العجزة والضعفاء أو يوم الجمعة فحسب، وقد أضيعت الصلاة في هذا الزمان فتنطبق علينا الآية الكريمة: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(١) وهو وادٍ في جهنم.

وفي الأكثر ينطبق علينا الحديث: ((مساجدهم بيوتهم، وقبلتهم نساءهم، وربهم درهمهم ودينارهم)).

وصلاتنا اليوم حركات ظاهرة.

كل شيء له لب وقشر، القشر الذي يحافظ على اللب، ولكن اللب هو الهدف، ومن دون اللب يفقد القشر قيمته ويكون مصيره في سلة المهملات. وأنت عندما تذهب إلى السوق وتشتري كمية من الجوز أو الموز أو الفستق فإنك تهدف أكل اللب، أما أهمية القشرة فلأنها تحافظ على هذا اللب ولمدة طويلة من الفساد والتلف..

وكما في كل شيء كذلك في العبادة، فالعبادة لها قشر وهي تلك الحركات الظاهرية التي يقوم بها الجميع من ركوع وقيام وسجود إلى آخره. أما اللب فهو الهدف من تشريع الصلاة مثلاً. وكما جاء في الحديث: ((الصلاة معراج المؤمن))(٢).

---

(١) مريم: ٥٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٩: ٣٠٣ ب (٤) إن الصلاة أربعة الاف باب وانها قربان.

والهدف الآخر من الصلاة، وهي من أبرز الأمور في الجانب العبادي، هو تكيف حياة الفرد المصلي مع قيم الصلاة، ومع أهدافها بحيث تكون حياته نقية من الشوائب خالصة للّه تعالى. ومن هنا يقول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾(١).

والإمام علي عليه السلام عندما كان يعبد اللّه لم يكن يقوم بمظاهر جوفاء لا تعني شيئاً، كان يتفاعل مع عبادته يتأثر بها، يتخذ من الصلاة منطلقاً في حياته، وليس هدفاً بذاته.

حدث مرة أن الإمام أصيب بسهم في قدمه خلال إحدى معاركه مع قوى الشر والنفاق، وكانت الإصابة شديدة بحيث كان إخراج السهم من قدمه يسبب له ألماً شديداً فبقي السهم في مكانه، وفكر الإمام الحسن عليه السلام ماذا يفعل؟ كيف ينزع السهم من رجل الإمام دون أن يسبب له ذلك الألم؟ وفجأة أتته الفكرة التي سرعان ما ترجمها إلى مجموعة من الأعمال، طلب جراحاً وانتظر حتى قام الإمام علي إلى صلاته ثم أمره أن يخرج السهم من قدم الإمام وبصعوبة استطاع الجراح أن يخرج السهم المتعنت من مكانه فانبعثت الدماء غزيرة من رجل الإمام.

ولقد فوجئ الإمام بعد انتهائه من صلاته ببقع من الدم حواليه وبالسهم منزوعاً من مكانه، وتساءل بدهشة متى وكيف حدث هذا؟ لم يشعر الإمام بكل ما حدث كأن كيانه كله قد ذاب في رحاب اللّه، وانقطع عن

---

(١) العنكبوت: ٥٤.

الدنيا وحلقت روحه بعيداً بعيداً في ملكوت الله[١].

هـذه هي الصلاة الحقيقية، أما الصلاة الروتينية الجامدة لا يهم الإنسان إلا أن يتخلص منها بأسرع وقت، والتي لا يستلهم منها الروح والقيم والمنطلقات، فهي لا تساوي جناح بعوضة.

وفي هذا الطراز من الناس يقول الرسول الأعظم ﷺ: ((أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار))[٢].

قال أبو الدرداء: ((شهدت علياً بشويحطات بني النجار[٣] ... إلخ.

فأهل البيت إذا حضر وقت الصلاة لا تهمهم حراجة الأوقات ولا ضيق المقامات. علي عليه السلام يصلي في المعركة بين الصفين. موسى بن جعفر يصلي والحديد في رجله الحسين عليه السلام صلى صلاة الخوف يوم الطف والسهام تمر عليه وعلى أصحابه... إلخ [٤].

---

(١) إذا كان النسوة اللواتي رأين يوسف قطعن أيديهن في حبه ولم يشعرن بالألم، فهل يستنكر ذلك من الإمام حباً لخالقه، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: ((لا يعرف الله إلا أنا وأنت)).

(٢) بحار الأنوار ٨١: ٢١١ ب (٣٧) وصف الصلاة، وعنه ميزان الحكمة ٥: ٤٠٦، ح١٠٤١٢.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ١٧ في مقتل الحسين وفيه: ورأي أبو ثمامة الصائدي زوال الشمس فقال للحسين: يا أبا عبدالله! نفسي لك الفدا، أرى هؤلاء قد اقتربوا، ولا والله تقتل حتى اقتل دونك، واحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها.

(٤) الارشاد ٢: ٧٣، وعوالم الإمام الحسين: ٢٢٣، ومقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢٢٨ الفصل الحادي عشر.

قال له أبو ثمامة الصائدي... إلخ.

وهـذا مسـلم بـن عقيل قبل قتله بلحظات قال لقاتله: ائذن لي أصلي ركعـتين، فـأذن، فصـلى ركعـتين وسلم على الحسين عليه السلام. وبلغ الحسين خبر قتله بـ(زرود) فدعا يتيمة مسلم.....إلخ.

الملك لله

قوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

إن الله سبحانه وتعالى المدبر القدير الذي لا يعمل شيئاً إلا عن مصلحة وحكمة. قد تخفى المصالح والحكم على أكبر المفكرين والعظماء؛ لأن من الأمور التي تجري بمشيئة الله لا يدرك الإنسان مهما أوتي من قوة تفكير أو علم حكمتها أو خلفيتها أو لماذا عملها الله سبحانه وتعالى. فالأمور كلها تتشكل بمشيئة.

الملك ينتقل من شخص إلى آخر قد يكون في السنة مرتين أو أكثر من ذلك، والإنسان مع هذا يتزمت ويفتخر: هذا ملكي، وهذا لي، وهذا ليس لي. والملك كله لله الواحد القهار.

إن من يضع هذه الصكوك في هذا الصندوق الحديدي هل هو فعلاً يملكها؟ لا، لا يملكها طالما تصريفها بيد الله تعالى، تذهب عنه بأي تقدير من تقادير الله. وكذلك الأرصدة، وكذلك كل شيء يملكه الإنسان، فهو سبحانه

---

(١) آل عمران: ٢٦.

وتعالى الذي يقلب هذه الأمور ويدبرها، فكم من شخص يولد على هذه الحياة أجرد لا يملك قوت يومه سرعان ما يدبر اللّٰه سبحانه له فيجعله من أغنى الأغنياء. وكم شخص أحواله وأمواله وممتلكاته يضرب بها المثل، بين عشية وضحاها فإذا هو أفقر الفقراء.

يقال سئل ملك الموت: هل تعجبت من أحد يوماً، أو رق قلبك لأحد يوماً؟

فقال: لقد رق قلبي مرة وعجبت مرة. رق قلبي لطفل؛ انكسرت سفينة فتناثر ركابها كما تناثرت أخشابها وألواحها ونجت امرأة على لوح من هذه الألواح وجاءها الطلق وألم الولادة بين أمواج كالجبال فولدت طفلها فنظرته ونظرتها ونظرت إلى الأمواج والبحر فرق قلبي لهذا الطفل.

وتعجبت مرة حين أرسلني اللّٰه لأقبض روح جبار من جبابرة الأرض فدخلت في مجلس شاك بالسلاح ورأيت هذا الطاغية وعليه تاج فيه جوهرة تضيء، وأن عينيه ملتهبتان من تحت ذلك التاج، فتعجبت.

فأوحى اللّٰه سبحانه وتعالى إليّ وقال: يا ملك الموت إن الذي رق قلبك له هو الذي تعجبت منه، يعني ذاك الطفل الذي بين الأمواج المتلاطمة اللّٰه هيأ له الحياة وقيض له السبل، فصار جباراً من جبابرة الأرض. فانظر إلى القدرة الإلهية.

سابور ذو الأكتاف الملك الفارسي الذي رهبت له الدنيا كلها، وكان يدعى بذي الأكتاف لأنه كانت لديه عداوة للعرب إلى درجة أنه كان يقتلع

أكتاف العرب[١] لماذا؟ لأن في مخزون علمهم أن نبياً يخرج من العرب فتدين لـه الدنيا كلها فغزا البلدان حتى غزا البحرين، والبحرين كان حاكمها ذلك الوقت عمرو بن عمير التميمي[٢] وقد بلغ من الكبر عتياً إلى درجة أنه يُحمل بقفة ولم يكن هناك فاصل يفصل بين بقية جزيرة العرب والبحرين، فهذه الأمور الطبيعية القائمة الآن جرت بعد ذلك.

فجاء سابور وجنده فخاف أهالي البحرين ولجأوا إلى حاكمهم وقالوا: لا قبل لنا بمقابلة سابور، فقال لهم: علقوا في شجرة بعض الأغصان ثم فروا على وجوهكم طلباً للحياة، قالوا: نخشى عليك، قال: لا تخشوا إن كان لي بقاء سأبقى وإني سأسدي نصيحة لهذا الرجل. فروا جميعاً وتركوه، فعلق بعض من أغصان الشجرة وجاء سابور وجنده فلم يجدوا أحداً، ولما علم بوجودهم أخذ يئن أنيناً يدلهم على مكانه فأتوا إليه فأخذوه بعضبيه وجاؤوا به إلى سابور وتركوه بين يديه فقال لـه: أين قومك؟ قال: قد فروا طلباً للحياة، قال: لماذا بقيت؟ قال: لأسدي إليك نصيحة إن انتصحت بها، وإن قتلتني فليس مأسوف عليّ لأني بلغت من العمر عتيا.

قال: ما هي نصيحتك؟ فقال: لماذا هذا العداء للعرب؟ ولماذا تقتلع أكتاف الرجال؟

قال: لأنّا نجد في مخزون علمنا أن رجلاً يخرج من العرب وتدين لـه

---

(١) الكامل في التاريخ ١: ٢٢٩.

(٢) في مروج الذهب: عمرو بن تميم بن مرة.

الدنيا ويملك فارس ويملك كل شيء. فقال له: هذا العلم أتظنونه أم تعتقدونه؟ قال: بل معتقد، قال: إذا كان معتقداً فلابد أن يكون ولو لم يبق إلا واحد من الدنيا، اللّه قادر أن يخرجه، فإن أنت أحسنت إليهم أحسنوا إليك وإن أسأت إليهم كالوا إليك الصاع صاعين، قال: قد قبلت نصيحتك وكففت عن قتل العرب، واللّه لا يضيع عمل عامل.

أمد اللّه في عمر هذا الرجل ثلاثين سنة بكامل قواه عوض ما عمل[١].

سابور هذا كان من عظماء الملوك الذين دانت لهم الدنيا لكن انظر لما أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يقلب الأمور وقع في نفسه أن يزور الروم خلسة وفي ذلك الوقت لم تكن جوازات ولا حدود وسياسة، فأراد أن يذهب خلسة ليطلع على الروم ومآثر الروم.

قالوا: نخشى عليك، قال: لا تخشوا عليّ، أمضي وأكون كأحد من الناس وأدخل فيما تدخل فيه الناس، وكان له وزير مخلص، فقال: أنا أمضي معك.

وهكذا جاءا إلى الروم فدخلا إلى البلد وصادف ذلك يوم عيد عام عندهم والملك قد هيأ أسمطة وموائد لكافة الشعب، ودخل سابور فيما دخل الناس وجلس على أسماط يأكل.

ومن خشية قيصر من سابور أمر أن تصور صور سابور على كل الجدران وعلى الأواني وعلى كل شيء رهبة منه، وطلب سابور ماء فجاء رجل بماء وأخذ يشرب والرجل ينظر إلى الكأس وصورة سابور على الكأس، فأخبر

---

(١) مروج الذهب ١: ٢٥٦ ذكر القصة مفصلة.

قيصر بذلك وألقي القبض على سابور، أما وزيره فادعى أنه الطبيب المخلص، فقال: أما الطبيب فنستفيد منه، وأما سابور فقيدوه، فقيد ذلك الملك الجبار الطاغية وأمر قيصر أن يُغزى فارس رأساً وهم على غير استعداد ما دام ملكهم موجود لدينا.

ووضعوا سابور في جلد بقرة وأفردوا له خيمة كلما نزلوا في مكان، وعينوا الوزير عينوه طبيباً عاماً لكل الأغذية، وكان يخبر سابور بحلهم وارتحالهم[١].

فغزا قيصر فارس ودك قلاعها واقتلع أشجارها حتى إذا وصل إلى مرحلة من جند سابور هنا كان عيد لهم، قالوا نعيد هذه الليلة وغداً نصبحهم.

وهذه القصص التاريخية فيها عبر لمن يعتبر، ودليل أن الدنيا لها تقلبات ولا تبقى على حال.

شربوا الخمر وأكلوا الطعام ووضع الوزير الذي هو الطبيب مخدراً للطعام فناموا كلهم وجاء إلى سابور وحمله ثم جاء إلى المدينة ونادى عليهم أن افتحوا وفتحت الأبواب وفتحت الأسلحة وأخذ القوم أهبتهم وبادروهم قبل الصبح وإذا بقيصر ما انتبه إلا وهو مكتوف أمام يدي سابور أسيراً.

قال: ما تراني صانعاً بك؟ قال: إن قتلت فبذنبي، وإن عفوت فعفوك،

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٦٦ ـ ٧٠ في سابور ذو الأكتاف، والكامل في التاريخ ١: ٢٢٩ ـ ٢٣٣ باختلاف يسير وتاريخ ابن خلدون ٢: ٢٠٦، ومروج الذهب ١: ٢٥٧ ـ ٢٥٨ مثله.

قال: لا أريد قتلك، بل أعفو عنك على شرطين:

الشرط الأول: أن تعمر كل ما خربت.

والثاني: أن تتخذ من هذا عبرة وعظة، بالأمس كنت أسيراً عندك واليوم أنت أسير عندي. علماً بأن الدنيا لا تدوم على حال ولا تغتر بها (١).

وهذا هو الواقع، مهما بلغ الإنسان من الثراء والقوة فلا يغتر بالدنيا فإن اللّه هو مقلب الأمور.

وبقي هذا فعلاً درساً إلى سابور هذا العظيم الكبير، لماذا؟

لأن جلد البقرة الذي وضعوه فيه قد يبس عليه ولم يفك إلا بتنقيعه بالزيت، وبقيت آثاره فترة طويلة، وكلما نظرها تذكر العظة والعبرة.

وهذا جسد مترف الجلد أثر به فما ظنك بالحديد الذي وضع في عنق زين العابدين.

لابد أن يكون أكثر تأثيراً، هذا جلد وبقي فترة من الزمان فما ظنك بالحديد الذي وضع في عنق زين العابدين ورجليه كيف أثره لما رجع زين العابدين إلى المدينة.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢: ٢٠ ـ ٢٥ القصة مفصلة ذكرها في ذكر ملك سابور ذي الاكتاف ومروج الذهب ١: ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

العــــزة

قوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

قال المفسرون: هذه الآية قصة تتصل برأس النفاق عبدالله بن أُبَي وبغزوة بني المصطلق، وكانوا فرعاً من خزاعة يسكنون على مقربة من مكة وقد عز عليهم أن يكون للإسلام شأن في الجزيرة العربية فتهيأوا لحرب النبي ﷺ بقيادة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار، ولما علم النبي ﷺ بادر إليهم بجيشه قبل أن يزحفوا إلى المدينة وخرج ابن أُبَي مع جيش المسلمين رغبة في الغنيمة، فنصر الله نبيه على أعدائه وغنم الكثير من أموالهم ورأى أن يفضل في العطاء الفقراء المهاجرين لينشلهم من الفقر ويقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، فامتلأ عبدالله بن أُبَي غيظاً وأخذ يحرض بعض الأنصار وقال فيما قال:

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ يريد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية فتخاذل ابن أُبَي ولم يجد ما يتعلل به.

---

(١) المنافقون: ٨.

وقال كثير من المفسرين: أنه نطق بكلمة الكفر هذه لخلاف وقع بين أحد أتباعه وأجير لعمر بن الخطاب(١).

وكانوا على ماء من مياه بني المصطلق يقال له: المريسيع، فبينا الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا مشعر المهاجرين، فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً، فقال عبدالله بن أُبَي لجعال: إنك لهتاك، فقال: وما يمنعي إلا أفعل ذلك، واشتد لسان جعال على عبدالله فقال عبدالله: والذي يحلف به لأزرنك ويهمك غير هذا، وغضب ابن أُبَي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن فقال ابن أبي: قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك.

أما والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموه بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم.

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، في تفسير سورة المنافقين، آية: ٨.

فقـال زيـد بـن أرقـم: قم، أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمـد ﷺ في عـز مـن الـرحمن ومـودة مـن المسـلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا.

فقال عبدالله: اسكت فإنما كنت ألعب.

فمشـى زيـد بـن أرقم إلى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر، فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل وأرسل إلى عبدالله فأتاه فقال: ما هـذا الـذي بلغـني عـنك؟ فقـال عبدالله: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شـيئاً مـن ذلك قط، وإن زيداً لكاذب، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول اللـه شـيخنا وكـبيرنا لا تصدق كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه فعذره رسول الله ﷺ ظاهراً.

وفشت الملامة من الأنصار لزيد، ولما استقل رسول الله ﷺ فسار لقيه أسيد بن الحضير فحياه بتحية النبوة ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة مـبكرة مـا كنـت تـروح فـيها؟ فقـال لـه رسول الله ﷺ: أوما بلغك ما قال صـاحبكم؟ زعـم أنـه إن رجـع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل، فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثـم قـال: يـا رسـول اللـه! أرفـق بـه فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون إليه الخزز ليتوجوه، إنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً (١).

فسار رسول الله ﷺ بالناس يومهم وليلته إلى اليوم الثاني عند الظهر

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٢١ ـ ٢٢، في تفسير سورة المنافقون، آية: ٨.

وكـان مـراده أن يتشـاغل الـناس عـن حديـث ابـن أبي فما هو إلا أن مست جـنوب الـناس الأرض حـتى أخذهـم الـنوم مـن شـدة التعـب، ثـم سـار الرسـول ﷺ فـنزل عليه الوحي فقال: يا محمد اقرأ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[1] فافتضح ابن أبي فأقبل إليه قومه فقالوا: يا عبداللّه لقـد فضـحك الوحـي فاذهب إلى رسول اللّه ليستغفر لك. لوى رأسه ثم قال أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد. فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾.

وكـان لعبداللّه بن أبي ولد صالح اسمه عبداللّه أيضاً، ولما علم بأمر أبيه ذهـب إلى رسـول اللّـه ﷺ فقال له: لقد كان من أمر أبي ما قد علمت، فإن كنـت تـريد قـتله فمرني وأنا أقتله، لأني أخشى إن قام غيري بقتله فلا تدعني نفسي النظر إلى قاتلِ أبي فأقتل مؤمناً بكافر وأدخل النار.

فأجابه الرسول ﷺ بل نرفق بأبيك ونحسن صحبته ما بقي معنا.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا رد على ابن أبي الذي وصف نفسه بالأعز.

وعـزة اللّـه بأنه القاهر فوق عباده، وعزة الرسول بإظهار دينه على جميع الأديان وخذلان أعدائه ومحاديه. أما عزة المؤمنين فبنصرة الحق وأهله.

---

(١) المنافقون: ١.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن العز بالإيمان والتقوى[١].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذا نرى أن الإمام الصادق عليه السلام عندما يتناول تفسير هذه الآية يقول: ((إن اللّٰه فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع الله تعالى يقول: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، قال: إن المؤمن أعز من الجبل، إن الجبل يستقل منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه بشيء))[٢].

ففي هذا التفسير الكريم نجد الملامح الواضحة لمفهوم العزة فإنها حق ثابت بمقدار ما هي ثابتة للّٰه ولرسوله وعميقة متأصلة بعمق الذات البشرية؛ لأنها مستمدة من مصدر العزة ومبدعها.

فهناك من الناس من يرى أن العزيز من كان له عشيرة تدفع عنه الاعتداء وترد عنه السوء وهذا ينطبق أصالة على مفاهيم الجاهلية الرعناء التي تَبنَّى العربي فيها العصبية القبلية محوراً لكل تحركاته وكان على أساسها التحالف بين القبائل لحماية بعضها البعض من غزو الآخرين والاعتداء عليهم.

وكان أيضاً من دوافع الأفراد الذين يفقدون العشيرة فيتحالفون مع قبيلة لها سطوة وقوة تدفع عنهم غائلة الاعتداء ويكون لها في مقابل ذلك ولاؤه غنماً وغرماً.

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٣٣٤.

(٢) تهذيب الأحكام ٦: ١٧٩، ح٣٦٧، ووسائل الشيعة ١٦: ١٥٦، ح٢١٢٣٢، وج١١: ٤٢٤، ح١.

وهناك من الناس من يرى أن العزيز هو صاحب الثروة والمال والجاه والسلطان فلذا يحترمون الغني والثري أو الوجيه والزعيم أو الملك والسلطان إنهم يحترمون هؤلاء طالما أنهم أغنياء ووجهاء وسلاطين فإذا تخلت هذه الصفات عنهم تخلت الناس عن تقديرهم واحترامهم.

وهذا مفهوم خاطئ شجب الإسلام أصحابه ولم يوافقهم عليه.

وفي قصة قارون وفرعون الذين يمثلان الأغنياء والسلاطين عبرة وعظة وتصحيح للمفاهيم الخاطئة التي يمشي عليها الناس. فإن فرعون أراد أن يفرض سيطرته على بني إسرائيل بدعوى الربوبية لهم. وكذلك قارون اعتد بماله وثروته وكان الناس كالغنم طاعة لهم وتقديراً لمقامهم الملكي أو المالي. ولولا موسى وصحبه الأنبياء لبقي العسف والظلم يحيط بذلك الشعب المستعبد الذليل ولاستمرت تلك النظرة المنحرفة من الناس إلى مفاهيم العز والذل.

وإن بني أمية وعلى رأسهم معاوية ويزيد وخلفاء تلك الأسرة المشؤومة قد ساروا على خطى السنة الفرعونية والانحراف القاروني والجاهلية العمياء فقد قامت هذه العصابة على رأس السلطة وحاولت تضليل الناس بشتى الطرق ومختلف الأساليب وسعت بكل ما أوتيت من حول وقوة لتذليل الناس وتعبيدها لسلطانها.

إن الأسرة الأموية كشفت القناع المزيف عن وجهها وأسفرت بشكل واضح حين وقف الناس على حقيقتها التي استطاع الأمويون إخفاءها فترة من الزمن. فإن يزيد أذل رقاب المسلمين وعبدهم وأخذ البيعة منهم على أنهم خول له، وهذا منتهى الإذلال والمهانة التي لم يصل إليها البشر.

لقـد فـرض يزيد الذل على المسلمين قاطبة وألبسهم هذا الثوب البعيد عن إسلامهم وإيمانهم فاتخذ في ذلك عدة أساليب تنازل على أساسها الإنسان عن عزته وكرامته.

فبعض تنازل عن هذه العزة والكرامة من أجل حفنة من المال قدمها لـه الطاغية اشتراه بها واستعبده وألجمه عن النطق بالحق والجهر بالحقيقة.

وبعـض آخـر مـن الـناس أغـراهم بالمناصب والمراتب والجاه وذلوا لـه وأطـاعوه طاعـة الـبهم والحـيوانات، تعطلـت حواسهم عن السمع والإبصار والعقل والإدراك، فقد أفقدهـم المنصب كل إحساس بظلم الطاغية وجوره.

وقسـم ثالـث رفضـوا كـل أعطـيات الطاغـية وتصـرفاته، نظروا بعين الإسـلام التي تأبى الذل والاستعباد، وترفض المساومة على شيء من مقومات عـزتها وأساس وجودها، فأبوا كل العروض المبذولة التي منحها الظالم ورفعها أمامهم وداسوا على الأموال والزعامات التي منحها لغيرهم ومناهم بها.

إن المسـلم الواعـي رفـض أن يكـون سـائمة ذليلة يقودها يزيد وأتباعه ومن هم على شاكلته؛ لأن الذل لا يسمح اللّٰه به لعباده، إنه حكم أعطاه اللّٰه المؤمـنين وحذرهـم مـن التنازل عنه؛ إذ ليس ملكاً فردياً لهذا الإنسان أو لذاك حتى تأتي المعاذير وتتوسط الشفاعات بتركه والتخلي عنه، بل هو ملك ألبسه اللّٰه المؤمنين وأبى عليهم أن يتنازلوا عنه تحت أشد الظروف وأقسى الأحوال.

وإذا كانـت العزة بهذه المثابة من العمق والتأصل فهل يتنازل عنها أبي الضيم وسيد الشهداء لطاغية متكبر خرج عن دين اللّٰه وحكمه؟!

طـرح الحسـين عليه السلام مـن خـلال ثورتـه المـباركة شـعار ((هـيهات مـنا

الذلـة))[١] إنـه شـعار أراد سيد الشهداء أن ينبه الأمة من خلاله إلى أصالتها الرسـالية وعقـيدتها القرآنية التي رفعت المؤمنين وجعلتهم أعزة فقال تعالى في دستوره الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) الاحـتجاج ٢: ٩٩ في ا حـتجاجه عليه السلام عـلى أهـل الكوفـة بكـربلاء، وبحار الأنوار ٧٤: ١٦٢ هامش ١.

كرامة الإنسان ميتاً

قوله تعالى:

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾[1].

المعنى:

ذكر اللّه سبحانه المكذبين بالقرآن فقال: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي عُذِّبَ ولُعِنَ، وهو إشارة إلى كل كافر، وقيل: هو أمية.

ما أكفره: أي ما أشد كفره، وما أبين ضلاله. وهذا تعجب منه كأنه قد قال: تعجبوا منه ومن كفره مع كثرة الشواهد على التوحيد والإيمان. وقيل: إن ((ما)) للاستفهام أي: أي شيء أكفره وأوجب كفره عن مقاتل والكلبي؟ فكأنه قال: ليس هاهنا شيء يوجب الكفر ويدعو إليه فما الذي دعاه إليه مع كثرة نعم اللّه عليه؟[2]

وجاء في تفسير الرازي نقلاً عن جماعة من المفسرين أن المراد بالإنسان هنا كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر.

يقول الشيخ محمد جواد ﷺ: ونحن مع هذا القول:

---

(١) عبس: ١٧ ـ ٢٢.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٢٦٨ في تفسير سورة عبس، آية: ١٧.

أولاً: لأن الواقـع يؤيـده ويشهد به، فلولا الطمع والتكالب على الحطام وكـنز المـال لعـاش الـناس في رفاهـية وأمـان. قـال الشيخ محمد عبده: إن هذا الدعاء على الإنسان بأبشع الدعوات هو كناية عن أنه قد بلغ من القبح مبلغاً لا يسـتحق معـه الحياة، ومنشأ الشناعة نسيانه لما يتغلب منه من النعم وذهوله عـن مسـديها حـتى إذا ذُكِّـر بـالحق أعـرض عـن الذكـرى. ولاشك في نعمة الوجـود والإدراك والسـمع والبصـر بـل هـي مـن أعظم النعم، ولكن نعمة الوجـود ومـا إلـيه لا تبعث على التعالي والطغيان مادامت عامة شاملة، وإنما الـذي يخـرج الإنسان المجرم عن حده ويبعثه على البغي والعدوان هو إحساسه بثروته وامتيازه.

﴿مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ من أنت أيها الإنسان الضـعيف حـتى تستنكف عن طاعة اللّه وتتطاول على عباده، فكِّر في أصلك وفي انـتقالك مـن خلـق إلى خلـق وفي مصيرك ومآلك، فمن الذي أوجدك ولم تكـن شيئاً وأنشأك في بطن أمك حالاً بعد حال، ثم أخرجك في أحسن تقويم هل الصدفة فعلت هذا كله؟

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾

مَهّد للإنسان الطريق إلى الخير بشيئين:

الأول: الإرشاد إليه والترغيب فيه.

الثاني: العقل والقدرة على العمل.

وأيضاً مهد إليه الطريق إلى الحياة بشيئين:

الأول: ما أودعه اللّه تعالى في الطبيعة من الخيرات الكافية بحاجاته.

الثاني: ما أودعه في الإنسان من الطاقة والاستعداد لاستغلال الطبيعة وتكييفها كما شاء.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أمر سبحانه بدفن الإنسان بعد موته ونهى عن تركه مطروحاً للوحوش والطير إشارة إلى كرامته عند اللّه حتى بعد خروج الروح منه فكيف إذا كان حياً.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ خلقه ثم أماته فأقبره ثم يبعثه للحساب والجزاء ولولا هذا البعث لكان وجود الإنسان عبثاً في عبث.

أما قوله تعالى: ﴿إِذَا شَاءَ﴾ فيشير إلى أنه وحده يعلم متى يكون الحشر والنشر[١].

أحكام الميت:

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أمر بأن يقبر. قال السيد أبو القاسم الخوئي: تجب كفاية مواراة الميت في الأرض بحيث يؤمن على جسده من السباع وإيذاء رائحته للناس، ولا يكفي وضعه في بناء أو تابوت وإن حصل فيه الأمران. ويجب وضعه على الجانب الأيمن موجهاً وجهه إلى القبلة. وإذا اشتبهت القبلة عمل بالظن على الأحوط، ومع تعذره يسقط وجوب الاستقبال إن لم يمكن التأخير. وإذا كان الميت في البحر ولم يمكن دفنه في البر ولو بالتأخير غسل وحنط وصلي عليه ووضع في خابية وأحكم رأسها وألقي في البحر أو ثُقِّل بشد حجر أو نحوه برجليه ثم يلقى في البحر. والأحوط وجوباً اختيار الأول

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٥١٩ ـ ٥٢٠ في تفسيرة سورة عبس آية: ١٨ ـ ٢٢.

مع الإمكان. وكذلك الحكم إذا خيف على الميت من نبش العدو قبره وتمثيله[١].

لا يجوز دفن المسلم في مقبرة الكافرين وكذا العكس[٢]. يعني لا يجوز دفن الكافر في مقبرة المسلمين.

إذا ماتت الحامل الكافرة ومات في بطنها حملها من مسلم دفنت في مقبرة المسلمين على جانبها الأيسر مستدبرة للقبلة، وكذا الحكم إن كان الجنين لم تلجه الروح[٣].

لا يجوز دفن المسلم في مكان يوجب هتك حرمته كالمزبلة والبالوعة ولا في المكان المملوك بغير اذن المالك أو الموقوف لغير الدفن كالمدارس والمساجد والحسينيات المتعارفة في زماننا والخانات الموقوفة وإن أذن الولي بذلك [٤].

لا يجوز الدفن في قبر ميت قبل اندراسه وصيرورته تراباً. نعم إذا كان القبر منبوشاً جاز الدفن فيه على الأقوى [٥].

يستحب حفر القبر قدر قامة أو إلى الترقوة، وأن يجعل له لحد مما يلي القبلة في الأرض الصلبة بقدر ما يمكن فيه الجلوس وفي الرخوة يشق وسط

---

(١) منهاج الصالحين ١: ٨٧ الفصل الثامن في الدفن.

(٢) منهاج الصالحين ١: ٨٨، مسألة: (٣١٧).

(٣) منهاج الصالحين ١: ٨٨، مسألة (٣١٨).

(٤) منهاج الصالحين ١: ٨٨، مسألة (٣١٩).

(٥) منهاج الصالحين ١: ٨٨، مسألة (٣٢٠).

القبر شبه النهر ويجعل فيه الميت ويسقف عليه ثم يهال عليه التراب، وأن يغطى القبر بثوب عند إدخال المرأة والذكر عند تناول الميت وعند وضعه في اللحد، والتحفي وحلّ الإزار، وكشف الرأس للمباشرة لذلك وأن تحل عقد الكفن بعد الوضع في القبر من طرف الرأس وأن يحسر عن وجهه، ويجعل خده على الأرض، ويجعل له وسادة من تراب(١)، وأن يوضع شيء من تربة الحسين عليه السلام معه، وتلقينه الشهادتين، والإقرار بالأئمة عليهم السلام، وأن يسد اللحد باللبن، وأن يخرج المباشر من طرف الرجلين، وأن يهيل الحاضرون التراب بظهور الأكف غير ذي الرحم، وطم القبر، وتربيعه لا مثلثاً ولا مخمساً ولا غير ذلك، ورش الماء عليه دوراً يستقبل القبلة ويبتدأ من عند الرأس فإن فضل شيء صب على وسطه، ووضع الحاضرين أيديهم عليه غمزاً بعد الرش ولا سيما إذا كان الميت هاشمياً أو الحاضر لم يحضر الصلاة عليه والترحم عليه بمثل: اللهم جاف الأرض عن جنبيه وصعّد روحه إلى أرواح المؤمنين في عليين وألحقه بالصالحين، وأن يلقنه الولي بعد انصراف الناس رافعاً صوته، وأن يكتب اسم الميت على القبر أو على لوح أو حجر وينصب على القبر(٢).

يكره دفن ميتين في قبر واحد، ونزول الأب في قبر ولده، وغير المحرم في قبر المرأة، وإهالة الرحم التراب، وفرش القبر بالساج من غير حاجة

---

(١) منهاج الصالحين ١: ٨٩ مسألة (٣٢١). ولم يحصل للسجاد عليه السلام أن يعمل هذا المستحب لأن رأس الحسين عليه السلام على رأس الرمح.

(٢) كتب السجاد على قبر أبيه: هذا قبر الحسين بن علي الذي قتل عطشاناً.

وتجصيصه وتطيينه وتسنيمه، والمشي عليه، والجلوس والاتكاء، وكذلك البناء عليه وتجديده إلا أن يكون الميت من أهل الشرف[١].

يكره نقل الميت من بلد موته إلى بلد آخر إلا المشاهد المشرفة والمواضع المحترمة فإنه يستحب ولا سيما الغري[٢] والحائر وفي بعض الروايات أن من خواص الأول إسقاط عذاب القبر ومحاسبة منكر ونكير[٣].

لا فرق في جواز النقل بين ما قبل الدفن وما بعده إذا اتفق تحقق النبش، بل لا يبعد جواز النبش لذلك إذا كان بإذن الولي ولم يلزم هتك حرمة الميت[٤].

يحرم نبش قبر المؤمن على نحو يظهر جسده إلا مع العلم باندراسه وصيرورته تراباً من دون فرق بين الصغير والكبير والعاقل والمجنون، ويستثنى من ذلك موارد:

منها: ما إذا كان النبش لمصلحة الميت كالنقل إلى المشاهد، كما تقدم أو لكونه مدفوناً في موضع يوجب مهانة عليه كمزبلة أو بالوعة أو نحوهما، أو في موضع يتخوف فيه على بدنه من سيل أو سبع أو عدو.

ومنها: ما لو عارضة أمر راجح أهم، كما إذا توقف دفع مفسدة على

---

(١) منهاج الصالحين ١: ٨٨ ـ ٨٩ مسألة (٣٢٢).

(٢) إذا مت فادفني مجاور حيدر.

(٣) منهاج الصالحين ١: ٨٩ مسألة (٣٢٣).

(٤) منهاج الصالحين ١: ٨٩ مسألة (٣٢٤).

رؤية جسده.

ومنها ما لو لزم من ترك نبشه ضرر مالي كما إذا دفن معه مال غيره من خاتم ونحوه، فينبش لدفع ذلك الضرر المالي، ومثل ذلك ما إذا دفن في ملك الغير من دون إذنه وإجازته.

ومنها إذا دفن بلا غسل أو بلا تكفين، أو تبين بطلان غسله أو بطلان تكفينه، أو لكون دفنه على غير الوجه الشرعي لوضعه في القبر على غير القبلة أو في مكان أوصى بالدفن في غيره أو نحو ذلك فيجوز نبشه في هذه الموارد إذا لم يستلزم هتكاً لحرمته وإلا ففيه إشكال[١].

لا يجوز التوديع المتعارف عند بعض الشيعة أيدهم اللّٰه بوضع الميت في موضع والبناء عليه ثم نقله إلى المشاهد المشرفة، بل اللازم أن يدفن بمواراته في الأرض مستقبلاً بوجهه القبلة على الوجه الشرعي ثم ينقل بعد ذلك بإذن الولي على نحو لا يؤدي إلى هتك حرمته[٢].

إذا وضع الميت في سرداب جاز فتح بابه وإنزال ميت آخر فيه إذا لم يظهر جسد الأول، أما للبناء عليه أو لوضعه في لحد داخل السرداب. وأما إذا كان بنحو يظهر جسده ففي جوازه إشكال[٣].

إذا مات ولد الحامل دونها فإن أمكن إخراجه صحيحاً وجب وإلا جاز

---

(١) منهاج الصالحين ١: ٨٩ ـ ٩٠ مسألة (٣٢٥).

(٢) منهاج الصالحين ١: ٩٠ مسألة (٣٢٦).

(٣) منهاج الصالحين ١: ٩٠ مسألة (٣٢٧).

تقطيعه ويتحرى الأرفق فالأرفق.

وإن ماتت هي دونه شق بطنها من الجانب الأيسر إن احتمل دخله في حياته وإلا فمن أي جانب كان وأخرج ثم يخاط بطنها وتدفن[١].

إذا وجد بعض الميت وفيه الصدر غسل وحنط وكفن وصلي عليه ودفن وكذا إذا كان الصدر وحده أو بعضه على الأحوط وجوباً، وفي الأخيرتين يقتصر في التكفين على القميص والإزار، وفي الأول يضاف إليه المئزر إن وجد له محل، وإن وجد غير عظم الصدر مجرداً كان أو مشتملاً اللحم غسل وحنط ولف بخرقة ودفن على الأحوط وجوباً ولم يصلِّ عليه وإن لم يكن في عظم لف بخرقة ودفن على الأحوط وجوباً [٢].

السقط إذا تم له أربعة أشهر غسل وحنط وكفن ولم يصلِّ عليه، وإذا كان دون ذلك لف بخرقة ودفن على الأحوط وجوباً، لكن لو ولجته الروح حينئذٍ فالأحوط إن لم يكن أقوى جريان حكم الأربعة أشهر عليه[٣].لذا غسل الإمام عليه السلام ابنه المحسن وكفنه ودفنه.

---

(١) منهاج الصالحين ١: ٩١ مسألة (٣٢٨).

(٢) منهاج الصالحين ١: ٩١ مسألة (٣٢٩).

(٣) منهاج الصالحين ١: ٩١ مسألة (٣٣٠).

من آيات الخلق

قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[1].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما فيها من عجائب خلقه وبدائع صنعه مثل ما في السماوات من النجوم والشمس والقمر وجريها في مجاريها على غاية الاتساق والنظام، وما في الأرض من أنواع الجماد والنبات والحيوان المخلوقة على وجه الإحكام.

﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ فالألسنة جمع لسان واختلافها هو أن ينشئها اللّه مختلفة في الشكل والهيئة والتركيب فتختلف نغماتها وأصواتها حتى أنه لا يشتبه صوتان من نفسين هما أخوان. وقيل: إن اختلاف الألسنة هو اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما، ولا شيء من الحيوانات تتفاوت لغاتها كتفاوت لغات الإنسان، فإن كانت اللغات توقيفياً من قبل اللّه تعالى فهو الذي فعلها وابتدأها، وإن كانت مواضعة من قبل العباد فهو الذي يسرها.

﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ أي: اختلاف ألوانكم من البياض والحمرة والصفرة

---

(١) الروم: ٢٢.

والسمرة وغيرها، فلا يشبه أحد أحداً مع التشاكل في الخلقة، وما ذلك إلا للتراكيب البديعة واللطائف العجيبة الدالة على كمال قدرته وحكمته حتى لا يشتبه اثنان من الناس ولا يلتبسان مع كثرتهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي أدلة واضحات ﴿لِّلْعَالِمِينَ﴾ أي: للمكلفين(١).

يكرر سبحانه آية خلق الكون لأنه بما فيه من عجائب وأسرار أظهر الأدلة على وجود اللّٰه وعظمته، وأيضاً للتذكير بفضله تعالى وآلائه.

﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ اختلاف القوميات باللغة وأهل الأقطار بالألوان، واختلاف الأفراد بالملامح والأصوات وبصمة الإبهام وما إليها.

والحكمة من ذلك أن يتميز الناس بعض عن بعض فيعرف الوالد ولده، والرجل زوجته، والغريم غريمه. ومحال أن تكون هذه الحكمة من صنع الطبيعة والصدفة، بل فيها دلائل واضحة على وجود المقدر والمدبر(٢).

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقال اللّٰه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(٣).

قال منكرو البعث: مستحيل أن تحيى العظام وهي رميم. قالوها

(١) مجمع البيان ٨: ٥٤، في تفسير سورة الروم، آية: ٢٢.

(٢) التفسير الكاشف ٦: ١٣٧ في تفسير سورة الروم، آية: ٢٢.

(٣) القيامة: ٣ ـ ٤.

بأساليب شتى وأجابهم سبحانه بشتى الأساليب، من ذلك هذه الآية، ومعناها: أن اللّه هو الذي يجمعها ويحييها ولا غرابة فإن قدرته تعالى لا يعجزها شيء، وفوق ذلك هو يعيد العظام تماماً كما كانت، حتى أدقها وأصغرها حجماً كعظام أصابع اليد، فإنها ترجع لسابق عهدها ببشرتها ولونها وما عليها من شعرات، بل وما فيها من خطوط وبصمات وذلك على اللّه سهل يسير؛ لأن الذي أتقنها أول مرة وجعل بصماتها تختلف في كل فرد عن الآخر منذ أول إنسان إلى الإنسان الأخير يهون عليه أن يعود الإنسان إلى سيرته الأولى بجميع صفاته وخصائصه لأن اختلاف خطوط الأصابع وبصماتها على هذا النحو أكثر وأقوى دلالة على قدرته تعالى من إعادة العظام والأموات(١).

ويمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم والأصوات ونحو التكلم والنطق، وباختلاف الألوان اختلاف كل فرد من أفراد الإنسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن، فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلقة على آيات دقيقة دالة على الصنع والإيجاد مع النظام الجاري فيه لا يقوم إلا باللّه ولا ينتهي إلا إليه.

وكل سكان العالم من أصل واحد ومن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة فمن الذي أوجد اختلاف اللغات واللهجات؟

أنهم يقولون: أن اللغة في الإنسان نشأت لمحاكاته الأصوات التي

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ٤٧٠ في تفسير سورة القيامة، آية: ٣ ـ ٤.

يسمعها في بيئته. وهذا معقول وجميل ولكن الذي أودع في الإنسان قوة المحاكاة وفي الطبيعة تلك الأصوات المختلفة أليس هو اللّه؟ ومن هنا ندرك السر في اختلاف الألسنة والألوان فخلق السماوات والأرض، ومن أين اختلاف الألوان والاتجاهات والمعاني النفسية والخلقية في كل نفس. وهذا الاختلاف يكون بين أبناء الرجل الواحد الذين عاشوا في بيئة واحدة.

إن في ذلك كله لآيات للعالمين بأسرار الكون، سمائه وأرضه، علوية وسفلية، ونظام الجماعات والأفراد والعلماء بعلوم الاجتماع واللغات والأخلاق وليس القرآن يخاطبهم بذلك وحدهم لا بل هو خطاب عام ولكن فهم تلك الآيات فهماً واسعاً دقيقاً إنما هو للعلماء، ولا يمنع أن غيرهم يدرك إدراكاً متناسباً مع قواه.

وقد يكون في بعض الأشخاص نقص في خلقه أو زيادة في بعض أعضائه طولاً أو قصراً وإن أراد إخفاءه لابد أن يظهر للناس. يقول الأستاذ مصطفى كامل توده قضية إلى اللطيفة والفكاهة أقرب (الملك المعذب) قال:

في زمن بعيد كان يعيش في إحدى مقاطعات الهند ملك غني قوي، ولم يكن يضايقه في حياته شيء غير شيء واحد كانت أذناه كبيرتين كأذني العنزة وكان الملك يخجل من منظر أذنيه، ولذا اعتاد أن يلبس تاجاً كبيراً يخفيهما وكان الملك يستدعي كل صباح أحد الحلاقين ليحلق له ذقنه وكان بالطبع يضطر إلى خلع التاج فيرى الحلاق أذنيه، فإذا انتهى من الحلاقة سأله إن كان قد لاحظ شيئاً، وفي كل مرة كان يسمع هذه الإجابة: أذنا جلالتك تشبهان أذني العنزة. وعند ذلك يأمر جلاوزته فيعدم الحلاق فوراً.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى لم يبق في البلدة إلا عدد قليل جداً من الحلاقين. وأخيراً استدعى الملك رئيس الحلاقين إلى القصر ولكنه كان مريضاً فأرسل مساعده بدلاً عنه وخلع الملك تاجه وأخذ مساعد رئيس الحلاقين يحلق ذقن الملك، فلما انتهى من الحلاقة سأله الملك هل لاحظت شيئاً غريباً؟ فقال: كلا يا مولاي، لا شيء على الإطلاق، فسر الملك سروراً كثيراً وأمر بإعطائه عشر قطع فضة كبيرة، وقال له: تعال كل يوم لتحلق لي وعاد الحلاق الشاب وقص على رئيسه أن الملك سر منه وأنه أعطاه عشر قطع من الفضة.

وأخذ الحلاق الشاب يذهب كل يوم إلى قصر الملك فيحلق له ويستلم الفضة العشر ويغدو سعيداً إلى داره، وقد حرص على أن يحفظ السر فلم يقل لأحد أبداً أن أذني الملك تشبهان أذني العنزة، واستمر على ذلك زمناً. ولكن أحس بعد مدة أن سره يعذبه وأنه لم يستطع أن يحفظه في قلبه وتمنى أن يقوله لأي إنسان حتى يخفف ثقله عليه.

ولاحظ رئيسه أن هناك شيئاً يضايقه فسأله ما به؟ فقال: هناك سر لم أبح به لأحد، ولكنني لم أستطع أن أبقيه في قلبي، فقال رئيس الحلاقين: ثق بي يا بني وأفصح لي عن سرك وأعدك أن لا أبوح به إلى أحد، وإذا لم يعجبك هذا الحل فلدي اقتراح آخر يخفف عنك، اذهب إلى حقل خارج البلدة بعيداً عن الناس واحفر به حفرة ثم اركع على ركبتيك وألقي سرك في الحفرة همساً ثم غطها جيداً بالتراب.

وذهب الحلاق الشاب إلى حقل خارج المدينة وحفر فيه حفرة وركع ثم

قـال: أيهـا الحفـرة إن أذنـي الملك تشبهان أذني العنزة، وكرر هذا القول عدة مـرات ثـم غطى الحفرة بالتراب وعاد إلى داره سعيداً وهو يحس أن هماً ثقيلاً انزاح عن قلبه.

ودارت عـلى ذلـك أسـابيع ثـم ظهرت في مكان الحفرة شجيرات غاب صغيرة وما هي إلا أيام حتى كبرت الشجيرات ومرت رعاة الغنم بقربها وأراد أحدهـم أن يسلي نفسه وإخوانه فقطع غابة وصنع منها مزماراً، أخذ ينفخ فيه ولكن المزمار لم يخرج نغماً أو لحناً بل انبعثت منها هذه الكلمات: أذني الملك تشـبهان أذني العنزة. فدهش الراعي أشد الدهشة ولم تمر على ذلك أيام حتى ذاع في البلدة أن للملك أذني عنزة.

ووصلت الأخبار إلى الملك فغضب غضباً شديداً واستدعى الحلاق وقال لـه: ماذا أذعت عني في هذه البلدة؟ وحاول الحلاق أن يدافع عن نفسه وأقسم أنـه لم يخـبر إنسـاناً، ولكـن الملك لم يستمع لكلامه ولم يصدق قسمه، وأخرج سـيفاً حـاداً مـن جـرابه لـيقطع بـه رقـبة الحلاق وخاف هذا الأخير وارتجف واعـترف بأنـه لم يقـل الخـبر إلا لحفـرة حفرها في الأرض غطاها بالتراب وأن أشـجاراً مـن الغـاب نمـت مكانهـا وأن بعض الناس صنع من الغاب مزامير أخذت تردد ما قاله للأرض.

ورأى الملـك أن يـتحقق مـن قول الحلاق فأخذه معه في عربة وذهب إلى مكـان تلك الحفرة وأمر كبير أمنائه أن يقطع بوصة من ذلك الغاب وأن يصنع مـنها مـزماراً فنفذ كبير الأمناء أمر الملك وصنع المزمار ونفخ فيه فلم يخرج منه أي نغـم ولكـن انبعثـت مـنه هذه الكلمات: أذنا الملك تشبهان أذني العنزة.

فعند ذلك تأكد الملك أنه لا أحد يستطيع حفظ السر حتى الأرض نفسها تبوح بالسر.

وعفا الملك عن الحلاق ولكنه قال له: لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم.

فمن أين اختلاف الخلق حتى بعض الأعضاء ولغاتهم الكثيرة وكلهم من آدم وحواء.

فاختلاف اللغات والألوان دليل قاطع على أن خالق هذه الأشياء هو الله.

نعم قد يكون شبه في الناس، فيقال: فلان شبيه بفلان، في منطقه أو في مشيته. قال أمير المؤمنين عليه السلام لعمار بن ياسر لما عزاه بفاطمة: ((يا عمار إن فاطمة إذا تكلمت ملأت سمعي من صوت رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا مشت حكت كريم قوائمه))[1].

وفي السيرة والتاريخ أن الذين كانوا يشبهون رسول الله صلى الله عليه وآله سبعة:

---

(١) لم أعثر عليه ولكن ورد بلفظ: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله صلى الله عليه وآله. السنن الكبرى ٧: ١٠١، ومقتل الحسين ١: ٥٤، وتلخيص المستدرك المطبوع بذيل المستدرك ٤: ١٢٦، ونظم درر السمطين: ١٨٠، وتاريخ الإسلام ٢: ٩٢، وأعلام النساء ٣: ١٢١٧، وكشف الغمة ١: ٤٥١، وعن عائشة قالت: مارأيت أحداً من الناس كان اشبه بالنبي صلى الله عليه وآله كلاماً ولا حديثاً وجلسة من فاطمة عليها السلام. حياة الصحابة ٢: ٤٨٦، والاحقاق ١: ٢٥١، وج١٩: ١٦.

الحسن بن علي عليه السلام، وجعفر بن أبي طالب، وقثم بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث، والسائب بن عبيدالله بن عبد يزيد بن هاشم بن عبدالمطلب وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن يزيد بن الحارث(١).

وورد أيضاً أن الثامن هو أشبهم برسول الله خَلْقاً وخُلُقاً الا وهو علي الأكبر بشهادة الحسين عليه السلام يقول لما برز الأكبر: اللهم أشهد على هؤلاء القوم فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلْقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك محمد صلى الله عليه وآله وسلم(٢).

(١) شرح الأخبار ٣: ٢١٧، والدرجات الرفيعة: ١٦٦، وأسد الغابة ٥: ٢١٣، في ترجمة أبو سفيانِ بن الحارث بن عبدالمطلب، والكنى والألقاب ١: ٨٧.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٠.

ميثاق الزوجية

قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم وعلى شكلكم تبادلكم عطفاً بعطف واطمئناناً باطمئنان. وقديماً قيل: كل شكل إلى شكله أليف. ولو كانت الزوج من غير جنس الزوج لتعذر التفاهم والمشاركة ولنظر كل إلى الآخر على أنه غريب وبعيد عن طبعه وأخلاقه.

الزواج مبادلة روح بروح ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(٢).

حدد اللّه سبحانه عقد الزواج بألفاظ ذكرها في كتابه العزيز، وأوجب الوقوف عندها والتعبد بها تماماً كألفاظ العبادة، وأضفى على عقد الزواج من القداسة ما أبعده عن كل العقود كعقد البيع والإجارة وما إليها؛ لأن البيع مبادلة مال بمال أما الزواج فمبادلة روح بروح، وعقده عقد رحمة ومودة لا عقد تمليك للجسم بدلاً عن المال.

قال الفقهاء: أن عقد الزواج أقرب إلى العبادات منه إلى عقود المعاملات

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) النساء: ٢١.

والمعاوضات. ومن أجل هذا يجرونه على اسم اللّه وكتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ.

وقال الشيخ محمد شلتوت: إذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد في القرآن الكريم إلا تعبيراً عما بين اللّه وعباده من موجبات التوحيد والتزام الأحكام، وعما بين الدولة والدولة من الشؤون العامة الخطيرة؛ علمنا مقدار المكانة التي سما القرآن بعقد الزواج إليها. وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق بالغليظ لم يرد في موضع من مواضعه إلا في عقد الزواج؛ تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التي رفع القرآن إليها هذه الرابطة السامية من كل ما أطلق عليه كلمة ميثاق.

وطريف قول بعض المفسرين: أن المراد بالمودة الجامعة وبالرحمة الولد.

وإن دل هذا التفسير على شيء فإنما يدل على تغليب الجنس عند المفسر وأنه ينظر إلى المرأة على أنها مجرد آلة لإنجاب الأطفال.

إن القرآن الكريم يحدد الغاية من الزواج بالتآلف والتراحم والعدل والمساواة لا بين الزوجين فقط بل بين أفراد الأسرة بكاملها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(١).

والغرض من الأمر بالتقوى في هذه الآية أن يؤدي كل فرد من أبناء

---

(١) النساء: ١.

الأسرة حق الآخر ويتعاونوا يداً واحدة على ما فيه خير الجميع لتحيا الأسرة حياة صالحة لا مشاكل فيها ولا تعقيد، ومعلوم أن الأسرة الصالحة هي أساس المجتمع الصالح.

وبهذه المناسبة نشير إلى أن الخطبة تستحب عند طلب الزواج وعند إجراء العقد أيضاً تأسياً بالنبي ﷺ وأهل بيته ﷺ، وهي حمد الله تعالى والشهادتان والصلاة على النبي ﷺ وآله والوصية بالتقوى والدعاء للزوجين.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: ((إذا حمد الله فقد خطب))[1].

ويستحب للتيمن والتبرك تلاوة آية من كتاب الله وحديث من سنة نبيه الكريم.

وعلى هذا جرت عادة السلف والكثير من الخلف فإنهم يتلون قبل العقد من كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ إلخ [2].

ومن السنة النبوية: ((تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط))[3].

---

(١) تذكرة الفقهاء ٢: ٥٧١، والمهذب البارع ٣: ١٧٤، وجامع المقاصد ١٢: ١٥، وكشف اللثام ٢ : ٧، والكافي ٥: ٣٧٠ ب (٤٣) التزويج بغير خطبة، ح٢.

(٢) التفسير الكاشف ٦: ١٣٦.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ١٧٠ ب (٢٣) ذكر أولاده وأزواجه عليه السلام.

ويتلى هذا الحديث وما إليه للتبرك، لأنه من الخطأ أن يظن أن الخلق الكريم والتهذيب القرآني يتم بتلاوة الأحاديث والآيات. كلا، إن هذا التهذيب لا يكون إلا بتربية الأبناء منذ الصغر تربية قرآنية تؤدي بهم إلى تفهم الغاية التي أرادها اللّه من الزواج، وأنها إنسانية خالصة من كل شائبة تجارية أو سياسية، أما أن نربي أولادنا على حب التكاثر والتفاخر والمظاهر الفارغة فتقول الأم لابنتها: أسعدك اللّه بزوج ثري، وينصح الوالد ولده أن يتزوج بنت الوزير والتاجر الكبير، أما هذه التربية فلا تعني الآيات والأحاديث.

أما حديث ((تناكحوا تناسلوا)) فلا شك في صحته ولكن سيد الأنبياء يباهي بالمؤمنين الأتقياء والمجاهدين الأحرار، وأيضاً بالسقط، ويتبرأ من أهل الفسق والفجور من الشابات والشباب الذين لا يردعهم من الدين رادع ولا يزجرهم من الأخلاق زاجر، ويتبرأ أيضاً من أهل الخيانة والعمالة لأعداء اللّه والإنسانية.

وفي الحديث: ((ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من يفر من شاهق إلى شاهق. ومن حجر إلى حجر كالثعلب بأشباله قالوا: ومتى ذلك يا رسول اللّه؟ قال: إذا لم ينل المعيشة بمعاصي اللّه فعند ذلك حلت العزوبة))(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) التحصين: ١٣، ومثله في سبل الهدى والرشاد ١٠: ١٦٤.

إن الغرض من الزواج هو السكن والمودة والرحمة، وأن الزواج التجاري والسياسي كثيراً ما يؤدي إلى شقاء الأسرة ويعرضها للزوال وتشريد الأطفال

توجيهات اجتماعية

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

في هذه الآية نهى سبحانه عن سوء الظن والتجسس والغيبة، والتفصيل كما يلي:

أولاً: اجتناب الظن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

هذه الفقرة من الآية يمكن تلخيصها بجملة واحدة، وهي: كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته. ويمكن أن تشرحها بصفحات طوال، فيحدد ما يقتضيه الأصل في الظن: هل هو صحة الأخذ به أو وجوب الاجتناب عنه في سائر الأحوال أو عند تعذر العلم؟ وهل العلم بالأحكام الشرعية الفرعية متعذر أو غير متعذر؟ وعلى الأول هل نأخذ بكل ظن أياً كان سببه وكانت مرتبته؟ وعلى الثاني ما هي الوسائل العلمية إلى الأحكام الشرعية؟ إلى آخر التفريعات المدونة في أصول الفقه.

---

(١) الحجرات: ١٢.

ومن الخير أن يلتزم التفسير الوسط بين الإيجاز والإطناب.

وقبل كل شيء نعرف الفرق بين الشك والظن والعلم.

فالشك هو استواء كفتي الاحتمالين إثباتاً ونفياً. والظن ترجيح كفة أحدهما على الآخر مع بقاء الطريق مفتوحاً للذي خف ميزانه. والعلم تعيين أحدهما مع سد الطريق على الآخر من الأساس.

وقد تظن بإنسان خيراً أو شراً، وقد تكون مصيباً في ظنك أو مخطئاً، ولا بأس عليك إطلاقاً في حسن الظن بأخيك أصبت أو أخطأت، ظهر أثر ذلك في أقوالك وأفعالك أو لم يظهر.

قال الرسول الأعظم ﷺ: ((ظنوا بالمؤمنين خيراً))[١].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((ضع أمر أخيك على أحسنه))[٢].

إذا صدر من الإنسان عمل من الأعمال أو قول من الأقوال يمكن حمله على وجه صحيح وعلى وجه فاسد فهل يحمل على الصحة أو على الفساد أو يجب التوقف وعدم الحكم بشيء إلا بدليل قاطع؟

ومثال ذلك أن ترى رجلاً مع امرأة لا تدري هل هي زوجته أو أجنبية عنه؟ أو تسمع كلاماً وأنت لا تدري هل أراد به المتكلم النيل منك أو لم يرد ذلك؟

وقد اتفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحة في ذلك وأمثاله

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ١١٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ١٩٦ ب (٦٢) التهمة والبهتان والظن بالاخوان، ح١١.

واستدلوا فيما استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾(١).

ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((يا محمد كذّب سمعك وبصرك عن أخيك فإن شهد عندك خمسون قسّامة وقال لك قولاً فصدقه وكذّبهم))(٢).

وهذا مبدأ إنساني لأنه يكرس كرامة الإنسان، ويؤكد علاقة التعاون والتعاطف بين الناس، ويبعد بهم عما يثير الكراهية والنفور. وبهذا يتبين أن الإسلام لا يقتصر على العقيدة والعبادة، وإنه يهتم بالإنسانية وخيرها، ويرسم لها الطرق التي تؤدي بها إلى الحياة المثمرة الناجحة.

ولكن الذين باعوا دينهم للشيطان استغلوا هذا المبدأ الإنساني وانحرفوا به عن مبدئه النبيل وصرفوه إلى أعمال القراصنة والمرابين.

وبديهة أن مبدأ العمل على الصحة لا ينطبق على أعمال السلب والنهب والاحتيال والتضليل وما إلى ذلك مما نعلم علم اليقين أنه من المحرمات والموبقات، وإنما ينطبق على ما تحتمل فيه الصدق والكذب والصحة والفساد.

وبهذا يتبين معنى لماذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ولم يقل: كل الظن؛ فإن كلمة ((كل)) من صيغ العموم تشمل حسن الظن وسوء الظن، أما كلمة ((كثير)) فتستعمل بمعنى بعض

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) بحار الأنوار، ٧٢: ٢٥٥ ب (٦٦) الغيبة، ح٤٠ نقلاً عن ثواب الأعمال: ٢١٥، وميزان الحكمة ٧: ٣٣٦، ح١٥١٩١.

وبمعنى معظم، وهذا هو المراد بكلمة ((كثير)) في الآية، والقصد هو حصر موضوع الآية ودلالتها بسوء الظن.

وسوء الظن من حيث هو ودون أن يظهر أثره في قول أو فعل ما هو بمحرم وصاحبه غير مسؤول عنه؛ لأن الإنسان لا حرية له في ظنونه وتصوراته، وإنما توحي بها الظروف والأسباب الخارجة عن إرادته واختياره، أجل عليه أن لا يعوّل على ظن السوء ويعتبره كأنه لم يكن، وإذا عول عليه وظهر أثر ذلك في قول أو فعل كان مسؤولاً ومستحقاً للذم والعقاب. وهذا هو الظن الذي أراده سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١).

قال الرسول الأعظم ﷺ: ((ثلاثة لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن، قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامضِ، وإذا حسدت فلا تبغِ، وإذا ظننت فلا تحقق))(٢).

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ لا تعولوا عليه ولا تعملوا به، تماماً مثل قوله: ﴿لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾(٣).

ثانياً: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾:

التجسس: تتبع العورات والعثرات، والبحث عنها في الخفاء، وهو محرم

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ١١٩.

(٢) بحار الأنوار ٥٥: ٣٢٠ ب (١١) في النهي عن الاستمطار بالأنوار والطيرة والعدوى نقلاً عن النهاية ٣: ٥١.

(٣) الأعراف: ٢٧ ـ ٢٨.

كتاباً وسنة وإجماعاً وعقلاً.

فمن الكتاب قوله: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾، وقوله: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[1].

ومن السنة قول الرسول الأعظم ﷺ: ((لو أن امرءاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح))[2].

وقد أجمع الفقهاء قولاً واحداً على العمل بهذا الحديث.

أما العقل فإنه يعتبر التجسس غزواً لحياة الناس واعتداءً على حرياتهم وأشيائهم الخاصة من معلومات وعادات.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: تذكرت وأنا أكتب هذه الكلمات مقالاً مطولاً في هذا الموضوع نشرته جريدة الأهرام عدد ٢٧/ ٦/ ١٩٦٩م قرأته آنذاك واحتفظت به في ملف قصاصات الصحف التي أحتفظ بها وادخرها إلى وقت الحاجة، فرجعت إلى المقال وقرأته من جديد فإذا بي أقرأ ما لا يبلغه الخيال وفيما يلي بعض ما جاء فيه:

لقد تساقطت الجدران في الولايات المتحدة حتى أصبح الأمريكيون بفضل الغزو الألكتروني المنظم، يشعرون بأن الجدران ليست لها آذان فحسب بل عيون وعدسات أيضاً كما تقول مجلة التايمز، لقد اخترعوا في الولايات المتحدة جهازاً بحجم المليم الصغير يسترق ويسجل السمع ويمكن وضعه في الجاكت كالزر وهو في متناول

---

(١) النور: ٢٨.

(٢) كنز العمال ٩: ١٠٩، ح٢٥٢١٨.

كل فرد، ويتراوح ثمنه بين ١٠ ـ ١٥ دولاراً. وفي نيويورك تجار يعلنون في الصحف عن أجهزة تسترق السمع من بيوت الناس ومنازلهم وتعرض في الأسواق كلعب الأطفال ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولاراً، وإذا وضع واحد من هذه الأجهزة في سيارة تقبع في اتجاه العمارة سجل كل كلمة تقال في داخل العمارة، بل هناك جهاز لاستراق السمع لا يزيد حجمه على حبة العدس. وأيضاً اخترعوا في الولايات المتحدة جهازاً صغيراً للإرسال يذيع ما يدور في البيوت على بعد ٥٠ قدماً منها وثمنه ٤٠٠ دولار. وأعجب من ذلك كله كاميرا تصور من وراء الجدران كل ما يفعله الإنسان بالحمام والمخدع وأحلك الظلمات(١). وهذا قليل من كثير.

ثالثاً: الغيبة:

﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

الغيبة أن تذكر شخصاً معيناً بما يكره قال الرسول الأعظم ﷺ: ((الغيبة: ذكراك أخاك بما يكره، قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته))(٢) والبهتان أعظم من الغيبة.

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) كنز العمال ٣: ٥٨٤، في الغيبة، ح٨٠١٢ باختلاف يسير، وفي ميزان الحكمة ٧: ٣٣٨ ب(٣١٣٤) ما الغيبة، ح١٥٢٠٣ نقلاً عن الترغيب ٣: ٥١٥، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة.

وهي محرمة كتاباً وسنة وإجماعاً.

وقد شبه سبحانه من استغيب بالميت لأنه غائب، وشبه عرضه بلحمه، وقول السوء فيه بالأكل والنهش.

ومعنى ((فكرهتموه)): أنفتم من أكل لحم الميت، فينبغي أن تأنفوا من غيبة الغائب أيضاً لأنهما من باب واحد.

ولا شيء أدل من الغيبة على الخسة والضعة. قال علي عليه السلام: ((الغيبة جهد العاجز))(١).

والله سبحانه لا يغفر الغيبة حتى يغفرها من استغيب.

وحرم الله التجسس والغيبة معاً وكلاهما من الكبائر الموبقة وضرر على البشرية يمزق وحدتها ويفرق كلمتها ويلقح فيها الفتنة؛ وذلك أن التجسس لا يخلو من حالتين أو قصدين، إما أن يقصد بتجسسه أن يسمع ما يقال فيه فيقابل القائل بالمثل أو زيادة، أو ليحمل ما قيل فيمن قيل فيه فليقح بذلك الفتنة بين الناس ضد ما أمر الله به من الإصلاح ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٢) والفتنة أشد من القتل.

والغيبة قبيحة في نفسها حتى لو لم يرد في قبحها دليل من كتاب أو سنة.

هذا أثر الغيبة بصورة عامة ولها أثر في الصوم بصورة خاصة، وقد ورد

---

(١) نهج البلاغة: ٦٣٥ في القصار من كلماته، رقم الحكمة[٤٦١].

(٢) الحجرات: ١٠.

عن النبي ﷺ: ((من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعون يوماً وليلة))(١).

أمر ﷺ أهل المدينة أن يصوموا يوماً من الأيام وقال: لا يفطر منكم أحد إلا بأمري، فلما جاء وقت الإفطار وجاء الناس إليه فكان الرجل يتقدم ويقول: يا رسول الله أنا صائم فهل تأمرني بالإفطار؟ فيقول: نعم، فيقول نعم أفطر، ويأتيه الآخر ويستأذن في إفطاره فيأذن له حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله أنا صائم فهل تأذن لي بالإفطار؟ قال: نعم، قال: وعندي جاريتان قد صامتا فهل تأذن لهما بالإفطار، فأعرض النبي ﷺ عنه، فقال له: مرة ثانية فقال ﷺ: إنهما غير صائمتين، فخرج من عند النبي ﷺ وجاء إليهما وأخبرهما فجاءتا إلى رسول الله ﷺ وهما تبكيان وتقولان: يا رسول الله قد والله صمنا طوعاً لأمرك، فقال ﷺ: إنكما غير صائمتين، ألا أريكما؟ قالتا نعم يا رسول الله، فأمر بقدح، فلما أحضر قال لإحداهما: تقيئي فتقيت من قيح ودم، ثم قال للأخرى تقيئي فقاءت من قيح ودم، فقال: إن هاتين الجاريتين صامتا عما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله، وقد جلست إحداهما مع الأخرى يأكلان لحوم الناس بالغيبة(٢).

ومن هذا يظهر لنا وينكشف جلياً أن نوم الصائم عبادة، والسر في ذلك مزية الاعتزال عن آفات المعاصي لاسيما الغيبة التي ورد فيها أنها من

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٥٨ ب (٦٦) الغيبة، ح٥٣، نقلاً عن جامع الأخبار: ١٧١.

(٢) رسائل الشهيد الثاني: ٢٨٦ ذكر الرواية كاملة.

الكبائر وأقبح المعاصي، وهي الداء الجاري في عموم البشرية فلا تكون فتنة إلا منها ولا قتل إلا عن سببها، ولم يصدر بين والد وولده أو أخ وأخيه أو زوجة مع زوجها إلا من فروع الغيبة، فهي مفتاح كل شر يقع في الدنيا.

أما آثارها في الآخرة فذكروا أن وقودها الأعمال. وذكر صاحب كتاب الكبائر: يؤتى بالمغتاب يوم القيامة فيوقف بين يد اللّٰه تعالى فيدفع إليه كتابه فلا يرى فيه حسناته التي عملها من صلاة وصوم وحج وزكاة وصلة رحم، فيقول: يا رب ليس هذا كتابي فإني لا أرى فيه حسناتي وأعمالي، فتقول الملائكة: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك في اغتياب الناس. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَنْثُورًا﴾ (١) ثم تقدم إليه صحيفة السيئات فينظر إليها فيرى أعمال لم يعملها في دار الدنيا فيقول الصحيفة ليست صحيفة أعمالي، لأن فيها أعمالاً لم أعملها، فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى إن حسناتك فرقت على من اغتبتهم في دنياك ولم يبق لك حسنة أخذنا من سيئاتهم ووضعناها على سيئاتك وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (٢).

استثناءات من الغيبة:

نعم استثنى الشارع المقدس من الغيبة موارد:

أحدها: المتجاهر بالفسق الذي لا يبالي بنسبة المعاصي إليه ولا يستتر

---

(١) الفرقان: ٢٣.

(٢) العنكبوت: ١٣.

بها؛ وذلك أن العاصي على نوعين: فتارة يعصي اللّٰه في حالة الستر وهو مع ذلك يرى نفسه أنه عاصٍ ويخشى أن اللّٰه سيؤاخذه في الآخرة ويفضحه في الدنيا، ولربما يؤدي خوفه من ربه أن يأتي إلى إمام زمانه ويطلب منه أن يطهره كالرجل الذي جاء للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقال: سيدي إني زنيت فطهرني(١). وقضية المرأة التي زنت وهي حبلى ثم أمرها أن تضع ثم تأتيه(٢).

وتارة يعصي اللّٰه وهو غير مبالٍ بما اقترف ولا يبالي بنسبة المعاصي إليه فيقال مثلاً: فلان زنى أو كل مال اللّٰه وأموال الأئمة لا يبالي بجميع ذلك فهو فاسق متجاهر بفسقه والحديث الوارد: ((لا غيبة للفاسق))(٣).

لذا قال الإمام الحسين عليه السلام ـ لما طلب منه البيعة ليزيد في مجلس الوليد ـ: يا وليد إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي بنا فتح اللّٰه وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق... إلخ (٤).

ثانياً: الاستفتاء، فتقول للمفتي مثلاً: فلان ظلمني وأكل حقي فكيف تخليصي منه.

---

(١) الكافي ٧: ١٨٧ ب (٩)، ح٣، ومن لا يحضره الفقيه ٤: ٣١، ح٥٠٧١.

(٢) الكافي ٧: ١٨٦ ب (٩)، ح١، والفقيه ٤: ٣٢، ح٥٠١٨، وتهذيب الأحكام ١٠: ٩، ح٢٣.

(٣) مجمع الفائدة ٨: ٤٨٩، وفي بحار الأنوار ٧٢: ١٦١ لما روي عن الصادق عليه السلام إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة ولا غيبة.

(٤) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٤ الفصل التاسع في بيان ما جرى بين الحسين والوليد بن عتبة ومروان.

ثالثها: نصح المستشير وعليه الحديث: ((أمحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة))[١].

رابعاً: قصد ردع من تستغيبه أو حسم مادة فساد أو لردع عنه كي لا يغتر به أحد، كالمبتدع تخشى أن يضل الناس بحيله ومكره وأن يحملهم على غير ما شرع اللّه سبحانه وسنة الرسول ﷺ حتى لو كان متزيناً بزي أهل الصلاح فيستبيح أموالهم وأعراضهم بحيله. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ ((إذا رأيتم أهل الريب والبدع فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة بهم وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس، ولا يتعلمون من بدعهم يكتب لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة))[٢].

خامسها: جرح الشهود والراوي.

سادسها: دفع الضرر عن المستغاب كما ورد عن الأئمة في ذمهم لبعض أصحابهم المخلصين حفظاً لهم من أمراء الجور وبقياً عليهم.

سابعها: ذكر الشخص بعيبه الذي صار بمنزلة الصفة التي لا يعرف إلا بها كفلان الأعرج أو فلان الأعور أو الأعمش ونحو ذلك. وإن يحل هذا حيث لا يقصد الانتقاص.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٦٥ ب (١٠) حسن المعاشرة، ح٢٩.

(٢) الكافي ٢: ٣٧٤، (١٦٣) مجالسة أهل المعاصي، ح٤، وبحار الأنوار ٧١: ٢٠٢ ب (١٤) من لا ينبغي مجالسته ومصادقته، ح٤١.

ثامنها: القدح في مقالة باطلة فإنه يجوز القدح وإن استلزم القدح في قائلها كائناً من كان.

تاسعها: غيبة المظلوم لظالمه سواء تستر الظالم بظلمه أو لا؛ لإطلاق قوله تعالى: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾[1] لذا تجد أكثر المظلومين يتظلمون من ظالمهم ويظهرون عليه... إلخ.

---

(١) النساء: ١٤٨.

زيارة القبور

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾(١).

الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعي النازل بشهادة ذيل الآية ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ فإن الحساب على الأحكام النازلة في الشريعة ظاهراً وإن كانت مدركة بالفطرة كقبح الظلم وحسن العدل، على أن الحجة لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطري لولا انضمام طريق الوحي.

قال تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢).

والآية مطلقة فالمراد به كل صلة أمر اللّه بها، ومن أشهر مصاديقه صلة الرحم التي أمر اللّه بها وأكد القول في وجوبها.

قال تعالى: ﴿اتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾(٣).

وقد أكد القول فيه بما في ذيل الآية من قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ وأشار أن في ترك الصلة مخالفة لأمر اللّه فليخشى اللّه في ذلك.

---

(١) الرعد: ٢١.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) النساء: ١.

قال موسى محمد علي[1]: من بديهيات الأمور المسلم بها أن الصلة واجبة بين أفراد الأمة عامة على الرغم من إمكانيات الحياة المتوفرة لكل من الواصل والموصول، وهما في الحياة الدنيا، ولكن إرادة اللّٰه شاءت ربط حياة المسلمين بعضهم ببعض لتحدث الألفة وتقوى الأمة ويعم التعاون ويتماسك المجتمع فيعم الخير ويتماسك البنيان، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ إلخ.

وأنذر وحذر من قطع المودة أو الصلة حتى أوجب اللعنة على من فعل ذلك ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[2].

وإذا كان ذلك واجباً بين الأحياء فهو من باب أولى بين الأحياء والأموات أوجب؛ ذلك أن صلة الأحياء بالأموات على طريق الزيارة فيها ربط الصلة وفيها العظة والعبرة بالموت الذي كتبه اللّٰه على رقاب العباد.

قال ﷺ: ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الموت))[3].

غير أن هناك من ينكر الزيارة وبالأخص زيارة سيد المرسلين ويستدل على ذلك بحديث: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا))[4].

---

(١) حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة: ١٧٥.

(٢) الرعد: ٢٥.

(٣) المعتبر ١: ٣٣٩، وتذكرة الفقهاء ١: ٥٧، ونهاية الأحكام ٢: ٢٩٢.

(٤) مسند أحمد ٢: ٢٣٤، واتحاف السادة المتقين ٤: ٢٨٥.

ولبيان مشروعية الزيارة وتوضيح المراد من حديث ((لا تشد الرحال)) نقول:

لا يخفى على ذي بصيرة من الأمر أن زائر القبور يقصد بزيارتها إما التوسل والاستشفاع إلى اللّٰه تعالى بأصحابها والتبرك بهم كما في زيارة قبور الأنبياء والأولياء.

وأما الاعتبار بالقوم الماضين تمكيناً للخشوع من قلبه ونيلاً للأجر بقراءة الفاتحة والدعاء لهم بالمغفرة كما في زيارة قبور المسلمين.

أو بقصد تذكر من مات من ذويه الأقربين وأحبائه الراحلين وعترته الذين ذهبوا عنه ذهاباً ليس وراءه إياب، وتدفعه إحساساته إلى زيارة قبورهم فيقف على دوارس أجداثهم يسكب على ترابها عبرات الأسف.

وليس في كل هذا ما يستلزم تكفير المسلم الذي شهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمداً رسول اللّٰه. ولا أظن أن الجاهل الغر من الناس فضلاً عن العالم المتشرع تدفعه جهالته أن يقصد بزيارة القبر عبادته وأن يعتقد كونه يقضي حاجته فيخلق له ما يريد.

وزيارة القبور مشروعة، يقول الرسول: ((إني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة)). رواه ابن ماجة[١] وغيره[٢]، كما ذكره أيضاً صاحب المشكاة.

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٥٠١ ما جاء في زيارة القبور، ح١٥٧١.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٨٧ ب (٨١) في زيارة القبور، ح٣٢٣٥.

ويدل على شد الرحال لزيارة القبور ما قاله عمر بعد فتح الشام لكعب الأحبار: ((يا كعب ألا تريد أن تأتي معنا فتزور سيد المرسلين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك)).

وكذا يدل عليه مجيء بلال ﷺ من الشام إلى المدينة لزيارة قبره ﷺ وذلك في خلافة عمر(١).

وعن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبره ﷺ فقال: يا رب إنا زرنا قبر نبيك ﷺ فلا تردنا خائبين فنودي: يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفوراً لكم.

وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت من العلماء الصلحاء يقول: بلغنا أن من وقف عند قبر النبي ﷺ فقال هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٢) وقال: صلى اللّه عليك يا رسول اللّه حتى يقولها سبعين مرة ناداه ملك: صلى اللّه عليك يا فلان ولم تسقط له حاجة.

وابن فديك من أتباع التابعين وكان من الأئمة الثقاة المشهورين وهو من المروي عنهم في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن.

ومن القائلين بالجواز الإمام النوري والقسطلاني والغزالي، فقال في إحيائه بعد أن ذكر حديث ((لا تشدوا الرحال)) ما ملخصه: استدل به

---

(١) تهذيب الكمال ٤: ٢٨٩، في ترجمة بلال الحبشي، رقم [٧٨٢].

(٢) الأحزاب: ٥٦.

بعضهم على المنع من الرحلة لزيارة المشاهد، وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال ﷺ: ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً)).

والحديث إنما ورد نهياً عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتماثلها ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر. وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند اللّٰه سبحانه(١).

يقول المحدث الفقيه تقي الدين السبكي: المراد من قوله ﷺ: ((لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)) الصحيح إباحة السفر للزيارة وجواز القصر فيه؛ لأن النبي ﷺ كان يأتي قبا ماشياً وراكباً، وكان يزور القبور، وأما قوله: ((لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)) فيحمل على نفي الفضيلة لا على التحريم، وليست الفضيلة شرطاً في إباحة القصر، ولا يضر انتفاؤها. ثم يستطرد فيقول: وليس معنى الحديث ما فهم بمنع السفر للزيارة، وإنما معناه لا تشدوا الرحال إلى مسجد لأجل تعظيمه والتقرب بالصلاة فيه إلا إلى المساجد الثلاثة.

وهذا التقدير لابد منه عند كل أحد ليكون الاستثناء متصلاً؛ لأن شد الرحال إلى عرفة لقضاء النسك واجب إجمالي، وكذا الجهاد والهجرة من دار الكفر بشرطها وهو لطلب العلم سنة أو واجب.

وقد أجمعوا على شد الرحال للتجارة وحوائج الدنيا فحوائج الآخرة لا

---

(١) اتحاف السادة المتقين ٤: ٢٨٦.

سيما ما هو من آكدها وهو الزيارة لقبره الشريف أولى.

وحكم زيارة القبور من الأحكام المعقولة المعنى، وما من معنى منها إلا وهو موجود على أتم وجوهه في زيارة قبره الشريف فهو أولى بالسنة المؤكدة من زيارة سائر القبور، وقد أشار إلى تلك المعاني في الباب الخامس صاحب الشفاء فقال: واعلم أن زيارة القبور على أقسام:

القسم الأول: أن تكون لمجرد تذكر الموت والآخرة وهذا يكتفى فيه برؤية القبور من غير معرفة أصحابها ولا قصد أمر آخر من الاستغفار لهم ولا من التبرك بهم ولا من أداء حقوقهم.

القسم الثاني: زيارتها للدعاء لأهلها كما ثبت من زيارة النبي ﷺ لأهل البقيع شهداء أحد وهذا في حق كل ميت من المسلمين.

القسم الثالث: للتبرك بأهلها إذا كانوا من أهل الصلاح والخير.

القسم الرابع: لأداء حقهم فإن من كان له حق على الشخص فينبغي له بره في حياته وبعد موته والزيارة من جملة البر لما فيها من الإكرام. واستظهر الشيخ أن زيارته ﷺ لقبر أمه من هذا المعنى.

وإذا عرف هذا المعنى فنقول: زيارة قبر النبي ﷺ ثبتت فيها هذه المعاني الأربعة، فأما الأول فظاهر، وأما الثاني فإنا مأمورون بالدعاء له وإن كان هو غنياً بفضل اللّه عن دعائنا، وأما الثالث والرابع فإنه لا أحد من الخلق أعظم بركة منه ولا أوجب حقاً علينا منه.

فالمعنى الذي في زيارة قبره لا يوجد في غيره ولا يقوم غيره مقامه.

والواقع لو كان الحكم في السفر لزيارة قبر النبي ﷺ التحريم لامتنع

الناس لذلك من زيارته ﷺ ولصارت المدينة التي نورت بوجوده فيها من أهمل المدن بل من أهمل القرى وكادت تكون خراباً؛ فإن عمارتها إنما هي لوجود قبره الشريف ﷺ فيها، وزيارة المؤمنين لها وإتيانهم إياها وترددهم إليها ومجاورتهم فيها كل ذلك إنما هو لأجله ليكون وسيلتهم إلى الله في سعادتهم لأنه ثبت عندهم ثبوتاً واضحاً أنه ﷺ أقرب الوسائل وأجلها وأنجحها إلى الله تعالى.

ولا يقال هذا مسجده الشريف يشرع السفر إليه بالاتفاق لأنه أحد المساجد الثلاثة التي قال فيها ﷺ: ((لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)).

فيقال له جواباً عن ذلك: إن المسجد الأقصى هو من جملة الثلاثة ولا ترى زواره إلا قليلاً جداً من الجهات البعيدة وهم من الجهات القريبة أقل وإذا كان هذا شأن أهلها ومن جاورها من أهل البلاد القريبة فما بالك بأهل البلاد البعيدة. فهذا شأن المسجد الأقصى مع أن موقعه في وسط المعمورة في بلاد الشام وزيارته في غاية السهولة متيسرة لكل من شاءها ومع هذا لا يزوره إلا القليل من المسلمين ومن ينوي بسفره الصلاة في المسجد الأقصى أندر من النادر إن وجدوا وإنما ينوون غالباً زيارة الأنبياء في بيت المقدس وما جاوره.

إذا علمت هذا فلتعلم أن المسلمين لو اتبعوا تحريم السفر لزيارة قبره الشريف لأصبحت مدينته ﷺ قفراء، وظاهر أن ذلك شيء لا يرضي الله ورسوله وجماعة المسلمين، ولا يستحسنه كل من كان في قلبه رعاية لجنابه الشريف. فزيارة الرسول ﷺ بعد وفاته كزيارته في حياته داخلة في الآية

الكريمة قطعاً وهي: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١] وكذا بعد وفاته بنص الأحاديث الشريفة.

قال ﷺ: ((من زار قبري حلّت لـه شفاعتي))[٢]. ومن أجودها إسناداً: ((من زارني ميتا فكأنما زارني في حياً))[٣] روى الحديث الأول الدارقطني وابن السكن، وصححه فقال: حديث صحيح صححه جماعة من أئمة الحديث.

وإذا ثبت أن مشروعية الانتقال لزيارة قبر غيره فقبره الشريف أحرى وأولى فيلزم من شؤون الزيارة قوله: إن السفر لمجرد الزيارة قربة، وهذا اللزوم فيهما بيّن لا يخفى إلا على معاند. والموجب لتخصيص هذا القبر الشريف عن سائر القبور الأدلة في زيارته على الخصوص فإن الميت يعامل معاملة الحي فالحضور عنده مقصود، ألا ترى أن النبي ﷺ لما خرج في ليلة عائشة إلى البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات والحديث مشهور، ومنه أن عائشة سألته فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول اللّه؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) سنن الدار قطني ٢: ٢٧٨، ح١٩٤، وفي بحار الأنوار ٩٧: ١٥٩ ب (٥) زيارته ﷺ من قريب، ح٤٠، قال ﷺ: من زار قبري حلت له شفاعتي، ومستدرك الوسائل ١٠: ١٨٥ ح(١١٨٠٧).

(٣) سنن الدار قطني ٢: ٢٨٧، ح١٩٣.

المؤمنين والمسلمين، ويرحم اللَّه المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء اللَّه بكم للاحقون. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[١].

فانظر كيف خرج الرسول ﷺ إلى البقيع بأمر اللَّه تعالى يستغفر لأهله ولم يكتف بذلك من الغَيْبَة وهذا أصل في إتيان القبور لزيارة أهلها للاستغفار لهم.

وقد سألته عائشة: كيف أقول، تعني إذا فعلت كفعله، وعلمها.

وعلى ذلك دليل يجوز لها وللنساء الإتيان إلى القبور لهذا الغرض؛ لأن سؤالها ذلك كان بعد رجوعها إلى البيت فلم يكن المقصود منه كيف أقول الآن وإنما معناه كيف أقول مرة أخرى، فلو كان لا يجوز لها ذلك لنبهها، وليس هذا هو المقصود هنا، وإنما المقصود هنا أن الحضور عند القبر لسبب زيارة من فيه والدعاء مطلوب.

أما من يقطع ببركة قبور الأنبياء ومن شهد الشرع له بالجنة فيستحب قصده.

ثم هم في ذلك على مراتب أعظمهم النبي ﷺ. كما أن المساجد المشهود لها بالفضل على مراتب أعظمها المسجد الحرام، وقد أجمعت الأمة كما نقله غير واحد من الأئمة على أن السفر لزيارته من أفضل القربات وأنجح المساعي. وقد أجمع العلماء المسلمون على فعل ذلك فإن الناس لم يزالوا من عهد الصحابة رضي الله عنهم وإلى اليوم يتوجهون من سائر الآفاق إلى زيارته.

---

(١) صحيح مسلم ٢: ٦٦٩ ـ ٦٧١ ب (٣٥) ما يقل عند دخول القبور والدعاء لأهلها، ذيل ح١٠٣.

فمن حاول أن لا يعظم أحداً من خواص عبيد اللّه الصالحين زاعماً أن ذلك يخل بتعظيم اللّه فقد خالف الحق وعكس الحقيقة وتعدى برأيه على حقوق اللّه تعالى وأخل بذلك في تعظيمه اللائق بأوصاف ربوبيته وسيادته المطلقة وأراد أن يحجر عليه عز وجل اختياره المطلق في تخصيص من شاء من أصفياء عباده بالأوصاف الجميلة التي تقربهم إليه وتحمل الناس على تعظيمهم لأجله والتوسل بهم لديه سبحانه.

وبعكس حب المسلمين لأولياء اللّه تعالى بغضهم لأعدائه عز وجل فتراهم يبغضونهم أحياءً وأمواتاً وما ذاك إلا محبة في اللّه تعالى وهم مكلفون شرعاً بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه سبحانه وتعالى.

وكم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية في ذلك دلت على كثرة اعتناء الشارع بالحب في اللّه والبغض في اللّه.

كما وردت آيات وأحاديث كثيرة في الثناء على أنبياء اللّه وعلى عباده الصالحين ولا سيما حبيبه الأعظم ﷺ، أليس ذلك من تعظيم اللّه تعالى لهم وحبه إياهم؟ أليس من تمام طاعته أن نعظم ونحب أصفياءه الذين أثنى عليهم وعظمهم؟ أليس هو سبحانه الذي دلنا بالثناء على أوليائه لرعايته لهم وعلو مقامهم ومحبته إياهم وإضافتهم له بقوله سبحانه:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

فإذا عظمنا حرمتهم وربطنا قلوبنا بقلوبهم وجعلنا بيننا وبينهم المودة

---

(١) يونس: ٦٢.

بـزيارتهم وتشـفعنا وتوسـلنا بهم إلى اللّٰه تعالى مع اعتمادنا الجازم أن التأثير والإيجـاد للّـه تعـالى وحـده، هـل إذا فعلـنا ذلـك يكـون علينا اللوم والاتهام بالشـرك والخـروج عـن طاعة اللّٰه تعالى، معاذ اللّٰه وحاشا اللّٰه أن يكون ذلك شركاً.

وأمـا بعـد فإن جميع المسلمين على علم يقيني بأن اللّٰه هو السيد المطلق لـلخلائق أجمعـين، وكـلهم عبـيده قد اشترك في وصف العبودية لـه عز وجل أتقـاهم وأشـقاهم، ولكـنهم فيها درجات، وأشدهم عبودية لـه تعالى الأنبياء والملائكـة، لأن معرفـتهم بعظمته وجلاله أشد من معرفة من هو دونهم، وهم أيضـاً درجـات أعلاهـم في العـبودية رتبة هو سيدنا محمد ﷺ، وأحبهم إليه وأخصـهم مـن كل الوجود لديه هم الأنبياء ثم رؤساء الملائكة ثم عوامهم ثم الأولياء الموحدون ثم سائر المؤمنين بحسب درجاتهم في التقوى ومعرفة اللّٰه.

اللهم وفقنا لزيارته ولزيارة أهل بيته في كل عام.

قـال السيد محمد مهدي الموسوي الأصفهاني: ذكر ابن عساكر في تاريخه وابـن الجـوزي في مثير العزم الساكن وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبي ﷺ فزرته وجلست بحذائه فجاء أعـرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل إن اللّٰه أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُـمْ إِذ ظَّلَمُـوا۟ أَنفُسَـهُمْ جَـآءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا۟ اللَّـهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُـمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم بكى وأنشأ يقول:

يـــا خـــير مـــن دفنـــت في القـــاع أعظمـــه
فطـــاب مـــن طيـــبهن القـــاع والأكـــم
نفســـى الفـــدا لقـــبر أنـــت ســـاكنه
فـــيه العفـــاف وفـــيه الجـــود والكـــرم

ثم استغفر وانصرف.

فـرقدت فرأيـت رسـول الله ﷺ في نومـي وهـو يقـول: الحق الاعرابي وبشره أن اللّٰه غفر له بشفاعتي. فاستيقظت فخرجت أطلبه فلم أجده[١].

فـإذا كانـت زيـارة الأنبـياء والعظماء والمؤمنين مستحبة، فإذا استحبت زيـارة قـبور المؤمنين فقبر النبي ﷺ أولى[٢]، وقبور أهل البيت أولى لما لهم من الحق ووجوب التعظيم وهم أولاد الرسول وذرية الزهراء البتول[٣].

فـلا لائمـة عـلى من زار قبورهم لما في ذلك من الأجر والثواب والعظة من الزيارة أن يجري مجرى أهل البيت. قال بعض الشعراء:

لقـــبر ســـليل طـــه أتيـــنا وســـبعاً في جوانـــبه ســـعينا
فـــيا ســـعد اســـتمع وأطـــع إليـــنا إذا شـــئت الـــنجاة فـــزر حســـينا
لكي تلقى الإله قرير عينِ

---

(١) سبل الهدى والرشاد ١٢: ٣٩٠، وإعانة الطالبين ٢: ٣٥٧، ومعجم القبور: ٤٤.

(٢) انظر: كامل الزيارات: ٤٨ ب (٣) زيارة قبر رسول الله ﷺ والدعاء عنده.

(٣) كـامل الزيارات: ٩٢ ب(١١) زيارة قبر أمير المؤمنين عليه السلام، وص: ١١٧ ب(١٥) زيارة الحسن بـن علـي عليه السلام، وقـبور الأئمة بالبقيع، وص: ٢٣٦ ب (٤٣) إن زيارة الحسين عليه السلام فرض وعهد لازم له.

البكاء على الموتى

قوله تعالى:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1].

اللغـــة:

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ كناية عن كثرة البكاء. وقيل: أصاب عينيه غشاوة بيضاء غطت على البصر.

والكظم: تجرع الغيظ وإمساكه في القلب. ويقول الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: والكظم هنا بمعنى الكاظم وهو المملوء من الهم والحزن الممسك للغيظ لا يشكوه لأهل زمانه ولا يظهره بلسانه؛ ولذلك لقب موسى بن جعفر الكاظم لكثرة ما كان يتجرع من الغيظ والغم طول أيام خلافته لأبيه في ذات اللّه تعالى[2].

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ اعتزل الناس ليندب وحده من لن ينساه أبداً يندبه بهذه الصرخة الحزينة ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ والبكاء، ولما كان البكاء من أجل الحزن أضاف إليه بياض البصر. وقيل: أصيبتا بالقرحة من آثار البكاء فهو يتنفس منهما

---

(١) يوسف: ٨٤.

(٢) مجمع البيان ٥: ٤٤٤، في تفسير سورة يوسف، آية: ٨٤.

بالدموع كما يتنفس من رئته بالآهات والحسرات ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يتجرع الغيظ ويتجلد ولكن على حساب جسمه وأعصابه[1].

بكاء النبي ﷺ على الموتى:

يقول السيد عبدالحسين شرف الدين[2]: لا ريب في جواز البكاء على موتى المؤمنين بدليل فعل النبي ﷺ، أما فعله فمتواتر في موارد عديدة:

أحدها: يوم مات عمه وكافله أبو طالب عليه السلام فيما رواه أبو داود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة ونقله الدحلاني في باب وفاة عبدالمطلب ووصيته لأبي طالب ص١٠٨ من الجزء الأول من سيرته المطبوعة في هامش السيرة الحلبية، ونقله الحلبي أيضاً في باب أبي طالب وخديجة ص٤٦٢ من الجزء الأول من سيرته حيث روى عن علي عليه السلام قال: لما مات أبو طالب أخبرت النبي ﷺ بموته فبكى وقال: اذهب فاغسله واكفنه وواره غفر اللّٰه له ورحمه.

ثانيها: يوم استشهد عمه حمزة في أحد، فعن ابن مسعود: ما رأينا رسول اللّٰه ﷺ باكياً أشد من بكائه على حمزة، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشق ـ أي شهق ـ حتى بلغ من الغشي، يقول: يا عم رسول اللّٰه وأسد اللّٰه وأسد رسول الله يا حمزة، يا فاعل الخيرات يا حمزة، يا كاشف الكربات يا حمزة، يا ذاب عن وجه رسول اللّٰه، إلى آخر نياحته وندبته

(١) التفسير الكاشف ٤: ٣٤٩، في تفسير سورة يوسف، آية: ٨٤.

(٢) المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة: ١٣.

التي ذكرها أهل السير كالحلبي في ص٣٢٣ من الجزء الثاني من سيرته وكالدحلاني في ص٦٧ من الجزء الأول من سيرته وسائر من أرخ مقتل حمزة في غزوة أحد. وترى ندبة النبي ﷺ ونياحته هذه قد عدد فيها محاسن عمه بما يهيج الحزن واللوعة عليه.

وقال ابن عبدالبر في ترجمة حمزة من الاستيعاب: لما رأى النبي ﷺ حمزة قتيلاً بكى فلما رأى ما مثل به شهق(١).

وذكر المؤرخون كما في أواخر ص٣٨٧ من المجلد ٣ من شرح النهج للعلامة المعتزلي أن النبي ﷺ كان يومئذ إذا بكت صفية بكى وإذا نشجت ينشج، قالوا: وجعلت فاطمة تبكي فلما بكت بكى رسول اللّه ﷺ.

وهذا الحديث حجة من جهة جواز البكاء من جهة أنه ﷺ بكى، ومن جهة أنه أقر صفية والزهراء على بكائهما، على أن مجرد بكاء سيدة النساء حجة قاطعة.

ثالثها: يوم استشهد ابن عمه جعفر وزيد بن حارثة وعبداللّه بن رواحة في مؤته، ذكر ابن عبدالبر في أحوال جعفر من استيعابه أن النبي ﷺ بكى على جعفر وزيد وقال يندبهما: إخواني ومؤنساي.

وأخرج البخاري في أبواب الجنائز ص١٤٨ من الجزء الأول من صحيحه أن النبي ﷺ نعى جعفراً وزيداً وابن رواحة، وأن عينيه لتذرفان.

رابعها: يوم وفاة ولده إبراهيم إذ بكى عليه، وقال له عبدالرحمن بن

---

(١) الاستيعاب ١: ٢٧٥ في ترجمة حمزة بن عبدالمطلب عليه السلام.

عـوف: وأنت يا رسول اللّٰه؟ فقال: يا بن عوف إنها رحمة. أخرجه البخاري في بـاب قولــه ﷺ: ((إنـا بفـراقك يـا إبراهـيم لمحـزونون)) مـن أبواب الجنائز ص١٥٥ من الجزء الأول من صحيحة.

ولا يخفى ما في تسميتها رحمة من الدلائل على حسن البكاء.

ثـم أتبعها ﷺ بعبارة أخرى فقال: ((إن العين تدمع والقلب يحزن ولا يقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون))(١).

وأراد بقولــه: ((إن العـين تدمـع)) إلى آخـره، أن لا إثـم بدمع العين وحزن القلب، وإنما الإثم بقول ما يسخط الرب كالاعتراض عليه عز وجل.

خامسـها: يـوم زار ﷺ قـبر أمـه آمنة فبكى وأبكى من حوله. أخرجه مسلم في آخر صفحة ٣٥٩ من الجزء الأول من صحيحة.

وهذا الحديث يشتمل على فعله وتقريره فهو حجة من جهتين.

سادسـها: يوم مات صبي لإحدى بناته إذ فاضت عيناه يومئذٍ فقال سعد: ما هـذا يـا رسـول اللّٰـه؟ قال: هذه رحمة جعلها اللّٰه في قلوب عباده، وإنما يرحم اللّٰه مـن عـباده الـرحماء. أخرجه البخاري في باب يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه من أبواب الجنائز ص١٥٢ من الجزء الأول من صحيحه.

سـابعها: يـوم ماتـت إحـدى بناته إذ جلس على قبرها وعيناه تدمعان. أخرجه مسلم في صحيحه ج١، ص٣٥٩.

ثامـنها: يـوم اشـتكى سعد بن عبادة شكوى لـه فأتاه النبي ﷺ يعوده

---

(١) التحف السنية: ٤٤، وحلية الأبرار ٢: ٤٠٩.

مع عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود فوجده في غاشية أهله فقال ﷺ: قد قضى، قالوا: لا يا رسول الله فبكى النبي ﷺ فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا فقال ﷺ: ألا تسمعون إن الله لا يعذب الميت بدمع العين ولا بحزن القلب، الحديث أخرجه الشيخان فراجع باب البكاء عند المريض في الجزء الأول من صحيح البخاري ص١٥٥، وباب البكاء على الميت ص٣٤١ من الجزء الأول من صحيح مسلم.

وهذا الحديث حجة من ثلاث جهات فعل النبي ﷺ وقوله وتقريره.

وأما قوله وتقريره الدالان على جواز البكاء فمستفيضات وموارده كثيرة.

أحدها: يوم استشهد جعفر الطيار إذ جاءت النبي ﷺ امرأته أسماء بنت عميس فعزاها ودخلت عليه فاطمة وهي تبكي وتقول: واعماه، فقال رسول الله ﷺ: على مثل جعفر فلتبك البواكي. هذا الحديث صحيح وطرقه صحيحة، وقد ذكره ابن عبدالبر في ترجمة جعفر في الاستيعاب(١) وهو مشتمل على تقرير النبي ﷺ على البكاء وأمره به، على أن مجرد بكاء الزهراء عليها السلام حجة بالغة.

ثانيها: يوم رجع رسول الله ﷺ من أحد وجعلت نساء الأنصار يبكين على من قتل من رجالهن، فقال بعد أن أقرهن على البكاء: ولكن حمزة لا بواكي له، ثم نام وانتبه وهن يبكين حمزة فهن إلى اليوم إذا بكين يندبن

---

(١) الاستيعاب على هامش الإصابة ١: ٢١١ في حرف الجيم باب جعفر.

حمـزة. أخـرجه الإمـام أحمد في ص٤٠ من الجزء الأول من مسنده عن ابن عمر وذكـره ابـن جرير وابن الأثير وصاحب العقد الفريد والحلبي وكل من أخرج غزوة أحد من أهل السير والأخبار. ولا تنس كلمة النبي ﷺ في طلب البكاء عـلى حمـزة ومـا فـيها مـن الدلالة على استحباب البكاء، وبقوله: ((على مثل جعفر فلتبكي البواكي)) دليلاً على ذلك.

أمـا ما جاء في صحيح البخاري ومسلم أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فإنه خطأ من الراوي بحكم العقل والنقل.

ثالـثها: يوم ماتت رقية بنت رسول اللّه ﷺ حيث بكت عليها النساء فجعـل عمر يضربهن بسوطه فقال ﷺ: دعهن يبكين، ثم يقول: مهما يكن مـن القلب والعين فمن اللّه والرحمة، وقعد على شفير القبر وفاطمة إلى جنبه تـبكي فجعـل يمسح دمعها بثوبه رحمة بها. أخرجه الإمام أحمد عن حديث ابن عباس في ص٣٣٥ من الجزء الأول في مسنده.

رابعهـا: يـوم مـرت جنازة على رسول اللّه ﷺ ومعها بواكي فنهرهن عمر فقال رسول اللّه ﷺ: دعهن يا عمر فإن النفس مصابة والعين دامعة.

إلى غير ذلك مما لا يسع استيعابه.

وقـد بكـى يعقـوب بـن إسحاق بن إبراهيم إذ غيب اللّه ولده يوسف فقـال: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ حـتى قيل: ما جفت عيناه من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه كما في تفسير هذه الآية من الكشاف.

وكـان فـراقهما ثمـانين عامـاً ومـا على وجه الأرض أكرم على اللّه منه.

وعن الحسن قيل: ((ما بلغ وجد يعقوب على ابنه؟ قال: وجد سبعين ثكلى، قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد))(١).

البكاء على الحسين عليه السلام:

أي عاقل يرغب عن مذهب الإماميين في البكاء بعد ثبوته عن الأنبياء ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(٢)، وقد استمرت سيرة الأئمة على الندب والعويل وأمروا أولياءهم بإقامة مآتم الحزن على الحسين عليه السلام جيلاً بعد جيل.

قال الصادق عليه السلام فيما رواه ابن قولويه في الكامل وابن شهرآشوب في المناقب وغير واحد من الثقاة الأثبات: ((إن علي بن الحسين عليه السلام بكى على أبيه عشرين سنة وما وضع بين يديه طعام إلا بكى ولا أوتي بشراب إلا بكى حتى قال له بعض مواليه: جعلت فداك يا بن رسول الله إني أخاف أن تكون من الهالكين، قال له: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون))(٣).

وفي رواية أخرى قال: ويحك إن يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر فغيب الله واحداً منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه واحدودب ظهره

---

(١) جامع البيان ١٣: ٦١، والدر المنثور ٤: ٣١، وتاريخ الطبري ١: ٢٥٩، والمصنف ٨: ١٢٢ ح٨ مثله.

(٢) البقرة: ١٣٠.

(٣) مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٠٣ فصل في كرمه وصبره وبكائه عليه السلام، وعنه بحار الأنوار ١٢: ٢٦٤، ح٢٧.

من الغم وكان ابنه حياً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني))(١).

وكان إذا أخذ إناءً يشرب ماء بكى حتى يملأها دمعاً فقيل له في ذلك فقال: كيف لا أبكي وقد منع أبي الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش(٢).

وعن الصادق عليه السلام: ((البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليه السلام فأما آدم بكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية وأما يعقوب بكى على يوسف، حتى ذهب بصره وحتى قيل له: تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين...

وأما فاطمة بكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك فكانت تخرج إلى المقابر ـ مقابر الشهداء ـ فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف.

وأما علي بن الحسين بكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة... وكان يقول: ((إني ما أذكر مصرع ابن فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة))(٣)، ((وما من باكٍ يبكيه إلا وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وأدى

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٠٣ فصل في كرمه وصبره وبكائه عليه السلام، وعنه بحار الأنوار ٤٦: ٦٣ ب (٥) مكارم أخلاقه وعلمه عليه السلام، ح١٩.

(٢) مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٠٣ فصل في كرمه وصبره وبكائه عليه السلام.

(٣) الخصال: ٢٧٣ باب الخمسة، ح١٥، ووسائل الشيعة ٣: ٢٨١، ح٣٦٥٥، ومكارم الأخلاق: ٣١٥، وبحار الأنوار ١١: ٢٠٤، ح٢، وص٣٦٤، ح٢٧.

حقنا))[١].

وقال الرضا عليه السلام: ((إن المحرم شهر كان أهل الجاهلية يحرمون فيه القتال، فاستحلت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبيت فيه ذرارينا ونساؤنا، وأضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثقلنا، ولم ترع لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمة في أمرنا. إن يوم الحسين عليه السلام أقرح جفوننا وأسبل دموعنا وأذل عزيزنا يا أرض كرب وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء فعلى مثل الحسين فليبك الباكون فإن البكاء عليه يحط الذنوب العظام.

ثم قال عليه السلام: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يُرى فيه ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه، حتى يمضى منه عشرة أيام فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه[٢].

وقال عليه السلام: من تذكر مصابنا وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبك العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[٣].

وعن الريان بن شبيب قال: دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم.... فقال لي: يا بن شبيب إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢٠٧ ب (٤٠) ما ظهر بعد شهادته عليه السلام، ح١٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٧٨ المجلس السابع والعشرون، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ب (٣٤) ثواب البكاء على مصيبته، ح١٧.

(٣) أمالي الصدوق: ٤٥ المجلس السابع عشر، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٧٨، ح١.

فيما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال لحرمته فما عرفت هذه الأمة حرمة شهرها ولا حرمة نبيها ﷺ لقد قتلوا في هذه الشهر ذريته وسبوا نساءه وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً.

يا بن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابكِ للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه ذبح كما يذبح الكبش وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السموات السبع لقتله.

إلى أن قال: يا بن شبيب إن سرك أن تكون معنا في الدرجات من الجنان فاحزن لحزننا وافرح لفرحنا وعليك بولايتنا(١).

وقال عليه السلام: من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى اللّٰه له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل اللّٰه عزّ وجلّ يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرت بنا في الجنان عينه(٢).

وعن الباقر عليه السلام قال: ((كان أبي يقول: أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي عليه السلام دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في غرفاً يسكنها أحقاباً... وأيما مؤمن مسه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خديه من مضاضة ما أوذي فينا صرف عن وجهه الأذى وأمنه يوم القيامة

---

(١) أمالي الصدوق: ٧٩ المجلس السابع والعشرون، وعنه بحار الأنوار ٩٨: ١٠٢ ب (١٤) فضل زيارته صلوات الله عليه في يوم عاشوراء، ح٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٧٩ المجلس السابع والعشرون، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٤، ح١٨، وج٩٨: ١٠٢، ح١.

من سخطه والنار))(١).

وقال الصادق عليه السلام لفضيل: ((تجلسون وتتحدثون؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا يا فضيل رحم اللّه من أحيا أمرنا، يا فضيل من ذكرنا أو ذكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر اللّه له ذنوبه))(٢).

وعن أبي عمارة المنشد قال: ما ذكر الحسين بن علي عليه السلام عند أبي عبداللّه عليه السلام في يوم قط فرئي أبو عبدالله عليه السلام متبسماً في ذلك اليوم إلى الليل. وكان أبو عبداللّه عليه السلام يقول: الحسين عبرة كل مؤمن(٣).

وعن الصادق عليه السلام قال: قال الحسين: ((أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر))(٤).

جعلت فداك

يا بن النبي المصطفى ووصيه وأخا الزكي وابن البتول الزاكية
تبكيك عيني لا لأجل مثوبة لكنما عيني لأجلك باكية

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨١ ب (٣٤) ثواب البكاء على مصيبته، ح١٣ نقلاً عن تفسير القمي.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢ ب (٣٤) ثواب البكاء على مصيبته، ح١٤ نقلاً عن قرب الاسناد.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٠ ب (٣٤) ثواب البكاء على مصيبته، ح١١ نقلاً عن كامل الزيارات: ٢١٤.

(٤) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٤ ب (٣٤) ثواب البكاء على مصيبته، ح١٩ نقلاً عن أمالي الصدوق: ٨٣ المجلس الثامن والعشرون، وكامل الزيارات: ٢١٥ ب (٣٦) في ان الحسين عليه السلام قتيل العبرة، ح٣.

واقتداءً بأهل البيت كان شيعتهم يقيمون المآتم ويحزنون لحزنهم، كيف لا نحزن من أجل سيد الشهداء الذي صدع بالحق في وجنة الباطل الذي رفض أن يدخل في طاعة اللئام وأعلن ثورته المباركة في مجلس الوليد بقوله:

فمثلي لا يبايع لمثله... إلخ [١].

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ١٨٤ الفصل التاسع في بيان ما جرى بين الحسين والوليد بن عتبة ومروان.

أخلاق عطرة

قوله تعالى:

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ (1).

المراد بالآخرين ما يأتي بعده من الأمم.

والمعنى اجعل ذكري حسناً بين الناس من بعدي. وقد استجاب الله دعاء إبراهيم حيث اتفقت على تقديسه وتعظيمه أهل الأديان السماوية كلها(2)، يقدسون ويعظمون إبراهيم، جعل الله له ثناءً حسناً في آخر الأمم وذكراً جميلاً وقبولاً عاماً في الذين يأتون من بعده إلى يوم القيامة فكل أهل الأديان يثنون عليه ويقرون بنبوته.

وقيل: إن معناه واجعل لي ولد صدق يدعو إلى الله ويقوم بالحق وهو محمد ﷺ(3).

فأفضل شيء يقتنيه الإنسان في هذه الحياة الدنيا هو الذكر الجميل بعد موته، أنتم أخبار فطيبوا أخباركم وكن حديثاً حسناً لمن روى.

هذي الحياة كأحلام المنام فلا حي يدوم وفي الآثار تذكار

---

(1) الشعراء: 84.

(2) التفسير الكاشف 5: 502، في تفسير سورة الشعراء، آية: 84.

(3) مجمع البيان 7: 337 في تفسير سورة الشعراء، آية: 84.

والسعيد من خلد ذكره بأعماله الصالحة، وكل منا في هذه الحياة يسجل على صفحات الدهر كتاباً يقرأ بعد موته. فهناك قسم من البشر ينطبق عليه قول الشاعر:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما عرفوا سماح يدٍ فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وقسم ينطبق عليه قول الشاعر:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

من الناس إذا مات حيي ذكره وكان موته ولادة ثانية له:

تبقى صنائعهم في الأرض بعدهم كالغيث إن سار تبقى بعده الزهر

قسم من البشر الصالحين مملوء بالتعاطف بالرحمة على الضعيف فيبادل المودات ويحب لأخيه ما يحب لنفسه[1].

ويقال بعض البشر رحمة وبعضهم عذاب، رحمة بأفضاله، بإحسانه، وقسم كله عذاب بأعماله السيئة، بإساءته إلى مجتمعه، فيقال: فلان رحمة، وفلان عذاب.

والصورة تشابه كل واحد يتجلى بصورة إنسان له يدان ورجلان وعينان ولكن البعض تتشرف الملائكة بخدمته والبعض ـ أجلكم اللّٰه ـ البهيمة خير منه، والبعض الذئب أشرف نفساً منه، هذا يقال له إنسان وهذا يقال له إنسان.

---

(١) المناهج الإسلامية: ٣٢.

عجبت للناس يدعى كلهم بشر ... وذا ملاك وذا يبدو كشيطان

هذا يجود على العانى فيطعمه ... وذاك يسلب خبز الجائع العانى

يقول بعض الأدباء: أنا أتصور البشر كالزرع، أيام الربيع ينزل المطر وتنبت الأرض العشب ولا يعلم أحد به كيف نشأ ويبس وأصبح هشيماً تذروه الرياح فلا أثر له، فمثل هذا الإنسان ولد ونشأ وعاش ومات ولا أثر له. هذا قسم، وقسم آخر مثله مثل الدوحة العظيمة بالبر لا ثمر فيها سوى أنه يستظل بها من يمر بها في الطريق كذلك تقول: فلان بالبلد شخصية كبيرة، شخصية ثرية لكنه كالدوحة العظيمة لا نفع فيه لأمته ومجتمعه.

وهناك القسم الطيب العالي وهي الشجرة المثمرة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها حتى إذا اعتدى عليها أحد ورماها بحجر ترمي عليه ثمر. هذا القسم الطيب العالي.

يا رامى الشجر العالى بأكرته ... هلا تعلمت أخلاقاً من الشجر

من هذا القسم كان أهل البيت عليهم السلام فكان إحسانهم لجيرانهم وأصدقائهم ولأعدائهم.

من أخلاق الصادق عليه السلام:

يروى عن كتاب المختصر في فضائل آل النبي صلى الله عليه وآله يقول: كان رجل بجوار الإمام الصادق عليه السلام وهو فقير وعنده عشر نسمات وكان الإمام الصادق عليه السلام يعطيه دائماً فعزم على أن يبيع داره خجلاً وحياءً من الإمام لكثرة ما كان يناوله، حضر الراغب في الدار، فقال: بكم تريد أن تبيع الدار؟ قال: أربعة آلاف دينار. نظر المشتري إليها فأعجبته، قال له: تفضل هذه أربعة

آلاف دينار، قال البائع: يا أخي هذه أربعة آلاف دينار قيمة الدار وأريد منك قيمة الجوار؛ لأن الدار بجارها، والإنسان يشتري الجار قبل الدار، أتعلم من سيكون جارك إذا أخذت الدار؟ قال: لا، قال: الإمام جعفر بن محمد الصادق. أتعلم ما خلقه؟ قال: لا، قال: إن سألته أعطاك وإن لم تسأله ابتدأك، قال: واللّه لقد حببت إليّ الدار بأربعة آلاف دينار، كم تريد ثمن الجوار؟ قال: ستة آلاف دينار، قال: المشتري: ظننت أن تقول: مائتي دينار.. ستة آلاف دينار، لا أشتري.

بلغ الإمام الصادق عليه السلام هذه القصة، فقال: هذا رجل يعرف قيمة جواري إلى هذا الحد، لا أحب أن يفارقني، أرسلوا إليه، فأرسلوا إليه، وجاء صاحب الدار قال الإمام الصادق عليه السلام: أردت أن تبيع دارك، أصحيح أنك أردت الدار بأربعة آلاف وجواري بستة آلاف؟ بكى الرجل وقال: سيدي واللّه أنا المغبون، قال الإمام: اجلس قليلاً فقام ودخل الدار وأخرج له عشرة آلاف دينار وقال: هذه عشرة آلاف دينار، أربعة قيمة الدار والدار لك، وإني لا أحب أن يفارقني من يعرف جواري، وستة آلاف ثمن الجوار، وأرجو أن يكون لك دار بجواري في الجنة يوم القيامة.

لهذا نحن نتمسك بأهل البيت عليهم السلام لأنهم على هذا الخلق العالي العظيم، بل أعظم من هذا، كانوا يتجاوزون عن المسيء بالإحسان.

في زيارة أئمة البقيع الجامعة: ((أشهد أنكم قد بلغتم ونصحتم وصبرتم في ذات اللّه، وكُذّبتم وأسيء إليكم فغفرتم))(١).

---

(١) كامل الزيارات: ١١٩ ب (١٥) في زيارة الحسن بن علي عليه السلام وقبور الأئمة عليهم السلام بالبقيع.

أخلاق أهل البيت أخلاق جدهم المصطفى، أخلاق الأنبياء.

سماحة الرسول ﷺ مع قومه:

ولما فتح الرسول ﷺ مكة التجأت قريش إلى البيت وهم يظنون السيف لا يرفع عنهم، فجاء ﷺ ووقف على باب الحرم وقال: ألستم جيران النبي، أنتم آذيتموني سفهتموني طردتموني فما تظنون أني صانع بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: إن أقول لكم إلا ما قاله أخي يوسف: ﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

صفح يوسف عليه السلام (٢):

نعم إن يوسف أراد إخوته قتله وألقوه في الجب وباعوه بيع العبيد فلما ملك وكان الأمر بيده قال لهم: ﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٣). هذه أخلاقه وأخلاق أهل بيته وأخلاق الأنبياء قبلهم.

ورد في قصة يوسف عليه السلام لما ودّع يوسف أخوته وقد باعوه على مالك بن الزعر رئيس القافلة وكتبوا كتاب البيع ووقعوا كلهم، وكان الثمن

---

(١) يوسف: ٩٢.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٥٣٤ في فتح مكة باختلاف يسير، والسيرة النبوية ٢: ٤١٢، والتفسير الكاشف ٤: ٢٥٣ في تفسيرة سورة يوسف، آية: ٩٢.

(٣) يوسف: ٩٢.

عشرين درهماً، واشترطوا عليه أن يقيده خافوا أن يفلت منهم ويرجع إلى أبيه فقال لهم: التاجر لكم عليّ ذلك، واقتسموا الدراهم بينهم فقيده مالك بن الزعر ووكل به عبداً أسود واحتمله الأسود على بعير بغير غطاء ولا وطاء وألحقه بالقافلة فمر على قبر أمه راحيل وكانت بمقابر آل كنعان فلم يملك نفسه فوقع على القبر وجعل يبكي ويضطرب ويقول: يا أماه ارفعي رأسك من التراب لتري ولدك مغلول اليدين والرجلين، يا أماه أخوتي في الجب طرحوني وعن والدي أبعدوني ولم يرقوا لسني فيرحموني، وأنا أسأل اللّه أن يجمع بيني وبينكم.

وسار الأسود ولم يعلم بأن يوسف رمى نفسه فرجع فوجد يوسف على قبر أمه يبكي فقال: لقد صدق مواليك فيك أنك عبد ميشوم تدعو أباك وأمك مرة وأخرى، هلا كان ذلك وأنت بينهم ثم لطمه لطمة عظيمة على وجهه فخر يوسف على وجهه في التراب مغشياً عليه، فلما أفاق قال: لا تؤاخذني فإني لما مررت على قبر أمي لم أتمالك أن رميت بنفسي ولكن لا أعود في أمر تكرهونه أبداً، ثم رفع طرفه إلى السماء وقد تمرغ وجهه في التراب والدموع فقال: اللهم إن كانت لي خطيئة أخلقت وجهي عندك فإني أسألك بحق آبائي الكرام إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تعفو عني وترحمني يا أرحم الراحمين.

فضجت الملائكة إلى اللّه ضجيجاً بلغ العرش فقال تعالى: هو نبيي وابن أنبيائي، وقد استغاث بي وأنا مغيثه، يا جبرئيل أدركه. فنزل جبرئيل وقال: يا صديق مهلاً فقد أبكيت السبع الطباق والملائكة، أتريد أن أقلب السماء على الأرض، فقال: يا جبرئيل أرفق بخلق اللّه فإنه حليم لا يعجل

فأخذ جبرئيل يضرب الأرض بأجنحته فهبت ريح حمراء وكسفت الشمس وأظلمت الدنيا وصار النهار كالليل من الظلمة واشتدت الظلمة فلم تر القافلة بعضها بعضاً[١].

فقال مالك بن الزعر: انزلوا قبل أن تهلكوا يا قوم إن لي مدة كذا وكذا من السنين أمر بهذا الطريق فما وجدت كاليوم خسف وظلمة، فمن أصاب منكم ذنباً فليتب إلى الله فما أصابنا ما أصابنا إلا بذنب قد اقترفناه وها أنتم تنظرون ما حل بنا فقام العبد الأسود، قال: يا سيدي الذنب ذنبي أنا ضربت عبدك يوسف العبراني حيث فقدته من البعير ورأيته قد رفع طرفه إلى السماء وحرك شفتيه بشيء من الكلام، فقال له مالك: ويلك أهلكتنا وأهلكت نفسك، ثم تقدم مالك إلى يوسف وقال: يا غلام ظلمناك إذ ضربناك فإن شئت أن تقتص منا فها نحن بين يديك، فقال يوسف عليه السلام: لست من القوم الذين إذا ظُلِموا يقتصون، وإنما أنا من قوم إذا ظلموا عفوا وغفروا لقد عفوت عنكم رجاء أن يعفو الله عني[٢].

فانجلت الظلمة وسكنت الريح وأشرقت الشمس وعاد الوقت على ما كان.

أراد الله أن يريهم قرب يوسف عليه السلام منه فأرسل جبرئيل ليوسف ليخبره في هلاكهم أو الرفق بهم فأبى خلقه الكريم إلا الرفق.

وخيره التاجر في القصاص من العبد أو العفو فاختار العفو.

---

(١) فلا عجب أن كسفت الشمس يوم ركب شمر على صدر الحسين عليه السلام.

(٢) بحار الأنوار ١٢: ٢٢٣ ب (٩) قصص يعقوب ويوسف عليهما السلام باختلاف.

ولما مكنه اللّٰه وملك مصر ودان له الناس حتى إخوته أوفى لهم الكيل وهم لا يعرفونه، وفي آخرها لما واجهوه قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أصابنا مخمصة وجوع وبضاعتنا قليلة ندافع بها الأيام ونتقوت بها ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾(١) فلما أعلنوا بهذا القول أدركته الرقة ودمعت عيناه وقال: موبخاً لما سبق من فعلهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ وإخراجه من أبيه وإنزاله في الجب وربطه بالحبل وقطعه بعد إذ هممتم بقتله وبيعه على التاجر وكذلك فعلتم بأبيه بإدخال الغم بإفراده من يوسف ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾(٢).

ثم رفع البرقع عن وجهه فرأوا وجهاً كأنه البدر إذا تجلى من الغمام فقالوا: ﴿أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فانكبوا عليه يقبلون قدميه ويقولون: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وجعلوا يبكون ويصرخون حتى ارتفع نشيجهم ونشيجه، ثم أخذ يسألهم عن أبيهم قالوا: ذهبت عيناه من كثرة البكاء هذا وابنه حي، والحسين عليه السلام وقف على شبيه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله مقطع بالسيوف.

---

(١) يوسف: ٨٨.

(٢) يوسف: ٨٩ ـ ٩٠.

هـذه أخـلاق الأنبـياء وأخـلاق أهـل البيـت عليهم السلام، أهل البيت رحمة لا يزدادون على المسيء إلا إحساناً.

جاء الحر بن يزيد الرياحي للتضييق على الحسين عليه السلام في القفار، فجاء هو أصحابه، وكادوا يموتون من العطش.. إلخ[1].

---

(١) مقـتل الحسـين لـلخوارزمي ١: ٢٣٠ ـ ٢٣١ الفصـل الحـادي عشـر في لقـاء الحـر واصحابه للحسين عليه السلام.

الشهيد

قوله تعالى:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

المخاطب في ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾ كل عاقل. والمقصود بـ﴿الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ كل قتيل من أجل اللّه سواء استشهد بين يدي رسول اللّه ﷺ أم من قبل ومن بعد.

وظاهر الآية أن الشهداء أحياء في الحال؛ لأن اللّه سوف يحييهم مع غيرهم يوم البعث والنشر، وأنهم أحياء حقيقة لا مجازاً كالذكر الطيب وما إليه. هذا ظاهر الآية ويجب الاعتماد عليه إذ لا موجب للعدول عنه من نقل أو عقل ما دامت الحياة بيده تعالى يهبها لمن يشاء متى يشاء.

والآية رد صريح على المنافقين الذين قالوا: إن أصحاب محمد ﷺ يقتلون أنفسهم ولا يصلون إلى خير.

ولسنا نعرف ديناً أو أمة رفعت من شأن الشهداء في سبيل الحق والعدل كما رفعه الإسلام.

قال رسول اللّه ﷺ: ((الروحة والغدوة في سبيل اللّه أفضل من الدنيا

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

وما فيها))[١] .

وقال ﷺ: ((الجنة تحت ظلال السيوف))[٢] التي تقضي على الظلم والجور والشر والباطل.

المستشهدون في سبيل الحق فهم والحق سواء في نظر الإسلام؛ لأن من يستهين بحياته من أجل الحق يكون تقديسه تقديساً للحق الذات.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: للشهيد خصائص منها البسالة والثبات والزهد بكل المغريات، والأنفة من الخضوع والهوان والصمت عن الشكوى من أي بلية، والشعور بالمسؤولية عن الآخرين[٣].

أما المفاضلة عند اللّه بين شهيد وشهيد فيجري على أساس النية وصدقها والعزم وقوته والثقة باللّه وصلابتها، قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[٤]، وفي نهج البلاغة: ((العطية على قدر النية))[٥] وفي أصول الكافي عن الصادق عليه السلام: ((إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانوا في الدنيا لو خلدوا فيها أن يعصوا اللّه أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في

---

(١) صحيح البخاري ٣: ٢٠٣، وفتح الباري ٦: ١١، والجامع الصغير ٢: ٢٧، ح٤٥٤٨، وكنز العمال ٤: ٢٩٩، ح١٠٥٨٥.

(٢) بحار الأنوار ٣٣: ٤٥٧ باب سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه، ومستدرك الوسائل ١١: ١١، والمحلى ٧: ٢٩٣، ونيل الأوطار ٥: ٩٩، وفقه السنة ٢: ٦٤٨.

(٣) الحسين والقرآن: ٨١.

(٤) الأحزاب: ٢٤.

(٥) نهج البلاغة: ٤٦٥ في وصيته لولده الحسن عليه السلام الكتاب رقم [٣١].

الجنة أن نياتهم كانت في الدنيا لو بقوا فيها أن يطيعوا اللّه أبداً))[1].

والمراد بمعصية اللّه هنا الكفر، وبطاعة اللّه الإيمان بقرينة الخلود وإلا فإن نية العصيان وحدها مجردة عن القول والعمل لا حساب عليها ولا عقاب، والكفر بمجرده يوجب الخلود.

وإن نفسية الشهداء واحدة في كل زمان ومكان وليس أكثر من الشواهد على هذه الحقيقة.

ونشير هنا إلى شاهد واحد وهو ما كان من أمر فرعون والسحرة الذين جمعهم لموسى ولما تبين لهم الحق: ﴿قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[2] فهددهم فرعون بالصلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف فيردوا بقول حاسم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[3] أبداً لن ندخل الباطل إلى نفوسنا يا فرعون، لن تطفئ بظلمك وبسلطانك جذوة الإيمان من قلوبنا ومرحباً بالموت على أيدي الطغاة وهو ما حدث بالذات لأصحاب الحسين عليه السلام بعد عشرين قرناً على التقريب حيث قالوا ليزيد الطاغية ما قاله السحرة لفرعون: لن نؤثرك على ما جاءنا من الدلائل والآيات على أننا

---

(١) الكافي ٢: ٩٠ ب (٤٣) النية، ح٥، وعنه بحار الأنوار ٦٧: ٢٠١ ب (٥٣) النية وشرائطها ومراتبها.

(٢) الأعراف: ١٢١ ــ ١٢٢.

(٣) طه: ٧٢.

مع الحق وأهله وأنت المفسد المبطل[١].

حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يذهبوا عنه ويدعوه وحيداً حرصاً على حياتهم[٢]، قالوا: لا، الموت معه وفاءً لعهد اللّه ورسوله فربحوا وخسر أعداؤهم[٣].

في الإنجيل حكمة: ماذا ينفع الإنسان لو أنه ربح العالم كله وخسر نفسه.

وتلتقي هذه الكلمة مع الآية ١٥ من سورة الزمر: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[٤].

ومعنى هذا أن النفس وحدها هي مقياس الربح والخسران، وأن من استقام بها على الحق والهدى هو الرابح، ومن قادها إلى الباطل والضلال فهو من الخاسرين. وما من شك أن السير على جادة الحق صعب مستصعب وقد تؤدي إلى التضحية بالنفس، فمن بذلها ظفر بالكرامة الدائمة، ومن أمسكها

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢٤٧ حيث قال أصحاب الحسين عليه السلام: والله يابن رسول الله لا نفارقك ابداً، ولكنا نفديك بأنفسنا ونقتل بين يديك ونرد موردك فقبح الله العيش من بعدك.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢٤٧ الفصل الحادي عشر في خروج الحسين من مكة إلى العراق حيث قال الحسين عليه السلام: هذا الليل قد غشيكم فقوموا واتخذوا جملاً... الخ.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٢٤٧ حيث قالوا الأصحاب: أنفسنا لك الفداء ونقيك بأيدينا ووجوهنا وصدورنا فاذا نحن قتلنا بين يديك نكون قد وفينا.

(٤) الزمر: ١٥.

خاب في مسعاه ومرماه.

قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء﴾(١)

وقال سيد الكونين ﷺ: ((للشهداء كرامات عند الله ليست لأحد الأنبياء، منها جميع الأنبياء يغسلون وأنا أغسل بعد الموت والشهداء لا يغسلون، لا حاجة لهم من ماء الدنيا، ومنها جميع الأنبياء يكفنون وأنا أكفن والشهداء يدفنون بثيابهم)) الشهيد غسله دمه وكفنه ثيابه، وإذا لم توجد عليه ثياب يكفن.

ما أدري ما صنع زين العابدين عليه السلام بوالده، كفنه بالبارية.

والشهداء كرامة في الدنيا. روى الطبري وابن الأثير عن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري الذي سمي بحمي الدبر(٢)، وقصته أن النبي ﷺ سأل أصحابه فقال: أصحابي إذا لقيتم الكفار كيف تقاتلوهم؟ فقال عاصم: يا رسول الله إذا القوم من مائتي ذراع رميناهم بالنبل، فإن قاربونا كانت الملاعبة بالرماح، فإذا ضايقونا كانت الملاعبة بالسيوف.

فقال النبي ﷺ: هكذا الحرب من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم.

هذا الرجل عاهد ربه أن لا تمس يده بدن مشرك بالله أو يصافحه عاهد الله لشدة إيمانه(٣).

جاء جماعة من الذين يزعمون الإسلام قالوا: يا رسول الله إن فينا

---

(١) البقرة: ١٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣) الاصابة ٣: ٤٦١ في ترجمة عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح باختلاف، وسبل الهدى والرشاد ١٠: ٢٥٠، والمناهج: ١٣٧.

إسلاماً فابعث معنا من يفقهنا في ديننا فبعث النبي ﷺ ستة رجال معهم وهم عاصم بن ثابت بن الأفلح الأنصاري، وزيد بن الدثنة، وخالد بن البكير، خبيب بن عدي، وعبدالله بن طارق، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وأمر عليهم عاصم بن ثابت.

وجاء الصحابة الستة يمشون ولما صاروا بين الجبال خرج عليهم مائة فارس من المشركين، فقال عاصم: إن قتلت فإلى الله وإن فررت فعنه والمؤمن لا يفر من الله، فجلس فنشر كنانته وفيها تسعة سهام وأخذ يرميهم فأصابت سهامه تسعة من المشركين فقتلهم، وتكاثرت عليه السيوف فرفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحمي بدني آخر النهار، ربي إني عاهدتك أن لا تمس يدي يد مشرك.

كان رضوان الله عليه يعلم أن المشركين إن قتلوه مثلوا به ومسته أيديهم فطلب من المولى جل شأنه أن يكف أيديهم عن جسمه الطاهر بعد الشهادة.

استشهد ﷺ وثلاثة معه وأسر اثنان منهم وكان عاصم قد قتل يوم بدر أخوين من المشركين اسمهما (مسافح وجلاد)[١] وكانت أمهما اسمها (سلافة بنت سعد) وكانت ثرية فنذرت أن تشرب الخمر في قحفة رأس عاصم وأعلنت: من جاءها برأسه فله مئة من الإبل.

ازدحم الجيش على جثمان عاصم ليحتزوا رأسه ولكنهم لم يتمكنوا من

---

(١) في المصدر: مسافع بن طلحة وكلاب بن طلحة. الكامل في التاريخ ٢: ١٠٨.

ذلك.. كيف لم يتمكنوا؟ قتيل على الأرض لا ناصر له ولا معين، ولا أحد يدافع عنه لم يتمكن أحد أن يحز رأسه.

نعم لم يتمكن ذلك الجيش كله من ذلك؛ لأنه له معاهدة مع اللّٰه، له إخلاص نية مع اللّٰه فمجرد أن اقتربوا منه جاءت ألوف الدبر (النحل) فضربت قبة هندسية على جسد القتيل كلما دنوا من جسد القتيل ثارت فلسعتهم يحملون عليها بالسيوف وتحمل عليهم فتردهم وترجع تضرب قبة على جسد القتيل، وهكذا النهار كله لذلك سمي (حمي الدبر).

قالوا: إذا جن الليل تذهب عنه الدبر ونأتي نقطع رأسه، فلما جن الليل جاء سيل من أعلى الوادي حمل جثة القتيل عاصم فرماها عند النبي ﷺ بالمدينة[1].

هذا عاصم بن ثابت فأربعة قتلوا واثنان أسرى وهما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي جاؤوا بهما إلى مكة، قالوا: لا نقدر أن نقتلهما لأنه دخلت الأشهر الحرم[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[3].

فأبقيا أسارى مكتفين، ولقد ظهر من كرامتهما ما ذكره المجلسي يقول:

---

(١) انظر السيرة النبوية ٢: ١٧١، ومثله تاريخ الطبري ٢: ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) الأشهر الحرم هي: ذي القعدة وسميت بذلك لقعود العرب عن القتال، وذي الحجة لأداء مناسك الحج، وشهر محرم لأنهم حرموا فيه القتال، ورجب وهذه هي الأشهر الأربعة.

(٣) التوبة: ٣٩.

كرامة ظهرت لهذين الأسيرين، فبعد أن انتهت الأشهر الحرم أخرجوا زيد بن الدثنة فقتلوه وأخرجوا خبيب بن عدي وصاحوا بمكة: من كان له قتيل قتل يوم بدر فليحضر يتشفى بهذا الرجل من أصحاب محمد. حضروا كلهم كل واحد يريد أن يقتله يتشفى به، قالوا: كل واحد يأخذ بيده سيف أو رمح أو سكين وتضربونه بأجمعكم.

قال خبيب: دعوني أصلي ركعتين، قالوا: صلِّ، توجه إلى القبلة وصلى ركعتين فلما أرادوا أن يرفعوه على الخشبة نظم بيتين من الشعر قال:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزَّع

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في اللّه مصرعي

إن أقتل على الإسلام لا يهمني أي لون من القتل أقتله.

التفت إليه سفيان قال: خبيب أتود أن تنجو ويكون بمكانك محمد؟ قال: اسكت يا أحمق، أنا أنجو ويكون بمكاني محمد ﷺ، واللّه لو أن ربي خيرني أن أقتل مائة قتلة أو شوكة تصيب رجل محمد ﷺ لفضلت أن أقتل مائة قتلة ولا تصيب رجل محمد ﷺ شوكة.

رفع على الخشبة وأحاط به المشركون وهو يقول: اللهم إني لا أجد من يبلغ نبيك عني السلام فبلغه عني السلام.

النبي ﷺ في المدينة قام على قدميه وقال: وعليك السلام يا خبيب[1].

---

(١) في هامش البحار ٢٠: ١٥٣ فقال رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه وقد أخذته غمية: وعليه السلام ورحمة الله، ثم قال: هذا جبرئيل يقرئني من خبيب السلام.

بقيت خشبته مصلوبة أربعين يوماً، وبعد أربعين يوم قال النبي ﷺ: من يأتيني بجثة خبيب إنه قتل في مكة وجثته معلقة منذ أربعين يوماً، فقام الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندي، قال المقداد: أنا يا رسول اللّه وهذا أخي الزبير أسدان رابضان.

قال: سيرا، فجعلا يسيران في الليل ويكمنان في النهار إلى أن دخلا ليلاً إلى مكة وإذا بجثة القتيل خبيب معلقة، فصعد الزبير بعد أربعين يوماً وإذا جثة خبيب رطبة تتثنى كأنه الآن قتل، ويده على جراحاته يرفع يده عن جراحاته فيبض الجرح دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، أنزله ووضعه المقداد أمامه على جواده. وحراس الجثة الأربعون نشوى سكارى. وبعد أن ذهب السكر التفتوا فلم يجدوها.

تصايحوا: أين الجثة؟ فزعت مكة بأجمعها: أدركوهم، تناوشوا بالقتال، المقداد واضع الجثة أمامه على ظهر الجواد، الزبير يدافع، صاح ويحكم يا أهل مكة أنا الزبير بن العوام وهذا أخي المقداد أسدان رابضان إن شئتم نازلناكم وهم يزدادون عليه.

نظر المقداد أن لا طاقة له بأن يحمي الجثة ويقاتل فرماه إلى الأرض بمجرد أن رماه إلى الأرض وإذا بالأرض انشقت وابتلعته (١).

فالتاريخ يسمى خبيب بليع الأرض.

الآن لما تطلب ترجمته في التاريخ، عاصم بن ثابت حمي الدبر وخبيب

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣٩٧ ـ ٣٩٨ باختلاف، والسيرة النبوية ٢: ١٦٩ ـ ١٧٦، والكامل في التاريخ ٢: ١٠٨، مختصراً، وفي بحار الأنوار ٢٠: ١٥٠ ـ ١٥٥.

بن عدي الأوسي بليع الأرض، هذا قليل من كثير من كراماتهم وكم لشهداء الفضيلة من كرامات بعد موتهم واستشهادهم.

هذا أمير المؤمنين شهيد المحراب وكراماته لا يخرج كتاب عن عظماء العالم إلا ويُصدَّر بالإمام عليه السلام، ولم يكتب مؤلف عن الخالدين إلا علي بن أبي طالب عليه السلام في أول صفحاته.

وانظر إلى قبره الشريف عليه ما لا يحصى من الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة وأطنان الذهب، ولا يمر يوم إلا وألوف الزائرين من شرق الأرض وغربها تزوره وتصلي عنده وحتى الجنائز تحمل من كل مكان للدفن عنده، يأتونه أحياء وأمواتاً. الملوك الذين دفنوا عند رجليه أكثر من عشرة ملوك يتبركون ويتشرفون بجواره، الوزراء بالعشرات، أكبر مقبرة إسلامية في العالم عنده.

جاء السلطان سليمان القانوني هذا الذي دوخ أوربا وفتح قسماً منها ووقف على باب فينا، التاريخ يحدثنا عندما فرغ من فتح أوربا جاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ثم توجه إلى النجف، من أربعة فراسخ يرى الناظر القبة تلمع، التفت إلى حاشيته ووزرائه وخاصته وكُتّابه فقال: ما هذا النور الذي شاهدناه؟ قالوا: قبة الإمام علي عليه السلام، قال: أخذتني الرعدة، أريد أن أنزل فتملق إليه أحد وزرائه قال: علي بن أبي طالب خليفة من خلفاء المسلمين وأنت خليفة من خلفاء المسلمين وعلي بن أبي طالب خليفة ميت وأنت خليفة حي، والحي أفضل من الميت. فقال: أعطوني القرآن، فأعطوه، فاستفتح

بالمصحف وإذا الآية: ﴿اخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[١] فنزل عن ظهر فرسه وقال: الآية تأمرني أن أخلع نعلي فأمر بضرب عنق ذلك الذي تكلم بتلك الكلمة، وجاء وعفّر وجهه بعتبة الإمام، وهو يقول:

تزاحم تيجان الملوك ببابه ... ويكثر عند الاستلام ازدحامها

إذا ما رأته من بعيد ترجلت ... وإن هي لم تفعل ترجل هامها

اعتبروا يا أولي الأبصار!

وهذا الإمام الحسين عليه السلام حاول يزيد وابن زياد وابن سعد أن لا يبقوا جسداً للحسين خشية أن يبقى ويأتي إليه شيعته ويزورونه، قطعوه بحوافر الخيل حتى لا يبقى له جسد وطافوا برأسه، وطافوا بسباياه ولكن أبى اللّٰه إلا أن يظهره[٢].

أيها المؤمن قسماً باللّٰه العظيم لو أن كل قطرة من دم الحسين عليه السلام في مكان لأصبح مزاراً. لذلك ترى مزاراً للحسين عليه السلام بالشام لرواية أن رأس الحسين عليه السلام هناك، ومزاراً للحسين عليه السلام بمصر لرواية أن رأس الحسين عليه السلام هناك[٣]. زيارة واحدة أيها الشيعي للحسين عليه السلام في كربلاء تسمى زيارة الأربعين[٤] يوم وصول عائلة الحسين عليه السلام إلى كربلاء من الشام ومعهم

---

(١) طه: ١٢.

(٢) انظر: مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٩، في مقتل الحسين.

(٣) مقتل الحسين ٢: ٧٥ حيث ذكر: ان رأس الحسين عليه السلام صلب بدمشق ثلاث أيام ومكث في خزائن بني أمية.

(٤) بحار الأنوار ٩٨: ٣٢٩ ب (٢٥) زيارة الأربعين.

رؤوس الشهداء هذه الزيارة يشهدها الألوف من شرق الأرض وغربها. ويقول بعض الشعراء وهو ابن الجوزي:

لا تطلبوا رأس الحسين بشرق أرض أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرجوا نحوي فمدفنه بقلبي

إلى آخر ما هناك عن يوم الأربعين.

ترى العاصمة الأموية بالشام مزاراً للحوراء زينب عليها السلام قبة بيضاء بناها السلطان عبدالحميد، مزار بالشام لمشهد الرؤوس وضعت فيه رؤوس الشهداء تجد له حرماً وصحناً.

الحاج مهدي النبهاني من تجار النجف الأشرف سكن الشام قديماً وتفرغ لتعمير حرم السيدة زينب عليها السلام فأنفق أموالاً طائلة من عنده مضافاً لما جمعه من الزائرين وجدد بناء الحرم والصحن الشريف فجاء آية في الإبداع والزخرفة، توفي رحمة اللّٰه عليه ودفن في حجرة في مدخل الصحن الزينبي شكر اللّٰه مساعيه وجهوده الجبارة في خدمة أهل البيت وكثر اللّٰه أمثاله من أهل الخير وبارك اللّٰه فيه، له اليد الطيبة في تعمير هذه المشاهد المشرفة.

اعتبر أيها السامع: زينب الأسيرة وإذا ترى لها هذا الصحن الواسع، وهذه الأنوار والصندوق المطعم بالعاج والشباك الفضي والأبواب الذهبية وأعظم من هذا كله أن حرمها الطاهر ممتلئ بالزائرين صباحاً ومساءً من جميع أقطار العالم الإسلامي، هذه الأسيرة في العاصمة الأموية لها هذا الشأن فكيف لو كان قبر الحسين عليه السلام بالشام؟!

اسمع وانظر واعتبر: داخل الشام في سوق العمارة قبر السيدة رقية لها

مـن العمـر سـبع سـنين، هـذه كانت متولعة بأبيها الحسين عليه السلام كلما يجلس الحسـين للطعام تجلس إلى جانبه، كلما يريد الحسين عليه السلام يصلي تركض تأتي بالمصـلى تمـده للحسـين عليه السلام. طفلـة صغيرة ومن يوم عاشوراء تسأل عمتها: عمـة أين أبي؟ تقول لها زينب عليها السلام: بنية أبوك غائب، تقول: عمة متى يأتي، ما جاءت رسالة منه؟ متى يأتي أبي، تقول: عن قريب يأتي فتفرح الطفلة.

بالكوفة هكذا، بطريق الشام هكذا، بالشام هكذا، بالدار الخربة نامت الطفلـة فـرأت أباها في المنام من كثرة ما تفكر به انتبهت نصف الليل قالت: عمة إلى متى تعدينني بأبي؟ عمة رأيت أبي بالمنام.. الآن أريده.

مـا استطاعت زينـب أن تصـبر انتحبـت، فانتحبـت العـيال والأطفال اعتلـت ضـجة عظيمة عند عيال الحسين عليه السلام، وصلت الضجة إلى دار يزيد، والوقـت منتصـف اللـيل، قـال: مـاذا حصـل عند عيال الحسين؟ قالوا: طفلة للحسين عمرها سبع سنوات رأت أباها في المنام انتبهت تبكي، قال: احملوا لها رأس أبـيها، حمـل الرأس والطفلة تبكي فما شعرت إلا ورأس أبيها بين يديها شـهقت ووقعـت على رأس أبيها سمع منها كلمة: أبي من الذي قطع رأسك؟ أبي من الذي خضب شيبك بدمك، وخفي صوتها.

العبودية للظالمين

قال علي عليه السلام في بعض خطبه بعد أن أظهر شيئاً من ملالة قلبه من عصيان أهل العراق ونفاقهم، وبعد أن أخبرهم بما سيلاقونه بعده مكافأة على عملهم هذا معه وحرمانهم من هذه النعمة العظمى التي بأيديهم وابتلائهم ومقهوريتهم تحت حكم بني أمية:

((ويسومونكم سوء العذاب)). ثم يقول بعدها: ((وأيم اللّٰه لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي))(١).

وفي عدوله عليه السلام عن التعبير بالولاة إلى التعبير بالأرباب ما يفيد هذا المعنى أيضاً وهو مستمد من النبوي المتواتر في الأمة: ((إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا كتاب الله دخلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً))(٢)

قال في مجمع البحرين: إن المراد من كلمة خول هم العبيد، وعممها في القاموس حتى على النعم والمواشي، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ١٥٦ من خطبة له عليه السلام، رقم الخطبة [١٩٣].

(٢) دلائل النبوة ٦: ٥٠٧، و٥٠٨، ومسند أبي يعلى ١١: ٤٠٢، ح٦٥٢٣، ومستدرك الحاكم ٤: ٤٨٠، وتفسير القمي ١: ٥٢، وكتاب سليم بن قيس: ١٥٤، وبحار الأنوار ٣٣: ١٥٧ باب كتبه عليه السلام إلى معاوية.

(٣) الأنعام: ٩٤.

وحاصل مفاد هذا الحديث الشريف المتضمن للأخبار الغيبية هو أنه إذا بلغ عدد بني العاص ثلاثين بدلوا دين اللّٰه تعالى بالدولة واتخذوا عبيد اللّٰه عبيداً لهم، وإما وقد عنى ﷺ في هذا الحديث الذي هو من دلائل النبوة مبدأ تحويل السلطة الإسلامية من النحو الثاني إلى النحو الأول أي من الولائية إلى التملكية واغتصاب رقاب المسلمين وناطه ﷺ بكمال هذا العدد المشوم.

وكذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة أطول خطب أمير المؤمنين وهي عدة فصول في المواعظ والزواجر وأمثالهما من الرذائل التي كانت قد فشت بين شبان أهل الكوفة فوعظهم بهذه الخطبة، وهي محققة ومفسرة في مصادر نهج البلاغة، وقال في شرح محنة بني إسرائيل وابتلائهم بأسر الفرعونيين وتعذيبهم:

((اتخذتهم الفراعنة عبيداً)) ثم فسرها بقوله: ((فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع))(١).

وكذلك يقول عليه السلام في تلك الخطبة في استيلاء الأكاسرة والقياصرة على بني إسرائيل وبني إسماعيل: ومع أنهم ما كانوا مدعوين إلى دعوى ألوهية ولا إلى عبادة أحد، وما كانوا مبتلين ومقهورين إلا باستعباد مسائلهم الواسعة في الشامات وأطراف دجلة والفرات، ومطرودين إلى صحراء قاحلة ليس فيها ماء ولا كلأ كما هي سيرة الجائرين في كل الأعصار والأمصار.

---

(١) نهج البلاغة: ٣٤٤ من خطبة له عليه السلام تسمى القاصعة في عصبية الملل.

نعـم مـع هذا نرى الأمير عليه السلام يسمي هذه المحنة بالعبودية ويعرف هذه المقهوريـة بالربوبـية القاهـرة فيقول: ((ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهـم يجـتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ومهافي الريح ونكد المعاش))[١] .

وقـال في خطبة أخرى بعد أن أظهر شيئاً من ملالة قلبه من عصيان أهل العـراق ونفـاقهم وبعد أن أخبرهـم بما سيلاقونه بعده مكافأة على عملهـم هذا معـه حـرمانهم مـن هذه النعمة العظمى التي بأيديهم وابتلائهم ومقهوريتهم تحـت حكم بني أمية: ((فساموهم سوء العذاب))[٢]، ثم يقول بعدها: وأيم اللّه لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي))[٣].

وفي عدولـة عليه السلام عـن التعبير بالولاة إلى التعبير بالأرباب ما يفيد هذا المعنى وهو متحد المفاد مع النبوي السابق المتواتر بين الأمة: ((إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين)) وكذلك نرى سيد المظلومين الحسين عليه السلام يعد الانقياد لحكم دعـي بني أمية من باب ذل العبودية ويقول في جواب أرجاس أهل الكوفة وقد عُـرِض علـيه الـنزول عـلى حكـم بـني عمه: ((واللّه لا أعطيكم بيدي إعطاء الذلـيل ولا أقـر لكـم إقـرار العبـيد، وهيهات هيهات منا الذلة، أبى اللّه لنا

---

(١) نهج البلاغة: ٣٤٥، في خطبتة عليه السلام في الاعتبار بالأمم، وتسمى القاصعة.

(٢) نهـج البلاغة: ٣٤٤، في خطبة لـه عليه السلام وفيها ينبه أمير المؤمنين على فضله وعلمه، وبين فتنة بني أمية، رقم الخطبة [٩٣].

(٣) نهج البلاغة: ١٥٦.

ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت، وأنوف حمية ونفوس أبية لا نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام))(١).

باللّه عليك تأمل هذه الجملة وانظر كيف يرى عليه السلام أن طاعة الفجرة والانقياد لحكمهم عبودية محضة؟ وكيف أبت نفسه القدسية ذاك؟!

كيف يلوي على الدنية جيداً لسوى اللّه ما لواه الخضوع

وكيف فدى جميع ما عنده في سبيل حفظ حريته وتوحيد ربه؟! كيف حكم هذه السنة الكريمة لأحرار أمته ونزهها عن شوائب العصبية المذمومة؟!

ولهذا الأمر عينه ترى التواريخ الإسلامية تسمي أصحاب النفوس الأبية المقتدين بهذه السنة المباركة الحاذين حذوه في تضحية ما عندهم أحراراً وإباة الضيم وتعدهم غيضاً من فيض وقطرة من ينبوعه الطاهر.

ونراه هو سلام اللّه عليه يقول للحر بن يزيد الرياحي رضي الله عنه بعد خلعه طوق الرِّقيَّة وخروجه عن ربقة عبودية آل أبي سفيان وإدراكه شرف الحرية وفوزه بالشهادة في ذلك الركب المبارك: أنت حر كما سمتك أمك، أنت الحر في الدنيا والآخرة (٢).

وأيضاً يظهر من الأحاديث الواردة في تفسير الآية المباركة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٩، في مقتل الحسين عليه السلام، وبحار الأنوار ٤٥: ٩ ب (٣٧) ما جرى عليه بعد بيعة الناس ليزيد إلى شهادته وص: ٨٣ نقلاً عن الاحتجاج.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ١٠، في مقتل الحسين عليه السلام.

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[١] وانطباق فقرات آخر دعاء الافتتاح على مندرجاتها وهي: اللهم اجعله الداعي إلى كتابك والقائم بدينك، استخلفه في الأرض كما استخلفت الذين من قبله، مكن له دينه الذي ارتضيته له، أبدله من بعد خوفه أمناً يعبدك ولا يشرك بك شيئاً[٢].

إن المدعو بهذه الكرامة هو الإمام الثاني عشر أرواحنا فداه، وإن المراد بهذا الشرك بالذات الأحدية تقدست أسماؤها هو تلك المقهورية ببيعة طواغيت الأمة والانقياد لطاعة جبابرتها كما يظهر من قوله عليه السلام: ((وليس في عنقي بيعة لطاغية زماني)) إنه يمتاز بذلك فحسب، بل يظهر من الأخبار الصادرة في تفسير الآية المباركة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[٣] الواردة في بيان أن عبادة النصارى لأحبارهم ورهبانهم عبارة عن انقيادها الأعمى لطاعة باباتها وقسيسيها كما أن معبودية السلطان عبارة عن انقياد الأمة لإرادته التحكمية في باب السياسة والملكية. كذلك يكون الانقياد والخضوع لرؤساء المذاهب والملل بعنوان أنه من الديانة معبودية محضة.

والرواية المروية في الاحتجاج المتضمنة ذم تقليد علماء السوء المتبعين

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٨٠ ـ ٥٨١ في دعاء كل ليلة من شهر رمضان من أول الشهر إلى آخره.

(٣) التوبة: ٣١.

أهواءهم الطالبين للرئاسة الدنيوية تفيد هذا المعنى أيضاً. غير أن الاستعباد في القسم الأول مستند إلى القهر والغلبة وفي القسم الثاني مبني على الخداع والتدليس.

واختلاف التعبير في الآيات والأخبار ناتج عن هذا المعنى أيضاً حيث عبر عن القسم الأول (عبدت بني إسرائيل) واتخذتهم الفراعنة عبيداً، وفي القسم الثاني ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

وفي الحقيقة منشأ الاستعباد في القسم الثاني هو تملك قلوب الأمة لا غير. ومن هنا تظهر عندك جودة استنباط بعض علماء الفن حيث قسم الاستبداد إلى سياسي وإلى ديني، وربط كلاً منهما بالآخر وفرضهما توأمين يتوقف حفظ أحدهما على وجود الآخر.

وكما عرفت أيضاً أن قلع هذه الشجرة الخبيثة والتخلص من هذه الرقية الخسيسة لا يكلفنا مؤنة أكثر من التفات الأمة وتنبهها وهو في القسم الأول أسهل منه في القسم. وعلاج هذا في غاية الصعوبة من العسر وربما أدى إلى صعوبة في القسم الأول بالتبع أيضاً، ولولا ما نراه من ائتلاف هاتين التبعيتين لما كان استعباد الأمة وما كان غرض الكليم وهارون بنص الكلام المجيد: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾[1] إلا تخليص رقاب بني إسرائيل من ذل عبودية الفراعنة، وما كان مرادهما إلا أن يأخذا بني إسرائيل معهما أحراراً للأرض المقدسة، وقد كانا ضمنا لفرعون دوام ملكه وبقاء

---

(١) طه: ٤٧.

عـزته عـلى فرض إجابته طلبتهما وأخيراً أهلك اللّٰه فرعون وجنوده وأغرقهم في البحر... إلخ.

الإنفاق

قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

اللغـــة:

النبت: الحشيش وكل ما ينبت من الأرض، يقال: نبت نبتاً ونباتاً، وأنبته الله إنباتاً، وأنبت الغلام: إذا راهق واستبان شعر عانته.

والسنبلة على وزن فنعلة كقوله: أسبل الزرع بمعنى سنبل، والأصل فيه الإسبال وهو إرسال الستر ونحوه، فكما يسترسل الستر بالإسبال يسترسل الزرع بالسنبل؛ ولأنه صار فيه حبا مستور كما يسترسل الإسبال.

والمائة معروفة، يقال: أمأت الغنم إذا بلغت مائة، والمأيُ: الفساد بين القوم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: تقديره مثلُ صدقات الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة، وقيل: تقديره مثل الذين ينفقون كمثل زارع حبة.

وسبيل الله هو الجهاد وغيره من أبواب البر كلها. فالآية عامة في النفقة

---

(١) البقرة: ٢٦١.

في جميع ذلك. وقيل: هي خاصة بالإنفاق في الجهاد فأما غيره من الطاعات فإنما يجزى بالواحدة عشرة أمثالها.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي أخرجت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾ يعني أن النفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يزيد على سبعمائة لمن يشاء. وقيل: معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء.

وروي عن ابن عمر أنه قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: ((رب زد أمتي فنزل قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(١)، قال: رب زد أمتي فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾))(٢).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع المقدرة لا يضيق عنه ما شاء من الزيادة، وقيل: واسع الرحمة لا يضيق عن المضاعفة، (عليم) بما يستحق الزيادة عن ابن زيد وقيل: عليم بما كان من النفقة وبنية المنفق وما يقصده من الإنفاق(٣).

من تتبع آيات القرآن وتدبر معانيها يجد أنها تهتم بأصول ثلاثة:

بث الدعوة الإسلامية، والجهاد، وإنفاق المال في سبيل الله؛ ذلك أن لهذه الأصول أعظم الأثر في تدعيم الإسلام وانتشاره. ولذا حث عليها بشتى

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) الزمر: ١٠.

(٣) مجمع البيان ٢: ١٧٩ ـ ١٨٠ في تفسير سورة البقرة، آية: ٢٦١.

أساليب الترغيب والترهيب وتقدم العديد من آيات الحث على الجهاد وبذل المال وآيات كثيرة غيرها.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ﴾ ... إلخ.

تساءل المفسرون كيف ضرب اللّه مثلاً بحبة تنتج هذا الإنتاج مع العلم أنه لا وجود لها؟ وأجاب بعضهم أجاب بأن المثال كناية عن الكثرة لا تعبيراً عن الواقع.

وقال آخر: إنه مجرد فرض أريد منه أن العاقل إذا علم أن بذرته تعود بسبعمائة ضعف يقدم ولا يحجم.

وليس من شك أن المفسرين استبعدوا هذا المثال لأنهم قاسوا الزراعة من حيث هي على الزراعة في العصر الذي عاشوا فيه حيث لا وسيلة لها سوى الثور والحمار والمعول والمسحاة، ولو كانوا في هذا العصر لم يروا في مثال اللّه أي غرابة بعد أن دخل العلم إلى كل شيء واستعملت أدواته في الزراعة وفي كل مظهر من مظاهر الحياة.

هذا وإن عطاء ربك لا ينضب ولا تحصيه كثرة ولا يضيق على من يرتضي من عباده، فالسبعمائة ضعف ليست حداً أعلى لفضله وعطائه ولذا قال: ﴿وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وكما تقبل لسبعمائة ضعف الزيادة فإنها تقبل النقصان أيضاً حيث يراعى حال الباذل ومورد الشيء المبذول فرب درهم واحد ممن يحتاج إليه يكون أعظم أجراً عند اللّه من ألف ممن هو في غنى عنها. وأيضاً درهم واحد يبذل في إعلاء شأن الحق والتربية على الدين والأخلاق أو يبذل في إسعاد

الناس وخلاصهم من الظلم والفقر هذا الدرهم الواحد الذي يبقى أثره ويدوم نفعه زمناً طويلاً أفضل مليون مرة من ألوف تعطى لمن ينفقها على ترف أبنائه وأزواج بناته(١).

من السنة الشريفة قال ﷺ: ((من انفق نفقة في سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف))(٢).

وقال عليه السلام: ((ولأن أعول أهل بيت من المسلمين أشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكف وجوههم عن الناس أحب إليّ من أن أحج حجة وحجة وحجة حتى انتهى إلى عشر وعشر...))(٣).

مشكلة الفقر:

مشكلة الفقر والفقير لا تقل خطورة عن بقية المشاكل التي تهدد كيان المجتمع وتنخر فيه. ولذلك تصدى الإسلام لها فأولاها اهتماماً خاصاً فوضع لها حلولاً دقيقة ليجنب الأفراد ويلات الفقر فإن البطون إذا جاعت والحاجة إذا ألحت فقد يخرج الإنسان من طوره ويصبح كالوحش الكاسر لا تقف أمامه أي عقبة من العقبات.

لقد تناول الشرع الإسلامي هذه المسألة فرسم لها الخطوط العريضة واعتمد فيها على الأسس الرصينة ليخفف بذلك الضغط عن الطبقات

---

(١) التفسير الكاشف ١: ٤١١ ـ ٤١٢، في تفسير سورة البقرة، آية: ٢٦١ ـ ٢٦٣.

(٢) سنن النسائي ٦: ٤٩، ومسند احمد ٤: ٣٤٥، وسنن البيهقي ٣: ٣٧٤، وج٩: ١٧١.

(٣) الكافي ٤: ٥ ب (١) فضل الصدقة، ح٣، وعنه بحار الأنوار ٧١: ٣٢٩، ح١٠٠.

الضعيفة بأن جعل لهم حقاً من أموال الأغنياء، ويتمثل هذا الحق بجعل الضرائب الإلزامية والنفقات التطوعية وبتطبيق هذا القانون لم يبق فقير يعاني ما يخلفه الفقر من مصاعب وحرمان.

وليس المقصود بالفقير المتسول الذي يتخذ التكفف حرفة ومكسباً يكيف به حياته، يلاحق الناس بيد ممدودة من شارع إلى آخر ومن زقاق إلى زقاق ليس هذا الإنسان موضوع بحث لأنه إنسان لا يستحق أن يبحث عن مشكلته بل موضوع البحث هو الفقير العاجز عن العمل أو القادر الذي لم تساعده الظروف على إيجاد عمل يؤمن له معائشه أو من يعول به، هذا الإنسان العاجز هو الذي يشكل خطراً على المجتمع لو ترك على هذه الحال ولم تؤخذ مشكلته بعين الاعتبار.

ذلك لأن مثل هذا الإنسان قد لا يطيق صبراً ليواجه هذا النوع من الحرمان فيضطر بالأخير إلى ارتكاب الجرائم ليحصل من وراء ذلك على المال ولقمة العيش.

ولست بحاجة لذكر الكثير من المشاهد التي تمثل الفقر والتي تكون السبب في إشاعة الفوضى والجريمة من فتىً عاطل، وقد غلقت في وجهه الأبواب، أو كبير أقعدته الأيام، أو أم فقدت كفيلها بعد أن ترك لها رعيلاً من الصغار، أو فتاة محافظة على عفافها ولكنها تواجه من لا يرحمها إلا بتقديم أعز ما لديها هدية رخيصة إليه.

وقد تستقبل أرصفة الشوارع صنوفاً ألفوا إليها يفترشونها إذا داهمهم الليل يلقون بين منعطفاتها أجساداً أنهكها التسول تاركين لعيونهم أن

يداعبها الكرى وطائف يطوف عليهم يناغيهم بصوت ألفوا نغماته في مثل هذا الوقت من الليل وهو يقول:

نـــامي فـــإن لم تشـــبعي   مـــن يقظـــة فمـــن المـــنام

هـذا الحشـد مـن المساكين ماذا يقال لهم لو أقدموا على الجريمة، فسرق بعضهم، وباع كرامته آخر، وتطاول ثالث فقتل نفساً محترمة، عندها تجد أنفساً تؤمن شاءت أم أبت بالحديث الذي يقول: ((كاد الفقر أن يكون كفراً))[١].

بالإنفاق تزول الجريمة:

ولكن سرعان ما تتلاشى هذه الصور إذا ما استجاب الميسرون لنداء القرآن والسنة فأدّوا ما عليهم من الحقوق إلى الفقراء والمستحقين وأقرضوا اللّه قرضاً حسناً وأنفقوا في سبيل اللّه. وفي هذه الحالة لا يبقى مجال للجريمة بل يعود الجميع إلى حضرة الإسلام وهم يطيقون تعاليمه وبذلك يؤمنون لمجتمعهم السعادة والرفاه وبعدها يقف الإسلام في وجه من تسول له نفسه أن يرتكب الجريمة لينزل به العقوبات الصارمة لأن الجريمة في هذه الصورة لا تكون وليدة الحاجة ليعذر في بعض الصور من يرتكبها لو خاف على نفسه من الوقوع في التهلكة، بل هي وليدة النفوس الشريرة الخبيثة، ولذلك لا ترحم القوانين السماوية والوضعية مثل هؤلاء، بل تلاحقهم لتستأصل مادة الفساد باقتلاع جذر الجريمة ولإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج أفعال قهرية في

---

(١) بحار الأنوار ٧٠، ٢٥٧ ب (١٣١) الحسد، ح٣١.

توجيه الإنسان إلى الخير والخاتمة الحسنة والجزاء من اللّٰه تعالى، والذكر الجميل.

وهناك فقراء في كل زمان يحل لهم أكل الميتة فمن أغاثهم عوضه اللّٰه في الدنيا والآخرة.

وقد قال الرسول ﷺ: ((ولأن أعول أهل بيت من المسلمين وأشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكف وجوههم عن الناس أحب إلي من أن أحج حجة وحجة وحجة))(١).

فقسم من الناس من يدمن الحج سنوياً، ولا مانع ففي ذلك ثواب عظيم كما في الدعاء: ((وارزقني حج بيتك الحرام في عامي هذا وفي كل عام))(٢)، أما عنده في عشيرته أو في بلده أناس جوعى أليست إغاثتهم عند اللّٰه أفضل كما نص الحديث عن النبي ﷺ: ((لأن أعول أهل بيت من المسلمين...إلخ)).

مجوسي يكرم علوية:

قال: ذكر في كتاب منهاج اليقين من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام: قال عمن رواه وقع في بعض السنين ملحمة بقم وكان بها جماعة من العلويين فتفرق أهلها في البلاد، وكان فيها امرأة علوية صالحة... وكان لها أربع بنات صغار من ابن عمها أصيب في تلك الملحمة فخرجت مع بناتها... فقدمت إلى بلخ أيام الشتاء... فبقيت متحيرة لا تدري أين تذهب، فقيل لها: إن في البلدة رجل من أكابرها معروف بالإيمان والصلاح يأوي إليه الغرباء، وأهل المسكنة

(١) الكافي ٤: ٥ ب (١) فضل الصدقة، ح٣، وعنه بحار الأنوار ٧١: ٣٢٩، ح١٠.

(٢) مفاتيح الجنان: ١٧٩ في دعاء الافتتاح.

فقصدت إليه العلوية وحولها بناتها فلقيته جالساً على باب داره وحوله جلساؤه غلمانه فقالت له: إني امرأة علوية وأنا وبناتي قدمنا هذه البلدة وليس لنا من نأوي إليه، فقال: ومن يعرف أنك علوية آتني على ذلك بشهود، فلما سمعت كلامه خرجت من عنده باكية وبقيت واقفة في الطريق متحيرة فمر بها رجل سوقي فقال: ما لك أيتها المرأة واقفة والثلج يقع عليك وعلى هؤلاء الأطفال معك؟ فقالت: أنا امرأة غريبة فقال: امضي خلفي حتى أدلك على الخان الذي يأوي إليه الغرباء، فمضت خلفه وكان بمجلس ذلك الملك رجل مجوسي، فلما رأى العلوية وكيف ردها وطلب منها الشهود وقعت الرحمة في قلبه فقام مسرعاً في طلبها فلحقها وأخذها إلى منزله فأفرد لها بيتاً من خيار بيوته وجاء لها بالنار والحطب وحدث امرأته بقصتها مع الرئيس.

ولم تزل امرأته وجواريه يخدمنها، فلما دخل وقت الصلاة قالت العلوية للمرأة ألا تقومين إلى قضاء الفرض؟ فقالت: أنا امرأة مجوسية ولسنا على دينكم وزوجي مجوسي لكن وقع حبك في قلبه لأجل اسم جدك، فقالت العلوية: اللهم بحق جدي وحرمته عند اللّه أسأله أن يوفق زوجك لدين جدي.

ثم قامت العلوية إلى الصلاة والدعاء طول ليلتها بأن يهدي اللّه ذلك المجوسي لدين الإسلام.

فلما أخذ المجوسي مضجعه ونام مع أهله تلك الليلة رأى في منامه أن القيامة قد قامت والناس في الحشر وقد أخذهم العطش والمجوسي في أعظم ما

يكـون مـن ذلـك فأتى إلى النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وهم يسقون من حوض الكوثـر وعلـي عليه السلام واقـف عـلى شـفير الحـوض وبيده الكأس والنبي ﷺ جـالس وحولــه أهـل بيته عليهم السلام فطلب المجوسي منه الماء، فقال لـه علي: إنك لست على ديننا فنسقيك، فقال النبي ﷺ: يا علي اسقه إنه آوى ابنتك فلانة وبناتها فكنّهم ـ أي دفاهم ـ وحفظهم عن البرد وأطعمهم من الجوع وها هي الآن في منزله مكرمة.

قـال علـي عليه السلام: ادنُ مـني، قـال المجوسي: فدنوت فناولني الكأس بيده فشـربت منه شربة وجدت بردها على قلبي فانتبه المجوسي وهو يجد بردها على قلبه ورطوبتها على شفتيه فانتبه مرتاعاً وجلس فزعاً.

فقالـت لـــه زوجـته: ما شأنك؟ فحدثها بما رأى وأراها رطوبة الماء على لحيـته وشفتيه، فقالت: يا هذا إن اللّه ساق إليك خيراً بما فعلت مع هذه المرأة الصالحة العلوية والأطفال العلويات. قال: نعم، واللّه لا أطلب أثراً عين.

فقـام الـرجل وأسرج الشمع وخرج هو وزوجته حتى دخل على البيت الذي تسكنه العلوية وحدّثها بما رآه، فسجدت للّه شكراً وقالت: واللّه إني لم أزل لـيلتي هـذه أطلـب مـن اللّـه هدايتك للإسلام والحمد للّه على استجابة دعائي فيك.

فقـال لهـا: اعرضي عليّ الإسلام فعرضته عليه فأسلم هو وزوجته وجميع من في بيته.

وأما ما كان من أمر الملك فإنه رأى تلك الليلة مثل ما رأى المجوسي وأنه أقـبل إلى الكوثر وقال: يا أمير المؤمنين اسقني فإني ولي من أوليائك، فقال لـه

علي عليه السلام: اطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله فإني لا أسقي أحداً إلا بأمره، فطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: إني ولي من أوليائكم، فقال صلى الله عليه وآله: ائتني بشهود على ذلك، فقال: يا رسول الله كيف تطلب مني الشهود دون غيري من أوليائكم؟ فقال صلى الله عليه وآله: كيف طلبت الشهود من ابنتنا العلوية لما أتتك.

ثم انتبه وهو حران القلب شديد الظمأ وقد وقع في الحسرة والندامة على ما فرط منه في حق العلوية. وقصدها إلى دار المجوسي وطرق الباب، فقال المجوسي: من بالباب؟ فقيل له: فلان الملك وقف ببابك يطلبك، فخرج إليه مسرعاً فلما رآه الملك وجد عليه الإسلام ونوره، وقال الرجل للملك: ما سبب مجيئك إلى منزلي؟ فقال: من أجل هذه المرأة العلوية وقد جئت في طلبها ولكن أخبرني عن حال هذه الحلية عليك فإني أراك قد صرت مسلماً، قال: نعم ببركة هذه العلوية ودخولها منزلي بالاسلام فصرت أنا وأهلي وبناتي وجميع أهل بيتي مسلمين على دين محمد وأهل بيته فقال: وما السبب في ذلك؟ فحدثه بحديثه.

ثم قال: وأنت أيها الملك ما السبب في حرصك على التفتيش عنها بعد إعراضك أولاً عنها وطردك إياها؟ فحدثه الملك بما رأى وما وقع له مع النبي محمد صلى الله عليه وآله.

ثم دخل الرجل على العلوية وأخبرها بحال الملك فبكت وخرت ساجدة للّه شكراً على ما عرفه من حقها فاستأذنها في إدخاله عليها؟ فأذنت له فدخل وحدّثها بما جرى له مع جدها صلوات الله عليه وآله وسألها الانتقال إلى منزله، فأبت، فقال لها صاحب المنزل: إني وهبتك هذا المنزل وما أعددت

فيه من الأبهة وأنا وأهلي وبناتي كلنا في خدمتك.

فأتى الملك بيته وأرسل إليها ثياباً وهدايا كثيرة وجملة من المال فردت ذلك ولم تقبل منه شيئاً[١].

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى كثير وإن الواصلين قليل

وقد روى العلامة في كتابه منهاج اليقين بإسناده إلى عبدالله بن المبارك قال: كنت ولعاً بحج بيت الله الحرام شديد المداومة في كل عام على حضوره وفي بعض السنين لما قرب التأهب للحج تأهبت أنا أيضاً وشددت على وسطي كيساً فيه خمسمائة دينار وخرجت إلى سوق الإبل لأشتري جمالاً للحج فلم يقع في يدي ما يصلح للطريق فرجعت إلى المنزل فرأيت في الطريق امرأة جلست على مزبلة وقد أخذت دجاجة ميتة كانت على الكناسة وهي تنتف ريشها من حيث لا يشعر بها أحد فوقفت قريباً منها فقلت: لِمَ تفعلين هكذا يا أمة الله؟ فقالت: امضِ لشأنك واتركني، فقلت سألتك يا أمة الله إلا ما أعلمتيني بحالك؟.

فقالت: نعم، إذ ناشدتني بالله، اعلم أني امرأة علوية ولي ثلاث بنات علويات صغار وقد مات قيمنا ولنا ثلاث ليالٍ بأيامهن على الطوى لم نأكل شيئاً، فلم يقع في يدي غير هذه الدجاجة الميتة فأردت إصلاحها لنأكلها وقد حلت لنا الميتة.

فلما سمعت ما قالت: وقف شعري واقشعر جلدي، وقلت في نفسي: يا

---

(١) عوالي اللآلئ ٤: ١٤٢ ـ ١٤٧، وعنه بحار الأنوار ٩٣: ٢٢٥، ح٢٧.

بـن المـبارك أي حج أعظم من هذا؟ فقلت لها: أيتها العلوية إن هذه الدجاجة قـد حرمـت علـيك وافـتحي حجرك حتى أعطيك شيئاً من النفقة، ثم حللت الكـيس وصـببت الدنانير في حجرها بأجمعها. فقامت مسرورة وهي عجلة ثم دعت لي بخير.

فرجعـت إلى مـنزلي ونـزع اللّـه إرادة الحـج مـن قلـبي فلزمـت منزلي واشـتغلت بعـبادة اللّـه تعـالى وخرجت القافلة إلى الحج، فلما قدم الحاج من مكـة خرجـت للقـاء الحجاج والإخوان فصافحتهم فلم ألق واحداً ممن يعرفني إلا وهـو يقول: يا بن المبارك ألم تكن معنا؟ ألم نشاهدك في موضع كذا وموقف كذا.

فعجبـت مـن ذلـك، فلما رجعت إلى منزلي وبت تلك الليلة رأيت في مـنامي رسـول اللّـه ﷺ وهـو يقـول: يـا بن المبارك إنك لما أعطيت الدنانير لابنتـنا وفرجـت كربـتها وأصلحت شأنها وشأن أيتامها بعث اللّه تعالى ملكاً عـلى صورتك فهو يحج عنك في كل عام فما عليك إن حججت بعد أو لم تحج فإن ذلك الملك لا يترك الحج عنك إلى يوم القيامة.

فانتبهت وأنا أحمد اللّه على هذا التوفيق.

قـال الـراوي: ولقـد سمعت من كثير من المحدثين يذكرون أن الحجاج في كل عام يشاهدون ابن المبارك بمكة يحج مع الحجاج وإنه لمقيم بالعراق(١).

---

(١) عوالـي اللآلـئ ٤: ١٤٠ ـ ١٤٢،وتذكـرة الخـواص: ٣٦٧، وارشاد القلوب ٢: ٤٤٣ بتفاوت يسير.

لإغاثـة المـلهوف أثـار قهرية تكون سبباً لنجاح الإنسان وفوزه بالسعادة الأخـروية ومـن هنا نعرف أن من أحسن إلى ذرية رسول الله ﷺ أحسن إلى رسول الله ﷺ، ومن آذاهـم آذى رسول الله ﷺ.

الفهرست